

كشف المحجوب

للهجويري

(ت ٤٦٥ هـ)



المكتبة الصوفية

كشف المحجوب

للهجويري

(ت ٤٦٥ هـ)

ترجمة

محمود أحمد ماضي أبو العزائم

ضبط وتحقيق

الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار

توفيق علي وهبة

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد ـ القاهرة
ت/ ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الهجويري ، كشف المحجوب / للهجويرى ، ترجمة محمود احمد ماضي ابو العزائم ، ضبط وتحقيق احمد عبد الرحيم السايح ، توفيق على وهبة
- ط ١ ـ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٧
٤٠٠ص، ٢٤سم
تكمك : 977-341-342-x
أ- التصوف الاسلامى
ب-السايح ، احمد عبد الرحيم (ضابط ومحقق)
ج- وهبه، توفيق على (ضابط مشارك)
د- العنوان
ديوى : ٢٦٠

رقم الايداع : ٢٠٠٧/١٤٩٩٤

مقدمة



التحقيق



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، الذى أنعم على المسلمين بنعمة السلوك والمجاهدة فى سبيل الله.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وقدوة أهل الحق، ومنارة السائرين والقاصدين.

وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحابته أجمعين.

فقد التقى المستشار توفيق على وهبة والدكتور أحمد عبد الرحيم السايح على مائدة العلم والتعارف فى النصف الثانى من الستينيات ومن وقتها واللقاء مستمر فى العمل على نشر الكلمة الطيبة، ووصل التفكير إلى العمل على تنقية كتب التراث مما دخل عليها من مذاهب غنوصية وأساطير وحكايات ومرويات بعيدة كل البعد عن كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد أتخذنا لذلك منهجا يقوم على دعامتين:-

أولاً: ما خالف الكتاب والسنة أو أحدهما ضربنا عنه صفحا واستبعدناه وأشرنا إلى ذلك فى مواضعه.

ثانيًا: ما لم يخالف الكتاب والسنة وكان موضع خلاف نبهنا عليه وبينا وجه الصواب فيه.

لأن الشوائب والاسرائيليات التي دست فى هذه الكتب أساءت إلى التصوف وأمدت أعداءه بالسلاح الذى يهاجمونه به.

بل إن هذه المدسوسات والموضوعات والإسرائيليات والاختلاقات التى دست فى كثير من كتب التراث أساءت إلى الإسلام نفسه.

ومن هنا كان استقرار رأينا على المضى قدما فى تحقيق وتدقيق وتنقية كتب التراث فكان هذا المشروع الذى أشرنا إليه.

وكان نتيجة هذا العمل صدور ما يقارب الخمسين كتابًا منقاة منتقاة عمل على نشرها الحاج / أحمد أنسى صاحب دار مكتبة الثقافة الدينية. وهناك دور نشر أخرى تساهم باقتدار.

وقد دار بين الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق على وهبة والحاج أحمد أنسى - حديث عن كتاب «كشف المحجوب» للهجويرى. وحاجة الأمة الإسلامية إليه. باعتبار أنه من آليات إيقاظ الأمة وربطها بالأصالة، والأمة فى نهوضها فى حاجة إلى آليات وأدوات فاعلة بانية.

ولما كان كتاب «كشف المحجوب» للهجويرى. قد ترجمه عن الإنجليزية المحدث والكاتب والصوفى الأستاذ/ محمود أحمد ماضى أبو العزائم رحمه الله. كان علينا أن نسأل عن ورثته حتى نحصل على إذن منهم. ووصلنا إلى حفيده المهندس الاستشارى/ محمد محمد البشير ماضى أبو العزائم.

وبدا لنا من الحفاوة والاستقبال أن آل أبو العزائم خصهم الله بمزيد فضله وعطائه. فتلنا من المهندس /محمد محمد البشير ماضى أبو العزائم الإذن والتقدير.

وقد رأت جمعية أولى العزم الدينية مع نهجها فى طبع ونشر التراث الإسلامى أن تعد كتاب كشف المحجوب للطبع والنشر. إذ أنه من أمهات التراث الإسلامى فى بحوث التصوف وتناول مقامات رجال الصوفية بدقة وعمق.

ومؤلف كتاب «كشف المحجوب» هو أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى.

كان عالما من علماء التصوف الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى.

وكان معاصرًا للدولة الغزنوية «٣٨٧ هـ - ٥٨٢ هـ» وتوفى فى عهد السلطان إبراهيم الغزنوى «٤٥١ - ٤٩٢ هـ».

والإمام الهجويرى ولد فى مدينة «غزنة» بالهضبة الأفغانية. ومنها استمد لقبه «الغزنوى» كما يلقب بالهجويرى نسبة إلى «هجوير» من توابع غزنة. ويلقب كذلك بالجلابى نسبة إلى «جلاب» من توابع غزنة أيضًا.

ولم تذكر لنا المعاجم والترجمات تاريخًا لميلاده وإن كان من المرجح أنه ولد أواخر القرن الرابع الهجرى.

وكان الهجويرى محبا للعلم، وكانت مدينة غزنة زاخرة بكبار العلماء. وقد هيأت للهجويرى رحلاته الكثيرة سبل الاتصال بعدد كبير من شيوخ التصوف، وأئمة المذاهب والفرق.

وكان الهجويرى من أوائل الدعاة إلى الإسلام فى شبه القارة الهندية. وقد أسهم فى نشر الإسلام فى تلك المجتمعات.

وكتاب «كشف المحجوب» جاء ردا على سؤال وجهه أحد رفاق الهجويرى إليه وطلب منه فى هذا السؤال أن يبين له طريق الصوفية ومقاماتهم ومذاهبهم وأقولهم.

وقد أجاب الإمام الهجويرى على هذا السؤال إجابة وافية أفادت الناس جميعًا..

ولا زال كتاب «كشف المحجوب» بما اشتمل عليه من أبواب وفصول يفيض بالعطاء، وبيان الطريق.

فهو يشتمل على ١٤ بابا وأحد عشر حجابًا:

والأبواب هى:-

١- إثبات العلم

٢- الفقر.

٣- التصوف.

٤- لبس المرقعة.

٥- أختلافهم فى الفقر والصفوة.

٦- بيان الملامة.

٧- ذكر أئمتهم من الصحابة.

٨- ذكر أئمتهم من أهل البيت.

٩- ذكر أهل الصفة.

١٠- ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار.

١١- ذكر أئمتهم من أتباع التابعين إلى عصر المؤلف.

١٢- ذكر أئمتهم المتأخرين.

١٣- ذكر رجال الصوفية من المتأخرين من أهل البلدان.

١٤- فى الفرق بين فرقهم ومذاهبهم ومقامتهم وحكاياتهم.

أما الحجب الإحدى عشر فهى:

الأول: فى معرفة الله تعالى.

الثانى: فى التوحيد.

الثالث: فى الإيمان.

الرابع: فى الطهارة.

الخامس: فى الصلاة.

السادس: فى الزكاة.

السابع: فى الصوم.

الثامن: فى الحج.

التاسع: فى الصحبة وآدابها.

العاشر: بيان منطقهم وحدود ألفاظهم وحقائق معانيهم.

الحادى عشر: فى السماع وبيان أنواعه.

ويبدو ولنا. أن مجتمعات المسلمين فى أمس الحاجة أن تقرأ تراثها وعمل علمائها لترى كيف كان سلوكهم الذى أدى إلى نشر ثقافة التسامح والاستقرار والإحساس بالسعادة.

المحققان

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق علي وهبة

التعريف بالمترجم

للأستاذ الدكتور جمال ماضى أبو العزائم

رأت جمعية أولى العزم الدينية تمشيًا مع نهجها فى طبع ونشر التراث الإسلامى بصفة عامة ومؤلفات الإمام أبى العزائم بصفة خاصة، أن تعد كتاب (كشف المحجوب) للطبع والنشر إذ أنه من أمهات التراث الإسلامى فى بحوث التصوف وتناول مقامات رجال الصوفية بدقة وعمق قد يتعذر على غير مؤلف هذا الكتاب تناولها بهذه الافاضة وجدية البحث.

وكان من الأسباب الأساسية التى حدت بالجمعية إلى نشر هذا المؤلف وترجمته للعربية بعد نشره بالفارسية والانجليزية، هو الروح والمنهج الذى صيغت به عباراته ومصطلحاته فى الترجمة العربية، وأن القارئ ليلمس ذلك من اطلاعه على هذه الطبعة.

فكان لزامًا أن يتوفر فى من يتعرض لترجمة هذا الكتاب من الانجليزية إلى اللغة العربية خبرة خاصة بقواعد اللغة الانجليزية وتذوق معين لمدلولات الألفاظ التى جاءت فى الطبعة الانجليزية علاوة على إلمام باصطلاحات الصوفية وآدابهم.

الأمر الذى يحدونا أن نضع أمام القارئ الكريم نبذة عن حياة مترجم هذه الطبعة العربية (وهو المغفور له السيد/محمود ماضى أبو العزائم) ليستوضح القارىء الظروف التى مكنت للمترجم أن يعطى هذه الترجمة مزيدًا من روحه ومشاعره المرهفة.

ولد المترجم -رضوان الله عليه- فى عام ١٣٠٧ من الهجرة الموافق ١٨٨٩ من الميلاد ووالده السيد/أحمد ماضى أبو العزائم مؤسس جريدة (المؤيد) هو وزميله الشيخ على يوسف، وكانت أول جريدة إسلامية ظهرت فى مصر فى ذلك الوقت.

نشأ صاحب الترجمة نشأة دينية وطنية فى أسرة أكرمها الله بالانتساب إلى البيت النبوى، ولها تاريخ عريق فى التصوف يمتد إلى جدها الأكبر الإمام أبى العزائم ماضى رفيق الإمام أبى الحسن الشاذلى (رضى الله عنهما).

ومنى المترجم بفقد حنان الأبوة وهو فى سن الخامسة، فانتقل إلى كفالة عمه الامام السيد/ محمد ماضى أبى العزائم، فقام بتنشئته وتربيته تربية دينية، بعد أن حفظ القرآن الكريم وكثيرًا من الأحاديث النبوية، ودرس متون اللغة وآداب الصوفية على يد عمه الذى يعد من أئمة رجال الصوفية فى هذا القرن.

ورافق المترجم عمه الإمام أبى العزائم أيام جهاده بالسودان، وكان رفيقه وموضع سره وسفيره وناقل رسائله إلى الملوك والحكام فى الدول الإسلامية.

وكلفه عمه بترجمة أمهات الكتب التى صدرت باللغة الانجليزية عن المستشرقين من الباحثين فى علوم الدين الاسلامى، الأمر الذى أتاح له مزيدًا من الخبرة والدراية فى هذا المجال علاوة على ما اختصه به عمه الإمام من علوم الدين والتذوق فى فهم رجال الصوفية ومشاربهم.

وذلك مما أتاح للمترجم أن يوضح فى ترجمته كل المعانى والانطباعات التى كان يحس بها ويعيش فيها مؤلف الكتاب فى طبعته الأصلية باللغة الفارسية، ويطوع لها الألفاظ والعبارات العربية المناسبة حتى لا يحرم القارئ لهذه الطبعة العربية من تذوقه المعانى والاشارات الصوفية التى وضعها المؤلف.

وعندما عرضت جمعية أولى العزم الدينية الترجمة العربية للكتاب على السيد الأستاذ محمد نور الدين شربية (رحمه الله) رأى سيادته بثاقب بصيرته أن تراجع الترجمة على الأصل الفارسى للمؤلف، فقام بذلك مشكورًا السيد/ الدكتور إبراهيم دسوقى شتا (مدرس اللغات الشرقية بآداب القاهرة)

فقام سيادته بمطابقة الترجمة للعربية على الأصل الفارسى وتحقيق الكتاب وتقديمه وعمل الفهارس العملية له ووضع أقوال الشيوخ طبقًا لما ورد فى النص الفارسى وذلك بعد أن راجع الترجمة العربية على الترجمة الانجليزية للسيد الأستاذ إسماعيل ماضى أبو العزائم (الموجه الثقافى للغة الانجليزية بوزارة التربية والتعليم).

ورأى المرحوم الدكتور نور الدين شربية أن هذا المؤلف يعتبر ثروة دينية وعلمية، وتفتقر إليه المكتبة العربية، وقام سيادته بعرض الترجمة على فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) فأمر فضيلته أن ينشر ضمن كتب التراث الاسلامى التى يقوم بنشرها الأزهر الشريف.

وإن الجمعية إذ تقدم هذا الأثر الخالد من التراث الإسلامى، نرجو من الله تعالى أن يجازى أحسن الجزاء كل من ساهم فى إخراج هذه الطبعة -ونسأله تعالى بقرائه فقه معانيه، وتذوق أسراره فيما جاء من هدى النبى ﷺ وسنته المباركة.

رئيس مجلس إدارة

القاهرة فى جمادى الأولى ١٣٩٤ — جمعية أولى العزم الدينية

ينـــــاير ١٩٧٤ — (دكتور جمال ماضى أبو العزائم)

صورة إذن ورثة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

نأذن للسادة الدكتور/ احمد السايح
والمستشار توفيق وهبة
باعادة نشر الكتاب وتحقيقه وعلى ترجمه
للسيد/ محمود احمد سالم ابراهيم مترجم الكتاب
من اللغة الانجليزية.

محمد محمد السيد سالم ابو العلا
٢١/ ١٢/ ٢٠٠٦





مقدمة المؤلف

«اللهم أنزل علينا رحمه من عندك ووفقنا لخير العمل»

الحمد لله الذى كشف لأوليائه بواطن ملكوته، وقشع لأصفيائه سرائر جبروته، وأراق دم المحبين بسيف جلاله، وأذاق سر المشتاقين روح وصاله، هو المحيى لموات القلوب بأنوار إدراكه، والمنعش لها براح روح المعرفة بنشر أسمائه، والصلاة على رسوله محمد، وعلى آله وأزواجه من بعده.

قال الشيخ على بن عثمان بن على الجلابى الهجويرى رضي الله عنه:

لقد استخرت الله، ومحوت عن القلب ما كان يعاوده من أغراض النفس، ونهضت استجابة لرغبتك، أسعدك الله وعقدت العزم على إتمام مرادك من هذا الكتاب. وسميته «كشف المحجوب»، ولما كان مقصودك قد صار معلومًا، فقد صار هذا الكتاب برغبتك مقسومًا وأرجو من الله تعالى العون والتوفيق فى إتمام هذا الكتاب، وأبرأ من كل حول لى وقوة، فى القول والفعل، وبالله العون والتوفيق.

فصل:

فى إثبات اسمى فى بداية الكتاب

لقد اضطررت أن أضع إسمى فى بداية هذا الكتاب لسببين: أولهما متعلق بالخاصة، والآخر متعلق بالعامة. أما السبب الأخير فلان كثيرًا من الجهلاء بهذا العلم، عندما يرون كتابًا جديدًا، ليس ممهورًا باسم واضعه، فى كثير من مواضعه، ينسبونه لأنفسهم، وبذلك يسقط غرض المؤلف فى وضعه، إذ أن الكتب تجمع وتؤلف وتكتب، كى يظل اسم مؤلفيها حيًا فى الأذهان، وحتى يدعو طلاب العلم له بالخير.

وقد منيت بهذا الأمر مرتين: إذ استعار أحد الناس «ديوان شعرى» ولم أكن أحتفظ لدى بنسخة أخرى منه، فبدل فيه ثم نشره بين الناس، بعد أن كشط اسمى الذى كان فى المقدمة، وبذلك أضاع مجهودًا عظيمًا على سامحه الله وغفر له.

ثم إنى كنت قد وضعت كتابًا آخر فى التصوف، سميته «منهاج الدين»، انتحله مدع ساقط القول، ومحا اسمى من بدايته، وأبدى للعامة أنه من تأليفه، وبالرغم من أن الخاصة كانوا يهزأون به، حتى عاقبه الله بسوء فعله، ومحا اسمه من ثبت طلاب بابه.

وأما عن السبب المتعلق بالخاصة: فإنهم إذا رأوا كتابًا، وعلموا أن مؤلفه عالم، محقق فى علمه وفنه، أحسنوا رعاية حقوقه، وكانو أكثر إقبالاً على قراءته واستذكاره، فيتيسر بلوغ المؤلف والقارئ لمراديهما. والله أعلم.

فصل:

[الاستخارة أدب نبوى]

أما قولى «استخرت الله» فقد قصدت به الأدب مع الله، الذى أمر بذلك رسوله وصحبه فقال ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[1] والاستعاذة والاستخارة والاستعانة كلها بمعنى الطلب، وتفويض أمور العبد كلها إلى الله سبحانه وتعالى، والنجاة من الآفات على ألوانها. وقد روى صحابة الرسول رضوان الله عليهم أن الرسول ﷺ كان يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا القرآن.

إذن فحينما يعلم العبد أن خير الأمور ليس متعلقًا بكسبه وتدبيره، وأن

---

(١) سورة النحل: آية ٩٨.

الله سبحانه وتعالى يعلم ما فيه خير عبده، وأن ما يحيق بالإنسان من خير أو شر ليس من تدبيره، بل ما هو مقدر فلا حيلة فيه إلا بالتسليم للقضاء، والاستعانة بالله، حتى يدفع تأثير النفس الأمارة ونزعاتها عن العبد فى كل أحواله، ويهبه الخير والصلاح. فيجب أن يستخير العبد لله سبحانه وتعالى فى فواتح الأمور، حتى يحفظه الله من الخطر والخلل وبالله التوفيق.

فصل:
[البعد عن الغرض الدنيوى]

أما قولى «ومحوت عن القلب ما كان يعاوده من أغراض النفس» فإن الله سبحانه وتعالى لا يبارك أى عمل فيه حظ. ويحيد القلب عن الطريق المستقيم، ويسقط فى الاعوجاج والانشغال. ولا تخرج عاقبته عن أمرين: أما أن يحقق هدفه، أو لا يحققه، فإذا حقق هدفه كان فيه هلاكه. وليس مفتاح باب الجحيم إلا بتحقيق رغبات النفس، وإذا لم يحققه ربما محاه البارئ بجملته عن قلبه. ومفتاح باب النعيم لا يكون إلا بمنع النفس عن أغراضها، مصداقًا لقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(١).

وتبدو أغراض النفس فى الأمور، حينما يكون العبد فى فعله طالبًا لغير رضا الله تعالى، فلا يطلب نجاة النفس من العقوبة.

دقيقة: ان حظوظ النفس لا حد لها وحركاتها تخفى على ذوى الأبصار وبعونه تعالى سأفرد لها بابًا خاصًا فى هذا الكتاب.

---

(١) سورة النازعات: آية ٤٠-٤١.

فصل:

[إخلاص النية]

أما قولى: «ونهضت استجابة لرغبتك، وعقدت العزم على إتمام مرادك من هذا الكتاب». فذلك لأنك مادمت قد رأيتنى أهلا للسؤال، فسألتنى عما يشغلك وطلبت هذا الكتاب، وكان مرادك الفائدة لتعليمك، كان لزامًا على أن أجيبك إلى ما سألت. ولذلك رأيت من الواجب على أن أنزل على إرادتك دون قيد، اللهم إلا ما كان من التزامى باتمامه.

ومقصدى من هذا أن الذى يبدأ بعمل صالح، ويعقد النية على إتمامه، فإنه يسامح إذا لم يقارب الكمال فى عمله، مصداقًا لقوله ﷺ: **«نية المؤمن خير من عمله»**[1].

إن إخلاص النية بالغ الأهمية، والنية التى يتقدم بها الإنسان من باب إلى باب بغير إختلاف ظاهرى.

مثال ذلك: إذا تعمد الإنسان الرجوع عن الصوم لعلة شرعية دون عقد النية عليه، فإنه لا يثاب عليه. بيد أنه إذا عقد النية على الصوم ورجع عنه لعلة مقبولة شرعًا، دخل فى عداد المقربين، هذا والمسافر لا يعد مقيما ما لم ينو الاقامة، ومثل ذلك كثير.

فاخلاص النية إذا هو الأساس المتين الذى يبنى عليه أى عمل صالح.

فصل:

[اختيار العنوان]

ولما قلت: «إنى سميته كشف المحجوب» كان غرضى من ذلك أن يحوى هذا العنوان كل ما وضعته فى هذا الكتاب عند من تكون لديه بصيرة.

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان.

أعلم أن جميع بنى الإنسان محجوبون عن عظمة الحق إلا أولياء الله وأصفياءه ولما كان هذا الكتاب تبيانًا لطريق الحق، وبيانًا لغامض الاشارات، وكشفًا لحجاب الفناء، فإنى لم أجد عنوانًا أليق به غيره. ذلك أن الكشف يقضى على الحجاب، كما أن الحجاب يقضى على المكاشفة، فلا طاقة للقريب على البعد، كما أنه لا طاقة للبعيد على القرب.

مثال ذلك: إن الحيوانات التى لا تعيش إلا فى الخلاء لا يمكنها أن تعيش فى غيره، والعكس بالعكس. وسلوك طريق المعانى شديدة المشقة إلا لذلك الذى كان مخلوقًا من أجلها. فقد قال ﷺ **«كل ميسر لما خلق له»**[1] وقد خلق الله عز وجل كل عبد لأمر وسهل عليه بطريقه.

هناك حجابان: حجاب الرين الذى لا يمكن رفعه، وحجاب الغين الذى يسهل كشفه. وتفصيل ذلك: أن صاحب حجاب الرين محجوب عن الحق بصفاته، فهو بقلبه وقالبه يبحث عن الحق ويفر من الباطل، وعلى ذلك فحجاب الرين يستحيل رفعه. والرين رمز للختم والطبع. قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

ثم كشف سبحانه عن هذه الحقيقة بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

ووضح بعد ذلك السبب، فقال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾[4].

وقال أيضًا: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[5].

---

١) أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذى.

(٢) سورة المطففين آية ١٤.

(٣) سورة البقرة آية ٦.

(٤) سورة البقرة آية ٧.

(٥) سورة النحل آية ١٠٨.

لكن حجاب الصفات، وهو حجاب الغين، ربما تحول فى أوقات. ذلك لأن الذات لا تقبل التغير والتبدل، بيد أن الصفات قابلة له.

وللشيوخ إشارات لطيفة حول هذه النقطة، فى معنى الغين والرين.

قال الجنيد ﵁: «الرين من جملة الوطنات، والغين من جملة الخطرات» فالوطن ثابت والخاطر طارئ.

مثال ذلك أنك لا يمكنك أن تتخذ لك مرآة من حجر ولو اجتمع لك صقالون كثيرون، بيد أن مرآة ران عليها الصدأ تصفو بالصقل، فالظلمة من خصائص الحجر، والصفاء من خصائص المرآة، والأصل ثابت ولا بقاء لصفة مستحدثة.

لذلك وضعت هذا الكتاب ليكون صقالا للقلوب الموبوءة بحجاب الغين. لكن مادة نور الحق باقية بها، كيما ينكشف عنهم هذا الحجاب ببركة قراءته، فتتكشف لهم طريق الحق واضحة. أما الذين جبلت نفوسهم على إنكار الحق واستملاح الباطل، فإنهم لا يجدون إلى الحق سبيلاً. كما أن هذا الكتاب لا ينفعهم ولا يفيدهم.

فصل:

[فى مقصود السائل]

أما قولى: «ولما كان مقصودك قد صار معلومًا، فقد صار هذا الكتاب على رغبتك مقسومًا» فلكل سؤال عام جواب عام. زد على ذلك أن إجابة السؤال إجابة عامة تكون ممكنة، إذا كان السائل ملما بكافة نواحى الموضوع فروعًا وأصولا، أما بالنسبة للمبتدئ، فإن الشخص يحتاج إلى أن يفصل له القول، ويفاوض فى الشرح والتحديد، وفى هذه الحالة بعينها، فإنى لما رأيته فيك، -أسعدك الله- من رغبة فى إجابتك بالتفصيل، فقد وضعت هذا الكتاب كفيلا بموضوعه وبالله التوفيق.

فصل:

[طلب العون من الله]

قلت: «وأرجو من الله العون والتوفيق» إذ لا ناصر للمرء إلا الله، يعينه على الخيرات، ويهبه التوفيق الكامل. وحقيقة التوفيق. موافقة تأييد الله لفعل العبد فى أعمال الخير.

والكتاب والسنة ناطقان على صحة التوفيق وأيضًا إجماع المسلمين - ما عدا المعتزلة والقدرية - الذين يقولون: إ ن التوفيق كلمة لا مدولول لها.

قال بعض شيوخ الصوفية: «التوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال» فإذا كان العبد مطيعًا أعانه الله على ذلك بالقدرة، وعلى العموم فإن حركات العباد وسكناتهم من فعل الله وصنيعه، ولذلك فالقدرة على طاعة الله تسمى توفيقًا. وليس هذا محل تفصيله فمرادى هنا شىء آخر.

وإن شاء الله سأعود إلى ما دعوتنى إليه، ولكنى قبل أن أدخل فيه أضع سؤالك فى قالبه الحقيقى.

قال السائل - أبو سعيد الهجويرى-: «بين لى المعنى الحقيقى لطريقة الصوفية ومعنى المقامات. بين لى مذاهبهم وأقوالهم، ووضح لى حقيقة اشاراتهم الخفية، وطبيعة الحب الإلهى، وكيف يغرس فى أرض القلوب، وكيف أن أهل العقل عجزوا عن إدراك حقيقته، وارتدت النفوس خاسئة دون غايتها، بينما استغرقت الأرواح فى التنعيم بصفائه، مع بيان ما يتعلق بذلك من معاملات.

[سوء الفهم وسوء القصد]

قال المسئول: على بن عثمان الجلابى الهجويرى رحمه الله:

إذن فاعقد الهمة على شىء قصرت عنه أيدى أهل الزمان ذوى الإسرار، إلا خاصة حضرة الحق، وانقطع عنه مراد كل أهل الإرادة، وانعزلت عنه

معرفة كل أهل المعرفة، إلاَّ خواص حضرة الحق. فقد قنع عامة الخلق وخاصتهم منه بالعبارة، وصاروا شراة بقلوبهم وأرواحهم لحجابه، وسقط الأمر من التحقيق إلى التقليد، وأخفى التحقيق وجهه عن زمانهم، وقنع العوام بذلك، إذ يقولون: «إننا نعرف الحق»، ورضى الخواص بالتمنى فى القلوب، وبالهواجس فى النفوس، وبالميل فى الصدور. ويقولون - لانشغالهم بالدار الأخرى- : هذا الشوق رؤية، وهذه الحرقة محبة. وعجز المدعون بدعاويهم عن جملة المعانى وكف المريدون أيديهم عن المجاهدة، وسموا ظنونهم العليلة بالمشاهدة.

وقد كتبت قبل ذلك كتبا فى هذا المعنى، ضاعت كلها. وقد جعل المدعون الكذابون بعض ما فيها مصيدة للخلق، ومحوا ما بقى، ومزقوه اربا اربا، ذلك لأن لصاحب هذا الطبع بضاعة من الحسد وإنكار نعمة الله. وفريق آخر قعد ولم يقرأ. وفريق قرأ لكنه لم يفهم المعنى، وقنعوا بظاهر العبارة ولا علم لهم بما ترمى إليه، فقد نسخوا صورا منها، وحفظوها عن ظهر قلب، وقالوا: «إن فى وسعنا أن نتحدث عن التصوف»، وهم فى لب النكران. ذلك أن هذه المعانى أندر من الكبريت الأحمر، وحينما توجد فهى كيمياء.

واعلم أن الحجارة قد صارت منها معدنا، وصار الصفر ذهبا أحمر، وفى لجملة فإن المرء يبحث عن الدواء الذى يوافق مرضه، ولا يجوز له سواه، كما قال أحد الكبراء:

فكل من فى فؤاده وجع   يطلب شيئا يوافق الوجعا

فالإنسان الذى يشكو علة علاجها يسير، لا ينفعه الدر والمرجان، فضلا عن مزج دواء المسك بالبلسان، وهذا المعنى أعز من أن يكون لكل إنسان منه نصيب.

وفيما مضى ساء صنع الجهلة بهذا العلم فى كتب المشايخ، فحينما

وقعت بين أيديهم تلك الخزائن للأسرار الإلهية، لم يفقهوا لها معنى، فألقوها لصناع العمائم، وأعطوها لمجلدى الكتب الأنجاس، حتى يجعلوا منا بطانة للعمائم، أو أغلفة لدواوين شعر أبى نواس، أو هزليات الجاحظ. ولا غرابة فى ذلك فإن العقاب الملكى إذا استوى على حائط عجوز معدمة كان جزاوه نزع ريشه.

وقد خلقنا الله فى زمن يطلق أهله كلمة «الشرع» على كل ما وافق شهواتهم، ويعتبرون الكبر والطمع «شرفا وعلما» والنفاق مع الناس «خوفًا من الله»، واخفاء الغضب لله والجدال «مناقشة»، والجهل والسفه «عظمة»، والتعامى والتدجيل والجهل «وقارا»، والتمنى إرادة والرياء «فناء» وأوهامهم الكاذبة معرفة الله تعالى، وحركات قلوبهم نحو الشهوات «محبة الله»، والإلحاد «فقرا»، والشك صفاء، والزندقة، فناء، وترك الشريعة «طريقة»، وصرف الوقت فيما لا يجدى «تقوى». حتى ضاع من بينهم أرباب المعانى، وغلبوهم على أمرهم، كما حدث فى الفترة الأولى لأهل بيت رسول الله ﷺ مع آل مروان. وما أحسن ما قاله ملك أهل الحقائق، وبرهان أرباب الدقائق، أبو بكر الواسطى عليه رحمة الله[1]: «ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحكام ذوى المروءة».

وقال المتنبى:

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٠٣ ط القاهرة ١٩٥٣ - تحقيق نور الدين شريبه، وما يلى من إشارات عن طبقات الصوفية فإنما يعزى لهذه الطبعة.

فصل:
[أسرار الربوبية فى الكون]

اعلم -وفقك الله- أنى وجدت هذا العالم مفعما بأسرار الربوبية، وأن مكوناته موضع ودائعه وأن مثبتاته محلا للطلعة. وذلك كله من الجواهر والأعراض والعناصر والأجرام، والأشباح والطبائع، كلها بالنسبة لأوليائه حجب للأسرار، وإثبات كل واحد منها شرك فى التوحيد. ذلك أن الله تعالى أمسك هذا العالم فى الحجاب، حتى وجدت طبائع كل العالم الطمأنينة بأمره، واضحت بوجودها آية توحيد الحق. ثم اشتغلت الأرواح فى العالم بمزاجها، وابتعدت عن موطن خلاصها حتى صارت الأسرار الربانية غامضة أمام العقول، واختفت عن الأرواح لطائف القرب، مادام الإنسان بوجوده فى مظنة الغفلة، ومعيوبًا على الخصوص بحجابه، وذلك مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1].

وقال أيضًا ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[2] وقال الرسول ﷺ **«خلق الله الخلق فى ظلمة ثم ألقى عليه نورًا»**[3].

إذن فإن هذا الحجاب قد ألقى به فى عالم هواه، وذلك لتعقله بالطبع، واحتياله بالعقل، حتى صار قانعًا بالجهل. واشترى حجابه من الحق بالروح، فمن هنا غفل عن جمال الكشف، وأعرض عن تحقيق السريرة الربانية، واستراح فى حظيرة الدواب، وطفق هاربا عن موطن نجاته، ولم تصل إلى مشامه رائحة التوحيد، ولم ير جمال الأحدية، ولم يذق التوحيد، وارتد عن تحقيق المشاهدة إلى تركيبه، ورجع من إرادة الله إلى حرص الدنيا، وقهر

---

(١) سورة العصر : آية ١-٢.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(٣) رواه أحمد فى مسنده والترمذى والكامل عن ابن عمر.

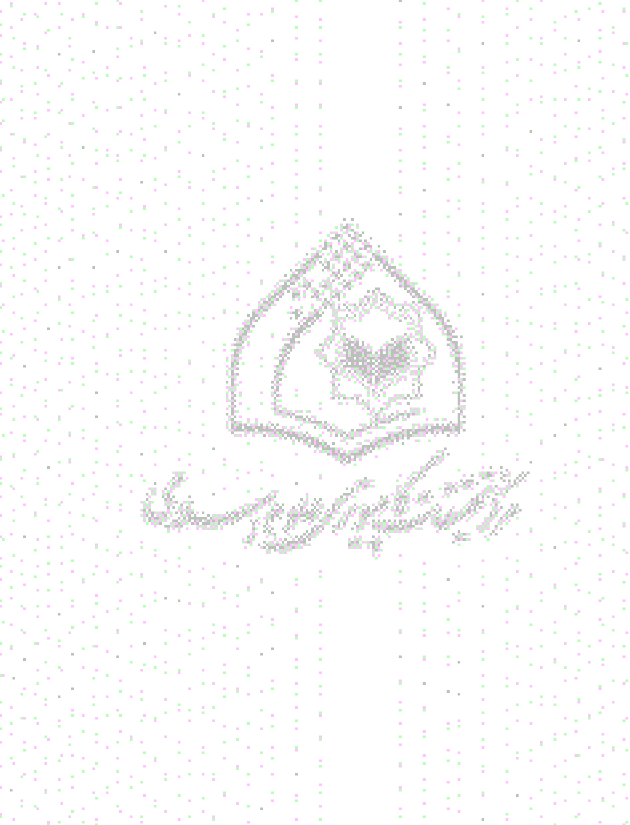
النفس الناطقة بالنفس الحيوانية، التى لا نصيب لها من الحياة الربانية، وجعل حركاته وطبائعه كلها نصيبا للحيوانية، فلا يعلم شيئًا إلا الطعام والنوم ومتابعة الشهوات. وقد عرض الله سبحانه وتعالى على أحبابه أمر هؤلاء إذ قال: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(١) ذلك أن سلطان طبعهم قد أخفى عليهم سر الحق، وباءوا بالخذلان والحرمان، بدلا من العناية والتوفيق من الحق. فصاروا جلة متابعين للنفس الأمارة، وهذا هو الحجاب الأعظم، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(٢).

والآن سأبدأ بشرح المقامات والحجب تفصيليًا، مفسرًا لك أقوال أهل الطريق، مضيفًا إلى ذلك بعض أقوال الشيوخ وأهل الأثر، فيما رووه خاصا بها، حتى يتم بذلك مطلوبك، وحتى يدرك من ينظر فى هذا الكتاب من أهل الظاهر وغيرهم أن لطريق الصوفية جذورا راسخة وفروعا مثمرة، لما منح الله شيوخها من بسطة فى المعرفة، حاثين مريديهم على الاستزادة منها، والصبر على ذلك ولأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا ولا تابعوا الهزل واللهو قط، وما ساروا فى طريق اللغو. فقد ألف كثير منهم كتبا، وبرهنوا بعبارات لطيفة عن الخواطر الربانية..

---

(١) سورة الحجر: آية ٣.

(٢) سورة يوسف آية ٥٣



الباب الأول

«في إثبات العلم»

قال الله تعالى يصف العلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»(٢).

وقال أيضا ﷺ «اطلب العلم ولو بالصين»(٣).

فاعلم أن المعرفة واسعة، والحياة قصيرة، لذلك لم يفرض علينا تعلم كل الفنون: كالفلك والطب والرياضة وعلم البديع وغيرها، بل وجب أن نأخذ من كل علم ما نحن بحاجة إليه في إقامة فرائض الشريعة السمحاء. فمن الفلك علم مواقيت الصلاة مثلا، ومن الطب ما يمنعنا من الوقوع في التهلكة، ومن الرياضة ما يمكننا معه قسمة المواريث واحتساب العدة وغيرها. فالمعرفة مفروضة، إذ المعرفة سلوك طريق الحق، فقد ذم الله قوما اشتغلوا بزائف المعرفة، إذ قال الله تعالى: ﴿يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾(٤).

كما قال رسول الله ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»(٥) وما أكثر ما يمكن عمله بقليل من المعرفة. وينبغي ألا يفترق العلم عن العمل، فالمتعبد بلافقه كالحمار في الطاحون ذلك أنه مهما يدور فهو على خطوته

---

(١) سورة فاطر: آية ٢٨.

(٢) وهناك روايات أخرى للحديث صححها السيوطي منها: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والصغير والبيهقي وابن عدي وحديث: (طلب العلم فريضة على كل مسلم، وان طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر) رواه ابن عبد البر في العلم عن أنس، وغير ذلك من الروايات-راجع الجامع الصغير ج٢ص٥٥.

(٣) كنوز الحقائق ٨٩/٢.

(٤) سورة البقرة: آية ١٠٢.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان عن أنس.

الأولى لا يقطع طريقا، قال ﷺ: « ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»[١].

ورأيت جمعا من العامة يرون أن المعرفة أفضل من العمل، كما فضل بعضهم العمل على المعرفة. وكلاهما على خطأ فيما ذهب إليه. فالعمل ما لم يكن مقترنا بالعلم لا يكون عملا. إذن فما دام العمل يصير عملا بالعلم فكيف يفضل الجاهل العلم على العمل. وقد أخطأ أيضا أولئك الذين فضلوا العلم على العمل فالعلم بلا عمل لا يكون علما. وذلك أن التعلم والحفظ والاستذكار، كلها من قبيل الأعمال، ويثاب عليها الانسان. ولو لم يكن علم العالم بفعله وكسبه لما أثيب عليه.

وهناك صنفان ممن يتعاطون العلم.

أولهما: أولئك الذين يتعلمون العلم طلبا للجاه عن الخلق، ولا طاقة لهم على العمل به، ولا يبلغون تحقيق العلم فيفضلونه عن العمل، فلا يتعلمون العلم ولا العمل، وتسمع الجاهل يقول «لا ينبغى المقال لك، ينبغى لك الحال».

وثانيهما: يرى ان العمل يكفى ولا حاجة المعلم. ووى عن ابراهيم بن أدهم أنه رأى حجرا مكتوبا عليه «اقلبنى واقرأ» ففعل ذلك فوجد مكتوبا عليه: «إذا كنت لا تعمل بما تعلم فلماذا تطلب علم ما لم تعلم» أى أعمل بما تعلم حتى تعلم ببركته ما لا نعلم.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «همة العلماء الرعاية وهمة السفهاء الرواية». يحسب من الجهال، وتنتفى عنه صفة العلماء ذلك الذى يطلب بالعلم جاه الدنيا وعزها. فهو ليس بعالم، ذلك أنه طلب العز والجاه من الجهل ولا درجة هناك فوق مرتبة العلم، الذى إذا انتفى عن صاحبه لا يعرف شيئا من ألطاف الله، وإذا وجد يكون جديرا بكل المقامات والمشاهدات والمراتب.

---

١) رواه البزار عن جابر. وضعفه السيوطى فى الجامع الصغير جـ١ ص ١٠٠، وصحح ما رواه أحمد عن أنس: (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق) وهو كما ترى جزء من الحديث السابق نفس المرجع جـ١ ص ١٠٠.

فصل:

[فى المعرفة]

اعلم أن المعرفة على نوعين: ربانية وإنسانية. فالإنسانية لا قدر لها بالنسبة للربانية، لأن معرفة الله تعالى صفة له سبحانه وقائمة به. أزلية دائمة.

أما المعرفة الإنسانية فهى صفة من صفاتنا، وهى قائمة بنا تفنى بفنائنا لقوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١).

وفى الجملة فالعلم من صفات المدح، وحدُّه: الإحاطة بالمعلوم، وتبينه المعلوم، وأفضل تعريف له أن العلم صفة يصير الحى بها عالما. وقد قال الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(٢)، وقال أيضا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

وعلمه علم واحد، يعلم به كل الموجودات والمعدومات، لا يشاركه فيه خلق، كما أنه لا يتجزأ ولا ينفصل عنه، والدليل على علمه نظام صنعه، فإن الصنع المحكم يقتضى علم فاعله، فعلمه إذن بالأسرار الخفية، والظواهر المحيطة توجب على الطالب مشاهدة الله فى كل أعماله، كما يتعلم أن الله ناظر إليه وإلى كل أعمالة.

حكاية:

روى أن أحد الأمراء ذهب إلى حديقة له بالبصرة، وفيما كان إذ وقعت عينه على زوجة البستانى فأعجبته، فأرسل زوجها فى بعض شأنه، ثم قال للزوجة: أو صدى الأبواب. فقالت: لقد فعلت إلا بابا واحدا لا أقدر عليه،

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢.

فقال وما هو؟ فقالت الباب الذى بيننا وبين الله تعالى، فلما سمع منها ذلك استغفر الأمير وأناب إلى الله تعالى.

حكاية:

قال حاتم الأصم: اخترت أن أعرف أربعة أشياء، ولا أبالى إن جهلت ما عداها، فقيل له: ما هى؟ فقال:

الأولى: أنى علمت أنى مدين لله بدين لا يقوم به عنى غيرى، ولذلك فأنا مشغول بأدائه؛

والثانية: انى عرفت أن رزقى قد قسم لى فلا يزيد ولا ينقص، ولذلك تركت أمر تدبيره.

الثالثة أنى أعلم أن ورائى من يطلبنى وهو الموت لا مفر منه فاستعددت لمقابلته.

والرابعة أنى أعلم أن الله مطلع، ولذلك فإنى أستحى أن أفعل ما لا ينبغى فعله، فحينما يكون العبد عالما أن الله ناظر إليه لا يقترف إثما حتى لا يستحى منه يوم القيامة.

فصل:

[أحكام معرفة الله تعالى]

أما المعرفة الإنسانية فيجب أن يكون هدفها معرفة الله تعالى وأحكامه. ومفروض على العبد علم الوقت وما يتعلق به من ظاهر وباطن، وهو على نوعين: الأصول والفروع.

فظاهر الأصول قول الشهادة، وباطنها تحقيق المعرفة، وظاهر الفروع القيام بالمعاملات، وباطنها تصحيح النية. ولا تقوم واحدة من هذه دون الأخرى.

فظاهر الحقيقة بلا باطن نفاق، وباطن الحقيقة بلا ظاهر زندقة، وظاهر الشريعة بلا باطن نقص، وباطنها بلا ظاهر هوس.

إذن فلعلم الحقيقة ثلاثة أركان: الركن الأول العلم بذات الله عز وجل ووحدانيته، ونفى التشبيه عن ذاته المنزهة جل جلاله؛ والثانى العلم بصفاته وأحكامها؛ والثالث العلم بأفعاله وحكمته.

ولعلم الشريعة ثلاثة أركان: أولهما الكتاب، وثانيها السنة، وثالثها إجماع الأمة. والدليل على العلم باثبات ذات الله وصفاته المنزهة وأفعاله قوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(١) وقال أيضا ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ﴾(٢) وقال عز من قائل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾(٣) وقال ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(٤) ونظير هذه الآيات كثير، وكلها دلائل على النظر فى أفعاله تعالى وتقدس، حتى تعرف صفاته بأفعاله، وقال رسول الله ﷺ «من علم أن الله تعالى ربه وأنى نبيه حرم الله تعالى لحمه على النار»(٥).

أما شرط العلم بذات الله فهو أن يعلم العاقل البالغ أن الله تعالى ذاته موجود، لا حدله ولا حدود، ليس فى مكان ولا جهة، ولا تلحق بذاته آفة، وليس كمثله شئ من خلقه، لا صاحبة له ولا ولد، وكل ما يتصوره الوهم أو يدركه العقل، فهو خالقه جل جلاله، ومالكه وبارؤه لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٦).

وأما العلم بصفاته، فهو أن تعلم أن صفاته قائمة به، فهى ليست إياه،

---

(١) سورة محمد: آية ١٩.

(٢) سورة الأنفال: آية ٤٠.

(٣) سورة الفرقان: آية ٤٥.

(٤) سورة الغاشية: آية ١٧.

(٥) رواه البزار عن عمران، وصححه السيوطى -الجامع الصغير جـ٢ صـ١٧٦.

(٦) سورة الشورى: آية ١١.

وليست منفصلة عنه قائمة به، وهو بذاته قائم ودائم، كالعلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر لقوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1]، وقال أيضا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وقال أيضا ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]، وقال أيضا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[4]، وقال أيضا ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[5]، وقال أيضا ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾[6].

أما العلم بأفعاله فهو أن تعلم أنه تعالى وتقدس خالق الخلق، وخالق أفعالهم، وكان العالم عدما وبفعله وجد، وهو مقدر الخير والشر، وخاف النفع والضر، لقوله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[7]. والدليل على إثبات أحكام شريعته، ان تعلم أنه قد بعث إلينا الرسل بمعجزات تنقض العادة، وأن رسولنا محمد ﷺ رسوله حقا، وأن له معجزات كثيرة، وأن كل ما أخبرنا عن الغيب والعيان حق بجملته.

والركن الأول: من الشريعة هو الكتاب لقوله تعالى ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾[8].

والثاني: السنة لقوله تعالى﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[9].

والثالث: إجماع الأمة لقوله ﷺ «لا تجتمع أمتى على الضلالة، عليكم

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤٣.
(٢) سورة الشورى: آية ٩.
(٣) سورة غافر: آية ٦٥.
(٤) سورة الشورى: آية ١١.
(٥) سورة هود: آية ١٠٧.
(٦) سورة الأنعام: آية ٧٣.
(٧) سورة الرعد: آية ١٦.
(٨) سورة آل عمران: آية ٧.
(٩) سورة الحشر: آية ٧.

بالسواد الأعظم»[1]. وفى الجملة فان أحكام الحقيقة كثيرة، ولو أراد أحد أن يجمعها لما استطاع، فليس للطائف الله سبحانه وتعالى نهاية.

فصل:

[مذهب الملاحدة فى المعرفة]

اعلم أن هناك طائفة من السفسطائية يقولون باستحالة معرفة أى شئ، وان المعرفة ذاتها كلمة لا مدلول لها، ولكنى أقول لهم أنكم تقولون باستحالة المعرفة، فهل رأيكم هذا صحيح أم باطل؟ فإن قالوا بصحته فانهم بذلك يثبتون حقيقة المعروف، وإن قالوا بعدم صحته فإن الجدل فى موضوع استبان خطؤه يكون محض افتراء وليس من العقل فى شئ مناقشة مثل هذا الشخص، وهذا رأى بعض الملاحدة الذين ينتمون للصوفية، فإنهم يقولون ما دام قد استحال معرفة أى شئ، فإن نفى المعرفة أكمل من إثباتها.

وهى نظرية صادرة عن غاية الغفلة والجهل، فان نفى المعرفة يلزم أن يكون نتيجة العلم أو الجهل، ومن المستحيل أن تنفى المعرفة المعرفة، ولذلك فالمعرفة لا ينفيها الا الجهل القريب من الخزى والشرك والضلال، وذلك من حيث أن لا صلة للحق بالجهل.

وهذا المذهب معارض لمذهب أئمة الصوفية، ولكنه كثيرًا ما ينسب إليهم على يد من سمعوه أو اعتنقوه، فحسى الله فيهم، العليم بما يقيمون عليه من خطأ، فلو نالهم الشرع بحكم لسلكوا صراطا سويا، ولم يفرقوا بين أحبابه بهذا التجديف ولأمعنوا النظر فيما بهم أنفسهم.

وإذا كان بعض الملاحدة يدعون أنهم صوفية، ليستروا ضلالتهم بجمال غيرهم، وليعيشوا فى ستر عزهم، فلماذا يتهم الصوفية جميعا بأنهم مثل هؤلاء المدعين ويسلطون على معاملاتهم مكابرة العيان، ويضعون أقدارهم تحت الأقدام.

---

(١) ملحوظة : يراجع تخريج الحديث تنبيه الغافلين ص١٩٦

وقد قال لى أحد من يحبون أن نعتبرهم من أهل السنة، ولكنه فى الحقيقة خلو من لب المعرفة والدين: إن هناك اثنى عشر مذهبا للملاحدة، وأحد هؤلاء هم المتصوفة. فقلت له: إذا كان لنا من هؤلاء واحدا فان لكم الاحد عشر مذهبا الباقية، وإن الصوفية فى إمكانهم أن يحترسوا من أرباب هذا المذهب أكثر مما تحترسون أنتم من الفرق الإحدى عشر.

إن كل هذا الضلال نابع من الفساد والتدهور، اللذين يسودان هذا العصر، بيد أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ أولياءه، من شر ما تعودته العوام.

ولقد صدق شيخ الشيوخ، وشمس المريدين، على بن بندار الصير فى إذ قال: «فساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله»[١] وسأسرد لك فيما يلى أقوال كمل الصوفية كتذكرة لمن فى قلبه شك.

فصل:

قال محمد بن الفضل البلخى: «العلم على ثلاثة أنواع: علم من الله، وعلم مع الله، وعلم بالله»[٢] فالعلم بالله هو علم المعرفة، الذى تعرَّف به عليه رسله وأولياؤه، لو لم يكن التعريف والتعرف منه ما عرفوه، ذلك أن كل أسباب الاكتساب من الحق تعالى، وليس لعلم العبد فى معرفة الله علة، ذلك أن علة معرفته تعالى هى هدايته وتعليمه والعلم الذى هو من الله هو علم الشريعة، التى أمرنا الله تعالى بها، وافترضها علينا. والعلم مع الله تعالى هو علم مقامات الطريق إلى الحق وبيان مراتب أوليائه وهذا لا يصح بغير الشريعة، وعلم الشريعة لا يتم تطبيقه إلا بمعرفة المقامات.

يقول أبو على الثقفى: «العلم حياة القلب من الجهل ونور العين من الظلمة»[١] أى أن العلم حياة القلب من موت الجهل، ونور عين اليقين من ظلمة الكفر، وكل من ليس له نصيب من علم المعرفة فقد مات قلبه بعلة الجهل، وكل

---

(١) طبقات الصوفية السلمى ص ٥٠٢.

(٢) طبقات الصوفية السلمى ص ٢١٥.

من ليس له نصيب من علم الشريعة فقلبه مريض بالجهل فقلوب المشركين ميتة لأنها تجهل الحق سبحانه، وقلوب الغافلين مرضى لأنها تجهل أمره سبحانه.

قال أبو بكر الوراق الترمذى: «من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد تزندق، ومن اكتفى بالفقه دون الورع تفسق»، وهذا يعنى ان التوحيد دون عبادة أو مجاهدة يكون جبرا، والموحد جبرى القول قدرى العمل، حتى تكون منزلته بين الجبر والقدر، وهذا مصداق لقول ذلك الشيخ رحمة الله عليه «التوحيد دون الجبر وفوق الاختيار» إذن فكل من يقنع بالكلام دون المجاهدة زنديق.

وأما الفقه فشرطه الاحتياط والتقوى، فكل من شغل بالرخص والتأويلات والتعلق بالشبهات، وحام حول المجتهدين دون اعتقاد فإنه سريعا ما يسقط فى الفسق بسهولة. وهذا كله ينشأ عن الغفلة، والغفلة هى السبب فى الافتقار إلى الوازع الدينى والأخلاقى، وما أفضل ما قاله شيخ الشيوخ، يحيى بن معاذ الرازى. «اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين، والفقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين»[٢].

فالعماء الغافلون هم أولئك الذين اتجهوا بقلوبهم نحو الدنيا واختاروا من الشرع أسهله، وتملقوا الحكام والطغاة، وطوفوا برحابهم، وجعلوا مهارتهم فى الجدل سبيلا إلى مهاجمة الأئمة الأعلام، وانشغلوا بقهر أئمة الدين بكلام ملئ بالحشو، فلو وضع لهم الكونان حينذاك فى كفة الميزان لما ظهرا أمامهم، إذ جعلوا الحقد والحسد مذهبا. وفى الجملة لا يكون هذا علما إذ أن العلم صفة تنفى عن الموصوف بها أنواع الجهل.

أما الفقراء المداهنون فهم أولئك الذين يمتدحون كل ما يتفق مع رغبتهم حتى وأن كان باطلا، ويذمون ما يكرهون وإن كان حقا، يحاولون أن يتجهوا إلى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٣.

الناس عن طريق النفاق.

أما المتصوف الجاهل فهو ذلك الذى لم يلحق بشيخ، ولم يأخذ آداب السلوك عن مرب عظيم، ولم يذق مر الزمان، وارتدى الأزرق عمى، وألقى بنفسه بينهم، وتجرأ فى صحبتهم بالانبساط، ودفعه حمقه لأن يظن أنهم جميعا مثله، وأشكل عليه طريق الحق والباطل.

هذه هى الأصناف الثلاثة من الناس الذين بينهم هذا الموقف. وأمر المريد بالإعراض عن صحبتهم، فهم كاذبون فى دعاويهم، ضالون فى طريقهم.

يقول أبو يزيد البسطامى: «علمت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد من العلم ومتابعته»، وفى الجملة لأن يطأ المرء الجمر أيسر على الطبيعة الإنسانية من أن يسلك طريق المعرفة، وأن يعبر قلب الغافل الصراط ألف مرة أيسر من أن يلم بقدر ضئيل من المعرفة. ويفضل الفاسق أن يقيم خيمته فى السمير بدلا من أن يقوم بتطبيق شئ مما عرف.

ولذلك فمن الواجب عليك أن تتعلم العلم، وتبحث عن كماله. وأن كمال المعرفة الإنسانية هو الجهل بالمعرفة الإلهية، إذا عليك أن تبلغ من العلم قدرا يجعلك تعلم أنك لا تعلم. ومعنى هذا أن المعرفة الإنسانية هى وحدها ما يقدر الإنسان على تحصيله، وأن البشرية هى أكبر حاجز يفصله عن الربوبية كما قال الشاعر:

العجز عن درك لا درك إدراك والوقف فى طرق الأخيار إشراك

أما من لا يعلم ويصر على جهله فهو مشرك، ولكن العالم عندما تصل معرفته إلى درجة الكمال يرى الحقيقة، ويدرك أن معرفته ليست أكثر من مجرد عجزه عن أن يدرك ما ستكون عليه نهايته، إذ أن الحقائق لا تتأثر بما أطلق عليها من أسماء. فعجزه عن اللحاق بالعلم علم.

والله أعلم.

الباب الثانى

فى الفقر

أعلم أن للفقر مرتبة عالية فى طريق الحق ، وأن للفقراء خطرا كبيرا، كما قال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾(١) وقال ايضا : ﴿وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾(٢) وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٣).

وقد اختار الرسول ﷺ الفقر حين قال: «اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين»(٤) وقال كذلك ما معناه: يقول الله يوم القيامة «أدنوا منى أحبائى» فتقول الملائكة «ومن أحباؤك» فيقول «فقراء المسلمين».

والقرآن والسنة زاخران بالآيات والأحاديث المشابهة، وهى معروفة بحيث لا يوجد داع لذكرها هنا. وكان من بين المهاجرين فى عهد النبى ﷺ رجال فقراء، يجلسون فى مسجده، ويخصصون وقتهم كله لعبادة الله(٥) ، معتقدين كل الاعتقاد أن الله تعالى سوف يقيتهم بعد أن توكلوا عليه، وقد أمر النبى أن يجتمع بهم ويوليهم عنايته. فقال عز وجل من قائل: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٣ .

(٢) سورة النحل: آية ٧٥ .

(٣) سورة السجدة: آية ١٦ .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك وصححه السيوطى -الجامع الصغير ج١ص٥٦.

(٥) كانوا يسمون أهل الصفة، وكانوا زهادا منقطعين للعبادة.

رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[١] ولذلك عندما كان النبى يقابل أحدهم كان يقول ما معناه « بأبى أنت وأمى! لقد عاتبنى فيكم ربى».

ولذلك فقد امتدح الله الفقر، وجعله امتيازا خاصا للفقراء، الذين تجردوا عن كل سبب ظاهرى وباطنى، واتجهوا بكلهم نحو مسبب الأسباب، حتى صار الفقر مفخرة لهم، يئنون لذهابه، ويسرون لمجيئه، ويأنسون إليه ويعتبرون ما عداه محتقرا.

وللفقر رسم وحقيقة فرسمه العوز والافتقار، ولكن حقيقته الثراء والاختيار، ومن ينظر إلى الرسم يبقى عند الاسم، ويبتعد عن الحقيقية دون أن يحقق أمله، ولكن من يجد الحقيقة يبتعد بناظريه عن كل مخلوق، ويسرع بفناء الكل، فى رؤية الكل، ببقاء الكل. إذن «إن من لم يعرف سوى رسمه لم يمسع سوى اسمه». فالفقير هو من ليس له شئ، وليس فى إمكانه أن يفقد شيئا، وهو لا يصبح غنيا إذا حاز عرضا، ولا فقيرا إذا لم يكن لديه شئ، فالوجود والعدم سواء بالنسبة لفقره وقد اتفق على أنه يزاد سرورا، حينما لا يكون لديه شئ، فقد قال الشيوخ «كلما زاد فقر المرء كلما تكشفت أمامه الأحوال».

ذلك أنه من سوء حظ الفقير أن تكون له ممتلكات، فإذا احتفظ بشئ لمنفعته الخاصة كان بمثابة من يأسر نفسه؛ ويعيش أحباب الله من الطافه الخفية، وعطائه الإلهى، ولا يحجبهم عرض الدنيا عن طريق الرضا بل عن طريق الدنيا الغادرة التى هى دار الفجار.

حكاية:

قابل أحد الدراويش ملكا فقال له الملك: «ما حاجتك؟» فأجابه الدرويش «أنا لا أطلب حاجة من أحد من عبيدى» فقال الملك «وكيف ذلك؟» فأجابه

---

(١) سورة الأنعام: آية ٥٢ .

الدرويش لدى عبدان هما سيداك: «الحرص وطول الأمل».

وقد روى عن النبى ﷺ أن الفقير عز لأهله[١]؛ إذن فما هو عز لأهله هو ذل لغير أهله، وعزه فى أن الله قد حفظ جوارح الفقير من أن يقع فى الزلل، وقلبه من الخلل، فلا يرتكب جسده معصية أو زلة، ولا يعتور حالة خلل وآفة. وبذلك يصبح جسمه روحانيا وقلبه ربانيا وعندئذ تنفصم العلاقة بينه وبين البشر، ولا يصير غنيا فى هذا العالم، حتى ولو منح ملكه، ولا فى العالم الآخر ولو منح ملكه؛ بحيث لا يزن هذا العالم والعالم الآخر فى ميزان فقره أكثر من جناح بعوضة[٢]، ولا يجتذبه هذان العالمان لمجرد لحظة من الزمن.

فصل:

اختلف الصوفية أيهما أفضل: الفقر أم الغنى، على اعتبار أنهما صفتان من صفات الإنسان، إذ أن الغنى الحقيقى صفة من صفات الله الكامل فى كل صفاته، ويرى يحيى بن معاذ الرازى وأحمد بن أبى الحوارى والحارث المحاسبى وأبو العباس بن عطاء ورويم وأبو الحسن بن سمعون أن الغنى أفضل من الفقر. ويؤيدهم من المتأخرين الشيخ أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير محمد الميهنى، فيرى أن الغنى أفضل من الفقر وحجتهم أن الغنى صفة من صفات الله، بينما لا يمكن أن نعزو الفقر إليه سبحانه؛ ولهذا فان الصفة التى يشترك فيها الإنسان مع الله، أفضل من تلك التى لا تنطبق على الله تعالى.

وأرى أن هذا اشتراك فى الاسم لا فى المعنى، وليس له وجود فى الحقيقة، إذ أن الاشتراك الحقيقى فى الأسماء يقتضى وجود تشابه فى المعنى، ولكنا نرى أن الصفات الإلهية أزلية، والصفات الإنسانية مخلوقة، ولهذا فان برهانكم خاطئ.

وأرى ـ أنا على بن عثمان، وفقنى الله بالخير ـ أن الغنى صفة يوصف

---

(١) أخرج الطبرانى مثله عن شداد بن أوس.

(٢) كيف يجوز ذلك والناس جميعا يعملون من أجل الفوز بالآخرة ونعيمها.

بها الله، وليس للإنسان حق فى الاتصاف بها، بينما الفقر صفة يوصف بها الإنسان، ولا يوصف بها الله وقد يوصف الإنسان مجازا بالغنى، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك.

وهناك برهان آخر يوضح هذه النقطة، وهو أن الغنى الإنسانى صفة ترجع للأسباب، أما الغنى الإلهى فلا يرجع لأى سبب لأن الله هو مسبب الأسباب. ولهذا فلا يوجد اشتراك بالنسبة لهذه الصفة وليس من المسموح أن تشبه شيئا بالله لا فى حقيقته ولا فى صفته ولا فى اسمه.

فغنى الله فى عدم حاجته إلى الغير، وفى قدرته أن يفعل ما يريد، فلا راد لقضائه، ولا مانع لقدرته، فهو قادر على الضدين. وهكذا كان دائما، وهكذا سيكون أبدا. أما غنى الإنسان فهو وسيلة من وسائل العيش، أو من وسائل جلب السرور، أو قد يكون سبيلا لعدم الوقوع فى المعصية، أو التمتع بالمشاهدة، وجميعها عارية عرضة للتغيير، ومادة للطلب والتحسر، وموضع للعجز.

إذن فهذا الاسم مجاز للخلق، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾(١) وقال أيضا ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾(٢).

وعلاوة على ذلك فإن بعض العوام يفضلون الغنى على الفقير، قائلين: إن الله يتفضل برحمته على الغنى فى الدنيا والآخرة، وأنه تعالى قد منحه مزايا الغنى فى هذه الدار، فان معنى الغنى لديهم هو وفرة العرض الدنيوى، والمتاع واتباع الشهوات. وحجتهم أن الله قد أمرنا أن نشكره لنعمائه، وأن نصبر على الفقر. أى أن نصبر فى الضراء، ونشكر فى السراء. ولهذا فان السراء هى بالضرورة خير من الضراء. وعلى هذا أجيب قائلا: أنه عندما أمرنا تعالى أن نشكر فى السراء، جعل الشكر وسيلة لزيادة نعمائه، ولكن

---

(١) سورة فاطر: آية ١٥ .

(٢) سورة محمد: آية ٣٥ .

عندما أمرنا أن نصبر فى الضراء جعل الصبر وسيلة لأن يقربنا لجنابه العلى، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١] وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]. فكل من يشكر على النعمة وهى فى الأصل غفلة، فانه يزداد غفلة على غفلة، وكل من يصبر على الفقر ـ وأصله بلاء ـ يزداد قربا على قرب.

إن العلماء الذين يفضلون الغنى على الفقر، لا يستخدمون كلمة الغنى بمعناها العلمى، فهم لا يعنون بها جمع النعماء، ولكن الاتصال بالنعم، ويقولون أن الاتحاد بالله شئ آخر غير الغفلة عن الله، وقد قال الشيخ أبو سعيد رحمه الله «الفقر هو الغنى بالله، أى هو المكاشفة الدائمة للحق».

كان المتمتع بالمكاشفة محجوبا عن المكاشفة بصفة الغنى، يكون إما فى حاجة إلى المكاشفة، أو فى غير حاجة إليها، فاذا لم يكن فى حاجة إلى المكاشفة كان الاستنتاج سخيفا، وإذا كان فى حاجة إليها فان الحاجة لا تتفق مع الغنى؛ ولهذا فان هذه العبارة غير مقبولة، وعلاوة على ذلك فليس لأى شخص غنى بالله إلا إذا كانت صفاته أبدية ومقصده ثابت غير متغير، إذ لا يتفق الغنى مع وجود مقصد، ولا مع الصفات البشرية، إذ أن الصفات الأساسية للبشرية هى الحاجة والعجز، وأن من تظل صفاته قائمة ليس بغنى، وأن من تتمحى صفاته غير خليق بأى اسم على الإطلاق.

ولهذا فإن «الرجل الغنى هو من أغناه الله، لأن كلمة «الغنى بالله» تشير إلى الفاعل، أما عبارة «من أغناه الله» فتشير إلى المفعول، فالأول يغنى نفسه بنفسه، أما الثانى فيغنى عن طريق من يغنيه، وعليه فإن السعى من أجل العيش والثراء من صفات الإنسان، أما العيش بالله فيقتضى الفناء عن الصفات البشرية.

ولهذا فإنى ـ على بن عثمان الجلابى ـ أرى أنه ما دام قد ثبت أن الغنى

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٧ .
(٢) سورة البقرة: آية ١٥٣ .

الحقيقى لا يتفق مع بقاء صفة، إذ أن بقاء الصفات محل علة بالدلائل المذكورة ومعرضة للزوال؛ وأقول إن الغنى لا يتفق كذلك مع القضاء على الصفة، لأنه لا يمكن تسمية الصفة التى أصبحت غير قائمة، وأن من قضى على ماله من صفة لا يمكن اعتباره فقيرا أو غنيا، ولهذا فإن صفة الغنى لا يمكن تحويلها عن الله إلى الغير، كما لا يمكن تحويل صفة الفقر من الإنسان إلى الله.

إن أكثر أئمة الصوفية يفضلون الفقر على الغنى، ذلك لأن القرآن والسنة قد أعلنا ذلك بوضوح، وعلى هذا اتفق معظم المسلمين ومن بين الحكايات التى قرأتها أن هذا الموضوع قد نوقش مرة بين الجنيد وابن عطاء، وكان ابن عطاء يفضل الغنى، ويقول أن الأغنياء سيحاسبون يوم البعث عن غناهم، وأن مثل هذا الحساب يعنى أنهم سيستمعون إلى الكلمة الإلهية دون وسيط على صورة عتاب، والعتاب هو ما يوجهه الحبيب لحبيبه.

فأجابه الجنيد: «إذا كان سيحاسب الأغنياء، فإنه سيعذر الفقراء والإعذار أفضل من الحساب.

وهذه نقطة دقيقة، ذلك أن العذر فى - مرتبة الحب الحقيقى - نوع من الغيرية، وأن العتاب يتنافى مع الاتحاد. ويعتبر المحبون كلا الشيئين نقيصة، ذلك لأن المرء يعتذر إذا هو عصى أمر محبوبه، ويعذر لنفس السبب، وكلاهما مستحيل وجوده مع الحب الحقيقى، إذ فيه لا يحتاج المحبوب إلى شرح من حبيبه، ولا يقصر المحب فى تنفيذ إرادة من يحب.

وفى الجملة فإن الفقراء مطالبون بالصبر، والأغنياء مطالبون بالشكر. وفى تحقيق المحبة لا يطلب محب من حبيبه شيئًا، ولا يعصى محب أمرًا لمحبه. وإذا فقد ظلم من سمى ابن آدم أميرًا، وقد سماه ربه فقيرًا، فكل من اسمه من قبل الحق فقير، فهو فقير حتى ولو كان أميرًا، وقد هلك كل من يظن أنه ليس أسيرًا حتى ولو جعل مقامه عرشًا وسريرًا.

ومن هنا فالأغنياء أصحاب صدقة، والفقراء أصحاب صدق، ولا يتساوى الصدق مع الصدقة أبدًا. وأن ثروة سليمان وفقره متحدان فى أساسهما فقد قال الله لأيوب فى منتهى صبره، ولسليمان فى أوج ثرائه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١). فعندما يتحقق رضى الله يستوى فقر سليمان وغناه.

يقول المؤلف: سمعت أبا القاسم القشيرى رحمه الله يقول تحدث الناس كثيرا عن الفقر والغنى، فضلوا هذا أو ذاك، ولكنى أختار لنفسى ما يختاره الله لى ويجعلنى فيه. وإذا أرادنى فقيرا فيجب الا أكون حريصا أو متمردا.

ولهذا فإن كلا من الغنى والفقر منحة إلهية، وفساد الغنى هو الغفلة، وفساد الفقر هو الحرص. والغنى والفقر كلاهما خير، ولكنهما يختلفان فى التطبيق. فالفقر هو انفصال القلب عما سوى الله، والغنى هو انشغال القلب بما لا يمكن تحديده ووصفه.

وعندما يخلو القلب من كل ما عدا الله، لا يصبح الفقر خيرا من الغنى، ولا الغنى خيرا من الفقر. إن الغنى هو وفرة المتاع الدنيوى، والفقر نقصانه وكل المتاع ملك لله فعندما يودع السالك متاعه يختفى هذا التناقض وتستوى العبارتان.

فصل:

[فى مدلول الفقر لدى شيوخ الصوفية]

ولكل شيخ من شيوخ الصوفية رمز فى مدلول الفقر. وسأذكر هنا بعض ما قالوه مما يتسع له هذا الكتاب. يقول أحد المحدثين من الصوفية «ليس الفقير من خلا من الزاد إنما الفقير من خلا من المراد». مثال ذلك، أنه إذا أعطاه الله مالا وأراد أن يبقيه فهو غنى، وإذا أراد أن يتركه فهو لا يقل غنى، فكلاهما تصرف فى الملك والفقر هو ترك التصرف.

---

(١) سورة ص: آية ٣٠.

يقول يحيى بن معاذ الرازى: «علامة الفقر خوف زوال الفقر»[١] يعنى أن من صحة الفقر الحقيقى ألا يخشى الإنسان ذهاب الفقر عنه، حتى وهو فى كمال الولاية، وقيام المشاهدة، وفناء الصفة. إذن فكماله ألا يخاف من زواله، ويقول رويم: «من نعت الفقير حفظ سره وصيانة نفسه وأداء فرائضه»[٢] يعنى أن من صفات الفقير أن يكون سره مصونا عن الفرض، وروحه وجسده من الآفات، وأن يقوم بأداء ما فرضه دينه من واجبات. بمعنى ألا يحول تفكيره دون عمله أو العكس وهذه علامة على أنه قد ألقى عنه صفاته البشرية، فيصير العبد بأجمعه لله.

يقول بشر الحافى: «أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر»[٣] أى أن خير مقام هو أن تكون لك عقيدة ثابتة فى أن تتحمل الفقر باستمرار. والفقر هو محو كل المقامات، ولهذا فإن التصميم على تحمل الفقر علامة على اعتبارك كافة الأعمال والتصرفات غير كاملة، ونزوعك إلى القضاء على كافة الصفات البشرية ويتضح من هذا القول أنه يعتبر الفقر أعلى مكانة من الغنى، وأنه يصر على عدم التخلى عنه.

ويقول الشبلى: «الفقير لا يستغنى بشئ دون الله»[٤] أى أن الرجل الفقير لا يقنع بشئ خلاف الله، إذ ليس له هدف آخر. والمعنى الحرفى هو أنك لا تصبح غنيا إلا بالله، وأنك حين تصل إلى الله تصبح غنيا.

وعليه فإن وجودك غير وجود الله، ذلك أنه لا يمكنك أن تحصل على الغنى بدونه، وحينما تجده يصير حجابًا للغنى، وحينما تحيد عن الطريق لا تجده. فمتى تكون غنيًا؟ هذه الحكمة دقيقة غامضة، ومعناها فى رأى أهل

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦٠.
(٣) طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٧.
(٤) المرجع السابق ص ١٦٠.

الحقيقة هو «الفقير لا يستغنى عنه»، أى أن الفقير هو من لا يستغنى أبدًا عن الله وهذا هو ما عناه الشيخ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الأنصارى الهروى رضي الله عنه حين قال: «إن حزننا أبدى، فلا هممنا ترقى إلى تحقيق أهدافنا، ولا كليتنا تفنى» فهو ليس بجنس تغفل الأعراض عن حديثه، إذن تقع العراقيل دوما، والتقدم فى الطريق صعب وليس للدراويش بغافل، وذلك الحبيب لمن تبدى ولا طريق له، ووصاله ليس فى مقدور الخلق وليس فى الفناء تبدل فى الصورة، وليس المتغير خليقا بالبقاء، فلا الفانى يصير باقيا أبدا، حتى يكون ثم وصال، ولا يصير الباقى فانيا حتى يكون ثم قرب، فكل شغل أحبائه تنميق كلام برمته، واستحداث المقامات والمنازل فى الطريق راحة للأرواح، فعباراتهم منهم لهم، ومقاماتهم خليقة بهم، والحق تعالى منزه عن أوصاف الخلق وأحوالهم.

يقول أبو الحسين النورى: «علامة الفقير السكون عند العدم والبذل عند الوجود»[1]. يعنى أنه عندما لا يحصل على ما يرغب، يكون ساكنا وعندما يحصل على شئ يعتبر غيره أكثر استحقاقا لهذا الشئ منه، ولهذا يتركه. وما يشير إليه هذا القول ذو أهمية بالغة، ويمكن أن نستنتج منه معنين:-

١- أن سكونه حينما لا يحصل على شئ رضى، وبذله حينما يحصل على شئ محبة، إذ أن كلمة «رضى» معناها قبول الخلعة، وخلعة التشريف ورمز للقلوب، بينما يرفض المحب الخلعة إذا كانت رمزًا للفراق.

٢- سكونه حينما لا يحصل على شئ هو توقع منه أن ينال شيئا، وعندما يحصل على ذلك الشئ يجد أنه غير الله، وهو لا يقنع بشئ غير الله فيرى تركه.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٢.

إن هذين المعنيين يظهران فى قول شيخ المشايخ أبى القاسم الجنيد: «الفقر خلو القلب عن الأشكال» أى عندما يخلو قلب من المظاهر يصبح فقيرًا، إذ أن وجود الظاهر غير وجود الله، ولذلك كان نبذها هو الطريق الوحيد. ويقول الشبلى: «الفقر بحر البلاء وبلاؤه كله عز» أى أن الفقر بحر المتاعب، وكافة المتاعب التى تأتى من الله عز، والعز جزء من «الغير» ومن امتحنهم الله يغمرون فى بحر من المتاعب، ولا يعرفون العز إلا عندما ينسون متاعبهم، وينظرون إلى مسببها. وعندئذ تتحول متاعبهم إلى عز، وتتحول عزتهم إلى وقت، ويتحول وقتهم إلى محبة، وتتحول محبتهم إلى شهود، وأخيرًا يصبح عقل المشاهد مركزا للرؤية عن طريق خيالة، فيرى بغير عين، ويسمع بغير أذن.

ومن ناحية أخرى فإن من عظمة الرجال أن يتحملوا الأعباء التى يحملها لهم محبوبهم، ذلك أن المحبة هى فى الحقيقة عزة، والرجاء ذلة، والعزة ما يجعل المرء حاضرا مع الله، والذلة هى ما يجعل المرء بعيدًا عنه، ومحنة الفقر دليل على الحضور، أما بهجة الغنى فهى علامة على الغيبة. فالحاضر بالحق عزيز، والغائب عن الحق ذليل، فبلاؤه مشاهدة، ودماره أنس فالتعلق بذلك غنيمة. ويقول الجنيد: «يا معشر الفقراء إنما تعرفون بالله، وتكرمون لله. فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتم به»[1] وبمعنى آخر إذا لقبكم الناس بالفقراء واعترفوا بدعواكم، فاهتموا بأداء ما يفرضه عليكم طريق الفقر. وإذا أعطوكم اسمًا آخر، لا يتفق مع ما تعلنون، فلا تقبلوه، ولكن قوموا بأداء وظيفتكم، فإن أحط الناس من يعتبره الناس مخلصًا لله، وهو ليس كذلك فى حقيقته، وأنبل الناس من لا يرى الناس فيه إخلاصا لله وهو فى حقيقته مخلص له سبحانه. فالشخص الأول يشبه دعى الطب، الذى شهر نفسه وادعى أنه قادر على علاج الناس، وهو فى الحقيقة يزيد حالتهم سوءا،

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٥.

وعندما يصاب هو بالمرض يكون فى حاجة إلى طبيب آخر يصف له العلاج. أما الشخص الثانى فلا يعرف عنه أنه طبيب، ولا يشغل نفسه بغيره، ولكن يشغل نفسه بالأغذية والأشربة الزلال، والمفرحات المتقنة، وألوان الهواء المعتدل حتى لا يمرض، وقد غض الخلق كلهم عنه أطرافهم.

ويقول أحد الصوفية المحدثين: «الفقر عدم بلا وجود» وليس من الممكن تفسير هذا القول، إذ أن مالا وجود له لا يمكن وصفه، ويدل ظاهر هذا القول على أن الفقر عدم، ولكن هذا غير صحيح، إذا أن تفسيرات رجال الله وإجماعهم لا تقوم على مبدأ لا وجود له، وليس المعنى هنا هو فناء الحقيقة، بل فناء كل ما يلوث الحقيقة، وكل الصفات البشرية مصدر لهذا التلوث. وعندما تتخلص من ذلك تكون النتيجة فناء الصفات، التى تمنع المرء من وسيلة تحقيق بغيته. ولكن عدم وصوله للحقيقة قد يجعله يظن فى فناء الحقيقة، ويلقى به فى الضلال.

وقد قابلت بعض المتكلمين الذين ضحكوا ساخرين من هذه الحكمة قائلين أنها محض هراء، لأنهم لم يتمكنوا من فهم مضمونها. كما قابلت بعض المدعين للتصوف، الذين حاولوا تفسيرها بصورة خاطئة متظاهرين باقتناعهم بصحتها على الرغم من أنهم لم يلموا بالأساس الذى تقوم عليه.

إن كلا الجانبيين خاطئ، ذلك أن أحدهما ينكر الحقيقة عن جهل، والآخر يجعل الجهل حالا، أن كلمتى «عدم» و«فناء» كما يستخدمها الصوفية تعنيان اختفاء الوسيلة المذمومة، والصفة غير الحميدة، عند محاولة البحث عن صفة جيدة، وهما لا يعنيان البحث عن شىء غير قائم بوسيلة قائمة.

ان الفقر إلى الله هو بكل معانية فقر مجازى، وهناك مظهر أساسى بين كافة مظاهره الثانوية، إن الأسرار الإلهية تأتى وتذهب للفقير، بحيث يظهر أنه هو الذى يكسب ويعمل ويفكر، ولكن عندما تتحرر شئونه من قيود الكسب

تصبح أعماله منقطعة عن نفسه. وعندئذ يصبح هو الطريق لا السالك بمعنى أن يصبح الفقير المكان الذى يسير عليه، لا سالكا يتبع إرادته ومشيئته هو، فهو لا يجلب لنفسه شيئًا ولا يدفع عنها أى شئ.إن كل ما يؤثر عليه راجع إلى من هو سواه.

لقد قابلت بعض مدعى الصوفية من أرباب اللسان، الذين دفعهم إدراكهم الخاطئ لهذا الموضوع أن ينكروا وجود حقيقة الفقر، بينما وجد أن عدم رغبتهم فى حقيقة الفقر جعلهم ينكرون حقيقته. إنهم سموا إخفاءهم فى البحث عن الحق والحقيقة «فقرا» و«صفاء» ويبدو أنهم كانوا يؤكدون أوهامهم هذه وينكرون ما سواها. إن كل واحد منهم كان محجوبًا عن الفقر إلى حد ما، ذلك أن غرور الصوفية يدفع إلى إدعاء كمال الولاية ويصبح الهدف الأسمى هو أن يصفهم الناس بالمتصوفين، ظانين أن هذا من كمال الولاية، وهذا هو غاية الغايات، وليس على السالك إلا أن يسلك طريق التصوف، وأن يرتقى من مرتبة لمرتبة ويدرك تعبيراتهم الرمزية، حتى لا يصبح من العوام بين المختارين. إن عوام الأصول ليست لهم أرض يقفون عليها أما من يجهلون الفروع فلهم من الأصول ما يدعم مكانتهم.

إنى أقول هذا لأشجعك أن تقوم بهذه السياحة الروحية، وتشغل نفسك بالالتزام بمقتضياتها.

وفى باب التصوف سأقوم بشرح بعض الأصول والأشارات، والتعبيرات الصوفية لهذه الطائفة، ثم سأقوم بعد ذلك بذكر حياة بعض كبار المتصوفين، ثم أوضح بعد ذلك مختلف المبادئ التى يؤمن بها شيوخ التصوف، وبعد ذلك أتحدث عن حقائق التصوف وعلومه وقوانينه، وأخيرًا سأتحدث عن آداب السلوك، وأهمية مراتبه، حتى تتضح حقيقة هذا الموضوع لك ولكل القارئين.

الباب الثالث

فى التصوف

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[١] وقال رسول الله ﷺ ما معناه من سمع صوت داع ولم يؤمن على دعائه كتب عند الله من الغافلين[٢].

وكثيرًا ما كان المعنى الحقيقى لكلمة «متصوف» موضع نقاش، وقد كتبت فى ذلك كتب كثيرة. ويؤكد البعض أن الصوفى لقب بهذا الأسم، لأنه يرتدى رداء من الصوف، ويقول البعض الآخر: إنه لقب بالصوفى لأنه فى الصف الأول، ويقول آخرون: إن السبب هو أنهم ينتمون إلى «أهل الصفة» رضى الله عنهم، وهناك من يقول كذلك إن الاسم مشتق من الصفاء.

ولكن هذه التفسيرات لكلمة صوفى لا توفى متطلبات الاشتقاقات اللغوية، وإن كان لكل رأى ما يؤيده من الحج للدقيقة.

إن الصفاء صفة محمودة، وعكسه الكدر، وقال النبى ﷺ «لقد ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها» ولطائف الأشياء صفوها، وكثائف الأشياء كدرها.

وبما أن الصوفية قد ظهروا بأخلاقهم وتصرفاتهم، حاولوا أن يتجنبوا كل ما يلطخها، فإنهم لذلك يلقبون بالصوفية. وهذه التسمية اسم علم، وبما أن كرامة أهل التصوف من الوضوح بحيث لا تخفى معاملاتهم، لهذا فإن اسمهم فى غير حاجة إلى شرح، وفى هذا الوقت حجب الله تعالى معظم الناس عن الصوفية وعن أتباعها. وأخفى أسرارها عن قلوبهم، ولذلك فإن

---

(١) سورة الفرقان: آية ٦٣.

(٢) ذكره أبو بكر الهيثمى فى مجمع الزوائد.

البعض يتخيل أنها تكون أساسًا من التقوى الظاهرية دون تأمل داخلى، ويعتقد الآخرون أنها نظام لا أساس له، حتى أنهم اتبعوا رأى الساخرين منهم من علماء الظاهر، والذين ينكرون الصوفية إنكارًا كاملاً دون أن يبذلوا أية محاولة لاكتشاف حقيقتها.

إن أولئك الذين يساقون انسياقًا أعمى مع هذا الرأى، قد نزعوا من قلوبهم تلك الرغبة فى الصفاء الباطنى، ونبذوا صفات السابقين الأولين من صحابة رسول الله ﷺ.

ان الصفا صفة الصديق إذا أردت صوفيا على التحقيق

ذلك أن للصفاء أصل وفروع: فأصله انتزاع القلب من الأغيار، وفرعه نفض اليد من هذه الدنيا الخادعة. وكانت هاتان الصفتان تميزان الصديق أبى بكر عبد الله بن أبى قحافه رضي الله عنه. فهو إمام أهل هذا الطريق، ويكفى دليلا على انقطاع قلبه عن الاغيار أن كل الصحابة انكسرت قلوبهم لذهاب الرسول ﷺ إلى الحضرة العلية، والمكان الأسمى، وسل عمر رضي الله عنه سيفه قائلا: «من قال إن النبى قد مات جززت رأسه» وعندئذ تقدم أبو بكر، وقال بصوت عال: «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت»، وتلا الآية الكريمة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[1].

ان كل من يربط قلبه بالفانى فأنه يفنى، ويضيع سعى قلبه هباء، وذلك الذى يمد روحه الى الحضرة الباقية يكون قائما بالبقاء، حين تفنى النفس. أما أولئك الذين ينظرون إليه بعين الحقيقة فيدركون أن وجوده معهم وغيابه عنهم سواء، إذ أن هاتين الحالتين راجعتان إلى الله الذى يبدل كل شئ، وهم لا يبجلون محمدا إلا بالقدر الذى كرمه به الله، ولا تتعلق قلوبهم بأحد غير

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٤.

الله، ولا يفتحون عيونهم ليروا أحدا من البشر واضعين فى اعتبارهم أن «من نظر الى الخلق هلك ومن رجع الى الحق سلك» وقد برهن أبو بكر أن يده قد نفضت من هذه الدنيا الخادعة، فقد تبرع بماله كله ومواليه، وارتدى رداء من الصوف، ثم جاء الى النبى ﷺ فسأله: «وما خلفت لعيالك؟» فأجابه أبو بكر: تركت لهم الله ورسوله. أى تركت لهم خزينتين لا تنفذان وكنزين لا ينتهيان، أى محبة الله تعالى، ومتابعة رسوله. وانكارهما من قبيل انكار العيان.

لقد قلت إن «الصفاء» عكس للكدر، والكدر من صفات الإنسان. ولهذا فإن الوفى الحقيقى هو من يترك الكدر وراء ظهره، وهكذا فقد سيطرت البشرية على نساء مصر، عندما نظرن معجبات الى جمال يوسف عليه السلام. ولكن نظرتهن تغيرت حين رأينه بعد فناء بشريتهن فقلن ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾[1]. ولذلك فإن شيوخ الصوفية رضى الله عنهم يقولون: «ليس الصفاء من صفات البشر، لأن البشر مدر، والمدر لا يخلو من الكدر» ولهذا فالصفاء غير مرتبط بالأفعال، ويمكن القضاء على الطبيعة البشرية بالمجاهدة، وليست صفة الصفاء مرتبطة بالأعمال والأحوال، ولا اسمه متعلق بالأسماء والألقاب، بل الصفاء سمة الأحباب، وهم شموس بلا سحاب، ذلك لأن الصفاء صفة المحبين، والمحب الفانى فى صفاته، والباقى فى صفات محبوبه، وحالاته فى نظر أرباب الحال أشبه بالشمس الساطعة.

لقد سئل حبيب الله محمد المختار عن حال حارثة فأجاب: «عبد نور الله قلبه بالإيمان» أى انه عبد أنار الله قلبه بنور الإيمان فأضاء وجهه كالقمر من النور الإلهى.

وكذلك قال الصوفية: «ضياء الشمس والقمر، إذا اشتركا، نموذج من صفاء الحب والتوحيد إذا اشتبكا». وليس من شك أن ضياء الشمس والقمر لا

---

(١) سورة يوسف: آية ٣١.

قيمة لها بجانب ضوء المحبة والاتحاد مع الله تعالى، ولا تصح المقارنة بينهما ولكن ليس فى هذا العالم من الضوء ما يزيد على هذين الضوءين، وليس فى وسع العين أن ترى ضوء الشمس والقمر فى تمامهما، وهى ترى السماء أثناء إشراق الشمس والقمر، أما القلب فانه يرى العرض بضوء المعرفة والوصول والمحبة، وهو يكتشف العالم الآخر رغم وجوده فى هذا العالم.

ويتفق كل شيوخ الطريقة، رحمهم الله، أنه عندما يتحرر الإنسان من قيود المقامات، ويتخلص من كدورات الأحوال، ويرتفع عن مكان التلون والتغير، ويتصف بالصفات الحميدة كلها، عندئذ ينفصل عن كافة هذه الصفات، بمعنى أنه لا يصبح أسيرا لأى صفة حميدة من صفاته، وأيامه منزهة عن خطرات الظنون فلا يهتم بها، ولا يزداد غروره بوجودها، ويصبح حاله بعيدا عن متناول الفكر، ويصبح حضوره مع الله بلا ذهاب، ووجوده بلا أسباب. فيكون حاضرا بلا غيبة واحدا بلا سبب، ذلك أن الغيبة حينما تحل به لا يكون حاضرا. وعلة وجده ألا يكون واجدا، لأن الصفاء حضور بلا ذهاب، ووجود بلا أسباب. وعندما يصل إلى هذه الدرجة يصبح فانيا عن الدنيا والعقبى، ويصبح ربانيا فى درع الإنسانية، ويصبح الذهب والمدر سواء فى نظره، وتشهل عليه تلك العبادات، التى يرى الآخرون من الصعب عليهم مزاولتها.

جاء حارثة إلى رسول الله ﷺ قال له الرسول: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال ﷺ: أنظر ما تقول يا حارثة، إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك. فقال: عرفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها وفضتها ومدرها، فأسهرت ليلى وأظمات نهارى، وصرت كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتصارعون فيها، وفى رواية أخرى: يتغامزون فيها. قال: عرفت فالزم» قالها ثلاثا[1].

---

(١) طبقات الصوفية ص ١٥٨.

وقد أطلقت كلمة الصوفى على كاملى الولاية ومحققى الأولياء، ويقول أحد المشايخ: «من صافاه الحب فهو صاف ومن صافاه الحبيب فهو صوفى».

ولا تخضع هذه الكلمة للاشتقاقات اللغوية المعروفة إذ أن الصوفية من الرفعة بحيث لا يكون لها أصل تشتق منه.

ذلك أن اشتقاق شئ من شئ آخر يتطلب المجانسة، وكل ما هو موجود عكس للصفاء، ولا يمكن اشتقاق شئ من نقيضه. ومعنى الصوفية بالنسبة للصوفى واضح كضوء الشمس، وليس فى حاجة إلى شرح وتوضيح، لأن الصوفى ممنوع عن العبارة والإشارة. وبما أن كلمة صوفى تتطلب شرحا، فإن كل الناس يحاولون تفسيرها، سواء عرفوا قدرها أم جهلوه، أثناء تعلمهم معناها.

ويقلب الكامل منهم «بالصوفى» ويسمى المريدون والطلاب «بالمتصوفة» إذ أن تصوف على وزن «تفعل» وهو يعنى التكلف، وهو فرع من الأصل، والفرق فى المعنى والاشتقاق واضح: «فالصفاء ولاية لها آية؛ والتصوف محاكاة للصفاء بلا شكاية» وعليه فان الصفاء ساطع رائع، والتصوف محاكاة له.

والناس من هذا فى درجات ثلاث: صوفى ومتصوف ومتشبه.

فالصوفى من فنى غن نفسه وعاش بالحق، من نجا من قبضة الطبائع واتصل بحقيقة الحقائق.

والمتصوف من يحاول الوصول إلى هذا المقام عن طريق المجاهدات، ويحاول أن يصحح من سلوكه، محتذيا حذو الصوفية.

أما المتشبه فهو من يتشبه بالصوفية، من أجل المال والثروة، والجاه والعرض الدنيوى وليست له معرفة بالصوفية أو التصوف. ولهذا قيل: المتشبه عند الصوفية كالذباب، وعند الآخرين كالذئب المتوحش، كل همه التمزيق أو أكل الجيفة. ولهذا فان الصوفى صاحب وصول، والمتصوف صاحب أصول.

والمتشبه صاحب فضول. ومن كان نصيبه الوصول يفقد كل غاية وغرض، بحصوله على غايته وغرضه. ومن كان نصيبه الأصول يتمسك بأحوال الطريق، ويخلص فى التعرف على أسرارها، ولكن من كان نصيبه الفضول يبقى صفر اليدين من كل ما يستحق الحصول عليه، ويبقى عند باب الرسم، ولهذا فهو محجوب عن المعانى، ويجعله هذا الحجاب محجوبا عن الوصول والأصول، وقد أعطى مشايخ الطريق تعريفات دقيقة للصوفية لا يمكن إحصاؤها، ولكن سنذكرها هنا أو بعضها حتى تتم الفائدة إن شاء الله.

فصل:

[جوهر التصوف]

يقول ذو النون المصرى: «الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق»[1] أى عبرت جوارحه عن قطعه لكل ما هو دنيوى: إن كل ما يقوله الصوفى قائم على الحقيقة، وكل ما يفعله قائم على التجريد، إذا قال فقوله حقيقة، وإذا سكت فأعماله جميعا فقر.

ويقول الجنيد: «التصوف نعت أقيم العبد فيه. قيل نعت للعبد؟ أم نعت للحق؟. فقال: نعت للحق حقيقة، ونعت للعبد رسما»[2] بمعنى أن جوهر التصوف يقتضى فناء الصفات البشرية، ويتأتى هذا عن بقاء الصفات الإلهية، وهى من صفات الله. أما مظهره فيقتضى من الإنسان دوام المجاهدة، ودوام المجاهدة من الصفات الإنسانية على الإطلاق. إذ أن الصفات الإنسانية غير ثابتة، فهى ليست إلا رسما لا دوام له إذ أن الفاعل هو الله، ولهذا فهى فى الحقيقة من عمل الله، ولهذا نجد أن الله يأمر عبده بالصيام، ويطلق عليه لقب صائم، والصوم من الناحية الاسمية خاص بالإنسان، ولكنه فى حقيقته خاص بالله قال فى الحديث القدسى: «الصوم لى وأنا أجزى به»[3] لأن كل

(١) طبقات الصوفية ص ١٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٩.

(٣) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة.

افعال لأن كل أفعال الله له، وإذا نسب الناس الصفات لهم، فإنما هذا من الناحية الشكلية المجازية، لا من الناحية الحقيقية.

ويقول أبو الحسين النورى: «التصوف ترك كل حظ للنفس». وهذا الترك نوعان: ظاهرى وحقيقى. مثال ذلك، أنه إذا ترك الإنسان الحظ ووجد الحظ فى الترك، فهو أيضا حظ، وهذا ظاهرى، ولكن إذا تركه الحظ بتة فهذا فناء الحظ. وأصبح ذلك من قبيل المشاهدة، وعليه فإن ترك الحظ من عمل الانسان، ولكن فناء الحظ من عمل الله، فعمل الإنسان ظاهرى، وعمل الله حقيقى. إن قول النورى يوضح ما سبق أن ذكرناه عن الجنيد.

ويقول أبو الحسين النورى أيضا: «الصوفية هم الذين صفت أرواحهم فصاروا فى الصف الأول بين يدى الله». اى صفت أرواحهم عن كدر البشرية، وصفيت من آفات النفس، وتخلصت من الهوى، حتى سكنت الصف الأول إلى الله، وهربت ممن سواه.

ويقول كذلك: «الصوفى الذى لا يملك ولا يملك» ومعنى هذا حقيقة الفناء، إذ أن من فنيت صفاته لا يملك ولا يملك، ونقصد بالملكية هنا ملكية الأشياء الفانية وحدها، والمعنى أن الصوفى لا يمتلك لنفسه اى عرض من أعراض هذه الدنيا أو أى جاه فى العالم الآخر إذ أنه لا يملك حتى نفسه.

أنه لا يرغب فى التسلط على الغير، حتى لا يرغب الغير فى التسلط عليه، وهذا قول لطيف ويشير هذا القول إلى سر من أسرار الصوفية، يسمونه «الفناء الكلى» وسوف نذكر إن شاء الله فى هذا الكتاب المواضع التى أخطأوا وفيها حتى يصير ذلك معلوما لديك.

ويقول ابن الجلاء: «التصوف حقيقة لا رسم له». إذ أن الرسم خاص بالإنسان فى معاملا ته، أما الحقيقة فهى خاصة بالله، وبما أن الصوفية هى

الابتعاد عن البشرية، فلذك كانت بلا رسم.

ويقول أبو عمرو الدمشقى رحمه الله: «التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن الكون»[1]، فقوله: «التصوف هو النظر إلى الكون بعين النقص، هذا دليل بقاء الصفة، وقوله «بل غض الطرف عن الكون» هذا هو دليل بقاء الصفة عن النظر فى الكون فحينما لا يبقى الكون لا يبقى النظر، وغض الطرف عن الكون بقاء البصيرة الربانية، أى أن كل من يعمى نفسه يبصر بالله ذلك أن الكون يطلب من يطلبه، فأعماله من نفسه وإليها، فلا طريق خارجى يهرب به عن نفسه، إذن فثمة شخص يرى نفسه ولكنه لا يرى مساوئه، وآخرى يغض الطرف عن نفسه فذلك الذى يرى، وإن كان يرى مساوئه فبصيرته حجاب، وذلك الذى لا يرى لا يصير محجوبا بالعمى، وهذا أصل قوى من أصول التصوف عند أرباب المعانى وليس هنا مقام شرحه.

يقول أبو بكر الشلبى رحمه الله: «التصوف شرك» لأنه صيانة القلب من رؤية الغير ولا غير، يعنى أن رؤية غير الله فى التوحيد شرك وعندما لا يكون للغير قيمة فى القلب فمن السخف أن تحمى القلب من تذكر الغير.

ويقول الحصرى: «التصوف صفاء السر من كدورات المخالفة» ومعناها أن من الواجب حماية القلب من الاختلاف مع الله، إذ أن المحبة وفاق، والوفاق عكس الاختلاف، وليس للمحب إلا واجب واحد فى هذا العالم، وهو أن ينفذ أمر محبوبه. وإذا كان القصد واحدا فكيف يقوم الخلاف. ويقول محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين «التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف» وحسن الخلق نوعان: متعلق بالله وبالإنسان، والأول الرضا بقضاء الله، والثانى تحمل أعباء صحبة الناس من أجل الله. وهذا أن المظهرا خاصان بالطالب، والله غنى عن رضا الطالب أو غضبه وتتوقف هاتان الصفتان على ادراك الطالب لوحدة الله.

---

(١) طبقات الصوفية ص ٢٧٨.

ويقول أبو محمد المرتعش: «الصوفى لا تسبق همته خطوته» بنفتى أنه دائما فى حضور، إذ توجد نفسه أينما وجد جسمه، ويوجد جسمه أينما وجدت نفسه، وهذه علامة الحضور دون الغيبة؛ ويقول الآخرون عكس ذلك: أنه يغيب عن نفسه ويحضر مع الله. وليس الأمر كذلك بل هو حاضر مع نفسه حاضر مع الله، والمعنى يشير إلى جمع الجمع، إذ لا يمكن أن يكون هناك غيبة عن النفس ما دام الانسان ينظر إلى نفسه، وعندما يتوقف نظر الانسان إلى نفسه يكون هناك حضور مع الله دون غيبة.

وهذا المعنى قريب مما قاه الشبلى: «الصوفى لا يرى فى الدارين مع الله غير الله» وباختصار فان بقاء البشرية غير، وحينما لا يرى الانسان الغير لا يرى نفسه، ويصبح خاليا من النفس فى حال نفيه وإثباته. يقول الجنيد: «التصوف مبنى على ثماني خصال: السخاء والرضا والصبر والاشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر».

أما السخاء فلإبراهيم، وأما الرضا فلإسماعيل، وأما الصبر فلأيوب، وأما الأشارة فلزكريا، وأما الغربة فليحى، وأما لبس الصوف فلموسى، وأما السياحة فلعيسى، وأما الفقر فلمحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم. ويعنى أن الصوفية تقوم على ثمانى صفات، تتمثل فى ثمانية رسل: «كرم إبراهيم الذى ضحى بابنه الذى تحمل صابرا عذاب الحشرات، وامتحان الرؤوف الرحيم، واشارة زكريا الذى قال له الله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾[1] وقال أيضا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[2]. وغربة يحيى الذى كان غريبا فى بلده وعن قومه، وسياحة عيسى الذى أبت نفسه الأغراض الدنيوية حتى أنه لم يحتفظ لنفسه الا بكوب

---

(١) سورة آل عمران: آية ٤١.

(٢) سورة مريم: آية ٣،٢.

ومشط، وقد ألقى بالكوب عندما رأى شخصا يشرب الماء بيديه وألقى بالشط عندما رأى شخصا يستخدم أصابعه، ولبس الصوف لموسى الذى كان رداؤه من الصوف، والفقر لمحمد الذى أعطاه الله مفاتيح كنوز الدنيا قائلا: «لا تأس عليهم وخذ ما تريد من متاع هذه الكنوز. فأجاب: أشبعنى يوما وأجعنى يومين» وهذه أسمى مبادئ السلوك.

ويقول الحصرى: «الصوفى لا يوجد بعد عدمه ولا يعدم بعد وجوده»[٣] بمعنى أنه لا يفقد أبدًا ما وجده ولا يجد أبدا ما فقده.

وهناك معنى آخر هو وجوده ليس فيه «لا وجود» وأن لا وجوده ليس فيه وجود أى وقت بحيث يكون، إما فى إثبات بغير نفى، أو فى نفى بغير إثبات.

والغرض من كل هذه التعبيرات هو أن بشرية الصوفى يجب أن تتلاشى، وشواهده يجب أن تختفى، وارتباطه يجب أن ينقصم، حتى ينكشف سر بشريته وتتجمع تفاريقه فى حال الجمع، وحتى يحيا فى نفسه.

ويمكن أن تظهر نتيجة ذلك فى حياة رسولين: أولهما موسى الذى لم يكن فى وجوده عدم ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾[١] وثانيهما محمد الذى لم يكن فى عدم وجود فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٢].

إن الأول سأل مولاه أن يزينه وناشده تشريفه اياه. ولكن الثانى قد نال الشرف إذ لم يكن له سؤال أو بغية يطلبها لنفسه.

---

(٣) طبقات الصوفية -مرجع سابق ص ٤٩١ .

(١) سورة طه: آية ٢٥،٢٦ .

(٢) سورة الشرح: آية ١.

ويقول على بن بندار الصيرفى النيسابورى: «التصوف إسقاط الرؤية للحق ظاهرا وباطنا»[١]. بمعنى أن الصوفى لا يجب أن يرى ظاهره أو باطنه، بل يعتبرهما لله وهكذا فاذا نظرت إلى الظاهر وجدت عناية الله فى الظاهر، وعندئذ فان الأعمال الظاهرية لا تساوى جناح بعوضة، إذا قورنت بنعمة الله ولذلك وقفت عن رؤية الظاهر.

وإذا نظرت إلى الباطن وجدت مظهرا لعون الله، وعندئذ فان الأعمال الباطنية لا تبلغ مثقال ذرة إذا قورنت بعون الله، ولذلك توقفت عن الرؤية للباطن وترى أن كل شئ لله. وعندما ترى أن كل شئ لله تجد أنك لا تملك من الأمر شيئا.

ويقول محمد بن أحمد المقرئ «التصوف استقامة الأحوال مع الحق»[٢] أى أن الأحوال تغرى الصوفى بعيدا عن الخق أو ترميه فى الاعوجاج إذ أن من انعقد قلبه على محول الأحوال لا يسقط من مرتبة الاستقامة ولا يحجب عن الوصول إلى الحق.

فصل:

قولهم فى المعاملات

يقول أبو حفص الحداد النيسابورى «التصوف كله آداب. لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب. فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال. ومن ضيع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول»[٣] ومعنى هذا قريب من حكمة أبى الحسين النورى: «ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق»[٤] فلو كان رسوما لحصلت عليها بالمجاهدة، ولو كا علوما

---

(١) أنظر النفحات رقم ٢٣٣.

(٢) انظر طبقات الأنصارى ص ٤٧٧.

(٣) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٩.

(٤) المرجع السابق ص ١٦٧.

لتوصلت إليها بالتعلم، لكنه أخلاق ما دمت تطلب أحكامها من نفسك، ولا تصحح معاملاتها مع نفسك ولا تعطيها الإنصاف من نفسك فلا تحصل عليها.

والفرق بين الرسوم والأخلاق، هو أن الرسوم أعمال رسمية، نابعة من دوافع معينة فهى أعمال خالية من الحقيقة، بحيث تصبح صورتها غير حقيقية.

أما الأخلاق فهى أعمال حميدة، ليست لها غاية أو غرض، أعمال ليس فيها ادعاء، يتفق شكلها مع طبيعتها.

ويقول المرتعش: «التصوف حسن الخلق» ويتكون من ثلاثة أنواع:

حسن الخلق مع الله باتباع أوامره دون نفاق.

وحسن الخلق مع الناس باحترام الكبير ورحمة الصغير والعدل مع الأقران، وعدم طلب الجزاء أو العدل مع الناس بوجه عام.

وحسن الخلق مع نفسك بألا تتبع نوازع الشيطان. ومن يوف هذه الأمور الثلاثة يصير خيرا.

ويتفق ما قلته مع قصة عن عائشة الصديقة رضى الله عنها فقد سئلت عن طبيعة النبى عليه الصلاة والسلام فأجابت: اقرأوا القرآن فقد أخبر الله عنه حيث قال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

ويقول المرتعش كذلك: «هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشئ من الهزل»[2]. أى أن مبدأ الصوفية كله جد فلا تخلطوه بالهزل ولا تتبعوا أسلوب المترسمين، وتجنبوا من يحاكونهم بصورة عمياء. إن العامة عندما يرون أولئك المترسمين بين صفوف أهل التصوف فى وقتنا، ويرون رقصهم وغناءهم

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٩٩.

(٢) طبقات السلمى ص ٣٥٧.

وزيارتهم قصور السلاطين ونزاعهم على صدقة أو لقمة عيش، تفسد عقيدتهم فى كل أهل الصوفية، يقولون: هذه هى مبادئ الصوفية المعاصرين وليست مبادئ الصوفيين القدامى إلا صورة منها. وهم لا يدركون أن الزمن فترة، والأيام بلاء.

وبما أن الطمع يجعل السلطان جائرا، والشهوة تجعل العالم فاسقا، والرياء يجعل الزاهد منافقا، والغرور يحمل الصوفى على الرقص والغناء، فعليك أن تدرك أن الفساد فى الرجال الذين يعتنقون هذه المبادئ، لا فى المبادئ ذاتها واعلم أن بعض الهازلين قد استخفوا فى رداء الصوفيين الأحرار، ولذلك لا تجعل جد هؤلاء الأحرار هزلا.

ويقول القرميسينى: «التصوف هو الأخلاق الرضية»[١] والأخلاق الرضية هى أن يرضى المخلوق عن الله فى كل الأعمال ويقنع بما قسمه الله.

ويقول أبو الحسين النورى: «التصوف هو الحرية والفتوة وترك التكلف والسخاء وبذل الدنيا»[٢]. يعنى أن التصوف يحرر المرء من قيود الرغبة والفتوة تجرده من غرور السخاء، وترك التكلف فى ألا يجاهد فيما يتعلق به والسخاء أن يترك الدنيا لأهلها.

ويقول الحسين البوشنجى[٣]: التصوف اليوم اسم بلا حقيقة وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم «يعنى أن هذا الاسم لم يكن موجودا فى عهد الصحابة رضى الله عنهم وفى صدر الإسلام، ولكن حقيقته كانت فى كل شخص، أما اليوم فقد وجد الاسم وغابت الحقيقة». ويعنى هذا أن مزاولة حقيقة التصوف كانت سائدة فى الماضى ولم يسد الادعاء به. أما اليوم فقد ساد الادعاء ولم يسد العمل.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٦.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٩.

(٣) فى الأصل ابو الحسن بو شنجه.

لقد ذكرت فى هذا الباب عددا من أقوال الشيوخ عن الصوفية وقمت بشرح هذه الأقوال حتى يتضح هذا الطريق لك ـ منحك الله السعادة ـ وحتى تقول للمتشككين: «ماذا تعنون بانكاركم حقيقة التصوف؟» فاذا كانوا ينكرون الاسم المجرد فليس هذا مهما إذ أن الأفكار لا ترتبط بالأسماء وأما إذا كانوا ينكرون الحقائق الأساسية فان معنى هذا أنهم ينكرون كل ما جاء به النبى وكل صفاته الحميدة وإنى أناشدك فى هذا الكتاب، أن تضع هذه الأفكار موضع اعتبارك حتى تبتعد عن الادعاء وتعتقد فى رجال التصوف.(1)

والله هو الموفق.



(١) يقصد المصنف رحمه الله رجال التصوف الحقيقى الذين يعملون بكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه ﷺ والذين يبتعدون عن كل ما يشين المسلم وليس التصوف الدخيل أو المبتدع .

الباب الرابع

فى ارتداء المرقعات

اعلم أن ارتداء المرقعات هو شعار الصوفية، إذ أن ارتداء مثل هذه الملابس سنة فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: «عليكم بلبس الصوف تجدون حلاوة الإيمان فى قلوبكم»[١] وقال أحد الصحابة: «كان النبى ﷺ يلبس الصوف ويركب الحمار»[٢].

وقال النبى لعائشة: «لا تضعى الثوب حتى ترقعيه»[٣].

ويقال: إن عمر بن الخطاب كان يلبس ثوبا مرقعا به ثلاثون رقعة، وروى عن عمر أنه قال: خير الأثواب ما قلت مئونته. ويروى عن أمير المؤمنين على أنه كان لديه ثوب أكمامه حتى أصابعه وأنه إذا لبس رداء أطول كان يقص أطراف أكمامه.

وقد أمر النبى كذلك أن يقصر ثيابه فقد قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٤] أى قصرها. ويقول الحسن البصرى «لقد رأيت سبعين صحابيا من أهل بدر وكانوا جميعا يرتدون الصوف. وكان الصديق يرتدى الصوف فى تجريده.

ويقول الحسن البصرى أيضا: رأيت سلمان الفارسى يلبس رداء مرقعا من الصوف». وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب وهرم ابن حيان أنهم رأوا أويسا القرنى يلبس لباسا من الصوف مرقعا.

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى عن أبى امامة.

(٢) ضعفه السيوطى.

(٣) انظر تنبيه الغافلين لنصربن محمد السمرقندى ص ٨٠ استانبول ١٣٢٩.

(٤) سورة المدثر: آية ٤.

كما أن الحسن البصرى ومالك بن دينار وسفيان الثورى كانوا يلبسون المرقعات، وروى عن الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ـ وجاء ذلك فى تاريخ طبقات المشايخ لمحمد بن على الحكيم الترمذى ـ أنه كان يرتدى أول الأمر ملابس من الصوف وأوشك أن يعتزل العالم فرأى النبى ﷺ فى منامه يقول له: «يجدر بك أن تحيا وسط الناس فبك ستحيا سنتى» وعندئذ رجع عن العزلة ولكنه لم يلبس قط ملبسا ذا قيمة.

وكان داود الطائى من المتصوفين الحقيقين، وكان يدعو إلى لبس الصوف. وذهب إبراهيم بن أدهم إلى الإمام الجليل أبى حنيفة لا بسًا رداء من الصوف، فنظر إليه تلاميذ الإمام نظرة المحتقر المستنكر، إلى أن قال أبو حنيفة: لقد جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم فقال أتباع الإمام: إن الإمام لا يقول هزلا، فكيف نال هذه السيادة، فأجاب أبو حنيفة: بمواصلة العبادة فقد اشتغل بالله واشتغلنا بأنفسنا فأصبح سيدنا.

وقد يحدث فى عصرنا هذا أن يرتدى بعض الناس ثيابا مرقعة من أجل الشهرة والصيت، وعلى الرغم من أن قلوبهم تكذب مظهرهم فليس هناك للجيش إلا قائد واحد. والصادقون فى كل فئة قليلون، ومع ذلك فإن الناس يعتبرون الصوفى كل من تشبه بالصوفية، حتى وإن كان ذلك فى صفة واحدة من صفاتهم ويقولون إن النبى ﷺ قد قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»[1] وإذا كان بعض الناس لا يهتمون إلا بظاهر أعمالهم فان الآخرين يوجهون كل اهتمامهم إلى الصفاء الباطنى.

ولا يخرج من يريدون الارتباط بالمتصوفين عن أربعة أصناف:

١- من أعانه صفاؤه واستنارته ودقة إدراكه واتزان طبعه وحسن أخلاقه على أن يتبصر بما فى قلوب المتصوفين، بحيث يدرك مدى اقتراب رجالهم من الله، ومدى ارتقاء الطاهرين منهم، فيتصل بهم بغية الارتقاء إلى نفس المكانة،

(١) ورد فى بستان العارفين ص ١١٩.

وأول مظهر من مظاهر سلوكهم كشف الأحوال، وتطهير أنفسهم من الرغبة وترك اللذات.

٢- من أعانته صحة بدنه، وطهارة قلبه، وصفاء ذهنه على رؤية أعمالهم الظاهرية، فيركز اهتمامه على ما يقومون به: من اتباع للشريعة المقدسة، وحفظ آداب الإسلام ومختلف المعاملات، وحسن سلوكهم. ولهذا يحاول الاتصال بهم وينهمك قلبا وقالبا فى مزاولة أعمالهم. وأول مظهر من مظاهر سلوكه هو المجاهدة والخلق الحسن.

٣- من تمكنه إنسانيته وعاداته وحسن طبعه من أن يفكر فى أعمالهم، ويرى فضائل حياتهم، وكيف يعاملون كبارهم باحترام، وصغارهم بكرم، ورفاقهم بمحبة وكيف لا يهمهم الكسب الدنيوى، وكيف يعتنون بما أعطاهم الله، فينشد صحبتهم، ويسهل على نفسه الطريق الدنيوى الوعر، ويصبح فى فراغه من الأخيار.

٤- من يقوده غباؤه وضعف نفسه؛ وحبه للسلطة على غير حق، وللجاه على غير علم، أن يظن أن الأفعال الظاهرية للصوفية هى كل شئ، وعندما يدخل فى صحبتهم يعاملونه بعطف وتسامح، رغم اقتناعهم بأنه جاهل كل الجهل بالله، وأنه لم يحاول قط أن يسير فى طريق المجاهدة، ولهذا يحترمه الناس احترامهم للصوفى الحقيقى، ولأحد أولياء الله، ولكن مقصده هو أن يلبس لباسهم ويخفى نقائصه تحت رداء من التقوى، فهو مثل ﴿الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[1] وأغلبهم فى وقتنا هذا من المدعين، الذين وصفناهم. ولهذا فخليق بك ألا تظهر إلا بحقيقتك فلو أنك قلت بقبول الطريقة ألف عام، لم تحسب منها الا اذا قبلتك، اذ أن الحرقة هى التى تصنع الصوفى لا الخرقة.

---

(١) سورة الجمعة: آية ٥.

وحينما يألف المرء الطريقة لا يفرق بين العباءة يرتديها الدرويش، والجبة يرتديها الشخص العادى، وحينما يكون الشخص غريبا عن الطريق تكون مرقعته رقعة الأدبار، ومنشور شقائه يوم النشور.

وقد سئل أحد كبار المشايخ[1] لماذا لا يرتدى المرقعة فقال: «من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة» فاذا كنت بارتدائك لهذا الرداء تريد أن ترى الله أنك أحد المصطفين، فإن الله يعلم حقيقتك دون لباس، واذا كنت تريد أن ترى الناس أنك من أهل الله، فإن كنت صادقا أصبحت مرائيا، وإن كنت كاذبا أصبحت منافقا.

إن الصوفية من العظمة بحيث لا يحتاجون إلى رداء من هذا النوع، فإن الصفاء من الله إنعام وإكرام، والصوف لباس الأغنام. إذن فالمحاكاة حيلة، وفريق يتقربون بالحيلة، وكل ما يجعلونه لأنفسهم إنما يزينون به الظاهر أملا فى أن يجعلوا أنفسهم مثلهم.

لقد أمر الشيوخ المريدين أن يلبسوا الملابس المرقعة، ولبسوها بأنفسهم، كى يعرفهم الناس ويراقبوهم، فإذا أخطأ أحدهم لامه كل لسان، وإذا أرادوا المعصية وهم يرتدون هذا الرداء منعهم عنها الخجل.

وفى الجملة: المرقعة زينة أولياء الله عز وجل، هى عز للعامة، وذل للخاصة، فهى عز لأن العامى حين يرتديها يحترمه الخلق بها، وهى ذل الخاص لأنه حين يلبسها يساوى الناس بينه وبين الخاص ويلومونه عليها، إذن فهى لباس النعم للعوام، وجوشن البلاء للخواص، ويلجأ إليها كثير من العوام حينما لا يصلون بأمر آخر، ولا يكون لهم فى طلب الجاه وسيلة أخرى يطلبون بها الرياسة، فيجعلون منها سببا لجمع النعمة.

وأيضا فالخواص قالوا بترك الرياسة واختاروا الذل على العز حتى

---

(١) هو ابو عبد الله السجزى.

صارت لهؤلاء القوم بلاء ولأولئك نعمى، فالمرقعة قميص الوفاء لأهل الصفاء، وسربال السرور لأهل الغرور، فأهل الصفاء بلبسها يتجردون من الكونين، وينقطعون عن المألوفات أما أهل الغرور فيحتجبون بها عن الحق، ويعجزون بها عن الصلاح. وفى الجملة هى للجميع سمت الصلاح وسبب الفلاح، والجميع يحصلون على رغبتهم فيها، فهى لواحد صفاء، وللآخر عطاء، وللثالث غطاء، وللرابع وطاء، وآمل أن تنجو بحسن صحبة بعضكم بعضا ومحبة أحدكم للآخر ذلك أن الرسول ﷺ قال: «من أحب قوما فهو معهم»[1] فيوم القيامة يبعث الأخلاء معا، ويكون كل فى زمرته، ولكن يجب أن يطلب باطنك التحقيق وأن يعرض عن الرسوم، فكل من يقنع بظاهر الأمور لا يصل أبدا إلى لبها.

واعلم أن وجود البشرية حجاب الربوبية، ولا يفنى الحجاب الا فى الأحوال وفى داخل المقامات، والصفاء اسمه الفناء، ومحال أن يكون لفانى الصفة مجال لاختيار الثياب أو أن يتخذ زينة ما تكلفا فحينما يبدو فناء الصفة وتنتفى آفة الطبيعة يتساوى أن يسمى أولا يسمى بالصوفى.

فصل:

[بساطة المرقعات]

يجب أن تراعى البساطة والخفة فى صنع المرقعات، وعندما يبلى الثوب الأصلى يجب أن توضع عليه رقعة. وللمشايخ رأيان فى هذا الموضوع، فيقول البعض انه ليس من الضرورى الرقعة بعناية ودقة، وأنه من الواجب خياطتها حيثما اتفق دون كبير عناء واهتمام.

ويقول الآخرون إنه من الواجب أن تكون الخياطة مستقيمة منتظمة، وإن على الدرويش أن يتعلم كيف يحيكها بانتظام، وأن يهتم بتدريب نفسه على ذلك، فهذه هى عبادة الفقر، وصحة العبادة دليل على صحة الأصل.

---

(١) أخرجه الطبرانى

وقد سألت ـ أنا على بن عثمان الجلابى ـ الشيخ الكبير أبا القاسم الجرجانى فى طوس قائلاً: «ما أدنى ما على الدرويش أن يصنعه، حتى يكون خليقا بالفقر؟.

فأجاب: عليه أن يكون لديه ما لا يقل عن أشياء ثلاثة: أولها أن يحسن خياطة رقعته، وثانيها أن يحسن الإصغاء، وثالثها أن يحسن وضع قدمه على الأرض. وكان عدد من الدراويش حضروا معى عندما قال هذا، وما أن غادرنا المكان وعدنا إلى دويرة حتى بدأ كل منا تطبيق هذا القول على نفسه، وأقبل بعض الجهلاء يفسرونه حسب أهوائهم، وقال البعض «هذا هو الفقر حقيقة» وأسرعوا يصنعون الرقع بعناية، ويطأون الأرض بصورة صحيحة، وتخيل كل منهم أنه يعرف كيف يحسن الانصات لما يقال فى التصوف.

وبما أن قلبى كان متعلقا بالسيد، ولم أرد أن يذهب كلامه هدرًا، قلت: فليقل كل قوله فى هذا الموضوع؛ فبدأ كل واحد يشرح وجهة نظره وعندما جاء دورى قلت: «الرقعة الصحيحة هى تلك التى تحاك من أجل الفقر لا من أجل التظاهر، فإذا حيكت من أجل الفقر كانت صحيحة حتى وإن كانت حياكتها خاطئة، والكلمة الصحيحة هى تلك التى تسمع بحال أمينة، والتى يتم تطبيقها بجد لا بهزل، والتى يعيها القلب لا العقل، والخطوة الصحيحة هى تلك التى توضع على الأرض بنشوة حقيقية لا بصورة هازلة أو متكلفة.

وقد وصلت ملاحظاتى إلى السيد أبى القاسم الجرجانى الذى قال: «لقد أحسن على أثابه الله». وهدف الجماعة من لبس المرقعات أن يخففوا عبء هذه الدنيا، ويخلصوا فى فقرهم إلى الله.

ويروى من الأخبار الصحيحة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يلبس المرقع عندما رفع إلى السماء وقال أحد المشايخ: لقد رأيته فى منامى لابسًا حلة مرقعة من الصوف والنور يشرق من كل رقعة، فقلت: أيها السيد المسيح ما هذا النور الذى يخرج من ردائك؟ فأجاب نور الرحمة، فقد وضعت كل رقعة

من هذه الرقع بسبب حاجتى وعوزى، وقد حول الله تعالى كل الامى إلى أنوار.

وقد رأيت فى ما وراء النهر رجلا طاعنًا فى السن، ينتمى إلى طائفة الملامتية، ولم يكن يأكل أو يلبس شيئًا صنعته يد الإنسان، وكان طعامه مما يلقيه الآخرون، مثل الخضروات الفاسدة واللبن الفاسد، والجزر المتعفن، وما شابه ذلك، وكانت ملابسه من الخرق التى التقطها من الطريق وغسلها، وصنع منها رداء مرقعًا. وسمعت أن من بين المتصوفة الحديثين، بمرو الروذ، رجلا كبير السن، من ذوى الحال والأخلاق الطيبة، وكان يحيك الرقع دون عناية على سجادة صلاته ولباس رأسه، حتى أن العقارب كانت تربى صغارها فيها.

وسمعت كذلك أن شيخى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ارتدى جبة واحدة مدة إحدى وخمسين سنة، وكان يضع عليها الرقع دون كبير إهتمام[١].

وقد قرأت هذه القصة بين قصص رجال الله فى العراق: كان هناك درويشان أحدهما صاحب مشاهدة، والآخر صاحب مجاهدة، وكان أولهما لا يرتدى إلا الملابس التى يصنعها من الخرق، والتى يقطعها الدراويش من ملابسهم فى حال السماع، أما ثانيهما فكان يستخدم للغرض نفسه القطع التى يمزقها الدراويش أثناء توبتهم، وهكذا كان رداء كل منهما متفقًا مع اتجاهه الباطنى، منسجمًا مع حاله.

وكان الشيخ محمد بن عبد الله بن خفيف يرتدى ملبسًا خشنًا من الصوف، مدة عشرين سنة وفى كل سنة كان يصوم أربع فترات، كل فترة منها أربعين يومًا، وبعد كل أربعين يومًا كان يكتب مؤلفًا عن أسرار علوم الحقائق الإلهية، وكان يعيش فى زمنه أحد المتفقهين المنتمين إلى الطريقة والحقيقة يعيش بالقرب من فارس، وكان يدعى محمد بن زكريا ولم يلبس قط مرقعة،

---

(١) الصحيح عند القوم هو تغيير المرقع بآخر لغسله وتنظيفه، فالإسلام بحث على النظافة، ولنافى رسول الله أسوة حسنة، فكان ﷺ يهتم بهندامه ونظافته الشخصية ونظافة ملابسه.

وسئل الشيخ محمد بن خفيف: ماذا يلزم بلبس المرقعة؟ ومن الذى يسمح له بذلك؟ فأجاب: «يقتضى ذلك ما يقوم بها ابن زكريا فى ردائه الأبيض ويسمح له بلبس مثل هذا الرداء.

فصل:

ليس من عادة الصوفية أن يغيروا عاداتهم. وهناك سببان يجعلان ارتداء رجال التصوف الملابس المصنوعة من الصوف فى الوقت الحاضر شيئًا نادرًا.

١- أن الأصواف قد شحت والحيوانات التى يؤخذ منها الصوف يدفعها المغيرون من مكان لآخر.

٢- أن طائفة من المبتدعة تلبس الصوف كشعار لها ومن المستحسن أن تبتعد عن شعار المبتدعة حتى وإن كان فى ذلك ابتعاد عن سنة مستحبة.

ومن المسموح به للصوفية الاهتمام والتكلفة فى صنع المرقعات، ذلك لأنهم قد احتلوا مكانة مرموقة بين الناس، وبما أن الكثيرين يقلدونهم فى لبس المرقعات، رغم ارتكاب هؤلاء المعاصى، وبما أن الصوفى لا يأنس إلا لصحبة الصوفى، لهذا فقد ابتكروا لباسا لا يمكن أن يصنعه غيرهم، وجعلوا منه وسيلة يعرف به أحدهم الآخر، واتخذوه شعارا لهم حتى أنه إذا جاء درويش لابسا رداء مرقعا حيكت رقعه بغرز أكبر يجب طرده من حضرتهم.

وحجتهم أن الصفاء قائم على رقة الطبع ودقته، وليس من شك أن الانحراف فى الطبع غير حميد، إذ أنه من الطبيعى ألا توافق على الأعمال غير الصحيحة، وكما أنه من الطبيعى ألا تشعر بالنشوة والسرور عند سماعك للشعر الردئ فإن الأفعال السيئة لا يستحسنها الطبع.

وهناك آخرون لا يهتمون بالملبس على الإطلاق يرتدون عباءة أو جبة عادية كما منحهم الله، وإذا أراد تعالى أن يجعلهم عرايا ظلوا كما أراد، وإنى

أنا على بن عثمان الجلابى أوافق على هذا المبدأ وقمت بتطبيقه فى رحلاتى.

ويحكى أن أحمد بن خضرويه كان يلبس جبة عندما زار أبا يزيد، وأن شاه بن شجاع الكرمانى لبس جبة عند زيارته أبا حفص. ولم يكن هذا رداءهما المعتاد، إذ كانا يلبسان المرقع فى بعض الأحيان، ولباسا من الصوف أو قميصا أبيض فى أحيان أخرى، حيثما اتفق لهم.

والنفس الإنسانية تحب العادة وتخضع لها، وعندما تعتاد شيئا يصبح طبيعيا بالنسبة لها، وعندما يصبح طبيعيا يصير حجابا: قال عليه الصلاة والسلام «خير الصيام صيام أخى داوود فسألوه: يا رسول الله أى صيام ذلك؟ فقال: كان داود يصوم يوما ويفطر يوما وذلك حتى لا تصبح نفسه معتادة على الصيام أو على الإفطار»[1].

وكان أخلص الأصدقاء أبو حامد الدستان المروزى محسنا كل الإحسان فى هذا الموضوع، فقد اعتاد تلامذته أن يضعوا عليه رداء ولكن عندما كانوا يريدون أخذ هذا الرداء كانوا يبحثون عنه وقت راحته ووحدته ويأخذون الرداء منه، وكان لا يقول لمن وضعوا عليه الرداء: لماذا وضعتوه؟. أو لمن أخذوا الرداء: لماذا أخذتموه؟.

وهناك فى الوقت الحاضر فى غزنه حفظها الله رجل طاعن فى السن، يدعى مريد، ليس له اختيار أو تمييز بما يختص بما يرتديه ولا شك أنه محسن فى هذا.

أما بالنسبة للون الأزرق، الذى يغلب على ملابسهم، فمن أسباب ذلك أن لهم سياحات، فالسياحة من أسس طريقتهم، وفى السياحة لا يحتفظ الرداء الأبيض بلونه الأصلى، ولا يسهل غسله علاوة على أنه موضع اشتهاء كل شخص.

---

(١) رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمر.

أنا على بن عثمان الجلابى أوافق على هذا المبدأ وقمت بتطبيقه فى رحلاتى.

ويحكى أن أحمد بن خضرويه كان يلبس جبة عندما زار أبا يزيد، وأن شاه بن شجاع الكرمانى لبس جبة عند زيارته أبا حفص. ولم يكن هذا رداءهما المعتاد، إذ كانا يلبسان المرقع فى بعض الأحيان، ولباسا من الصوف أو قميصا أبيض فى أحيان أخرى، حيثما اتفق لهم.

والنفس الإنسانية تحب العادة وتخضع لها، وعندما تعتاد شيئا يصبح طبيعيا بالنسبة لها، وعندما يصبح طبيعيا يصير حجابا: قال عليه الصلاة والسلام «خير الصيام صيام أخى داوود فسألوه: يا رسول الله أى صيام ذلك؟ فقال: كان داود يصوم يوما ويفطر يوما وذلك حتى لا تصبح نفسه معتادة على الصيام أو على الإفطار»(١).

وكان أخلص الأصدقاء أبو حامد الدستان المروزى محسنا كل الإحسان فى هذا الموضوع، فقد اعتاد تلامذته أن يضعوا عليه رداء ولكن عندما كانوا يريدون أخذ هذا الرداء كانوا يبحثون عنه وقت راحته ووحدته ويأخذون الرداء منه، وكان لا يقول لمن وضعوا عليه الرداء: لماذا وضعتوه؟. أو لمن أخذوا الرداء: لماذا أخذتموه؟.

وهناك فى الوقت الحاضر فى غزنه حفظها الله رجل طاعن فى السن، يدعى مريد، ليس له اختيار أو تمييز بما يختص بما يرتديه ولا شك أنه محسن فى هذا.

أما بالنسبة للون الأزرق، الذى يغلب على ملابسهم، فمن أسباب ذلك أن لهم سياحات، فالسياحة من أسس طريقتهم، وفى السياحة لا يحتفظ الرداء الأبيض بلونه الأصلى، ولا يسهل غسله علاوة على أنه موضع اشتهاء كل شخص.

---

(١) رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمر.

صوتا يقول فى أعماقى: بسبب نظرة عاصية نزعنا عنك المرقع وهو رداء التقوى، فاذا نظرت مرة ثانية نزعنا رداء القرب من قلبك.

فاللباس الذى يكون ارتداؤه سببا فى القرب من الله، ويرتديه أولياء الله تعالى على التوفيق لا ينبغى أن تزاول الحياة مع عدم القيام بحقه فالخيانة لا تليق برداء الأولياء وذلك بأن تكون مسلما على التحقيق دون ادعاء أفضل من أن تكون وليا كذابا.

وليس أهل لارتداء المرقع إلا نوعين من الرجال: من ترك الدنيا، ومن اشتاق إلى المولى.

ويتبع شيوخ التصوف هذه القاعدة عندما ينضم سالك جديد إليهم بغية ترك الدنيا، فيخضعونه لنظام روحى ثلاث سنوات، فاذا وفى متطلبات هذا النظام فخير، وإلا أعلنوا أنه غير أهل للطريق، وهم يخصصون أول سنة لخدمة الناس، والسنة الثانية لخدمة الله، والسنة الثالثة لمراعاة تقلبات قلبه.

وهو لا يخدم الناس إلا إذا وضع نفسه موضع الخدم، ووضع كافة الناس موضع السادة. بمعنى أنه يجب أن يعتبر كافة الناس أفضل منه، وأن واجبه خدمتهم جميعا على سواء.

ويجب ألا يعتبر نفسه أعلى شأنا ممن يخدمهم، ففى هذا الخسران المبين والخداع الواضح، والغبن الفاحش، وهو سبب من أسباب الضياع، الذى لا دواء له فى هذا العصر. ولا يمكنه أن يخدم ربه إلا حين ينزع عنه كافة رغباته بالنسبة لهذه الدنيا والآخرة، ولا يعبد الله إلا لله سبحانه وحده، إذ أن من يعبد لأى غرض يعبد نفسه ولا يعبد الله. ولا يمكن أن يراعى تقلبات قلبه إلا عندما يجمع أفكاره، وينزع همومه من قلبه، فيحيى قلبه من الغفلة عند حضرة الأنس.

وعندما يحقق المريد هذه المطالب الثلاثة يمكنه أن يلبس المرقع، ويصبح

صوفيا صحيحا، ولا مجرد مقلد لغيره.

أما بالنسبة لمن يمنح المريد حق ارتداء المرقع، فمن الواجب أن يكون مستقيم الحال، عارفا بالطريق بعد أن قطع تلاله ووهاده، وذاق نشوة الحال، و أدرك طبيعة الأعمال، وخبر جلال العظمة الإلهية، ورحمتها وجمالها. وعلاوة على ذلك فعليه أن يختبر حالة المريد، ويقدر المقام الذى يمكن أن يصله بالله، وهل هو من الراجعين، أو الواقفين، أو البالغين.

وإذا أدرك أنه سوف يعتزل الطريق فى يوم من الأيام فعليه ألا يسمح له بالسير فيه، أما إذا أدرك أنه سيتوقف عن السير، ويصبح من الواقفين فعليه أن يتصل به، ويجعله يواصل تقواه.

أخيرا فاذا أدرك أنه سيكون من الواصلين فعليه أن يمنحه الغذاء الروحى. ومن ثم فإن شيوخ التصوف هم أطباء النفوس، فاذا كان الطبيب جاهلا بمرض المريض قتله، إذ لا يعرف وسيلة علاجه ولا يدرك بوادر الخطر وعلاماته، ويصف له من الطعام والشراب ما لا يناسب مرضه، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ان الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته»[1]، وبما أن للأنبياء بصيرة فى دعوتهم لأمتهم، بحيث يضعون كل فرد فى مكانه الصحيح، فمن الواجب على الشيخ أن تكون له بصيرة فى دعوته ويعطى كل فرد ما يناسبه من الغذاء الروحى حتى يتحقق الهدف من دعوته.

لهذا فإن من وصل إلى كمال الولاية يسلك الطريق الصحيح عندما يمنح السالك الجديد رداء مرقعا، بعد ثلاث سنوات يكون خلالها قد علمه آداب السلوك.

أما بالنسبة للمؤهلات التى تؤهله للبس المرقع، فمن الواجب أن ينظر إلى المرقع نظرته إلى الكفن، بحيث يتخلى لا بسه عن كافة آماله الخاصة

---

(١) لم نستدل عليه.

بمسرات هذه الحياة الدنيا، وأن يطهر قلبه من كل شهوة، ويخصص حياته كلها لخدمة الله، ويتخلى بصورة كاملة عن كل رغبة ذاتيه، وعندئذ يقوم الشيخ بتكريمه بأن يلبسه رداء الشرف، بينما يقوم السالك بدوره بالقيام بما يتطلبه لبس هذا الرداء، ويحاول بكل قوته أداءه، ويرى أن من المحرم عليه اشباع مطالبه.

وقد وردت عدة إشارات فيما يختص بالمرقع، وقد كتب الشيخ أبو معمر الأصفهانى كتابا عن هذا الموضوع، ويظهر ان أغلب المريدين غلوا فى هذا الموضوع، ولا أقصد فى كتابى هذا أن أروى هذه الأقوال، ولكنى أريد أن أوضح مصاعب الصوفية.

وأفضل إشارة بالنسبة للمرقع أن جيبها الصبر، وأكمامها الخوف والرجاء، وجشوها القبض والبسط، وحزامها مخالفة النفس، وطرفها صحة اليقين، وإطارها الإخلاص.

وهناك إشارة أفضل هى أن طرفها اعتزال الناس، وأكمامها الحفظ والعصمة، وحشوها الفقر والصفوة، وحزامها الإقامة فى المشاهدة، وطرفها الأمن فى الحضور، وإطارها القرار فى المحل.

فاذا صنعت لروحك مرقعا من هذا النوع كان خليقا بك أن تصنع لظاهرك مرقعا ترتديه. وقد كتبت كتابا مفصلا فى هذا الموضوع عنوانه «أسرار الخرق والمرقعات»، وعلى المريد أن يحتفظ لنفسه بنسخة منه.

وإذا اضطر المريد، الذى يلبس المرقع، إلى تمزيق ردائه، لغلبة الحال، وقهر السلطان، فله أن يفعل ذلك. ولكن إذا قام بتمزيقه بمحض إرادته، دون إرغام على ذلك، فان قانون أهل الطريق يقضى بألا يسمح له أن يلبس المرقع فى مستقبل أيامه، وإذا لبسه أصبح من أولئك الذين يقنعون بلبس المرقع،

رغبة فى التظاهر دون أن يكون له أى معنى روحى بالنسبة لهم.

أما بالنسبة لتغيير الرداء فان المبدأ الصحيح يقتضى أن يغير الصوفى رداءه، شكرا لله، عندما يجتاز مقاما من المقامات ويبدأ مقاما آخر أعلى منه.

ولكن إذا كانت كافة الأردية خاصة لمرحلة واحدة من المراحل، فان المرقع لباس يصلح لكل المراحل الخاصة بطريق الفقر والصفاء، ولهذا فان انتزاعه يعنى ترك الطريق كله. وإنى أشير هنا إشارة عابرة لهذا الموضوع، وإن لم يكن هذا مكانها المناسب؛ وذلك حتى احسم هذا الأمر. وسأقوم إن شاء الله بكتابة شرح واف له فى باب الخرق، وفى كشف أسرار السماع. وقد قيل زيادة على ذلك انه من الواجب على من يمنح المرقع للمريد أن تكون له أسرار روحية كبيرة حتى أنه إذا ظهر عطفه على الغريب صار قريبا وإذا لبس المذنب هذا الرداء أصبح من أولياء الله.

كنت فى خدمة شيخى فى ديار أذربيجان ورأينا رجلين أو ثلاثة رجال يلبسون المرقع، ويقفون إلى جوار جرن ممسكين رداءهم، أملا فى أن يلقى إليهم القلاع شيئا من القمح، وعندما رآهم الشيخ صاح قائلا:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(١).

فسألته: كيف ترديوا إلى هذا الخزى والعار، وافتضحوا أمام الخلائق؟. فقال: إن مرشديهم طمعوا فى اجتذاب الاتباع، وكانوا هم أنفسهم فى حطام الدنيا، ولا يختلف حرص عن حرص. والدعوى دون أمر تزيد فى الهوى.

وقيل إن الجنيد رأى مرة عند باب الطاق شابا مسيحيا حسن الوجه فقال الجنيد: يا إلهى اعف عنه من أجلى فقد خلقته فى غاية الحسن. وبعد فترة قصيرة جاء الشاب إلى الجنيد معلنا إسلامه وأصبح من الأولياء.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦.

وسئل أبو على سياه المروزى : «من الذى يسمح له بإلباس المريد المرقع؟ فأجاب: من يرى ملك الله بحيث لا يجرى عليه ما يوجد فى الدنيا من أحكام وأحوال إلا بمعرفة.

إذن فالمرقعة سمت الصالحين وعلامة الطيبين ولباس الفقراء والمتواضعين وفى الحقيقة فقد جرى الكلام قبل ذلك عن الفقراء والصفوة ولو أن شخصا ما جعل من لباس الأولياء لباسا له فإنما يعد لباس فساده ولا يلحق خسارة بأهلها الحقيقين.



الباب الخامس

اختلافهم فى الفقر والصفاء

يختلف الباحثون من أهل الطريق فى تفضيل الفقر على الصفاء. فيرى البعض أن الفقر أكمل من الصفاء، ويقولون إن الفقر هو الفناء الكامل، وانقطاع الأسرار؛ أما الصفاء فهو مقام من مقامات الفقر. وعندما يتم الوصول إلى الفناء الكامل تتلاشى المقامات، وهذا هو نفس الشئ بالنسبة للفقر والغنى. وقد سبق أن فصلنا القول فيه.

أما من يضعون الصفاء فوق الفقر، والذين يقولون إن الفقر شئ موجود يمكن تسميته، أما الصفاء فهو التخلى عن كل الموجودات، وعليه فإن الصفاء هو عين الفناء، أما الفقر فهو روح الفناء ولهذا فإن الفقر أحد أسماء المقامات، أما الصفاء فهو أحد أسماء الكمال.

وقد نوقش هذا الموضوع باستفاضة فى عصرنا هذا، ولجأ كل فريق إلى حجج لفظية دقيقة بعيدة الغور، ولكن الفريقين يتفقان على أن الفقر والصفاء ليسا إلا مجرد اسمين.

إن المتنازعين قد بنوا نزاعهم على ألفاظ، ونسوا أن يدركوا المعانى. وبذلك تركوا مناقشة الحقيقة، فهم يعتبرون أن نفى العرض نفى للجوهر، وإثبات الرغبة إثبات للحقيقة. والطريق براء من مثل هذه الأوهام، وباختصار: فإن أولياء الله يصلون إلى منزلة يختفى فيها المكان، وتتلاشى عندها المقامات، وتنكشف المظاهر عن الحقائق؛ بحيث لا يبقى شرب ولا ذوق ولا قمع ولا صحو ولا محو.

أما هؤلاء المتجادلون فهم يبحثون عن اسم مفتعل يسترون به من الأفكار ما لا يسمى أو يوصف، ويحاول كل منهم أن يطلق عليها من الأسماء ما

يستحسنه. وعندما نتعامل مع الأفكار نفسها لا نجد حاجة إلى تفضيل، ولكن عندما نطلق عليها الأسماء يصبح من الممكن تفضيل اسم على اسم.

ولذلك فان بعض الناس يرون أن اسم الفقر أعلى وأسمى، لأنه مرتبط بالترك والخضوع، بينما يفضل غيرهم الصفاء، ويعتبرونه أكرم بالمرء، إذ أنه قريب من نبذ كل الكدورات، والفناء عن كل ماله صلة بالدنيا. وقد ابتكروا هذين الاسمين ليعبروا بهما عن فكرة غير ملموسة، حتى يتحادثوا في هذا الموضوع ويشرحوا وجهة نظرهم شرحا وافيا؛ أما الصوفيون فلا يختلفون فى الرأى، فيستخدم البعض كلمة الفقر ليعبروا عن نفس الفكرة التى يعبر عنها الآخرون باستخدام كلمة الصفاء.

أما أهل العبارة وأرباب اللسان، الذين يجهلون الحقائق، فإن الموضوع كله بالنسبة لهم مجرد ألفاظ. وباختصار فإنه من اهتم بالحقيقة، وتعلق بها قلبه، لا يهمه إن سموه فقيرا أو صوفيا، فليس هذان الإسمان إلا تعبيرين مصطنعين، عن فكرة لا يمكن أن تحدد باسم من الأسماء.

وترجع هذه المناقشة إلى أيام أبى الحسن بن سمعون فعندما كان فى حالة الكشف الشبيهة بالبقاء كان يضع الفقر فوق الصفاء. وعندما كان أرباب المعانى يسألون: لم فعل هذا؟. كان يجيبهم قائلا: إنى لست أقل إهتماما بالفناء والخضوع منى بالبقاء والوجود، لذا فإنى أفضل الصفاء على الفقر عندما أكون فى مقام قريب من الفناء، وأفضل الفقر على الصفاء عندما أكون فى مقام قريب من البقاء؛ لأن الفقر إسم البقاء، والصفاء اسم الفناء، ففى الحالة الأخيرة أفنى منى الشعور بالبقاء، وفى الحالة الأولى أفنى عن الشعور بالفناء بحيث تموت طبيعتى عن كل من الفناء والبقاء. فاذا نظرنا إلى هذا القول على أنه عبارة وجدناه ممتازا، ولكن لا يمكن إفناء الفناء أو البقاء. إذ أن كل ما يقبل الفناء يفنى بنفسه وكل ما يقبل البقاء يبقى بنفسه.

والفناء كلمة لا تقبل المغالاة، فإذا قال شخص: إن الفناء قد فنى، فإنه

يعبر بصورة فيها مغالاة عن عدم وجود أثر لفكرة الفناء، ولكن ما دام هناك أثر للبقاء انتفى وجود الفناء، وإذا تم الوصول إلى الفناء، فان عبارة «افناء الفناء» ليست إلا مجرد ادعاء، يتم التعبير عنه بألفاظ لا معنى لها، وهذه ترهات أرباب اللسان عند حب العبارات.

وقد قمت فى فترة غرور الشباب بكتابة مؤلف فى هذا الموضوع عنوانه «كتاب الفناء والبقاء» ولكنى سأقوم بعرض الموضوع كله فى هذا الكتاب بكثير من الحذر إن شاء الله.

هذا هو الفرق بين الصفاء والفقر بمعناها الروحى. ويختلف هذا إذا نظرنا إليهما من الناحية العلمية، أى عند التجريد، وخروج الإنسان عن كل ما يملك فهنا النقطة الحقيقة، هى الفرق بين الفقر والمسكنة.

ويؤكد بعض المشايخ أن الفقر أعلى قدرا من المسكين، لأن الله تعالى قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[1] فالمسكين لديه مما يقيته ما يتجرد عنه الفقير، ولهذا فان الفقر مفخرة، والمسكنة إذلال؛ إذ أن أهل الطريق يرون أن من يمتلك وسائل العيش ذليل، ويستشهدون بقول النبى عليه الصلاة والسلام: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصه والقطيفة»[2] ومن يتجرد عن وسائل العيش ينال من الشرف ما يناله المتوكل على الله. أما من لديه هذه الوسائل فانه يعتمد عليها. ويرى آخرون أن المسكين أفضل، لأن النبى قال: «اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٣.

(٢) رواه البخارى.

وأحشرني في زمرة المساكين» وعندما تحدث عن الفقر قال: «كاد الفقر أن يكون كفرا»[1] .

وعلى هذا الاساس فان الفقراء يعتمدون على وسيلة للعيش، أما المساكين فهم مستغنون عنها.

ويرى البعض من أرباب الشريعة المطهرة أن الفقراء أصحاب بلغة، وأن المساكين مجردون منها. ويرى آخرون عكس ذلك، وعليه فإن أهل المقامات، الذين يؤمنون بالرأى الأول، يلقبون المسكين بالصوفي. وهذا الخلاف متصل باتصال الفقهاء فمن يعتبر منهم الفقير مجردا والمسكين صاحب بلغة يفضل الفقر على الصفوة، أما من يرى عكس ذلك فيرى أن الصفوة تفضل الفقر.



---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس وتمام الحديث: (كاد الفقر أن يكون كفرا، وكاد الحسد أن يكون سبق القدر) - الجامع الصغير جـ٢ ص ٨٩ ولم يخرجه

الباب السادس

فى الملامة

. لقد سار بعض المشايخ الصوفية فى طريق الملامة. فللملامة أثر كبير فى إذكاء الحب ونقائه، ويتميز أهل الحق ـ وعلى الأخص أعلاهم قدرا ـ بأنهم موضع الملامة من العوام. والنبى ـ وهو مثلهم الأعلى، وإمام المحبين لله نال من تكريم الجميع وتعظيمهم، حتى انكشف له دليل الحق، ونزل عليه الوحى، وعندئذ أطلق الناس ألسنتهم فى ملامته فقال قوم كاهن، وقال قوم انه ساحر، وقال آخرون إنه شاعر وقال غيرهم إنه مجنون وإنه كاذب الخ، ويقول الله تعالى واصفا المؤمنين الصادقين: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

هذه شريعة الله، فهو يضع من يتحدثون عنه وضع الملامة من الناس أجمعين، ولكنه يحفظ قلوبهم من أن تنشغل بلوم الناس لهم. إن الله يفعل هذا غيرة عليهم، فهو يحفظ أحبابه من أن ينظروا إلى الغير، حتى لا يرى الغريب جمال مقامهم، ويحفظهم من أن ينظروا إلى أنفسهم، حتى لا يروا جمالهم، ويقعوا فى الغرور والكبر. ولهذا أطلق عليهم ألسنة العوام يلومونهم وجعل النفس اللوامة جزءا لا يتجزأ من تكوينهم، ولذلك حتى يلومهم الغير على كل ما يفعلونه وتلومهم أنفسهم إذا أخطأوا، أو إذا فعلوا الخير ناقصا غير كامل.

هذا مبدأ ثابت فى طريق الله، فليس فى هذا الطريق حجاب أقسى وأصعب من الغرور. وأصل الغرور ينشأ من سببين: أحدهما من الحظوة لدى الخلق ومدحهم، أو أن يقع عمله منهم موقعا حسنا. والآخر أن يقع فعل المرء موقع الإعجاب من نفسه، فيرى نفسه جديرا بالمدح، فيتيه بهذا عجبا. إن الله

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

تعالى قد أغلق طريق المعصية دون أحبابه ولا يقر العامة أعمالهم مهما صلحت، لأنهم لا يعرفونهم حق المعرفة، ومهما تعددت مظاهر خشيتهم لله، فهم لا يعتبرونها صادرة عنهم لأنهم يردون حولهم وقوتهم إليه، فهم لا يعجبون بأنفسهم، فقد وقاهم الله الغرور.

إن من يحبه الله لا يحبه العوام، ومن اختارته نفسه لا يصبح مختارا لله، ولهذا فقد كان إبليس محبوبا من الملائكة، معجبا بنفسه، ولكن لأن الله لم يحبه فإن محبة الآخرين له كانت لعنة عليه.

أما آدم فلم يكن موضع رضى الملائكة، الذين قالوا عنه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1] ولم يكن موضع رضى نفسه، التى قال عنها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[2] وحينما قبل من الحق قال الله عنه: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[3] ولكن الله كان يحبه، فكان سخط الملائكة، وعدم رضاه عن نفسه سببا فى رحمة الله.

ولهذا فليعلم الناس أجمعين أن من نقبلهم يرفضهم الناس وأن من يقبلهم الناس ينالون منا الرفض، ولذلك فإن الملامة من الناس هى طعام أحباب الله، إذ أنها رمز رضى الله. ان أولياء الله تملؤهم البهجة لهذه الملامة لأنها علامة القرب منه، يبتهجون لها ابتهاج غيرهم بالسمعة وعلو الصيت وقد جاء فيما تلقاه النبى من جبريل إن الله تعالى قال: «إن أوليائى تحت قبائى لا يعرفهم غيرى إلا أوليائى».

والملامة أنواع ثلاثة: ملامة تنجم عن اتباع الطريق الصحيح، وملامة قصد وملامة ترك.

ففى النوع الأول يكون المرء موضع ملامة إذا هو اهتم بشئونه، فقيام

---

(١) سورة البقرة: آية ٤٠.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٣.

(٣) سورة طه: آية ١١٥.

بأداء ما فرضه الله عليه، ولم يغفل منه شيئا، ولا يهمه فى شئ رضى الناس عنه أم غضبوا منه، وفى النوع الثانى يكون المرء موضع احترام الناس وإجلالهم، فيميل قلبه إلى هذا الشرف، ويتعلق بمن يمنحونه إياه، ولكنه يحب أن يبعد قلبه عنهم، ويخصصه لله وحده، فيقوم عن قصد بأرتكاب عمل كريه إليهم، وإن لم يكن مخالفا للشريعة، ويكون نتيجة ذلك أن ينفضوا أيديهم منه، أما فى النوع الثالث فإن المرء يدفعه كفره وفساد عقيدته إلى ترك الشريعة، ولا يقوم بما جاء به قائلا لنفسه: «إنى أسير فى طريق الملامة» وهو فى هذا يتصرف وفق هواه.

إن من يسلك الطريق الصحيح، ويرفض النفاق، ويبتعد عن العجب والغرور، لا تهمه ملامة العوام، بل يسير فى طريقه غير آبه بما يطلق الناس عليه من أسماء.

ومن قصص أولياء الله الشيخ أبا طاهر الحرمى كان فى السوق، يوما راكبا حماره، وخلفه أحد مريديه فصاح أحد العامة قائلا: ها قد جاء الملحد. فاندفع مريد الشيخ محلقا، يحاول أن يرجم ذلك الرجل؛ وعج السوق بالضجيج، فقال الشيخ لمريده: إذا هدأت أريتك ما يريحك من هذا الأمر. وعندما رجعا إلى الزاوية طلب من مريده أن يحضر صندوقا فلما أحضره أخرج منه لفائف من الرسائل والقى بها أمامه، وأمره أن يتفحصها قائلا: أنظر كيف يخاطبنى كاتبو هذه الخطابات. هذا شخص يلقبنى بشيخ الاسلام، وهذا بالشيخ الطاهر، وذلك بالشيخ الزاهد، وآخر بشيخ الحرمين؛ وما إلى ذلك؛ إنها جميعا ألقاب، ولم يذكر اسمى أحد، ولست أيا من هذه الأوصاف، ولكن كلا منهم يصفنى بما يتفق وعقيدته فى؛ فإذا قام ذلك المسكين بنفس العمل فلماذا تتشاجر معه؟.

أما من يؤثر الملامة عن قصد، وينأى بنفسه عن التكريم، ويبتعد عن السلطة والنفوذ، فهو أشبه بالخليفة عثمان، الذى جاء ذات يوم من مزرعته

حاملا حطبا على رأسه، برغم أن عبيده كانوا ينيفون على الأربعمائة. وعندما سئل: لماذا يفعل ذلك أجاب: أريد أن أجرب نفسى. إنه لم يكن يريد أن يسمح للتكريم، الذى يتمتع به، أن يمنعه عن أداء عمل.

وهناك قصة متشابهة، فى هذا الكتاب، عن الإمام أبى حنيفة، سيأتى ذكرها، فلتطلب من موضعها.

ومما يروى عن أبى يزيد أنه كان قادما من الحجاز. ونودى فى المدينة، جاء أبو يزيد، وهرع أهل مدينة للقائه وتكريمه، فشغله اهتمامهم به، وجذبه عن الله، فما أن وصل السوق حتى أخرج قرصا من كمه، وبدأ يأكل فانفضوا جميعا عنه، إذ كانوا فى رمضان، وقال الشيخ لمريده الذى كان يسافر معه: أنظر كيف انفضوا جميعا بعد أن قمت بعمل من أعمال الشريعة[1].

وأنا على بن عثمان الهجويرى، وفقنى الله، أرى أنه كان من الضرورى فى تلك الأيام لكى تصيبه الملامة أن يقوم بشئ عجيب، لا يقره الناس، أما فى وقتنا الحاضر فليس على الشخص ـ كى يحظى بالملامة ـ إلا أن يطيل الصلاة النافلة أو يقوم بأداء ما عليه من عبادات. وعندئذ سرعان ما يلقبه كل شخص بالمدعى.

إن من يترك الشرع، ويخالف الدين، قائلا، أنه يسلك طريق الملامة، فانه يرتكب خطأ فاحشا، وإثما مبينا. وهناك كثيرون ـ فى يومنا هذا ـ ينشدون الشهرة عن هذا الطريق، متناسين أن المرء لا يسلك سلوكا يجعل الناس ينفضون من حوله إلا بعد أن يكون قد نال شهرة وعلو صيت، وإلا كان سلوكه هذا ذريعة يجتذب بها لنفسه الشهرة.

كنت مرة فى صحبة أحد هؤلاء المدعين، وبعد أن قام بعمل خاطئ، اعتذر قائلا: أنه فعل ذلك من أجل الملامة، فقال له أحد الحاضرين: هذا

---

(١) لأنه كان مسافرًا وله رخصة فى الإفطار ولكن العامة لم يفطنوا إلى ذلك.

هراءا. فتنهد فى استنكار، فقلت له: إذا كنت تدعى أنك ممن ينشدون الملامة، وكنت واثقا من اتجاهك هذا، فإن استنكار هذا السيد لعملك يجب أن يشجعك على المثابرة، وبما أنه يقوم لك بما تنشده وهو الملامة فلماذا تظهر له هذا العداء والغضب؟. إن سلوكك أقرب إلى الإدعاء منه إلى طلب الملامة. إن على من يدعى أنه يسترشد بالحق إن يثبت ذلك ويبرهنه، وليس البرهان إلا اتباع السنة، فقد ادعيت ذلك ولكننى أراك لا تقوم بفرض دينى، إن سلوكك يجعلك خارجا على الإسلام.

فصل:

[بين الملامة والسلامة]

إن مبدأ انتشر بين أهل هذه الطائفة، على يد شيخ عصره حمدون القصار. وله حكم كثيرة فى هذا المجال، ويروى عنه أنه قال: «الملامة ترك السلامة» فاذا ترك المرء سلامته عن قصد، وأعد نفسه لتحمل المكاره وترك اللذات وما اعتاده من صلات، عسى أن تتكشف له عظمة الله، فإنه محقق لاتحاده بالله[1]، ما ابتعد عن الناس. ولهذا فإن دعاة الملامة يديرون ظهورهم للسلامة، وهى التى يتوجه إليها أهل هذه الحياة الدنيا، فهممهم خلاف همومهم وهمتهم تزيد عن همومهم؛ إذ أن وجهة أهل الملامة وحدانية.

ويقول إبراهيم بن فاتك: إن الحسين بن منصور الحلاج أجاب من سأله: «من الصوفى؟» قائلا: انه وحدانى الذات. وقال حمدون كذلك عن الملامة،إنها طريق صعب على العامة أن يسلكوه، ولكنى سأخبرك، بجزء مه: إن الملامتى يتصف برجاء المرجئة، وخوف القدرية ولهذه الحكمة معنى خفى سأحاول شرحه.

إن من طبيعة الإنسان أن تعوقه الشهوة ـ أكثر من أى شئ آخر ـ أن يتصل بالله، ولهذا فإن كل من يخشى هذا الخطر يحاول أن يتفاداه، إذ أنه

---

(١) ينكر كبار أهل الطريق ومشايخ التصوف ومنهم الجنيد وأبو ا لحسن الشاذلى فكرة الحلول والاتحاد وأخرج الجنيد من يقول بذلك من صفوفهم.

يواجه خطرين كبيرين: أولهما خوفه من أن تحجبه محبة الخلق له عن الله، وثانيهما خوفه من أن يقوم بعمل يلومه الناس عليه، ويخطئونه بسببه؛ فليس عليه أن يسترعى رضاهم، أو أن يعصى عند ملامتهم؛ ولهذا فعلى الملامتى أن يهتم أولا ـ وبالذات ـ بألا يغضب مما يقوله الناس عنه فى الدنيا، وعليه ـ من أجل خلاصة ـ أن يقوم بعمل ليس من الكبائر، ولا من الصغائر، حتى ينفض الناس عنه.

ولهذا فإن خوفه ـ فى أمور السلوك ـ أشبه بخوف القدر بين وأمله ـ فى تعامله مع لائميه ـ شبيه برجاء المرجئة. وليس هناك فى الحب الحقيقى ما هو الذمن اللوم، لأن لوم المحبوب لا يؤثر على قلب المحب، وئه لا يهتم بما يقوله الغرباء، لأن قلبه متعلق بمحبوبية «الملامة روضة العاشقين، ونزهة المحبين، وراحة المشتاقين، وسرور المريدين».

إن أهل هذه الجماعة من الصوفية يتميزون عن الخلق أجمعين، بأنهم يختارون أن تلام أجسامهم لتسلم قلوبهم؛ وهذه مرتبة عالية لا يصل إليها الزهاد والعباد وأعيان الخلق فى العصور الغابرة؛ ولكنها خاصة بأفراد هذه الأمة، الذين يسبحون فى طريق الابتعاد الكامل عن شئون هذه الدنيا.

وإنى أرى أن البحث عن الملامة تظاهر، والتظاهر نفاق محض. إن المتظاهر يتعمد سلوكا ينال به الشهرة، أما الملامتى فإنه يسلك سلوكا يجعل الناس يتركونه، وكلاهما يركز فكرة فى الناس، ولا يرقى إلى ما هو أبعد من ذلك، أما الدرويش فهو لا يفكر فى الناس أبدا، وعندما يبتعد قلبه منهم لا يهمه لومهم أو سرورهم، إنه ينطلق حرا بلا قيود.

لقد جرى بينى وبين أحد ملامتية ما وراء النهر حديث، وكنت قد صحبته مدة طويلة، رفعت عنا الكلفة، قلت له: «يا أخى ماذا تقصد بهذه الأعمال الغريبة؟» فقال: ألا أجعل للناس وجودا فى نظرى، فقلت له: إن الناس

كثيرون، ولن يمكنك، خلال حياتك، أن تجعلهم غير موجودين بالنسبة لك. والأفضل أن تجعل نفسك غير موجود بالنسبة لهم، فإن بعض من ينشغلون بالناس يتخيلون أن الناس مشغولون بهم، وإذا أردت ألا تكون موضع نظر الناس فلا تنظر إلى نفسك، وبما أن كافة خطاياك لا تنجم إلا من نظرك إلى نفسك، فما شأنك بالآخرين؟. وإذا كان هناك مريض شفاؤه فى الحمية والإقلال من الطعام، فمن الغباء بالنسبة له أن يفرط فى طعامه؟».

وهناك آخرون يضعون أنفسهم موضع اللوم بدافع الزهد، فهم يرغبون فى تحقير الناس لهم حتى يقهروا أنفسهم، ويبلغ سرورهم غايته أن يجدوا أنفسهم يائسين أذلاء.

سئل إبراهيم بن أدهم ذات مرة: «هل حققت مرة رغبتك» فأجاب: نعم!، حدث ذلك مرتين: أولاهما كنت فى سفينة لا يعرفنى فيها أحد، وكنت مرتديا ملابس عادية، وشعرى طويل، فكانت هيئتى مثار سخرية الجميع واستهزائهم، وكان بينهم أحد المهرجين، الذى دأب على شد شعرى، وانتزاعه من منابته، ومعاملتى أسوأ ما تكون المعاملة، بالأسلوب الذى اعتاد عليه.

وفى ذلك الوقت شعرت بغاية البهجة، ويلغ سرورى منتهاه بذل نفسى، حينما قام ذلك المهرج وتبول على.

وفى المرة الثانية، وصلت إلى إحدىٰ القرى، والمطر ينهمر مدرارا، حتى ابتلت مرقعتى وهدنى البرد القارس، فاتجهت إلى أحد المساجد التمس المأوى، فلم يسمحوا لى بالدخول، وحدث نفس الشئ فى ثلاثة مساجد، التجأت إليها؛ ولما أخذ منى اليأس كل مأخذ، ونال منى البرد القارس دخلت حماما عاما، واقتربت اقترابا شديدا من الموقد، فأحاط بى دخانه وسود ملا بسى ووجهى، عندئذ شعرت بغاية السرور والرضا.

وحدث ذات مرة أن وجدت نفسى ـ أنا على بن عثمان الجلابى ـ فى شدة، ثم ابتهلت إلى الله أن يكشف عنى هذه الغمة، ولما لم يحدث ذلك ذهبت

كما اعتدت أن أفعل من قبل فى مثل هذه المناسبات - إلى قبر أبى يزيد، ومكثت بجواره ثلاثة أشهر أتعبد وأتنفل، عسى أن يزول عنى هذا المكروه ومع ذلك فإنه لم يزل(١)، ولهذا رحلت متجها نحو خراسان.

وفى ليلة وصلت إلى قرية فى ولاية قومس، بها مكان يقطنه بعض مدعى التصوف، وكنت مرتديا مرقعة لونها أزرق داكن، كسنة المسافرين، ولكن لم يكن معى شئ مما اعتاده أهل الرسم، إلا عصا وركوة من الجلد، وبدا شكلى مهينا فى نظر أولئك المتصوفة الذين لم يعرفونى، وكانوا ينظرون إلى ملبسى، ويقول الواحد للآخر: ليس هذا منا، فلم أكن منهم، ولكن كان على أن أقضى الليل فى ذلك المكان.

فوضعونى على نجد، وجلسوا فى مكان أعلى منه، ووضعوا أمامى قديدا، أصابه العفن فاخضر لونه، بينما كنت أشم رائحة الشواء، الذى كانوا يأكلونه وكانوا طيلة الوقت يوجهون إلى عبارات السخرية من عل.

وبعد أن انتهوا من طعامهم أخذوا يقذفوننى بقشر البطيخ، الذى كانوا يأكلونه، مظهرين مدى سرورهم بأنفسهم، واحتقارهم لى، فوقرت فى نفسى رقة حالى واستخفافهم بى، فقلت فى نفسى: «يا إلهى، لو لم يكونوا يلبسون لباس أحبابك ما تحملت هذا منهم».

وكلما زادت سخريتهم منى كلما زاد انشراح قلبى؛ وكان تحملى لهذا سببا فى خلاصى من تلك الغمة التى ذكرتها.

ومنذ ذلك الوقت أدركت لماذا كان الشيوخ يسمحون للجهلاء والحمقى أن ينضموا إليهم، ولماذا يتحملون ثقلهم. وهذه هى أحكام الملامة التى علمتها على التحقيق وبالله التوفيق.

---

(١) هذا العمل ينافى صحيح الدين فرفع الغمة يكون بالتوجه إلى الله سبحانه وتعالى وحده بالدعاء والصلاة وجميع أوجه القربات، وليست بالصلاة عند قبور الصالحين مهما كان قدرهم، لأنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لأحد نفعا ولا ضرا.

الباب السابع

أئمة الصوفية من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

الآن فلأذكر طرفا من أحوال أئمتهم من الصحابة، الذين كانوا هداة لهم، وكانوا فى العبادة قدوة، وكانوا فى الأحوال قادة ومثالا، هم بعد الأنبياء. وهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، رضوان الله عليهم، حتى يتأكد لك إثبات مرادك إن شاء الله تعالى. فمنهم شيخ الإسلام، وسيد الأنام بعد الأنبياء، خليفة الرسول، وإمام أهل التجريد وسيدهم، وقائد أهل التفريد، البعيد عن الآفات النفسية، أبو بكر عبد الله بن عثمان، الصديق، له كرامات مشهورة، وآيات ودلائل ظاهرة، فى المعاملات والحقائق، وقد ذكر فى باب التصوف طرف من مجاهداته.

١- الخليفة أبو بكر الصديق:

يضع مشايخ الصوفية أبا بكر الصديق على رأس أهل المشاهدة، بسبب قلة ماروى عنه من أقوال وأعمال، بينما يضعون عمر على رأس أهل المجاهدة، بسبب تشدده فى العبادة ومثابرته عليها. وقد جاء فى الأثر، ومن المشهور أيضا بين أهل العلم، أنه عندما كان أبو بكر يصلى فى الليل كان يتلو القرآن بصوت منخفض، بينما كان عمر يتلوه بصوت عال، فسأل النبى أبا بكر: لم يفضل أن يفعل ذلك؟ فأجاب أبو بكر: «أسمع من أناجى إنى أعلم أنه ليس بغائب عنى، ويستوى عنده الخفوت والجهر. أما عمر فقد أجاب بدوره إنى أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان». فبينما نجد أن أحدهما أظهر علامة المشاهدة، نجد أن الآخر أظهر علامة المجاهدة.

والمجاهدة ـ إذ قورنت بالمشاهدة ـ أشبه بنقطة ماء فى بحر، ولذلك

فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يعتبر عمر ـ وهو فخر الإسلام ـ مجرد حسنة من حسنات أبى بكر، حين قال له: «هل أنت إلا حسنات أبى بكر؟» فانظر إلى أحوال العالم.

ويذكر عن أبى بكر أنه قال: «دار فانية، وأحوالنا عارية وأنفاسنا معدودة، وكسلنا موجود». فعمارة الدار الفانية من الجهل، والاعتماد على العارية من البله، وشغل القلب بالأنفاس المعدودة من الغفلة، والدين سمى الكسل كفرا. فالعارية ترد؛ والعابر لا يبقى؛ وما يدخل فى الحصر ينفد؛ وليس للكسل دواء. وهو يعنى بهذا أن الدنيا من التفاهة بحيث يجب ألا تشغلنا؛ إذ عندما تشغل نفسك بما هو فان تغفل عما هو باق.

ويولى أحباب الله ظهورهم للدنيا وملاذها؛ التى تحجبهم عنه تعالى فهم لا يريدون أن يتصرفوا كما لو كانوا يملكون شيئا هو فى الحقيقة ملك غيرهم.

وقد قال أبو بكر فى مناجاته: اللهم ابسط لى الدنيا وزهدنى فيها ولهذا القول معنى خفى، وهو: امنحنى أولا متاع الدنيا حتى أشكرك عليه؛ ثم ساعدنى على الزهد فيه، من أجلك، حتى أنال هذه المزايا الثلاث: الشكر؛ والكرم، والزهد، وحتى يصبح فقرى اختيارا لا إجبارا.

إن هذه الكلمات تدحض حجة من قال: إن من جاء فقره عن قسر أكثر كمالا ممن جاء فقره عن اختيار. فمن جاء فقره عن قسر فهو صنيعة الفقر ومن جاء فقره عن اختيار أصبح الفقر صنيعة له. وخير للشخص أن تكون أفعاله حرة من أى محاولة يريد بها أن يحصل على الفقر، إذ أن ذلك أفضل من أن يحاول أن يصل إلى الفقر بمحض إرادته.

وأقول ردا على ذلك: إن صنيعة الفقر هو بدون شك ذلك الشخص الذى تملكه الرغبة فى الفقر، رغم تمتعه بالاستقلال عنه، ولذلك فهو يحاول جاهدًا أن يصل إليه، وليس هو ذلك الشخص الذى يكون فى مقام الفقر ثم تتملكه

رغبة فى الاستقلال تجعله يذهب إلى منازل العصاة وقصور الحكام بغية جمع المال.

إن صنيعة الفقر هو ذلك الشخص الى ينزل من الاستغناء إلى الفقر، وليس هو ذلك الفقر الذى يحاول أن يحظى بالقوة وهوفقير. لقد كان أبو بكر أفضل البشر بعد الأنبياء، وليس بمسموح أن يسبق أحد ذلك، لأنه وضع الفقر الاختيارى فوق الفقر الإجبارى، ويؤمن كافة شيوخ التصوف بهذا المبدأ، باستثناء ذلك الشيخ الذى أشرنا إليه، وقد أوردنا مقالته، ورددنا عليها بما يؤكده الصديق الأكبر.

روى الزهرى أنه عندما تلقى أبو بكر البيعة بالخلافة، صعد إلى المنبر والقى خطبة جاء فيها: «والله ما كنت حريصًا على الإمارة يوما ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية وما لى فى الإمارة من راحة». إن الله إذ يجعل الفرد من أكمل المخلصين، ويرفعه إلى مقام التمكين يجعله يأتمر بأمر الله، ويلتمس منه التوجيه، ولهذا يرضى بما يأمره الله، وما قسمه له، سواء جعل منه سائلا أو أميرًا، دون أن يجعل لإرادته مكانًا، أمام إرادة الله خالقه.

وهكذا أسلم أبو بكر الصديق نفسه لإرادة الله بدءا وخاتمة، ولهذا فإن طائفة الصوفية قد جعلته نموذجًا تحتذيه فى التجرد من أمور الدنيا، وفى تمكينه، وفى رغبته القوية فى الفقر، وعزوفه عن السلطة.

إنه إمام المسلمين عامة وإمام الصوفية خاصة.

٢- الخليفة عمر بن الخطاب:

ومنهم قائد أهل الإيمان، خير أهل الإحسان، إمام أهل التحقيق، ومن هو فى بحر المحبة غريق، أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه صاحب الكرمات

المشهورة، والفراسات المذكورة، وهو المخصوص بالفراسة والصلابة وله لطائف فى هذه الطريقة، وحقائق فى هذا المعنى. وقد قال النبى ﷺ: (إن الحق ينطق على لسان عمر) كما قال: (كان هناك فى الأمم محدثون فإن يك فى أمتى فعمر)[1] وله فى هذه الطريقة رموز دقيقة، لا يمكن إحصاؤها برمتها هنا.

قال عمر: «العزلة راحة من خلطاء السوء»، والعزلة نوعان: أولهما الابتعاد عن الخلق، وثانيهما قطع كل صلة بهم. والابتعاد عن الحق عزلة اختيارية، وهى عبارة عن تركِ صحبتهم فى الظاهر، والتدبر الهادئ فى أعمالك ومحاولة الابتعاد عن الخلق، وجعلهم فى مأمن من شرك؛ أو قطع كل صلة بالخلق، فهو مقام روحى لا علاقة له بالظاهر، وعندما ينقطع الإنسان عن الخلق روحيا لا يعرف عن المخلوقات شيئًا. ولا يمتلك تفكيره شىء.

إن مثل هذا الشخص يصبح فى عزلة عن الناس رغم بقائه بينهم، إذ أن روحه فى مكان بعيد عنهم، وهذه مرتبة عالية. وقد سلك عمر الطريق الصحيح فى هذا المجال، فقد كان يعيش فى الظاهر بين الناس كقائدهم وخليفتهم، وهذا دليل واضح على أن أهل الحقيقة، فهم وإن اندمجوا فى ظاهرهم مع الخلق إلا أن قلوبهم متعلقة دوما بالله، وترجع إليه فى كل آن؛ وهم ينظرون إلى كل اتصال لا يحول وجوههم عن الله تعالى، إذ أن الدنيا لا تصفو فى نظر من يحبهم الله قال عمر: «دار أسست على البلوى بلا بلوى محال». ويتخذه الصوفية نموذجًا لهم فى لبس المرقع، وفى أداء فروض الدين فى قوة وحزم. وعمر رضي الله عنه من خواص أهل الرسول وأصحابه، وكان مقبولاً لدى الحق فى كل أفعاله، إلى حد أن جبريل عليه السلام نزل فى بداية عهد الإسلام، وقال للرسول: «قد استبشر أهل السماء اليوم بإسلام عمر».

واقتداء أهل الطائفة به فى لبس المرقع، وصلابة الدين، إلى جوار أنه فى كل ما يتصل بالأمر إمام للخلق.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى عن أبى هريرة.

٣- الخليفة عثمان بن عفان:

ومنهم جوهرة كنز الحياء، وعبد أهل الصفاء، والمتعلق بحظيرة الرضا، والمتولى والمتمكن على طريق المصطفى، عثمان بن عفان، ذو الفضائل الظاهرة، والمناقب البينة، فى كل المعانى.

قال عبد الله بن رياح وأبو قتادة: «كنا مع أمير المؤمنين عثمان يوم هوجم بيته، وعندما رأى عبيدة جموع المهاجمين امتشقوا السلاح، فقال عثمان: «من لم يمتشق سلاحه فهو حر، فتركنا البيت خوفًا على حياتنا، فقابلنا الحسن بن على فى الطريق، ورجعنا معه إلى عثمان، حتى نعرف لماذا يذهب الحسن إلى عثمان. وبعد أن حيا عثمان وواساه، قال له: «يا أمير المؤمنين لا أجرؤ أن أحمل السلاح على مسلم إلا بأمر منك. فأنت الإمام حقا، اعطنى الأمر أدافع عنك». فأجابه عثمان: «يا ابن أخى، إرجع واجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره، فلا حاجة لنا فى إهراق الدماء.

إن هذه الكلمات تعبر عن التسليم فى وقت الشدة، وتظهر أن المتحدث بها قد وصل إلى مقام الخلة، وهو أشبه بالخليل إبراهيم عندما أشعل نمروذ نارًا ووضع إبراهيم فى كفه ليلقى به فى النار، فجاء جبريل إلى إبراهيم وسأله: «هل لك من حاجة، فأجاب إبراهيم: «أما إليك فلا»، فقال جبريل: «إذن فسل الله»، فأجاب: «حسبى من سؤالى علمه بحالى»، أى أنه يعلم بحالى أفضل مما أعلمه أنا، ويعلم الصلاح لى.

إن عثمان فى تلك اللحظة كان أشبه بالخليل إبراهيم قبل أن يلقى فى النار، وكان المتآمرون أمام بيت عثمان أشبه بالنار، وكان الحسن فى مكان جبريل. ولكن إبراهيم نجا، أما عثمان فقد قتل. إن النجاة مرتبطة بالبقاء، والموت بالفناء. وقد تحدثنا فى هذا الموضوع من قبل.

ويتشبه الصوفية بعثمان فى تضحيته بالحياة والمال، والتسليم فى

شئونهم لله، وفى المحبة الخالصة؛ وهو ـ على الحقيقة ـ إمام الحق؛ وشريعته وطريقته ظاهرتان فى المحبة.

٤- الخليفة على بن أبى طالب:

ومنهم ابن عم المصطفى، وغريق بحر البلا، وحريق نار الولا، ومقتدى الأولياء والأصفياء، أبو الحسن على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

إن شهرته ومقامه فى طريق الصوفية فى غاية العلو، فقد شرح أصول الحقيقة الإلهية بدقة بالغة حتى أن الجنيد قال: «على شيخنا فى الأصول والبلاء» أى أنه شيخنا فى الصوفية نظريا وعمليا، إذ أن الصوفية يطلقون على المبادئ النظرية لهذا الطريق: أصولا، ويكون تطبيقها فى احتمال الالآم .

يحكى أن شخصا طلب من على أن يوصيه، فقال له على: «لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك من أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن كانوا أعداء الله، فما همك وشغلك بأعداء الله؟!».

وهذا مرتبط بموضوع انقطاع القلب عن كل ما عداالله، الذى يسير عبيده كيف يشاء.

لهذا فان موسى ترك ابنة شعيب وهى فى محنة شديدة، وترك أمره إلى الله، وأخذ إبراهيم هاجر واسماعيل إلى واد غير ذى زرع، وترك أمرهما لله.

إن هذين النبيين تعلق قلباهما بالله، ولم يجعلا الزوجة والولد جل همهما، وربطا القلب ـ حتى حازا الدارين ـ بالا ستغناء عن المراد، وتسليم الأمر لله تعالى.

وسئل على عن خير ما يقتنيه المرء فقال: «غناء القلب بالله. إن مثل هذا القلب لا يحزن إذا ذهب عنه عرض الدنيا، ولا يفرح إذا جاءه، ويدور هذا الموضوع حول نظرية «الفقر والصفاء» التى سبق مناقشتها .

ويعتبر الإمام على نموذجا يحتذيه الصوفية فى تعبيره الظاهر، ودقة معانيه الباطنة والتجرد عن كل متاع لهذه الدنيا وللأخرى، وخشية الله. ولطائف كلامه أكثر مما تدخل تحت حصر وأسلوبى فى هذا الكتاب هو الاختصار.



الباب الثامن

فى أئمتهم من آل البيت

١- وأهل البيت هم المختصون بالطهارة الحقة. ولكل منم فى هذا الأمر قدم ثابت، وهم بجملتهم قدوة أهل هذه الطائفة، خاصتهم وعامتهم. وسأبين لك طرفا من أحوال جماعة منهم.

٢- منهم قطعة كبد المصطفى، وريحانة قلب المرتضى، وقرة عين الزهراء، أبو محمد الحسن بن على كرم الله وجهه. وله فى هذه الطريقة تأمل كامل، ومن دقائق العبارة حظ وافر، فقد قال فى حال الوصية: «عليكم بحفظ السرائر فإن الله مطلع على الضمائر» وحفظ القلب هو عدم الاتجاه إلى غير الله، وحفظ فكرك عن معصيته تعالى.

وعندما ارتفع شأن القدريين وكانت لهم الغلبة ، وانتشر مبدأ أهل الاعتزال فى الدنيا، كتب الحسن البصرى إلى الحسن بن على، وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، السلام عليك يا ابن رسول الله، وقرة عينه، ورحمة الله وبركاته، أما بعد. فإنكم معاشر بنى هاشم كالفلك الجارية فى اللجج ومصابيح الدجى؛ وأعلام الهدى، والأئمة القادة الذين من تبعهم نجا، كسفينة نوح المشحونة، التى يأوى إليها المؤمنون، وينجو بها المتمسكون، ما قولك يا ابن رسول الله ﷺ عند حيرتنا فى القدر، واختلافنا فى الاستطاعة لتعلمنا بما تأكد عليه رأيك، فإنكم ذرية بعضها من بعض بعلم الله علمكم وهوالشاهد عليكم، وأنتم شهداء على الناس والسلام».

وحينما وصله الخطاب أجابه قائلا:

أما بعد. فقد انتهى إلى كتابك، عند حيرتك وحيرة من زعمت من أمتنا والذى عليه رأيى، أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، ومن حمل

المعاصى على الله فقد فجر، إن الله لا يطاع بأكراه، ولا يعصى بغلبة، ولا يهمل العباد من المملكة، لكنه لمالك لما ملكهم، والقادر على ما غلب عليه قدرتهم فإن أئتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا، ولا لهم عنها مثبطا، فإن أتوا المعصية وشاء أن يمن عليهم، ويحول بينهم وبينها فعل، وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها إجبارًا، ولا ألزمهم إياها إكراها باحتجاجه عليهم، أن عرضهم ومكنهم وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما دعاهم إليه، وترك ما ينهاهم عنه، ولله الحجة البالغة والسلام.

ويقصد الحسن أن العبد مختار فى كسبه بقدر استطاعته من الله عز وجل والدين بين الجبر والقدر. ولم يكن مرادى من هذا الخطاب إلا هذه الكلمة ولكنى أوردتها بجملتها، لأنها بينة الفصاحة والبلاغة، وقد أوردتها لأبين إلى أية درجة بلغ ﷺ فى علم الحقائق والأصول، فاشارة الحسن البصرى بالرغم من بلاغتها تعد من بدء العلم.

وقد قرأت أنه بينما كان الحسن بن على جالسًا عند باب داره فى الكوفة، إذ جاء أعرابى سبه وسب أباه وأمه، فنهض الحسن بن على قائلا «أيها الأعرابى!، أجوعان أنت حتى أطعمك، أم ظمآن حتى أرويك، أم ماذا بك فلم يلتفت الأعرابى إليه بل استمر فى سبابه، فأمر الحسن عبده أن يأتى بكيس من الفضة، ثم أعطاه للرجل قائلا: «عفوا أيها الأعرابى فليس لدى غيره، ولو كان لدى المزيد لأعطيتك» وعندما سمع الأعرابى منه هذا القول صاح: «أشهد أنك ابن بنت النبى، فقد جئتك أختبر حلمك».

هكذا يكون أولياء الله الحقيقيون، الذين لا يهمهم أمدحهم الناس أم لاموهم، والذين يسمعون اللوم هادئين فيستوى عندهم مدح الخلق لهم أو قدحهم فيهم.

٢- ومنهم نور آل محمد، الذى هو من كل العلائق مجرد، سيد زمانه أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما. كان من محققى

الأولياء، وقبله أهل البلاء، وشهيد كربلاء. ويتفق جميع الصوفية على أنه كان على حق. لقد كان يتبع الحق مادام قائمًا فلما ضاع استل سيفه، ولم يسترح حتى ضحى بحياته فى سبيل الله، وقد خصه النبى بالعديد من إشارات العطف والمحبة.

يروى عن عمر بن الخطاب: أنه رأى النبى يوما يزحف على ركبتيه، وقد اعتلى الحسين ظهره الشريف، وهو يمسك حبلا طرفه فى فم الرسول، فقال عمر: «نعم الجمل جملك يا أبا عبد الله» فأجاب الرسول: «ونعم الراكب هو يا عمر».

وله كلام لطيف فى الطريقة الحقة ورموز كثيرة، ومعاملات طيبة ويروى أن الحسين قال: «أشفق الإخوان عليك دينك» وذلك لأن خلاص الفرد يرجع إلى اتباعه دينه ولأن هلاكه راجع إلى عصيانه، إذن فالعاقل هو من تبع المشفقين، وعلم شفقتهم عليه، ولم ير إلا متابعا إياهم، والصديق الحق هو الذى يبدى النصيحة ولا يغلق باب الشفقة.

ووجدت حكاية عنه أن رجلا جاء إليه وقال: «يا ابن رسول الله، أنا رجل معسر ذو عيال، وقصدتك فى قوت الليلة، فقال له الحسين ﷺ: ثمة رزق فى الطريق فامكث حتى يأتوا به، ولم يمض وقت طويل، حتى وصلت خمس صرر من عند معاوية، بكل صرة ألف دينار، وقال حاملوها إن معاوية يعتذر إليك ويبلغك أن أنفق هذا القدر على فقراء القوم، حتى تتحسن أحوالهم بهذه العناية. فأمرهم الحسين أن يعطوا الصرر الخمس إلى هذا المعسر، فأعطوها له، واعتذر له قائلا: لقد مكثت طويلا، وأخذت عطاء قليلا، ولو كنت أعلم هذا المقدار، ما جشمتك مؤونة الانتظار، فاعذرنا لأننا أهل بلاء، قد صرفنا النظر عن متاع الدنيا، وأفقدنا أنفسنا حاجياتها، ووجبت علينا الحياة على مراد الآخرين.

ومناقبه أشهر من ذلك، لا تخفى على أحد قط فى الأمة والله أعلم.

٣- ومنهم وارث النبوة ومصباح الأمة، السيد المظلوم، والإمام المحروم، زين العباد، ونور الأوتاد، أبو الحسن على بن الحسين بن على، الملقب بزين العابدين وهو مشهور بكشف الحقائق، ونطق الدقائق.

سئل: «من أسعد الناس فى الدنيا والآخرة؟» قال «إن خير الناس فى الدنيا والآخرة، من إذا رضى لم يحمله رضاه على الباطل وإذا سخط لم يخرجه سخطه عن الحق». وهذا وصف من نالوا كمال الاستقامة، وذلك أن الرضا بالباطل باطل، والإغضاء عن الحق فى حال الغضب باطل، ولا يكون المؤمن مبطلا.

. وكان الحسين يناديه بعلى الأصغر، وعندما قتل الحسين وأبناؤه فى كربلاء لم يبق إلا على ليهتم بنساء آل البيت، وكان مريضا وجئ بالنسوة عند يزيد بن معاوية ـ أخزاه الله ـ فى دمشق يركبن الجمال، وقد نزع عنهن الحجاب فسئل كيف أصبحتم يا على، ويا أهل بيت الرحمة، فأجاب على: «أصبحنا من قومنا بمنزلة قوم موسى من آل فرعون، يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا فلا ندرى صباحنا من مسائنا، وهذا من حقيقة بلائنا».

ويروى أن هشام بن عبد الله بن مروان حج ذات سنة، وأخذ يطوف بالبيت، حتى يقبل الحجر الأسود، ولم يجد لذلك سبيلا من شدة الزحام فصعد إلى المنبر، وألقى خطبة، وحينذاك دخل زين العابدين على بن الحسين رضي الله عنه إلى المسجد، بوجه أقمر، وخد منور وثوب معطر، وبدأ الطواف، وحينما رأى رجل من أهل الشام ما حدث قال لهشام: «يا أمير المؤمنين، إنهم لم يفسحوا لك الطريق وأنت أمير، فمن هذا الشاب حسن الوجه، الذى أتى فتخلى كل الناس عن الحجر، وأخلوا له المكان؟ فقال هشام: لا أدرى، وكان هدفه ألا يعرفه أهل الشام، ولا ينضموا إليه، أو يرغبوا فى إمارته، وكان الفرزدق الشاعر واقفاً قال: أنا أعرفه، فقالوا: ومن هو يا أبا فراس؟، أخبرنا، فقد رأينا شاباً ذا مهابة. فقال لهم انصتوا حتى أصفه لكم ارتجالا وقال:-

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته — والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم — هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة الزهراء ويحكم — وابن الرضى على خيركم قدم
إذا رأته قريش قال قائلها — إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت — عن نيلها عرب الإسلام والعجم
من جده أ فيضل الأنبياء ومن — فضل أمته دانت له الأمم
ينشق نور الدجى عن نور طلعته — كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلم
يكاد يمسكه عرفان راحته — ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضى حياء ويغضى من مهابته — فما يكلم إلا حين يبتسم
في كفه خيزران ريحها عبق — من كف أروع فى عرنينه شمم
مشتقة من رسول الله نبعته — طابت عناصره والخيم والشيم
كلتا يديه غياث عم نفعهما — يستوكفان ولا يعروهما العدم
عم البرية بالإحسان فانقشعت — عنها الغيابة والإملاق والظلم
لا يستطيع جواد درْك غايتهم — ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت — والأسد أسد الشرى والبأس يحتدم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر — وقربهم منجًا ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم — أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

وعلى هذا النسق مدحه، وأهل بيت الرسول؛ فغضب عليه هشام، وأمر أن يلقى به فى سجن عسفان وهو مكان بين مكة والمدينة، ونقل الخبر كما هو إلى على زين العابدين فأمر بأن يحملوا إليه اثنى عشر ألف درهم وقال: «قولوا له يا أبا فراس نستميحك العذر، فنحن قوم مبتلون، وليس فى حوزتنا

أكثر من هذا نرسله إليك، فرد الفرزدق هذه العطية وقال: لقد كذبت فى كثير من الأشعار، شعرى فيك كفارة لبعضها، لوجه الله وحب الرسول وأبنائه». وحينما حملت هذه الرسالة إلى زين العابدين قال: ارجعوا وردوا إليه هذه العطية وقولوا: «يا أبا فراس إذا كنت تحبنا فلا ترضى أن نرجع فيما أعطينا، وما خرج من ذمتنا» وحينذاك أخذ الفرزدق العطية.

ومناقب ذلك السيد أكثر من أن يحدها حصر، والله أعلم.

٤- ومنهم وهو أيضًا حجة على أهل التقوى، وبرهان على أرباب المشاهدة، إمام أولاد النبى، ومختار نسل على، أبو جعفر محمد بن على ابن الحسين، ويلقب بأبى عبد الله، وكنيته الباقر. وقد اشتهر بمعرفة غوامض العلم، وتفسيراته الدقيقة لمعانى القرآن.

يحكى أن أحد الملوك أراد أن يقتله فاستدعاه، وعندما جاءه الباقر التمس الملك منه العفو، ومنحه الكثير من الهدايا، وارجعه مكرما. فلما سئل الملك عن تصرفه هذا أجابه: حينما دخل على رأيت أسدين: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، يهددانى بالقضاء على إن أنا الحقت به أى سوء

وفى شرحه للآية الكريمة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾(١) يقول الباقر: «كل ما شغلك عن مطالعة الحق فهو طاغوتك». فانظر بأى شئ أنت محجوب، واعلم أن هذا الحجاب مانعك فهو حجابك وقل من يترك هذا الحجاب إلا ويبلغ الكشف. فالمحجوب ممنوع، ولا ينبغى الممنوع أن يدعى القرب.

قال أحد اتباعه المخلصين إنه عندما انقضى جزء من الليل، انتهى الباقر من دعائه إلى الله، وكان يبتهل إليه قائلا: «إلهى وسيدى، جاء الليل، وتوقفت قوة الملوك، وهجع الناس، وظهرت النجوم فى السماء، ونام بنو أمية،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

واقفلوا أبوابهم، ووضعوا أمامها الحراس، ونسى طلابهم حاجتهم، وأنت الحى الباقى، البصير العليم، لا تأخذك سنة ولا نوم، ومن لا يدرك عنك ذلك غير خليق بكرمك، يا من لا يمنعك شئ عن شئ، ولا ينال منك نهار أو ليل، ومن فتحت أبواب رحمتك لكل من ناداك، وانهالت كنوزك على كل من دعاك. أنت لا ترد السائل، وليس فى وسع مخلوق ـ فى الأرض أو السماء ـ أن يمنع المؤمن بك، الداعى لك، عن أن يصل إلى جنابك إلهى، كيف أشعر بالسرور فى هذه الدنيا، وأنا أذكر الموت والقبر والحساب؟، أسألك ـ الواحد الأحد ـ أن تمنحنى السلامة ساعة الموت، دون عذاب، والسرور ـ ساعة الحساب ـ دون عقاب».

كان يقول هذا ويبكى، حتى قلت له ذات ليلة: أى سيدى، وسيد آبائى، حتام البكاء، وإلام النواح قال: أيها الصديق!، لقد فقد يعقوب إبنا واحدا فبكى حتى عمى وابيضت عيناه، وأنا فقدت ثمانية عشر شخصا مع أبيهم ـ أى الحسين وقتلى كربلاء ـ وليس أقل على فقدهم من أن تبيض عيناى. وهذه المفاجاة فضيحة جدًا بالعربية ولكنى أوردتها بالفارسية منعا للإطالة، وحتى لا تتكرر إذ أنى سوف آتى بها فى موضع آخر، إن شاء الله رب العالمين.

٥- ومنهم سيف السنة، وجمال الطريقة، ومعبر المعرفة، ومزين الصفوة، أبو محمد جعفر الصادق رضوان الله عليهم أجمعين.

وهو على الحال، حسن السيرة، جميل الظاهر، ثرى السريرة. وله إشارات جميلة فى كل العلوم. ويشتهر بين الصوفية بدقة حديثه، وإدراكه للحقائق الروحية، وقد كتب عددا من الكتب الشهيرة فى شرح التصوف.

يروى عنه أنه قال: «من عرف الله أعرض عمن سواه»[1] فالعارف يدير ظهره لغير الله، وينقطع عن متاع الدنيا؛ ذلك أن معرفته جهل، فالجهل جزء من معرفته، والمعرفة جزء من جهله. لهذا فإن العارف ينقطع عن البشر، وعن

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٩٤.

التفكير فيهم، ويتصل بالله، وليس للغير مكان فى قلبه يجعله يهتم بهم، وليس لوجودهم قيمة لديه بحيث يهتم بهم عقله.

يروى عنه أنه قال: «لا تصح العبادة إلا بالتوبة، فقد قدم الله التوبة على العبادة فى قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾(١). فالتوبة أول مقام فى هذا الطريق، والعبادة آخر مقاماته. وعندما ذكر الله العاصين طالبهم بالتوبة حيث قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾(٢) لكن عندما ذكر الرسول أشار إلى عبوديته حيث قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(٣).

وقد قرأت فى الأثر أن داود الطائى جاء إلى جعفر الصادق، وقال: «يا ابن رسول الله!، انصحنى، فقد أظلم قلبى! فأجابه جعفر: يا أبا سليمان!، أنت شيخ عصرك، فمالك بنصيحتى حاجة. فأجابه: يا ابن الرسول!، أنت من بيت يعلو على سائر البشر، وعليك أن تسدى النصح للجميع. فصاح جعفر: يا أبا سليمان!، إنى أخشى أن يجئ جدى يوم الحساب، ويمسك بى ويقول: لماذا لم تف بالعهد، وتترسم خطاى؟ ليس هذا أمر يقوم على القربى لمحمد، بل على السلوك الطيب فى حضرة الحق، فأجهش داود الطائى بالبكاء وقال: يا إلهى، إذا خامر الشك شخصا عجنت طينته بماء النبوة، وجده رسول الله وأمه فاطمة البتول، فمن أنا حتى تسرنى أعمالى؟».

وقال جعفر ذات يوم لأتباعه: «تعالوا نتعاهد على أن يقوم من ينال منا الخلاص يوم القيامة بالشفاعة للآخرين، فقالوا له: يا ابن الرسول!، كيف تحتاج الشفاعة، وجدك الشفيع لكل الخلق؟ فأجاب: إن أعمالى تجعلنى أخجل من أن أنظر إلى جدى يوم القيامة، وإن رؤية الشخص لأخطائه من صفات الكمال، وهى صفة يتميز بها من يصلون إلى الجنات العلى سواء كانوا أنبياء أم أولياء أم رسل.

---

(١) سورة التوبة: آية ١١٢.
(٢) سورة النور: آية ٣١.
(٣) سورة النجم: آية ١٠.

لقد قال رسول الله: «إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، وعيوب الدنيا» ومن تواضع خضوعا لله رفعه الله فى الدارين.

ولو أننى ذكرت أهل البيت بجملتهم، وعددت مناقبهم واحدا واحدا، فإن هذا الكتاب لا يتسع لها بل لا يتسع لها حمل بعير من الكتب. وهذا المقدار يكفى لهداية ذوى الإدراك من المريدين ومفكرى الطريقة.

وسأتحدث الآن ـ باختصار ـ عن أهل الصفة، فقد تحدثت تفصيلا عن كل واحد منهم فى باب من كتاب «منهاج الدين» الذى ألفته قبل هذا الكتاب ويكفى هنا أن أذكر أسماءهم وألقابهم، حتى يحصل ـ أعزك الله ـ المقصود.



الباب التاسع

عن أهل الصفة

اعلم أن المسلمين جميعا قد اتفقوا على أن عددا من الصحابة لجأوا إلى مسجد الرسول واشتغلوا بالعبادة، تاركين الدنيا، زاهدين في البحث عن وسائل العيش.

وقد عاتب الله رسوله من أجلهم حين قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[1]. وقد أشاد بهم كتاب الله وأشادت بهم أحاديث كثيرة وردت عن النبى عليه الصلاة والسلام وقد ذكرنا طرفا منها فى مقدمة الكتاب.

يروى عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام وقف على أهل الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن، بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه، راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائى فى الجنة».

وكان من أهل الصفة:

الداعى إلى حضرة الجبار، ومختار الرسول المختار، بلال بن رباح؛

وحبيب الله، وموضع سر رسول الله، سلمان الفارسى؛

وقائد المهاجرين والأنصار، والمتوجه لله الغفار، أبو عبيدة بن الجراح؛

ومختار الصحاب، وزينة عابدى رب الأرباب، أو اليقظان عمار بن ياسر؛

وخزينة العلم، وكنز الحلم، عبد الله بن مسعود؛ وأخوه المتمسك ببلاط الخلافة، والطاهر من العيب والآفة، عتبة بن مسعود؛

---

(١) سورة الأنعام: آية ٥٢.

وسالك طريق العزلة، والمعرض عن عصائب الذلة، المقداد بن الأسود؛

وراعى مقام التقوى، والراضى بالبلوى خباب بن الأرث؛

وقاصد حظيرة الرضا، وطالب اللقاء فى البقا، صهيب ابن سنان؛

ومدرج السعادة، وبحر القيادة، عتبة بن غزوان؛

وشقيق الفاروق، والمعرض عن الكونين والمخلوق، زيد بن الخطاب؛

وسيد المجاهدة، فى طلب المشاهدة، أبو كبشه مولى النبى؛

وأيضا العزيز التائب، والآيب من كل الخلق إلى الحق، أبو مرثد كناز بن الحسين العدوى؛

وأيضًا عامر طريق التواضع، وخازن محجة التقاطع، سالم مولى حذيفة بن اليمان؛

والخائف من العقوبة، والهارب من الطريق المخوفة عكاشة بن حصن؛

وزين المهاجرين والأنصار، وسيد بنى قار مسعود بن الربيع القارى.

ومنهم الذى هو فى الزهد كعيسى، وفى الشوق كموسى، أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى. وحافظ أنفاس الرسول، عبد الله بن عمر.

ورباب الخيرات، المقيم فى الاستقامة، والمستقيم فى المتابعة، صفوان بن بيضاء.

وأيضًا صاحب الهمة فى الغمة، أبو الدرداء عويمر بن عامر. ومتعلق حظيرة الرضا، مختار الرسول، أبو لبابة بن عبد المنذر.

وشرف كيمياء الدين، وصدف در المتوكل، عبد الله بن بدر الجهنى. ولو ذكرتهم جميعًا لأدى ذلك إلى التطويل.

وقد كتب الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى، مؤرخ الصوفية، ومفسر حكم شيوخها تاريخا لأهل الصفة، ذكر فيه فضائلهم

ومزاياهم، وألقابهم وكناهم. وقد أضاف إليهم مسطح بن أثاثة بن عباد، ولكنى أكره ذلك، لأنه أول من بدأ الافتراء على عائشة أم المؤمنين[١]. ومن أهل الصفة كذلك أبو هريرة وثوبان ومعاذ بن الحارث، وسائب بن خلاد، وثابت بن الوديعة وأبو عيسى عويم بن ساعد، وسالم بن عمير بن ثابت، وأبو اليسر كعب بن عمر، ووهب بن معقل، وعبد الله بن أنيس، وحجاج بن عمر الأسلمى وكان لهم بين وقت وآخر تعلق بأسباب العيش ولكنهم كانوا فى مرتبة واحدة.

وكان الصحابة دون شك خير جيل وأفضل البشر، إذ منحهم الله صحبة النبى ﷺ، وحفظ قلوبهم من كل شر، كما قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[٢] وقال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾[٣].

والآن أذكر بعض التابعين فى هذا الكتاب حتى تتم الفائدة وتتصل القرون ببعضها إن شاء الله العزيز.

---

(١) هذا لا يمنع أن يذكر إن كان منهم، خاصة وأن أبا بكر رضي الله عنه حينما أقسم ألا ينفق عليه نزل القرآن يأمره بألا يفعل ذلك، وهو من أهل بدر وفى الحديث الشريف: أن الله سبحانه وتعالى قد غفر لهم.

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد فى مسنده والترمذى.

الباب العاشر

فى ذكر ائمتهم من التابعين رضوان الله عليهم

١ - شمس الأمة. نور الدين والملة، أويس القرنى رضي الله عنه. من كبار شيوخ أهل التصوف.

عاش فى زمن النبى ﷺ ولكن حرم من رؤيته لسببين: ما كان يسيطر عليه من وجد، وبسبب واجبه نحو أمه، وقد قال النبى لصحابته: «هناك رجل فى قرن، يدعى أويس. سيشفعه الله يوم القيامة فى عدد من أمتى، يساوى مالربيعة ومضر من أغنام، ثم اتجه إلى عمر وعلى وقال لهما: سوف تريانه! إنه مسكين، متوسط الطول، كث الشعر، على جانبه الأيسر بقعة بيضاء كالدرهم، وبه بقعة مشابهة، على راحة يده كالبرص، إذا رأيتماه فاقرئاه السلام، واطلبا منه الدعاء لأمتى».

وبعد أن انتقل النبى ذهب عمر إلى مكة، وكان على معه، وصاح أثناء خطبته بالمسجد قائلا: يا آل نجد قوموا، فنهضوا ثم قال: يا آل نجد هل بينكم أحد من قرن؟ فأجابوا: نعم، فأرسل عمر إليهم، وسألهم عن أويس، فقالوا: هو شخص مجنون، لا يدخل العمران، ولا يتحدث مع أحد، وهو لا يأكل مما يأكل الناس، ولا يحس بما يحسون به من فرح وحزن، ويبكى عندما يضحك الناس، ويضحك عندما يبكون.

فقال لهم عمر: وددت لو رأيته فأجابوا قائلين: إنه يعيش فى الصحراء بالقرب من مرعى جمالنا، فذهب عمر وعلى يطلبانه فوجداه يصلى، فانتظرا حتى انتهى من صلاته ثم حياهم، وأراهما العلامة فى جنبه، وعلى راحة يده، فسألاه الدعاء، وأقرآه سلام رسول الله، وطلبا منه أن يدعو لأمة المسلمين.

وبعد أن مكثا معه فتر من الزمن قال لهما: لقد تجشمتما المتاعب لترياني والآن فلتعودا، فقد اقترب البعث عندما نلتقى دون وداع، أما اليوم

فإنى مشغول بالاستعداد له؟ وعندما رجع أهل قرن من مكة أظهروا احتراما كبيرًا لأويس فترك بلدته وذهب إلى الكوفة.

وفى يوم رآه هرم بن حيان، ثم لم يره أحد بعده، حتى نشبت الحرب بين على ومعاوية، حيث حارب مع على، وسقط شهيدًا فى معركة صفين، عاش حميدًا ومات شهيدًا.

يروى عنه أنه قال: «السلامة فى الوحدة»، ذلك لأن قلب المنعزل عن الناس خال من الأفكار الخاصة بالغير، ولا يأمل فى شئ من الناس حتى يسلم جملة من شرورهم، ويحول وجهه عن جملتهم. ولا يظن أحد أن الوحدة هى مجرد الحياة على انفراد، فلا يعتبر وحيدًا من ارتبط قلبه بالشيطان، وتسلطت عليه النفس والشهوات، وخامرته أفكار خاصة بهذا العالم أو العالم الآخر، ذلك أن سروره بالشئ نفسه، أو بالتفكير فيه سواء، فالوحيد إذا تحدث لا يؤثر الحديث فى وحدته، والمشغول لا تكون العزلة سببًا فى زاحة باله، وإذن فالانقطاع عن الأنس لا يكون إلا بالإنس، فذلك الذى يستحق الأنس لا تحوله مخالطة الأنس وذلك الذى يملك مؤانسة الأنس لا يعبر الأنس بقلبه، ولا يكون له نصيب من أنس الحق لأن الوحدة صفة عبد صاف سمع قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(١).

٢- ومنهم هرم بن حيان رضي الله عنه، وهو من عظماء الطريقة وله فى التقوى حظ وافر، لقى كرام الصحابة.

ذهب ليزور أويسا القرنى، ولكن ما أن وصل إلى قرن حتى وجد أن أويسا قد غادرها، فاشتد به الأسى، فرجع إلى مكة، ليعلم أن أويسا يعيش بالكوفة، فاتجه نحوها. ولكن ظل مدة طويلة؛ دون أن يهتدى إليه. وأخيرًا رجع متجهًا إلى البصرة، وفى طريقه إليها رأى أو يسا مرتدياحلة مرقعة، يتوضأ على شاطئ الفرات، وعندما جاء أويس قريبًا من شاطئ النهر، وأخذ يمشط

(١) سورة الزمر آية ٣٦.

لحيته تقدم إليه هرم وحياه، فقال أويس: السلام عليك يا هرم بن حيان. فصاح هرم: كيف عرفت أننى هرم؟. فقال له أويس: روحى عرفت روحك، فجلسا فترة، ثم أرجعه.

قال هرم: كان معظم حديثى معه، من كلام أميرى المؤمنين أى: عمر، وعلى، رضوان الله عليهما.

وروى أن عمر روى عن الرسول ﷺ قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله...»[1] ثم قال لى حينذاك: «عليك بحفظ قلبك، وفى رواية: عليك بقلبك، أى احفظ قلبك من التفكير فى الغير ولقوله هذا معنيان:

١- اجعل قلبك مطيعًا لله، بمجاهدة نفسك.

٢- اجعل نفسك مطيعة لقلبك بالمشاهدة.

وهذان مبدآن سليمان، إذ أن من واجب المريدين أن يجعلوا قلوبهم مطيعة لله، كى تتطهر من الأمانى والأهواء الضالة، وتبتعد عن الأفكار الدنيّة، وتتجه نحو ما يحقق لهم السلامة الروحية، بإطاعة الأمر، والتفكير فى آلاء الله، حتى تصبح قلوبهم المكان المقدس لمحبوبهم.

أما أن يجعل المرء نفسه مطيعة لقلبه، فهذا من أعمال الكاملين، الذين أضاء الله قلوبهم بنور الكمال، وخلصها من كافة الأسباب والوسائل، ومنحهم رداء القرب، وبذلك أظهرلهم كرمه، واختارهم ليتفكروا فيه ويقتربوا منه، ولهذا جعل أبدانهم متفقة مع قلوبهم؛ فالجماعة الأولى أصحاب قلوب، والجماعة الثانية مغلوبة القلوب؛ الأولى باقية الصفات، أما الثانية فهى فانية الصفات. وترجع صحة هذا إلى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود عن عمر بن الخطاب.

(٢) سورة الحجر: آية ٤٠.

فهناك من يقرأها المخلصَين لا المخلصِين فالمخلص بصيغة اسم الفاعل ـ يحتفظ بصفاته والمخلص بصيغة اسم المفعول ـ قد فقد صفاته، وسأشرح هذه النقطة باستفاضة فى موضع آخر. والجماعة الثانية التى تجعل أجسامها متفقة مع قلوبها، والتى تستقر قلوبها، هى أعلى قدرا من الجماعة الأولى، التى تبذل جهدها كى تجعل قلوبها متابعة لأوامر الله. ويقوم أساس هذا الموضوع على مبدأى الصحو والسكر، والمشاهدة والمجاهدة. والله أعلم بالصواب.

٣- ومنهم إمام العصر وفريد الدهر الحسن بن أبى الحسن البصرى

ولقبه أبو على، وقيل أبو محمد، وقيل أبو سعيد. ويضعه أهل هذا العلم، بل أهل كل العلوم، موضع إجلال وإكبار، وله توجيهات دقيقة فى علم المعاملات.

وقد قرأت فى الأثر أن أعرابيا جاءه وسأله عن الصبر فأجابه الحسن: «الصبر نوعان: أولهما الصبر عند البلاء، وثانيهما الصبر فى الابتعاد عما نهى الله عنه، وأمرنا أن نتجنبه» فقال الأعرابى: إنك زاهد ولم أر من هو أزهد ولا أصبر منك. فصاح الحسن قائلا: يا أعرابى ليس زهدى إلا رغبة، وليس صبرى إلا جزعا. فسأله الأعرابى أن يشرح له مقاله هذا قائلا: لقد زعزعت إيمانى. فأجابه الحسن: إن صبرى على المصائب وخضوعى، يظهر أن خوفى من نار السعير، وهذا جزع. وأن زهدى فى هذا العالم هو رغبة فى الآخرة وهذه هى الرغبة بعينها.

أنعم بمن لا تعنيه آماله، فهو يصبر لله، لا خوفا من سعيره، ويزهد لله، لا رغبة فى جناته، إن هذه هى علامة الإخلاص الصحيح. يروى أنه قال: «صحبة الأشرار تورث سوء الظن»[1] وهذا قول حكيم، يناسب الناس فى عصرنا هذا، فالناس جميعا قد فقدوا ثقتهم فى أحباب الله، وسبب هذا أنهم لم يتصلوا إلا بأدعياء الصوفية، الذين لا يزاولون إلا ظاهرها.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٧٤.

وعندما يرى الناس أن هؤلاء الأدعياء يعملون المنكر، ويقولون الكذب ويستمعون إلى المثويات، ويجرون وراء الشهوات من الأموال مما هو حرام أو مشبوه، يظنون أن رجال الصوفية يسلكون نفس الطريق، أو أن هذا هو مبدؤهم، بينما الحقيقة على العكس من ذلك، فالصوفية يعملون فى طاعة الله، ويتحدثون بكلماته، ويحفظون حبه فى قلوبهم، وصوت شريعته فى آذانهم، ونور جماله فى عيونهم،و ويوجهون كل اهتمامهم نحو الوصول إلى الأسرار الألهية، حيث يلهمهم الله بها.

فاذا كان الأشرار قد ظهروا بينهم، واستخدموا أساليبهم، فالوزر على من ارتكبه. ومن اتصل بأشرار القوم فانما يعمل ذلك لأنه منهم، إذ لو كان به خير لا تصل بالأخيار.

وفى الأثر: شبيه الشئ منجذب إليه، إذن فاللوم على الشخص الذى يصحب شبيهه أو كفؤه. ومفكروهم أكثر شرا، وأحقر خلق الله جل جلاله، الذين يكون اختلافهم مع شرارهم وأراذلهم، وما داموا لم يجدوا من الأخيار هوى ومرادا جابهونهم بالنكرات، أو يقتدون بهؤلاء الأراذل، لأنهم مثلهم مفسدون ولم يتجهوا إلى الأخيار، ومن أعزهم الله تعالى.

فلا تحقرن نفسى وأنت حبيبها ... فكل امرئ يصبو إلى ما يجانس

٤- ومنهم رئيس العلماء ومقتدى الفقهاء، سعيد بن المسيب كان عظيم الشأن رفيع القدر، عزيز، حميد الصدر. وله مناقب كثيرة فى فنون العلم من الفقه والتوحيد، والحقائق والتفسير، والشعر واللغة وغير ذلك.

يروى أنه كان يكتم زهده وورعه ولا يبديه، وقد أقر الصوفية هذا السلوك، وامتدحه مشايخهم وقد قال: «ارض باليسير من الدنيا مع سلامة دينك كما رضى قوم بكثير مع ذهاب دينهم» ومعنى ذلك أن الفقر مع التدين، خير من الغنى مع الغفلة، لأن الفقير حينما ينظر داخل قلبه، لا يفكر فى

الطمع، وحينما ينظر فى يديه يقنع، وحينما ينظر الغنى فى قلبه يطمع فى الدنيا، وحينما ينظر فى يديه يجد الدنيا مليئة بالشبهة فرضى الأحبة بسلطان الله الذى لا يغفل، أفضل عنده من رضا الغافلين الراكنين إلى الدنيا المليئة بالغرور والفساد، والحسرة والندم والذلة والمعصية.

وحينما يصيب الغافلين أذى يقولون الحمد لله أن لم يكن فى أبداننا؛ ويقول الأحبة: الحمد لله أن لم يكن فى ديننا، إذا أصابهم أذى أبدانهم فحينما يكون القلب فى اللقاء يسعد الجسد فى البلاء، وحينما يكون القلب فى غفلة يكون القلب فى نقمه، حتى ولو كان يتقلب فى النعمة.

وفى الحقيقة الرضا بقليل الدنيا كثرة، والرضا بكثير الدنيا قلة، ذلك أن قليلها مثل كثيرها. ويروى عنه أنه عندما كان بمكة جاءه رجل وقال له: «أخبرنى عن حلال لا حرام، وحرام لا حلال فيه» فقال: «ذكر الله حلال ليس فيه حرام، وذكر غيره حرام لا حلال فيه، فخلاصك فى ذكر الله، وهلاكك فى ذكر غيره»، والله أعلم بالصواب.

الباب الحادى عشر

أتباع التابعين حتى يومنا هذا

١- منهم شجاع الطريقة، ومتمكن الشريعة، حبيب العجمى، عالى الهمة، رفيع القدر، وفى ترتيب درجات الرجال له قيمة عظيمة، وخطر كبير.

جاءت توبته على يد الحسن البصرى، وكان فى بداية عهده مرابيا، يرتكب كل أنواع الشرور، ولكن الله أحسن توبته، ووهبه التوفيق، حتى عاد إلى خظيرته. وتعلم من الحسن البصرى شيئا من علوم الدين وأعماله.

وكان لسانه أعجميا، لا يحسن النطق بالعربية، وقد خصه الله بكرامات كثيرة، وفى ليلة مر الحسن البصرى بباب صومعته، وكان حبيب قد أذن للعشاء ووقف يصلى، فدخل الحسن البصرى، ولكنه لم يرد أن يصلى وراء حبيب، إذ أنه لا يحسن النطق بالعربية، ولا يحسن تلاوة القرآن، وفى نفس اللية رأى الحسن البصرى فى منامه، أنه رأى الله تعالى، وقال له: يا إلهى دلنى على ما يرضيك؟. فأجابه الله: يا حسن لقد وجدت ما يرضينى، ولكن لم تقدره حق قدره. لو كنت صليت أمس وراء حبيب، ولو كان صحة قصده قد جعلتك تغضى عن رطانته لرضيت عنك.

ويقول الصوفية إنه عندما هرب الحسن البصرى من رسل الحجاج، لجأ إلى صومعة حبيب فجاء الجنود وسألوه: «هل رأيت الحسن» فأجاب حبيب: «نعم»، فسألوه: «وأين هو» فأجاب: «هو فى صومعتى»، فدخلوا الصومعة، ولكنهم لم يروا فيها أحدًا فسبوا حبيبا، وقالوا له: «كذاب» واعتقدوا أنه يسخر منهم، فاقسم أنه لم يقل إلا الصدق، فرجعوا مرة ثانية وثالثة، ولكنهم لم يجدوا أحدا، فرحلوا. ولما خرجوا جاءه حسن، وقال لحبيب: أنا أعلم أن الله لم يكشفنى لهؤلاء الأشرار إلا بفضل بركتك، ولكن لماذا قلت لهم أنى هنا؟.

فأجاب الحبيب: يا سيدى! إن الله لم ينجك منهم بفضل بركتى، ولكن بفضل قولى الصدق، فلو أنى كذبت لاصبحنا نحن الاثنين فى موضع لا نحسد عليه[1]. وسئل حبيب: ما الذى يرضى الله؟؛ فأجاب: قلب ليس فيه غبار النفاق. ذلك أن النفاق عكس الوفاق؛ والرضا عين الوفاق فليس هناك ما يربط النفاق بالمحبة؛ والمحبة هى أن ترضى بما قسمه الله، لهذا فإن الرضا سمة أحباب الله، أما النفاق فهو سمة أعدائه. وهذا موضع له أهميته وسوف أشرحه فى مكان آخر.

٢- ومنهم بقية أهل الأنس، مالك بن دينار رضي الله عنه كان رفيق الحسن البصرى، ومن كبار أهل الطريقة، وله كرامات كثيرة مشهورة، وله فى رياضة السلوك خصال مذكورة.

وكان والده دينار عبدًا، ولد له مالك قبل أن يتحرر، وكانت بداية حاله أنه فى ليلة نثر صبحها الحظوظ الإلهية من أنوارة، على روح مالك وكان يلهو ويعبث مع جماعة من رفاقه، وعندما ذهبوا الى النوم أيقظ الله حظه، وانبعث صوت من عود كانوا يعزفون به يقول: يا مالك! مالك لا تتوب؟ فترك مالك طريق العبث والمجون، وذهب إلى الحسن البصرى، وصحت توبته، وارتفع مقامه، حتى إنه حدث ذات يوم أن اتهم بسرقة جوهرة، أثناء وجوده على ظهر مركب، لأنه كان مجهولا ممن فيها، فما أن رفع مالك نظره إلى السماء حتى طفت كل أسماك البحر إلى سطح الماء، وفى فم كل واحدة منها جوهرة، فأخذ مالك إحدى هذه الجواهر، وأعطاها للرجل الذى فقد جوهرته، ثم مشى على الماء حتى وصل الشط.

ويروى عنه أنه قال: «أحب الأعمال إلى الإخلاص فى العمل» ذلك أن العمل لا يمكن أن يوصف بأنه عمل، إلا إذا اتسم بالإخلاص، فالإخلاص

---

(١) فى قوت القلوب للمكى رواية قريبة من هذه ج٢ ص ١٠٢.

بالنسبة للعمل كالروح بالنسبة للجسد. وإذا كان الجسد بدون الروح ميتا لا حياة فيه، فالعمل بدون الإخلاص لا جدوى منه على الإطلاق.

والإخلاص تابع لأعمال الباطن، أما العبادة فتابعة لأعمال الظاهر، ولا تكمل الثانية إلا إذا وجدت الأولى، كما أن الأولى أى الإخلاص، تأخذ قيمتها من الثانية أى العبادة فحتى لو احتفظ المرء بإخلاص قلبه طوال ألف سنة فلن يعتبر هذا إخلاصا إلا إذا اقترن بالعمل، ولو قام بالأعمال الظاهرة طوال ألف عام فلن يعتبر عمله هذا من قبيل الأعمال إلا إذا اقترن بالإخلاص.

٣- ومنهم خطير الفقراء، وأمير كل الأولياء، أبو حليم حبيب بن سالم الراعى. كان ذا منزلة عظيمة بين المشايخ، وله آيات واضحة، وبراهين ساطعة. كان رفيق سلمان الفارسى، ويروى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «نية المؤمن خير من عمله»[1].

وكان له قطيع من ماشية، وبيته على شاطئ الفرات، وكان طريقه هو الاعتزال عن الدنيا ويروى عنه أحد المشايخ ما يلى: «مررت يوما به، فألفيته يصلى بينما يقوم الذئب بحراسة غنمه، فعزمت على زيارته لما بدا لى من إمارات عظمته، وبعد أن تبادلنا التحية قلت له: يا شيخ إنى أرى الذئب فى وفاق مع الغنم، فأجاب: لأن الراعى فى وفاق مع الله، ثم وضع إنائين من خشب تحت صخرة، فانفجرت عينان من الصخر: إحدهما لبن مصفى والأخرى عسل، وعندما طلب منى الشرب قلت له: إن الصخر انبجس عن ماء لأمة موسى، رغم عصيانهم له ورغم أن موسى أقل مرتبة من محمد، فلماذا لا ينبجس الصخر عن لبن وعسل مادمت مطيعا لمحمد، الذى هو أعلى مرتبة من موسى؟. فقلت: عظنى فقال: لا تجعل قلبك صندوق الحرص وبطنك وعاء الحرام.

ولشيخى أخبار أخرى عنه، ولكن ليس فى وسعى أن أكتب هنا أكثر من

---

(١) رواه الطبراني عن سهل بن سعد.

هذا فقد تركت كتبى فى غزنة حاطها الله وأصبحت أسيرا بين قوم لا يكتبون فى لاهور التابعة لمولتان. والحمد لله على السراء والضراء.

٤- ومنهم الشيخ الصالح أبو حازم المدنى، وكان مقتدى بعض الشيوخ، له فى المعاملة حظ وافر، وخطر عظيم، كما كان ثابتا فى فقره، ومتبحرا فى مختلف صفوف مجاهدة النفس.

ويروى عمرو بن عثمان المكى ـ وكلامه مقبول عند كل أرباب القلوب، ومسطور فى معظم الكتب ـ قائلا: ان أبا حازم أجاب عندما سئل عما يمتلكه: الرضا عن الله، والغناء عن الناس؛ ولا محالة أن كل من يرضى بالحق، يكون مستغنيا عن الخلق، والخزانة العظمى للمرء هى رضا الله تعالى وتقدس، والإشارة إلى غنى الله جل جلاله تستتبع أن كل من يكون غنيا به يكون مستغنيا، ولا يعرف طريقا إلا إلى بابه، ولا يعرف سواه فى الخلا والملا، ولا يدعو سواه، ولا يعلم مفرا أو موئلا إلا إياه.

وروى أحد المشايخ قال: ذهبت لرؤيته، فوجدته نائما، ومكثت زمنا حتى استيقظ. فقال: رأيت الآن فى منامى أن النبى ﷺ قد أعطانى رسالة لك، وأمرنى أن أخبرك، أنه خير لك أن تقوم بواجبك نحو أمك، من أن تذهب إلى الحج، ولذلك عد أدراجك وحاول أن ترضيها. فرجع الرجل ولم يذهب مكة. وهذا كل ما سمعته عن أبى حازم.

٥- ومنهم داعى أهل المجاهدة، والقائم بمحل المشاهدة، محمد بن واسع الذى لم يكن فى وقته مثله. اتصل بعدد كبير من التابعين، ومن قدامى أئمة التصوف، وكانت له معرفة كاملة بمبادئ الطريق، وله فى الحقائق أنفاس عالية، وإشارات كاملة، ويروى عنه أنه قال: «ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه»[1] وهذا مقام عال من مقامات المشاهدة، ذلك أن المرء عندما تغلبه المحبة للذات العلية يصل إلى مرحلة لا يرى فيها الصنع، وإنما يرى الصانع، شأنه فى ذلك شأن من ينظر

---

(١) في التعرف إلى أهل التصوف للكلاباذى ص ٦٤.

إلى الصورة ويرى فيها المصور.

وهذه العبارة أشبه فى معناها الحقيقى بما قال إبراهيم خليل الله ورسوله الذى نظر إلى الشمس والقمر والنجوم وقال: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾[1] ذلك لأنه قد غلبه الشوق، حتى رأى صفات محبوبه فى كل ما يراه. وأحباب الله يرون أن الكون رهن إرادته، وأسير مشيئته، وأن وجود المخلوقات لا شئ بجوار قدرة الخالق، ولذلك عندما ينظرون بشوق فانهم لا يرون المخلوق الخاضع الذليل، ولكنهم يرون القادر الفاعل المبدع وسأعالج هذا الموضوع فى باب المشاهدة.

وقد وقع بعض الناس فى الخطأ وظنوا أن قول محمد بن واسع: «رأيت الله فيه» تعنى حلول الله فى هذا الشئ، وهذا محض كفر، وذلك لأن المكان مرتبط بما يحل فيه، فاذا اعتقد أحد أن المكان مخلوق فان ما يحل به يجب أن يكون مخلوقا أيضا، وإذا كان ما يحل بالمكان قديما كان المكان قديما كذلك، ومن ثم فإن لهذا القول نتيجتين خاطئتين كل واحدة منهما كفر، وأعنى بهاتين النتيجتين أن المخلوقات قديمة، أو أن الخالق محدث، وعليه فعندما قال محمد بن واسع: أنه رأى الله فى الأشياء، فإنه كان يعنى ـ كما ذكرت سابقا ـ أنه رأى فى تلك الأشياء العلامات الدالة على الله، والدلائل والبراهين التى توصل إليه.

وسوف أناقش فى مكان آخر بعض النقاط الدقيقة المرتبطة بهذا الموضوع.

٦- ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز إما الأئمة، والمثل الذى يحتذيه أهل السنة، كان متبحرا فى أعمال المجاهدة والعبادة، وحجة كبيرة فى مبادئ الصوفية.

وقد أراد فى بادئ أمره أن يعتزل الناس، ويترك صحبتهم، ذلك أنه حرر

---

(١) سورة الأنعام: آية ٧٧.

قلبه من أى تفكير فى سلطة أو عظمة. فرأى فى منامه ليلة أنه كان يجمع عظام النبى من مقبرته، ويختار بعضها، وينبذ الآخر فاستيقظ فزعا، وسأل أحد تلاميذه - محمد بن سيرين - أن يفسر الحلم فقال له: ستصل إلى مرتبة عالية فى المعرفة عن رسول الله، وفى المحافظة على سنته، حتى أنك ستبين الغث من الثمين.

ورأى أبو حنيفة فى منامه مرة أخرى أن النبى ﷺ قال له: «لقد خلقت لا حياء سنتى فلا تقتصد» وكان معلما لعدد من الأئمة مثل: إبراهيم ابن أدهم، والفضيل بن عياض، وداود الطائى، وبشر الحافى وغيرهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وفى عصر الخليفة المنصور كان الاتجاه أن يعين فى منصب القاضى أحد هؤلاء الأشخاص الأربعة: أبو حنيفة، وسفيان الثورى، ومسعر بن كدام وشريح، وهؤلاء الأربعة كانوا من فحول العلماء، فأرسل إليهم رسولا لاستدعائهم، وكانوا فى طريقهم معا لمقابلة المنصور، قال أبو حنيفة: ليحدس كل منا شيئًا حول ذهابنا، فقالوا: هذا صواب. قال أبو حنيفة: سأرفض هذا المنصب بحيلة أقوم بها، وسيتظاهر مسعر بالجنون، وسيهرب سفيان، أما شريح فسوف يصبح قاضيا.

وحدث بعد ذلك أن هرب سفيان وركب سفينة وقال لقائدها: «اخفنى وانقذنى إذ سيقطعون رأسى» وذلك تأويلات للحديث «من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين»(١) فخبأه الملاح. أما الآخرون أدخلوا على الخليفة، فقال المنصور لأبى حنيفة: «عليك أن تكون القاضى» فأجاب أبو حنيفة: «يا أمير المؤمنين أنا لست عربيا، بل أحد الموالى، ولن يرضى رؤساء العرب بحكمى» فقال المنصور: «ليس لهذا الأمر علاقة بالنسب إنه فى حاجة إلى العلم، وأنت أكبر العلماء فى هذا العصر، ولكن أبا حنيفة أصر على أنه غير أهل لهذا

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة.

المنصب» وقال: «إن ما قلته الآن أكبر دليل على ذلك، فلو كنت صادقا لكنت غير أهل للقضاء، ولو كنت كاذبا فلا يصح أن يتولى القضاء على المسلمين كاذبا وأن تعهد إليه بالقضاء فى حياة المسلمين وأملاكهم وأعراضهم» وتمكن عن هذا الطريق أن يتجنب قبول هذا المنصب. ثم تقدم مسعر وأمسك بيد الخليفة قائلا: «كيف حالك وحال أبنائك وسائمتك؟». فقال المنصور: أبعدوه، إنه مجنون وأخيرا قيل لشريح، أن عليه أن يقبل هذا المنصب فأجاب: إننى مهموم خفيف العقل. فأشار عليه الخليفة أن يشرب ماء الشعير، وما شابهه من الشراب، حتى يستعيد صفاء نفسه. وهكذا صار شريح قاضيا؛ ولم يحادثه أبو حنيفة بعد ذلك.

إن هذه القصة توضح مدى حكمة أبى حنيفة وكمال حاله، وصدق فراسته وتمكنه بطريق الحق والخلاص، وعزمه على ألا ينخدع ويسلك طريق الشهرة والنفوذ الدنيوى.

كما تظهر هذه القصة صحة مبدأ الملامة، إذ أن هؤلاء العلماء الثلاثة لجأوا إلى الحيلة، لتجنب الشهرة؛ أما علماء اليوم فهم مختلفون عن هذا كل الاختلاف. إذ يجعلون قصور الأمراء قبلتهم؛ ومنازل الأشرار معابدهم، ويسوون بساط الطغاة بدرجة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[1]. وكل من كان على خلاف ذلك أنكره الجميع.

حدث ذات مرة أن أحد علماء غزنة، وكان يدعى أنه عالم فى الدين، متبحر فيه، قال: «إن لبس المرقع بدعة»، فقلت له: «أنت لا تعتبر لبس العباءة الموشاة بالذهب والفضة حراما، رغم أنها تصنع من الحرير الخالص، المحرم على الرجال أن يلبسوه، ورغم أن بعض الناس يلحون فى طلب مثل هذه العباءة من الأشرار، الذين جمعوا مالهم من حرام، فلماذا إذن تحرم لبس رداء شرعى ثم الحصول عليه من مكان شريف، وشراؤه بمال حلال؟. إنك لو لم تكن

---

(١) سورة النجم: آية ٩.

خاضعا للغرور ولأخطاء نفسك لقلت قولة حق.

إن الشريعة تبيح للنساء ارتداء الحرير، وتحرمه على الرجال، ولا يباح إلا للمجانين، فلو أنك اعترفت بصدق هذا القول لعذرتك. نعوذ بالله من عدم الإنصاف.

ويقول الإمام الأعظم أبو حنيفة: «حينما أدركت نوفل بن حيان الوفاة رأيت ـ فيما يرى النائم ـ وكأن القيامة قد قامت، والحساب قد وضع، ورأيت الرسول ﷺ متشمرًا على حوضه، وقد وقف حوله الشيوخ على اليمين واليسار، ورأيت شيخا حسن الوجه، قد ابيض شعره، وقد وضع خده على خد رسول الله، وفى محاذاته رأيت نوفل قائما، وحينما رآنى اتجه نحوى وحيانى فقلت له: «اسقنى» قال: «عندما آخذ الإذن من الرسول، فأشار الرسول باصبعه حتى يسقينى، فشربت من الماء، وأعطيت منه أصحابى، ولم ينقص شئ قط من هذه الكأس»، قلت يا نوفل: من ذلك الشيخ القائم على يمين رسول الله، قال: ابراهيم خليل الرحمن، والآخر أبو بكر الصديق وهكذا ظللت أسأل، وأعد على أصبعى، حتى أحصيت سبعة عشر شخصا رضوان الله عليهم أجمعين، وحينما استيقظت وجدت العدد سبعة عشر فوق كفى.

ويروى يحيى بن معاذ الرازى أنه قال: «رأيت فى نومى أنى أسأل الرسول ﷺ قائلا: يا رسول الله أين أطلبك؟» فقال: «فى علم أبى حنيفة». وله فى الورع طرق كثيرة، ومناقب مشهورة أكثر من أن يتحملها هذا الكتاب.

وعندما كنت فى الشام غلبنى النعاس، عند قبر بلال بن رياح، مؤذن النبى، ورأيت فيما يرى النائم أن النبى عليه الصلاة والسلام جاء من باب بنى شيبه، محتضنا إلى صدره رجلا كبيرا فى حنان ظاهر، بنفس الصورة التى يحتضن بها الرجال أطفالهم، فهرعت إليه، وقبلت قدمه الشريفة، ووقفت متعجبا من يكون هذا الرجل الكبير؛ فأدرك النبى حيرتى وقال لى: «هذا إمامك وإمام بلدك»، ويعنى بذلك أبا حنيفة.

وقد جعلنى هذا المنام أستبشر بالخير لى ولبلدى، كما أدركت أن أبا حنيفة أحد الذين فنوا عن أوصاف الطبع، ويقول فى أحكام الشريعة؛ ويظهر ذلك من حمل رسول الله له وإن كان قد ذهب فهو باقى الصفة، وباقى الصفة إما مخطئ أو مصيب، وما دام محمولا من الرسول فهو فانى الصفة ببقاء صفة الرسول، وما دام لا يجرى خطأ على الرسول؛ فلا يجرى على من هو قائم به وهذا رمز اللطف.

عندما تعلم داود الطائى العلم، وأصبح حجة فيه، ذهب إلى أبى حنيفة وقال له: «ماذا أفعل الآن؟» فأجابه أبو حنيفة: «عليك بالعمل، فإن العلم بلا عمل كالجسد بلا روح» ذلك أن من يقنع بالعلم وحده غير عالم، بل العالم الحقيقى هو من لا يقنع بالعلم دون العمل.

وكذلك الهداية الإلهية فهى تقتضى المجاهدة، التى بدونها لا يمكن الوصول إلى المشاهدة؛ فليس هناك علم بغير عمل، إذ أن العلم من نتائج العمل ولا يظهر وينمو ويثمر إلا ببركة العمل، فلا يمكن الفصل بينهما على أية صورة كما لا يمكن فصل ضوء الشمس عن الشمس نفسها. وفى بداية الكتاب أوردنا بابا مختصرًا عن العلم.

٧- ومنهم سيد الزهاد وقائد الأوتاد، عبد الله بن المبارك المروزى، من كبار القوم، كان عالما بجملة الأحوال، وأسباب الطريقة والشريعة، وكان إمام عصره وقد أدرك عدداً من كبار الأئمة، وتحدث معهم وأدرك الإمام الأعظم أبا حنيفة، وأخذ عنه العلم، وله مؤلفات شهيرة، وكرامات معروفة.

وكانت توبته على النحو التالى: أنه كان قد افتتن بفتاة، وفى ليلة من ليالى الشتاء قام بين السكارى، ووقف أسفل بيتها، ووقفت هى بسطح بيتها، وظلا يتناجيان حتى الفجر، وعندما سمع عبد الله أذان الفجر ظن أن الوقت قد حان لأذان العشاء، ولم يدرك أنه قد قضى الليل فى مناجاة محبوبته إلا عندما أشرقت الشمس، فاعتبر بذلك وقال لنفسه: «عار عليك يا ابن مبارك!

أتقف على قدمك طوال الليل من أجل لذتك، ثم تغضب عندما يطيل الإمام فى قراءة بضع آيات القرآن؟ أين حقيقة الإيمان فى مقابل الدعوى؟.

ثم تاب وعكف على الدراسة، وتصوف ووصل فى تصوفه إلى مقام عال، حتى أن أمه رأته نائمًا فى حديقته ذات مرة وبجانبه ثعبان كبير يذب عنه، وقد أمسك بفرع من الريحان فى فمه.

وغادر عبد الله بن المبارك مرو، وعاش فترة من الزمن فى بغداد، متصلا بمشايخ الصوفية، واستقر لفترة من الزمن فى مكة؛ وعندما عاد إلى مرو استقبله أهل المدينة بترحاب؛ وأعدوا له مجلس درس قاعة يجتمعون إليه فيها.

وكان نصف سكان مرو - فى ذلك الوقت من أهل الحديث، والنصف الآخر من أهل الرأى؛ كما هو الحال فى عصرنا هذا؛ ولقبوه مرضى الفريقين، لأنه وافق كل فريق على رأيه، وكان كل فريق يعتبره أحدهم فبنى رباطين فى مرو، أحدهما لأهل الحديث، والآخر لأهل الرأى، وما زال هذان الرباطان قائمين حتى الآن.

رحل بعد ذلك إلى الحجاز، واستقر بمكة، وعندما سئل عما رأى من عجائب أجاب: «رأيت راهبا مسيحيا، هدته المجاهدة، وأحناه الخوف من الله، فسألته: يا راهب! كيف الطريق إلى الله، فقال: لو عرفت الله لعرفت الطريق إليه، ثم قال: أعبد من لا أعرفه وتعصى من تعرفه؟! «ويعنى بهذا أن المعرفة تقتضى الخوف، ولكنى أراك واثقا، والكفر يقتضى الجهل، ولكنى أشعر بشئ من الخوف. فوعيت هذا القول وحمانى من اقتراب كثير من الخطايا».

ويروى عن عبد الله بن المبارك أنه قال: «السكون حرام على قلوب أولياء الله، إذا يقلقهم الطلب فى الدنيا، والطلب فى الآخرة». ولا يسمح لهم بالهدوء هنا وهم غائبون عن الله، ولا بالهدوء هناك وهم يتمتعون بالحضرة عند جنابه، وينعمون برؤيته سبحانه. وعليه فإن الدنيا والآخرة فى نظرهم سواء، لأن سكينة القلب تستوجب أحد شيئين إما نيل المطلوب؛ أو الغفلة عنه.

وبما أن الله تعالى لا ينال فى الدنيا والآخرة. فان قلب العاشق لن تهدأ ضربات الحب فيه، وبما أن الغفلة حرام على عاشقيه، فان قلوبهم لن تهدأ عن طلبه، وهذا مبدأ ثابت من مبادئ الطريق لدى المحققين والله أعلم بالصواب.

٨- ومنهم ملك أهل الحضرة ووالى ولاية الوصال أبو على الفضيل بن عياض وكان فى أول أمره من جملة الصعاليك والشطار، ثم كان من كبار الصوفية، وله فى المعاملة والحقائق حظ وافر، ونصيب كامل، وهو من مشهورى هذه الطائفة، لأنه على كل لسان بين الأمم، وأوقاته معمورة بالصدق والإخلاص.

وكان فى بداية أمره قاطع طريق بين مرو وأبيورد، ولكنه كان يميل دائما إلى التقوى، وأظهر ميلا كبيرا نحو الفتوة، بحيث كان لا يهاجم قافلة فيها نساء، ولا يأخذ شيئا ممن قل ماله، وكان يترك لكل مسافر نصيبا مما لديه حسبما يحمل كل منهم من متاع.

وفى يوم اتجه تاجر فى طريقه إلى مرو، فنصحه أصحابه أن يأخذ معه حراسا، ولكنه قال لهم: «لقد سمعت أن فضيلا يخشى الله» وبدلا من أن يأخذ معه حراسا استأجر مقرئا يقرأ القرآن وأركبه جملا، وأمره أن يجهر بقراءة القرآن فى الليل والنهار، طوال الرحلة.

وعندما وصلوا حيث فضيل يختبئ كان المقرئ يتلو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] ، فرق قلب فضيل، وتاب عن عمله، وظهرت العناية الألهية لروحه، وكان قد كتب قائمة بأسماء من سطا عليهم فأرضى كل واحد منهم، ثم ذهب إلى مكة، واستقر بها فترة من الزمن، واتصل بعدد من أولياء الله، ثم ذهب بعدها إلى الكوفة، حيث اتصل بأبى حنيفة فترة.

ولفضيل من الأثر ما يقدره أهل السنة، كما أن له حكما عالية عن

---

(١) سورة الحديد: آية ١٦.

فضائل الصوفية والعلوم الإلهية.

يروى أنه قال: «من عرف الله حق معرفته عبده بكل طاقته إذ أن من عرف الله اعتكف بكرمه، وعطفه ورحمته، ولهذا أحبه. وإذا أحبه أطاعه بكل قواه، إذ ليس من العسير إطاعة الشخص لمن يحب. وعليه فكلما زاد الحب زادت الطاعة، ويزيد الحب بسبب المعرفة الحقة.

كما روت عائشة رضى الله عنها أن الرسول ذات ليلة نهض من الفراش وغاب عنى، فظننت أنه ذهب إلى حجرة أخرى، فنهضت وذهبت فى أثره، حتى وجدته فى المسجد قائما فى الصلاة، وهو يبكى حتى أذن بلال لصلاة الفجر وحينما أدى الصلاة وعاد إلى الحجرة رأيت قدميه متورمتين، وظفريه مشققين ينساب منهما الصديد، فبكيت وقلت يا رسول الله: «لقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فلماذا كل هذا الألم فدع هذا لشخص لا يكون مأمون العاقبة» فقال: «يا عائشة!، هذا كله من فضل الله وعطاياه ولطفه ونعمه، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!، ما دام قد قام بالطافه الإلهية يجب على الا أرتد عن طريق العبودية على قدر طاقتى شكرا على نعمه.

وأيضا فقد قبل صلوات الله عليه وسلامه خمسين صلاة ليلة المعراج، ولم يستثقلها، حتى تردد إلى ربه بعد قول موسى - عليه السلام - وجعل له الصلوات خمسا ذلك أنه لم يكن هناك أى اتجاه للمخالفة فى طبعه، لأن «المحبة الموافقة».

ويروى أنه قال: «الدنيا دار المرضى، والناس فيها مجانين، وللمجانين فى دار المرضى الغل والقيد» إذ أن الشهوة غلنا والمعصية قيدنا.

ويقول الفضل بن الربيع: «صبحت هارون الرشيد إلى مكة، وبعد أن فمنا بالحج، قال لى: هل من رجال الله أزوره؟؛ فقلت له: نعم هنا عبد الرزاق الصنعانى، قال: لنذهب إليه فذهبنا إلى داره، وتحادثنا لفترة من الزمن،

وعندما هممنا بالذهاب طلب منى هارون الرشيد أن أسأله ما إذا كانت عليه ديون فأجاب: نعم. فأمر هارون بقضائها.

وعندما خرجنا قال هارون: يا فضل إنى ما زلت أريد أن أرى رجلا أعلى شأنا منه، فأخذته إلى سفيان بن عيينة وانتهت زيارتنا له بنفس الشئ، فأمر هارون بقضاء ديونه وتركه، ثم قال لى: إنى أذكر أن فضيل بن عياض هنا، هلم بنا إليه فوجدناه فى غرفة بالطابق العلوى يتلو القرآن فعندما طرقنا الباب صاح من الطارق فأجبت قائلا: أمير المؤمنين. فقال: مالى ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله. ألم يرو عن النبى ﷺ: ليس للعبد أن يذل نفسه فى عبادة الله؟. فأجاب نعم، ولكن الرضا عز دائم عند أهله، ولا يجدر بالعبد أن يطلب الذل عند الله عز وجل. إنك ترى ذلتى، ولكنى سعيد بالرضا بحكم الله.

ثم نزل وفتح الباب وأطفأ القنديل ووقف فى ركن فدخل هارون وحاول أن يصل إليه وتلاقت يداهما فصاح فضيل: أسفى عليك، لم أمسك بيد أرق من يدك!. وددت لو نجت من عذاب الله، فأجهش هارون بالبكاء حتى أغمى عليه، ولما أفاق قال: يا فضيل عظنى!. فقال فضيل: يا أمير المؤمنين كان جدك العباس عم المصطفى، فسأله أن يعطيه الإمارة على الناس فأجاب النبى: يا عمى سأعطيك الإمارة على نفسك لحظة، إن لحظة طاعة لله خير من طاعة الناس ألف سنة، لأن الإمارة ندامة يوم القيامة».

فقال: زدنى فقال فضيل: عندما عين عمر بن عبد العزيز خليفة دعا سالم بن عبد الله، ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب القرظى، وقال لهم: ماذا أصنع بهذا العذاب إنى أعتبره عذابا، ويعتبره الآخرون رحمة، فقال له أحدهم: إذا رمت النجاة غدا من عذاب الله فاجعل كبار المسلمين آباءك، وصغارهم إخوتك، وأبناءهم أبناءك، واجعل دار الإسلام دارك، وأمة الإسلام أهلك، زر أباك واحترم أخاك وأحسن إلى ولدك.

ثم قال فضيل: يا أمير المؤمنين! أخشى على وجهك السمح من عذاب النار، فاخشى الله وأحسن عبادته. فسأله هارون: هل عليك ديون؟. فأجاب نعم على دين لله وهو طاعته ويلى لو طلب منى سداده، فقال هارون: يا فضيل إنى أتحدث عن ديون الناس فأجاب:الحمد لله إن كرمه على كبير، وليس هناك ما يجعلنى أشكوه لعبيده. فقدم له هارون ألف دينار وقال استخدمها فى غرض من أغراضك. فقال فضيل: يا أمير المؤمنين لم يفدك نصحى ها أنت تخطئ ولا تعدل. فسأله هارون مندهشا: وكيف ذلك؟. فأجاب: أريد نجاتك وتريد هلاكى. أهذا عدل؟ فانصرفنا والدموع تملأ عيوننا. وقال: يا فضيل إن فضيلا ملك حقا.

وإن هذا كله يظهر بغضه للدنيا وأهلها، واحتقاره لمباهجها، ورفضه أن يذل نفسه لأهل الدنيا لمغنم دنيوى. وله مناقب أكثر من هذه لا يتسع لها المقام.

٩- ومنهم سفينة التحقيق والكرامة، وخزانة الشرف فى الولاية، أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى، كان ابن نوبى واسمه ثوبان، وهو من خيار الصوفية، ومن أشهرهم معرفة بعلوم الروح وذلك لأنه سار فى طريق الألم، وطرق سبيل الملامة، ولم يدرك أهل مصر حقيقة مقامه، ولم يؤمنوا بعلو قدره حتى مات.

وفى الليلة التى رفع فيها. رأى سبعون شخصا النبى عليه الصلاة والسلام فى منامهم يقول «أتيت ألقى ذا النون حبيب الله». وبعد أن مات وجدت هذه العبارة منقوشة على جبهته: هذا حبيب الله، مات فى حب الله، قتيل الله وتجمعت أطيار السماء فوق نعشه أثناء جنازته، ورفرفت بأجنحتها معا لتظله وعندما رأى المصريون ذلك شعروا بالندم على ظلمهم له.

وله حكم رائعة فى علوم التصوف منها «العارف كل يوم أخشع، لأنه فى كل ساعة أقرب»[١] إذ عندما يدرك مدى قدرة الله، وتسيطر عظمته على

(١) طبقات الصوفية ص ٣٦.

قلبه، يرى مدى بعده هو عن الله، وأن لا سبيل إليه، فتزداد مسكنته. ولهذا قال موسى فى مخاطبته لله: يا إلهى أين أطلبك؟ فأجابه الله: عند المنكسرة قلوبهم فقال موسى، ليس هناك قلب أكثر انكسارا ويأسا من قلبى، فأجابه فأنا حيث أنت.

ومن ثم فإن من يدعى معرفة الله، بغير مسكنة وخوف، جاهل لا عارف وعلامة المعرفة الحقة صدق الإرادة، والصادق من ينقطع عن كافة الأسباب الثانوية، ويقطع كافة علاقاته الأخرى، فلا يبقى إلا الله. ويقول ذو النون: «الصدق سيف الله فى أرضه ما وضع على شئ إلا قطعه»[1] إذ أن الصادق لا يرى إلا المسبب، ولا تهمه الأسباب، إذ أن الاهتمام بهذه الأسباب هدم لمبدأ الصدق.

ومن القصص التى تروى عن ذى النون، أنى قرأت أنه كان مع أتباعه مرة فى قارب بالنيل، شأن أهل مصر عندما ينشدون الترويح عن النفس، فاقترب منهم قارب آخر بالصاخبين، فاستاء أتباع ذى النون من سلوكهم، حتى أنهم سألوه أن يدعو الله أن يغرق القارب بمن فيه، ولكن ذا النون رفع يديه وقال: «اللهم امنح هؤلاء الناس حياة طيبة فى الآخرة، كما منحتهم حياة طيبة فى الدنيا، فاندهش أتباعه وعند اقتراب القارب رأى من به ذا النون فبكوا وسألوه الصفح وكسروا أعوادهم وتابوا إلى الله فقال ذو النون لأتباعه «الحياة الطيبة فى الدار الآخرة هى التوبة فى الدنيا، لقد رضيتم ورضوا دون أن يلحق بأحد أذى».

لقد كان سلوكه هذا بسبب حبه البالغ للمسلمين؛ وهو بذلك يترسم خطى النبى عليه الصلاة والسلام، الذى لقى من سوء معاملة الكافرين ما لقى، ومع ذلك فلم يتوقف عن ترديد دعائه: «اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون».

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧.

ويروى عن ذى النون أنه قال: «عندما كنت قادما من بيت المقدس إلى مصر رأيت عن بعد شخصا ذا هيبة يقترب منى، وشعرت برغبة فى سؤاله فلما اقترب الشخص أدركت أنه امرأة عجوز؛ تمسك عصا، وترتدى عباءة صوفية، فسألتها: من أين؟. فقالت من الله، فقلت: وإلى أين؟، قالت إلى الله، فأخرجت قطعة ذهب كانت معى، وقدمتها لها، ولكنها هزت يديها فى وجهى، وصاحت قائلة: يا ذا النون إن رأيك فىَّ ناجم عن سوء فهمك، أنا أعمل لله ولا أقبل شيئا إلا من الله، إنى أعبده وحده، ولا آخذ إلا منه ثم انصرفت فى طريقها..

إن ما قالته المرأة عن أنها تعمل لله، هو دليل على صدقها فى المحبة، ذلك أن الناس فى علاقتهم بالله نوعان: نوع يظن أنه يعمل لله، وهو لا يعمل إلا لنفسه ورغم أنه لا يعمل بدافع دنيوى، إلا أنه يرغب فى الجزاء فى الآخرة. ونوع لا يهمه العقاب أو الثواب فى الآخرة، ولا العظمة أو الشهرة فى الدنيا، وإنما يعمل إطاعة لله وحده، إن محبتهم لله تتطلب منهم أن ينسوا كل مصلحة ذاتية وهم ينفذون أمره.

فالفئة الأولى تعتقد واهمة أن ما تقوم به من أجل الدار الآخرة إنما تقوم به من أجل الله، وهى لا تدرك أن المتقين يستفيدون من تقواهم، أكثر مما يستفيد العصاة من معصيتهم، ذلك أن لذة العاصى لا تبقى إلا لحظة، أما لذة التقوى فهى باقية أبد الدهر.

ثم ماذا يكسب الله من عبادة الناس له؟ وماذا يفقد إذا هم لم يعبدوه؟ لو أن العالم كله كان كأبى بكر فى صدقه، فان المنفعة تعود عليه لاعلى الله، ولو كان كفرعون فى عصيانه، لكان الخسران كله عليه، فقد قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾(١) وقال عز شأنه ﴿وَمَن جَاهَدَ

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧.

﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[١] إنهم ينشدون لأنفسهم ملكا أبديا ويقولون «إنما نعمل من أجل الله» ولكن سلوك طريق المحبة شئ آخر إذ أن المحبين، بتنفيذ أوامر الله، لا ينشدون إلا تنفيذ إرادة الله، ولا ينظرون إلى ما سواه.

وسنناقش هذا الموضوع فى باب الأخلاص.

١٠- ومنهم أمير الأمراء، وسالك طريق القضاء، أبو اسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور.

كان فريد فى طريقه، كبير معاصريه، ومن مريدى الخضر عليه السلام. قابل عددا كبيرا من رجال الصوفية، واتصل بالإمام أبى حنفية، ومنه تعلم العلم. كان فى صدر حياته أميرًا على بلخ؛ وذهب ذات يوم للصيد، وجرى وحده يقتفى أثر غزال، فجعل الله الغزال يخاطبه بلسان فصيح، ويقول له: «ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟»[٢]، فتاب وترك كل شئ، ودخل طريق الزهد والتصوف واتصل بالفضيل بن عياض وسفيان الثورى.

ولم يأكل بعد توبته طعاما إلا ما كان قد كسبه بعمله. وله أقوال فى التصوف بديعة رائعة، وقد قال الجنيد عنه «إبراهيم مفتاح العلوم»، ويروى عنه أنه قال: «اتخذ الله صاحبا وذر الناس جانبا»[٢]. يعنى أنه إذا اتجه الشخص إلى الله بحق وإخلاص، فان صدق اتجاهه إلى الله، يقتضى أن يدير ظهره للبشر، طالما كانت صحبة البشر لا شأن لها بالله.

صحبة الله هى الإخلاص فى اتباع أوامره. وينبع الإخلاص فى العبادة من صفاء المحبة، ويفتح الصفاء فى محبة الله من بغض المرء للرغبة والشهوة

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦.

(٢) هذه أمور لا دليل يسندها.

فمن ارتبط بشهوته ابتعد عن الله، ومن ابتعد عن شهوته اقترب منه سبحانه.

لهذا فأنت العالم كله بالنسبة لنفسك، فابتعد عن نفسك تبتعد عن البشر، وأنت تخطئ إذا ابتعدت عن البشر، واتجهت إلى نفسك، واهتممت بها، رغم أن أعمال البشر مقدرة، سبق أن سطرها الله.

وتقوم الاستقامة الظاهرة والباطنة للفرد على **أمرين اثنين**:

أحدهما نظرى، **والآخر** عملى.

والأساس النظرى يعتبر كل خير وشر مقدرا من الله؛ بحيث لا يتحرك شئ أو يسكن، إلا وتكون حركته وسكونه من الله.

أما الأساس العملى فيقوم على تنفيذ أوامر الله، وصحة العمل له سبحانه، واتباع ما ألزمنا باتباعه. ولا يجب أن نحتج بالقدر لإهمال أمر الله.

ولا يتم التخلى الصحيح عن البشر، إلا إذا تخليت عن نفسك. وما أن تتخلى عن نفسك حتى تصبح سائر البشر ضروريين لتنفيذ إرادة الله، وما أن تتجه إلى الله حتى تصبح ضروريا لتنفيذ إرادته تعالى.

ولهذا فليس لك أن ترضى عن الخلق، فاذا رضيت عن شئ غير الله، فارض على الأقل عن الغير، إذ أن رضاك عن الغير هو أن ترى التوحيد؛ بينما رضاك عن نفسك هو أن تؤكد التعطيل.

ولهذا السبب كان الشيخ أبو الحسن سالبه يقول: إنه من خير للمريد أن يسيطر عليه سنور من أن تسيطر عليه نفسه، ذلك لأن صحبته للآخرين تكون من أجل الله، أما صحبته لنفسه فإنها تزيد من شهواته. وسنناقش هذا الموضوع فى مكانه المناسب.

ويروى إبراهيم بن أدهم القصة التالية:

«عندما وصلت إلى الصحراء جاءنى رجل مسن وقال لى: يا إبراهيم! أتعلم أى مكان هذا؟. وأين تسير علي قدميك دون طعام؟. فعرفت أنه

الشيطان، وأخرجت من جيبى أربعة دوانق، ثمن سلة كنت قد بعتها فى الكوفة، والقيت بالدوانق بعيدا، ثم أقسمت أن أصلى أربعمائة ركعة، عن كل ميل قطعته، ومكثت فى الصحراء أربع سنين، كان الله يرزقنى خلالها دون حول منى. وصاحبنى الخضر فى هذه الفترة، وعلمنى اسم الله الأعظم، وعندئذ خلا قلبى تماما من الغير»[1].

وله مناقب كثيرة، وبالله التوفيق.

١١- ومنهم سرى المعرفة، وتاج أهل المعاملة، بشر بن الحارث الحافى. كان له فى المجاهدة شأن كبير، وفى المعاملة حظ كامل، لحق بصاحبه الفضيل. كان مريدا لخاله على بن خشرم، وكان متفقها فى أصول العلوم وفروعها.

وكانت توبته على النحو الآتى: كان يسير فى الطريق يوما وهو سكران، فوجد ورقة مكتوبا عليها. «بسم الله الرحمن الرحيم». فالتقطها باحترام، وعطرها ووضعها فى مكان نظيف، وفى نفس الليلة رأى فيما يرى النائم أن الله تعالى يقول له: «يا بشر لقد طيبت إسمى، وأقسم بعزتى! لأطيبن إسمك فى الدنيا والآخرة، حتى لا يسمع أحد إسمك إلا وأحس بالراحة فى روحه» وتاب منذ ذلك الوقت، وسلك طريق الزهد.

وكان من شدة استغراقه فى المشاهدة، لا يلبس حذاء، وعندما سئل عن ذلك قال: إن الأرض بساطه تعالى، وأرى من الخطأ أن أطأ بساطه، وهناك ما يفصل قدمى عن البساط، وأن تكون بينى وبين الأرض واسطة. وكان هذا أحد أعماله الغريبة. فهو فى جمع همته فى الله، يعتبر الحذاء حجابا بينه وبين الله.

ويروى أنه قال: «من أراد أن يكون عزيزا فى الدنيا، شريفا فى الآخرة فليتجنب ثلاثا: لا يسأل أحدًا حاجة. ولا يذكر أحدًا بسوء، ولا يجب أحدًا إلى

---

(١) هذه روايات آحاد، وليس لها دليل تستند عليه.

طعامه». إن من يعرف الله لا يسأل أحدا من خلقه عطاء، إذ أن قيامه بذلك برهان على جهله بالله.

فل و كان عالما بقاضى الحاجات لما سأل أحدا من البشر، لأن «استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون». أما من يغتاب الغير فهو ينتقد إرادة الله، إذ أن الشخص وأفعاله من خلق الله، وعلى من يقع اللوم إذا لم يقع على الفاعل الحقيقى؟. ولا ينطبق هذا بطبيعة الحال على الذم الذى أمرنا الله أن نذم به الكافرين.

أما بالنسبة لقوله: «لا تقبل دعوة إلى طعام من أحد» فسببه أن الله هو الرازق، وإذا سخر لك شخصا وجعله وسيلة لإعطائك الطعام، فلا تنظرن إلى هذا الشخص؛ بل اعتبر الطعام الذى أرسله الله إليك طعام الله لا طعامه، وإذا ظن أنه طعامه وأنه منة منه فلا تقبل طعامه، وذلك أنه فى الرزق لا منة لأحد على أحد.

فالطعام فى نظر أهل السنة غذاء وإن كان فى نظر المعتزلة ملك الخلق فالله هو الذى يعطى الإنسان طعامه.

وقد يفهم قوله هذا على نحو آخر إذا أخذ مجازا والله أعلم.

١٢- ومنهم فلك المعرفة، ملك المحبة، أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى. كان من أجلة المشايخ حالا، وأعظم شأنا إلى درجة أن الجنيد قال عنه: «أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة».

كان جده مجوسيا، ووالده من أعيان بسطام وله روايات عالية لأحاديث رسول الله ﷺ. وهو أحد أئمة الصوفية العشرة، ولم يسبق أحد فى معرفة غوامض هذا العلم. وكان مؤلها بالعلم الإلهى، ومتمسكا بالشريعة السمحة[1]، بعيدا عن مظان الشبه التى نسبها إليه أهل الباطل تدعيما لبدعهم.

---

(١) فى الأصل السمحاء.

وكانت حياته منذ البداية تقوم على مجاهدة نفسه، وكثرة التعبد. روى أنه قال: «عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا على أشد من العلم ومتابعته، ولو لا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد» وهذه حقيقة واضحة لأن الجبلة الإنسانية ميالة إلى الجهل أكثر منها إلى العلم لذلك من السهل أن تقوم بأعمال كثيرة عن جهل، ولكن ليس من السهل أن تقوم بأعمال كثيرة عن جهل، ولكن ليس من السهل أن نخطوا خطوة واحدة بمعرفة، وطريق الشرع الشريف أدق وأحد من الصراط فى الدار الآخرة، لذلك فإنه يجب عليك أيها السالك فى كل أحوالك أن تقتدى بالشرع الشريف وإن لم تنل درجة عالية أو مقاماً كاملاً، فإنك على كل حال تسقط فى وسط دائرته، وكفى بذلك شرفاً أن يبقى معك عملك الموافق، وإن نلت كل شئ، وأهملت الشرع، لم تنل شيئاً، وقد أظهر ذلك كل أرباب اللسان للشرع، وإهمال هذا الاقتداء من أضر ما يكون على المريد.

قال أبو يزيد «الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم» يعنى بذلك رضى الله عنه أن الجنة مخلوقة بينما الحب صفة قائمة بذات الله تعالى؛ وكل من حجب بشئ مخلوق عن القديم فإنه خلو من كل فائدة. والعشاق محجوبون بعشقهم، لأن وجود العشق يقتضى المثنوية التى تتنافى مع التوحيد، وطريق أهل المحبة هو زمن الواحد للواحد.

وقد يوجد بهذا المشهد نقص أيضاً، لاحتياجه إلى مريد ومراد، فأما أن يكون الله سبحانه وتعالى فى كلا الحالين مريداً أو مراداً؛ أما فى الحالة الأولى فوجود الإنسان محقق بإرادة الله، ولكن إذا كان الإنسان هو المريد والله سبحانه وتعالى هو المراد، فعمل العبد وإرادته وبحثه لا تمكنه من الوصول إليه، وحيث أن علة الإيجاد فى كلتا الحالتين تبقى فى العاشق، لذلك ففناء المحب مع دوام المحبة أكمل من بقائه مع دوام المحبة.

يروى أن أبا يزيد قال حججت مرة فرأيت البيت قائما، فقلت فى نفسى لم تقبل حجتى، لأنى أرى كثيراً من أمثال هذه الحجارة، ثم حججت أخرى فرأيت البيت وصاحبه، فقلت ليس هذا بالتوحيد الكامل. ثم حججت ثالثة، فوجدت رب البيت، فنوديت من قلبى: أى أبا يزيد لو لم تر نفسك لم تشرك وإن كنت قد رأيت الكون كله، وحيث قد رأيت نفسك فقد أشركت، وإن كنت قد عميت عن الكون كله، فتبت عن ذلك، وتبت بعد ذلك عن توبتى، ثم تبت عن النظر إلى وجودى. هذه حكاية دقيقة تدلك على كمال حاله وتبين لك دقائق أرباب الأحوال.

١٣- ومنهم إمام الفنون، وعين الظنون، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى، رضى الله عنه.

كان عالماً بأصول وفروع هذا العلم، وكانت كلمته حجة عند صوفيى زمانه، وقد ألف كتاباً أسماه «الرغائب»، فى أصول الصوفيه وكتباً كثيرة أخرى، وكانت له معرفة عالية فى مختلف العلوم، ذو ذكاء مفرط، وكان شيخ بغداد فى زمنه.

روى أنه قال: «العلم بحركات القلوب، فى مطالعة الغيوب، أشرف من العمل بحركات الجوارح» يعنى أن من كان ملماً بأسرار القلوب، أشرف ممن يعمل بحركات جوارحه، وذلك لأن المعرفة هى محل الكمال، بينما الجهل هو محل البحث. والمعرفة وأنت فى الدار خير من الجهل وأنت بالباب والمعرفة توصل الإنسان إلى الكمال.

وفى الحقيقة فالعلم أكبر من العمل، لأن من الممكن أن نعرف الله بالعلم، ولكنه من المستحيل أن نصل إليه بالعمل، ولو كان من الممكن الوصول إليه بالعمل بلا علم، لكان الرهبان فى أديرتهم أحق بأن يروه وجهاً لوجه، ولحرم عصاة المؤمنين من مشاهدته؛ لذلك فالمعرفة صفة ربانية والعمل صفة إنسانية.

وبعض الرواة أخطأوا هذا القول بقراءته العمل بحركات القلوب وهذا غير صحيح، حيث أن الأعمال البدنية ليست لها صلة بحركات القلوب. وإذا كان المؤلف يقصد بتعبيره هذا المراقبة والمشاهدة واستحضار المعانى الباطنية، فهذا أمر ليس بغريب، لأن رسول الله ﷺ قال «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»، والأعمال الروحانية هى فى نفس الأمر أكمل من الأعمال البدنية، إذ أن النتيجة التى تحصل منها أتم من النتيجة التى تحصل من أعمال الجوارح، لذلك فقد قيل «نوم العالم عبادة، وسهر الجاهل معصية» لأن قيام الجاهل خطيئة. ونوم العارف قربة، وذلك لأن قلب العارف بيد الله إذا نام أو قام، ومتى صار القلب مملوكاً صار الجسم مملوكاً بالأولى، وبهذا فالقلب المملوك بالله خير من الجزء الحسى المؤثر فى الإنسان الحاكم على جميع أعماله الظاهرية؛ وأعمال مجاهدة نفسه.

يروى أن الحارث قال ذات يوم لدرويش، "كن لله وإلا فلا تكن" يعنى أن تكون باقياً بالله أو تكون معدوماً بنظرك، وإما أن تكون جامعاً فى صفوتك، فارقاً بفقرك، وإما أن تكون فى الحالة التى وصفها الله بقوله: ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾(١) وفى الحالة الموصوفة بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(٢) فإذا أعطيت نفسك لله عن بيع خالص قامت قيامتك فى نفسك، وإلا فستقوم قيامتك على يد الله تعالى، وهذا معنى لطيف والله أعلم بالصواب.

١٤- ومنهم الإمام المعرض عن الخليقة، الممتنع عن طلب الرياسة، المنقطع عن الخلق بالعزلة والقناعة، من لا نظير له فى زمانه، أبو سليمان داود بن نصير الطائى، من أكبر شيوخ أهل التصوف.

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

(٢) سورة الإنسان: آية ١.

كان تلميذا لأبى حنيفة، ومعاصرا للفضيل، وإبراهيم بن أدهم. وكان مريدا لحبيب الراعى فى التصوف، وملما بجميع العلوم، سابقا فى فن الفقه، ولكنه ذهب إلى العزلة، والتفت عن الشهرة، واتبع طريق الزهد والتقوى.

يروى أنه قال لأحد تلاميذته: «إذا أردت السلامة فسلم على الدنيا، وإذا أردت الكرامة فكبر على الآخرة». فكلا هذين المكانين حجاب يحجبانك عن النظر إلى الله. وكل أنواع التخلى مبنية على هذين الحكمين، فمن كان يحب أن يتخلى فليعط ظهره للدنيا، ومن أحب أن يفرغ قلبه لله فليخلص من كل رغبة فى الدار الآخرة.

ومن المشهور أن داود كان يحب أن يجتمع دائما بمحمد بن الحسن، وكان لا يحب القاضى أبا يوسف، ولما سئل عن ذلك أجاب: إن محمد بن الحسن تصوف بعد أن صار غنيا، وتصوفه كان السبب فى تقدمه فى الدين والزهد فى الدنيا، أما أبو يوسف فقد تصوف بعد أن افتقر وأعسر، وجعل التصوف وسيلة لنيل الثروة والشهرة.

يروى أن معروف الكرخى قال: «لم أر أحدًا احتقر الدنيا، واستصغر متاعها، كما استصغر داود الطائى؛ فالدنيا وأهلها لا تساوى فى نظرة جناح بعوضة وكان يحترم الفقراء ويجلهم وإن كانوا فاسدين».

١٥- ومنهم شيخ أهل الحقائق، المنقطع عن جملة العلائق، أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى كان خال الجنيد ﷺ، وكان متبحرا فى جميع العلوم، ذا شأن عظيم فى التصوف. وهو أول من أوقف نفسه على ترتيب المقامات وبسط الأحوال. وشيوخ العراق كلهم تلاميذه. وقد رأى حبيبا الراعى، واجتمع به. وكان مريدا لمعروف الكرخى، وكان يتجر بالسلع الصغيرة فى سوق بغداد فلما احترق السوق قيل له: «إن حانوتك قد احترق» فقال: «إذا فقد تخلصت من

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٥١.

الاشتغال به» وبعد ذلك وجد أن كل الحوانيت المجاورة لحانوته قد احترقت إلا حانوته، فخرج عنه للفقراء والمساكين، واتبع طريق الصوفية.

وقد سئل: «كيف اقبلت على الله؟» فقال: «مر على حبيب الراعى ذات يوم، وأنا بدكانى فاعطيته قطعة من الخبز وقلت له: تصدق بها على الفقراء فقال لى: جزاك الله خيرا، وقد استجيبت دعوته، إذ لم تتجح أعمالى الدنيوية بعد هذا قط.

يروى أن السرى قال: «اللهم ما عذبتنى بشئ فلا تعذبنى بذل الحجاب» . يعنى ما قدرت على العقاب فلا تعاقبنى بأن تحجبنى عنك لأنك إذا كاشفتنى هان عذابى بمشاهدتك ورؤية جنابك العلى، وإذا احتجبت عنى فلذتى تصبح ألما ووبالا على، ولا يوجد عقاب فى حهنم آلم وأشد من الحجاب عنك.

فلو ظهر الله لأهل النار لما اهتم عصاة المسلمين بالجنة، حيث أن النظر إليه ينسيهم الآلام الجسمانية، ولا نعيم فى الجنة أكمل من كشف حجابه وإذا كان أهلها يتمتعون بكل ملاذها وأضعاف ذلك مائة مرة مع احتجابهم عن الله. فإن قلوبهم تتفطر أسى وحزنا؛ لذلك فإن سنة الله تعالى فى أحبابه أن يمتع قلوبهم بدوام النظر إليه، حتى يتغلبوا بتلك البهجة على كل شدة، وكل دعائهم لا يخرج عن أن كل ألم أحب إليهم من أن يحجب عنهم، فإذا انكشف جماله لقلوبهم فإنهم لا يشعرون بأى ألم.

١٦- ومنهم قائد أهل البلوى، ومادة الزهد والتقوى؛ أبو على شقيق ابن ابراهيم البلخى. كان عالما بعلوم الشريعة، والمعاملات والحقيقة وقد ألف كتبا عديدة فى التصوف واجتمع بابراهيم بن أدهم وكثير من المشايخ.

يروى أنه قال: «جعل الله أهل طاعته أحياء فى مماتهم وأهل المعاصى أمواتا فى حياتهم» فالأتقياء أحياء وإن ماتوا، وذلك لثناء الملائكة عليهم لطاعتهم إلى أن ينالوا الخلود بما ينالونه من الثواب يوم القيامة، فهم فى فناء

الموت باقون ببقاء الله.

يروى أنه أتاه رجل فقال له: يا شيخ! إنى أذنبت كثيرا، وأحب أن أتوب من ذنوبى قال له شقيق: لقد أتيت متأخرا، فقال له الرجل: لا ولكنى أتيت من قريب، لأنه من تاب قبل موته فقد أسرع فى توبته.

هذا وإن سبب إقبال شقيق على الله تعالى، أنه حدث فى بلخ جدب، أكل الناس بعضهم بعضا فيه وأصاب المسلمين شدة، فرأى شقيق شابا يضحك ويبتهج فى السوق، فقال له الناس أما تستحى من ضحكك مع حزن الناس؟ فقال لهم الشاب: إن سيدى، الذى يملك قرية، قد أعفانى من الاشتغال بمعيشتى فقال شقيق: اللهم إن هذا الشاب لم يشتغل بهم معيشته، لأن له سيدا يملك قرية واحدة، وهو مسرور بذلك، وأنت ملك الملوك، وقد تكفلت بأرزاقها، ولكن قلوبنا قد امتلأت حزنا بانشغالهم بحطام الدنيا، اللهم فخلص قلوبنا إليك فرجع إلى الله واتبع طريقة الصوفية، ولم يشتغل بعد بقوت يومه.

وكان يفتخر بعد ذلك ويقول: «لقد تتلمذت على شاب، وتلقيت كل ما أنا فيه عنه». وهذا يدلك على صدق تواضعه وله مناقب كثيرة والله أعلم.

١٧- ومنهم شيخ زمانه، المجرد فى طريق الحق، أبو سليمان عبد الرحمن ابن عطية الدارانى. كان شهيرا عند أهل عصره، وقد لقبوه بريحانة القلوب، وامتاز بشدة تقشفه، وانشغاله بمجاهدة نفسه وكان عالما بعلم الوقت، وخفيات النفوس ودسائسها، وكانت له فراسة شديدة فى أمراضها، وله عبارات دقيقة فى المجاهدة، والمراقبة بالقلب والجوارح.

ويروى أنه قال «إذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت» لأن الوقت هو المحافظة على الحال، الذى يبقى بدوام الخوف. ومن وجه آخر إذا غلب الخوف على الرجاء فقد التوحيد، لأن شدة الخوف بسبب اليأس والقنوط من روح الله شرك. لذلك فكمال التوحيد بالرجاء الحقيقى، وإثبات الوقت بالخوف الحقيقى، وأكمل الحالات أن يكون الخوف والرجا أمتصل بالمشاهدة،

التي يحصل بها كمال الاعتقاد، والخوف متصل بالمجاهدة التى ينتج عنها الإضطراب، فالمشاهدة نتيجة المجاهدة.

وعلى ذلك فكل رجاء يحصل بعد الخوف؛ وذلك لأنه إذا حصل للإنسان خوف مما هو آت، بسبب أعماله فهذا الخوف يدله على طريقة النجاة والسعادة الأبدية، ويفتح أمامه باب الفرج ويخلص قلبه من الحظوظ النفسية، ويكشف له غوامض الأسرار الإلهية.

قال أحمد بن أبى الحوارى: «تهجدت ذات يوم فشعرت بفرح لذلك العمل، فعرضت حالتى من الغد على أبى سليمان، فقال لى إنك لرجل ضعيف الإرادة، من حيث تضع الناس فى اعتبارك، ولهذا فإنك تجد نفسك فى خلوتك غيرها فى علنك، فليس فى الدارين ما يجعلك تنأى عن الله، فالعروسة إذا جليت أمام الناس، إنمايراد بذلك أن يشهدها الحاضرون، لتزداد احتراما وقبولا، ولكنه ليس من اللائق لها أن ترى إلا بعلها، حتى أنها لتحزن إذا رأت شخصا آخر ومن ثم فلو رأى كل الناس جمال الرجل التقى فإن ذلك لا يضره شيئا ما دام لم يرض عن نفسه فإذا رأى مقدار ما وصل إليه من تقوى هلك.

١٨- ومنهم المتعلق بحظيرة الرضا وربيب على بن موسى الرضا، أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى. هو من أكبر الشيوخ المتقدمين، وكان مشهور بكرمه وخشوعه، وقد وضعت ترجمته هنا اقتداء بشخصين فطنين سبقانى فى الكتابة عنه، مع أنه كان من الواجب على أن أضعها فى صدر هذا الكتاب أعنى بها الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى، الذى وضعه فى هذا الترتيب والسيد الإمام الأعظم أبا القاسم القشيرى، الذى وضع ترجمته بهذا النسق وقد اخترت هذا الوضع لمناسبة، هى أن معروفا كان استاذا للسرى السقطى، وتلميذا لداود الطائى.

كان أبو محفوظ مجوسيا، واعتنق الإسلام على يد سيدنا ومولانا على ابن موسى الرضا رضي الله عنه، الذى رفع قدره.

---

(١) انظر السلمي طبقات ص ٨٩.

وله مناقب وفضائل كثيرة وكان مقتدى العموم فى فنون العلم ومن كلامه أنه قال: «للفتيان ثلاث علامات: وفاء بلا خلاف، ومدح بلا جود؛ وعطاء بلا سؤال»(١).

فالوفاء الذى بلا خلاف هى أن يحرم العبد على نفسه الخلاف والمعصية فى عهد العبودية والعطاء بلا سؤال، هو العطاء لا تمييز عند الوجود، ولا يسأل السائل عن حاله ما دام معلوما. والمدح بلا جود أن يحسن إلى امرئ لم يقدم له إحسانا.

كل هذه الصفات مستعارة فى الإنسان؛ حقيقية فى ذات الله تعالى، الذى يعامل بها عبيده سبحانه وتعالى، فاللهسبحانه وتعالى يكرم من أحبوه، مع أنهم يشركون فى محبته، ومع ذلك فإنه يزيدهم إكراما. فعلامة محبة الله تعالى للعبد أنه فى القدم دعا عبده لحضرته العلية، دون أن يكون لعبده أى عمل جميل، والآن فإنه لا يطرد عبده إذا عمل سوءا، وهو سبحانه الذى يمدح خلقه، دون أن يستميله الجود، لأنه لا حاجة به لأعمال عباده، وزد على ذلك فإنه يقبله بأقل الأعمال، ويمدحه عليها إذ أن له الحمد فى الأولى والآخرة، وهو وحده جل وعلا الذى يعطى قبل أن يسأل، لأنه كريم عالم بحاجة كل إنسان يعطيها له قبل أن يسأل. فاذا منح الله سبحانه وتعالى الإنسان الكرامة، وجعله عظيما، اختصه بكرمه، وعامله بهذه الصفات الموضحة قبل، وقام هذ الإنسان بكل ما فى وسعه بهذه الأعمال لبنى جنسه، فانه يسمى فتى، وتعطى له صفة الفتوة.

وسيدنا ابراهيم ﷺ متصف بهذه الصفات الثلاثة، كما سأبين بعد فى المكان المخصص إن شاء الله تعالى.

١٩- ومنهم زين العباد، وجمال الأوتاد، أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان الأصم. كان رجلا من كبار الشيوخ، ومن قدماء شيوخ بلخ وخراسان، وهو مريد شقيق، وأستاذ أحمد بن خضرويه، ولم يقل فى جميع أطوار حياته الا صدقا

حتى إن الجنيد كان يقول: «حاتم الأصم صديق زماننا» وله عبارة عالية تدل على دقة نظره في النفس، وعلى مواطن ضعفها. وله كتب غالية فى علم المعاملات.

يروى أنه قال: «الشهوات ثلاث شهوة الأكل، وشهوة الكلام، وشهوة النظر فاحفظ فى الأكل الثقة، وفى اللسان الصدق، وفى النظر العبرة»[1]. فكل من استوثق فى طعامه نجا من شهوة الأكل، وكل من تحدث صدقا نجا من شهوة اللسان، وكل من استقام بنظره نجا من شهوة النظر.

فالتوكل على الله تعالى ثمرة المعرفة الحقة، لأن من عرفه تيقن أنه الرزاق وأنه يرزقه بقوته الضرورى، فلذلك ينطق بالحق، وينظر بالحق فيكون شرابه المحبة، وكلامه الحكمة، ونظره المشاهدة، وإذا علموا حق المعرفة لم يأكلوا إلا الحلال، وإذا نطقوا بالحق شكروا الله وأثنوا عليه. وإذا نظروا حقا شاهدوا الله، لأنه طعام أحلى من الذى أعطاه وأباحه، ولا ذكر أحق أن يذكر فى الثمانية عشر ألف عالم إلا اسمه سبحانه وتعالى، وأنه ليس من المباح النظر إلى أى شئ فى العالم إلا مشاهدة جماله وجلاله، فبذلك لا يكون من الشهوة أن تأخذ طعامك منه، وتأكله بأمره، ولا أن تتكلم عنه بإذن، ولا أن ترى أفعاله صادرة عنه، وبالعكس فإنه من الشهوة المهلكة أن تأكل طعامك ولو حلالاً بإرادتك؛ وأن تتكلم ولو بذكر الله مع ملاحظة نفسك، وأن تنظر بنفسك ولو على سبيل العبرة.

٢٠- ومنهم الإمام المطلبى وابن عم النبى، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى. من عظماء الوقت، كان إمام فى جملة من العلوم، معروفا بالفتوة والورع،وله مناقب كثيرة مشهورة، وكلمات عالية.

لما كان بالمدينة تتلمذ للإمام مالك، ولما أتى إلى العراق اجتمع بمحمد بن

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٩٦.

الحسن وكان يحب العزلة، ويحاول أن يسبر غور نفسه حتى اجتمع عليه كثيرون، واقتدوا بمذهبه. وكان أحدهم أحمد بن حنبل، ثم اشتغل الشافعى بعد ذلك بنشر مذهبه والإمامة. ولم يتمكن بعد ذلك أن يهجر الدنيا، وكان فى أيام بدايته لا يميل إلى طلاب التصوف، وبعد أن اجتمع بسليم الراعى، وحضر مجلسه استمر فى طلب الحق حيث كان.

يروى أنه قال: «إذا رأيت العالم يشتغل بالرخص فليس يجئ منه شئ»(١).

وذلك لأن العلماء هم أئمة الناس، ولا يلزم أن يتقدمهم أحد فى أى معنى قط، وأن الطريق إلى الله تعالى لا يمكن سلوكه بلا رهبة، وشدة مجاهدة النفس. والبحث عن الرخص فى أمور الدين. هو عمل الذين يفرون من مجاهدة النفس، ويختارون الراحة لأنفسهم.

فالعوام يبحثون عن الرخص، لكى يحفظوا أنفسهم فى دائرة الشرع الشريف، ولكن الكمل يجاهدون أنفسهم لكى يشعروا بلذتها فى قلوبهم. والعارفون هم كمل الناس فإذا رضى أحدهم بأن يسلك طريق العوام فلا خير فيه، وزد على ذلك أن البحث عن الرخص استخفاف بأوامر الله سبحانه، والعارفون يحبون الله، والمحب لا يستخف بأوامر المحبوب، ولا يختار أدنى درجاتها، فضلا على أن يحاط فيها.

روى بعض المشايخ أنه رأى ذات ليلة رسول الله ﷺ فقال له ما معناه: يا رسول الله، روى هناك حديث وصل إلى من جنابكم: أن الله تعالى جعل فى أرضه أوتادا وأولياء وأبرارا فقال رسول الله ﷺ لقد صدق الراوى فقال: «أحب أن أرى أحدهم قال له: إن محمد بن إدريس أحدهم». وله مناقب كثيرة.

٢١- ومنهم شيخ السنة، وقاهر أهل البدعة، الإمام أحمد بن حنبل كان

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٢٢.

مشهورا بالورع والتقوى، وكان حجة من رواة أحاديث رسول الله ﷺ. وكل السادة الصوفية، من جميع الطبقات، يعتقدون فيه البركة.

وقد اجتمع بكثير من المشايخ، مثل: ذى النون المصرى، وبشر الحافى، والسرى السقطى، ومعروف الكرخى وآخرين كانت له كرامات باهرة، وعلوم ظاهرة.

وهو ـ رضي الله عنه ـ بعيد عن كل ما ينسبه إليه اليوم أهل الضلال من المشبهة لعنهم الله. وله عقيدة ثابتة فى أصول الدين، مع موافقة لمذاهب أكثر أهل المعرفة.

ولما ظهر أمر المعتزلة فى بغداد طلبوا منه فتوى بأن القرآن مخلوق فلم ينطق بها. وقد جلد فى ذلك ألف جلدة، مع ما كان عليه من كبر السن، وضعف البنية. وأصر على القول بعدم خلق القرآن، وحينما كان يجلد أنحل إزاره فلم يتمكن من ربطه، لأن يديه كانتا موثقتين فظهرت يدان أخريان ربطتا ذلك الإزار، فأطلقوا سراحه بعد هذه الكرامة[1] . ومات من شدة الألم بعد قليل من الزمان.

وقبل وفاته بأيام وجيزة زاره قوم فسألوه: ماذا يقول فيمن جلده فقال: ماذا أقول فى قوم جلدونى فى الله تعالى، ظنا منهم أنى كنت مخطئا وهم مصيبون، إنى لا أطلب قصاصهم يوم الحشر الأكبر على ضربيات قليلة.

وله حكم عالية فى الذوق، وكان إذا سئل عن بيان نقطة فى الحقيقة قال عليكم ببشر الحافى. وسأله يوما رجل: ما الأخلاص؟ فقال هو الخلاص من آفات الأعمال: فخلص أعمالك من الغرور والشرك ومما يلائم نفسك. فسأله السائل: ما التوكل؟. فقال له: الثقة بالله[2] أنه يرزقك. فسأله الرجل: وما الرضى فقال: تسليم الأمور إلى الله، فسأله: وما المحبة؟. فقال: سل بشرا

---

(١) ليس هناك دليل على صحة هذه الرواية.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٠٢.

الحافى عنها، لأنى لا أجيبك عليها ما دام حيا.

وقد كان أحمد بن حنبل معرضا للاضطهاد طول أيام حياته من المعتزلة، ورماه بعض أهل السنة بمذهب المشبهة، جهلا بما كان عليه ولكنه برئ من كل هذه العقائد التى نسبت إليه.

٢٢- ومنهم سراج الوقت، والمشرف على آفات المقت، أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى. كان من كمل مشايخ الشام، ومن أكابر مشايخ الصوفية حتى قال الجنيد فى حقه: «أحمد بن أبى الحوارى ريحانة الشام»، وله كلام عال، وإشارات لطيفة فى فنون العلم والطريقة، ومرويات من الحديث صحيحة. كان مريد أبى سليمان الدارانى واجتمع بسفيان بن عيينة، ومروان بن معاوية والبناجى، وكان سائحا يأخذ الأدب حيثما وجده.

يروى أنه قال: «الدنيا مزبلة ومجمع الكلاب وأقل من الكلاب من عكف عليها فإن الكلب يأخذ منها حاجته ويتركها، والمحب لها لا يزول عنها بحال»[١] وهذه هى علامة انقطاعه عن الدنيا ومفاسدها، وإعراضه عن أصحابها.

كان فى أول أمره سالكا؛ ثم بلغ رتبة الإمامة، وبعد ذلك رمى كل كتبه فى البحر وقال: «نعم الدليل كنت، أمام الاشتغال بالدليل بعد الوصول فمحال»[١] لأن الدليل يحتاج إليه المريد ما دام سالكا فى الطريق، فاذا وصل إلى الحق فالطريق والباب لا فائدة فيهما.

قال بعض المشايخ: إن هذه المسألة حصلت من أحمد وهو فى ساعة وجده، ذلك أن من يقول من الصوفية: قد وصلت، فقد فصل، فالوصول يقتضى عدم العمل، والعمل فيه جهد لا داعى له. وعدم العمل نوع من

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٠٢.

الخمول، وفى كلا الحالتين فالوصول والبعد متوقف على إرادة الله تعالى، إذ لولا ذلك لكان من المستحيل أن يوصل إليه بعمل. وعبارات القرب والجوار لا تناسب المقام العلى، فالرجل يصل إلى الله تعالى بمرضاة الله عنه، ويبعد عنه إذا غضب عليه.

أقول ـ أنا على بن عثمان الجلابى ـ أنه ربما قصد الشيخ باستعمال لفظ الوصول اكتشافه طريق الله تعالى، إذ أن طريق الله تعالى لا يوجد فى الكتب، وعندما يتضح الطريق لا يكون للشرح ضرورة، فمن وصلوا إلى المعرفة الحقة لا يحتاجون إلى الكلام أو الكتب. وقد فعل غيره من الصوفية ما فعل، ومنهم الشيخ الجليل أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهنى. ولكن قلدهم عدد من المتكلفين الذين كان كل همهم أن يبرروا كسلهم وجهلهم.

ويبدو أن أولئك المشايخ الأجلاء قد فعلوا هذا ليقطعوا كل صلة لهم بالدنيا، ويفرغوا قلوبهم من كل شئ إلا الله تعالى. ومع ذلك فلا يسمح بهذا إلا فى نشوة الابتداء، وحماس الشباب. أما المتمكنون فلا تحجبهم العوالم عن الله تعالى، فكيف تحجبهم إذن صفحة من الورق. وقد يقال أن تمزيق كتاب يراد به نفى استحالة العبارة عند تحقق المعنى. وفى هذه الحالة تكون نفس هذه الاستحالة قائمة بالنسبة للسان، إذ أن الكلمات المنطوقة لا تختلف عن المكتوبة. وإنى أظن أن أحمد بن أحمد أبى الحوارى كتب مشاعره عندما لم يجد له سميعا وهو فى حال نشوته وعندما تجمعت لديه مجموعة مما كتب ولم يرتح لها رمى بها إلى الماء. ومن المتحمل كذلك أن يكون قد جمع كتبا عديدة حولته عن ممارسة العبادة فتخلص منها لهذا السبب.

٢٣ـ ومنهم قائد الفتيان، وشمس خراسان، أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى. كان مختصا بعلو الحال والشرف، ومقتدى القوم فى مانه مقبولا لدى الخاصة والعامة، وكان سالكا طرق الملامتية، ويلبس لباس المجاهدين، وكانت زوجته فاطمة، ابنة أمير بلخ، ذات صيت عال فى التصوف. وقبيل أن تتوب وترجع

إلى الله أرسلت كتابا إلى أحمد، وطلبت منه أن يخطبها من أبيها، فلم يرض أحمد بذلك، فأرسلت إليه تقول يا أحمد إنى كنت أجلك عن أن تكون حجر عثرة فى طريق السالكين إلى الله، فكن إماما، ولا تكن قاطع طريق، فخطبها من والدها، فزوجه إياها تبركا، واعتزلت فاطمة بعد ذلك الدنيا، وعاشت فى خلوة مع زوجها.

ولما زار أحمد أبا يزيد صحبته، فرأى أنها كشفت عن وجهها، وصارت تكلم أبا يزيد بغير خجل، فغار لذلك، وقال لها: لماذا تتكلمين مع أبى يزيد بهذه الحالة؟ فأجابته: إنك قرينى فى العشرة، وهو أخى فى الله. وأنا أنال شهوتى بك ولكنى أصل به إلى الله، ولاحاجة له بصحبتى، ولكنك فى حاجة إليها. واستمرت فى محادثة أبى يزيد بجرأة زائدة، حتى رأى يوما الحناء فى يدها فقال لها: ولم هذا؟. فأجابته: يا أبا يزيد قد كنت فى حل معك قبل أن يقع نظرك على يدى والحناء، فأما وقد رأيتها فقد بطلت صحبتنا. ورجع بها أحمد بعد ذلك إلى نيسابور وعاشا هناك. وكان أهلها يوقرون أحمدًا.

ولما مر يحيى بن معاذ الرازى على نيسابور، فى طريقه من الرى إلى بلخ، رأى أحمد أن يضيفه، فاستشار فاطمة فى ذلك فأشارت عليه أن يحضر كذا من الغنم والفاكهة والروائح والشمع، وقالت يلزمنا أيضًا أن نذبح عشرين حمارًا، فقال لها: ولم ذلك؟ فقالت له: إن الكريم إذا استضافه كريم لزم أن يكون للكلاب قسط من هذه الوليمة.

وقد قال عنها أبو يزيد: من أراد أن ينظر إلى رجل من الرجال مخبأ تحت لباس النسوان فلينظر إلى فاطمة. وقد قال أبو حفص الحداد: لولا أحمد بن خضرويه ما ظهرت الفتوة.

وله عبارات عالية وأنفاس مهذبة. وقد ألف كتبا عديدة فى التصوف وله بيان فى الحقائق. يروى أنه قال: «الطريق واضح، والحق لائح، والداعى قد

سمع، فما التحيز بعدها إلا من العمى». إنه من الجهل البحث عن طريق الله، مع أنها واضحة كالشمس فى رابعة النهار، فابحث عن نفسك فإنك إذا عرفتها وصلت إلى غاية الطريق، حيث أن الله تعالى منزه عن البحث عنه فى المكان والزمان. ويروى أنه قال: «استر عز فقرك» فلا تقل للناس أنى درويش مخافة أن يكشف سرك لأنه نعمة كبرى من الله عليك.

لطيفة: دعا أحد الدراويش رجلا غنيا فى شهر رمضان ولم يكن فى بيته رغيف جاف فلما رجع الغنى إلى منزله أرسل إليه كيسا من الدنانير فرده عليه وقال له: «هذا جزائى أن أفشيت سرى لمثلك وكان الأغنياء أهل لعز الفقر» وذلك لكمال فقره.

٢٤- ومنهم إمام المتوكلين، ومختار أهل الزمان، أبو تراب عسكر ابن الحصين النخشى النسفى.

كان من أشهر شيوخ خرسان، وكان مشهورا بكرمه وزهده وعبادته. وله كرامات باهرة، وأحوال ظاهرة، فى البيداء. وغيرها وهو من أشهر الشيوخ سواح الصوفية، وكان يقطع الصحارى الواسعة متجردًا من كل لوازم الحياة. قد وقع وفاته فى صحراء البصرة، وبعد ذلك بسنين وجدوه واقفا متجها للكعبة مكسوا، وأمامه ركوته وفى يده عكازه، وهو ميت ولم تمسه الوحوش ولا الذئاب[١].

يروى أنه قال «الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل»[٢] أعنى أنه لا يختار طعام نفسه، ولا لباسه، ولا يعمل لنفسه مسكنا. وكل أحوال الدنيا مرتكنة على هذه الأمور الثلاثة، وحاجتنا إليها توقعنا فى الاشتغال بها فنعمل لكسبها، هذا هو المظهر العلمى لهذا الموضوع. وله معنى

---

(١) ليس هناك دليل على صحة هذه الرواية.

(٢) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٤٩.

أرقى من ذلك أعنى أن أكل الدرويش القناعة، ولباسه التقوى، وسكنه الغيب؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾(١) وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٢) ويقول رسول ﷺ: «الفقر وطن الغيب».

وإذن فما دام الأكل والشراب من شرب القرب واللباس من التقوى والمجاهدة، والوطن الغيب وانتظار الوصال، وضح طريق الفقر والمنازلات وهذه هى درجة الكمال.

٢٥- ومنهم لسان المحبة والوفاء، وزين طريق الولاء، أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى.

عالى الحال، طيب السيرة له قدم ثابتة فى مقام الرجاء. وقد قال الحصرى عنه: «إن لله يحيان: أحدهما نبى، والآخر ولى» فيحيى بن زكريا سلك طريق الخوف حين كثر أدعياء هذا الطريق، وفقدوا الأمل فى الخلاص. ويحيى بن معاذ سلك طريق الرجاء، حتى ادعاه أهل الباطل. قال بعضهم للحصرى: إنا نعلم ما كان عليه يحيى بن زكريا من الخوف، فما هو حال يحيى بن معاذ؟ فقال: «أخبرت أنه لم تسبق له جاهلية ولم يعمل كبيرة ما»

وكانت له مراقبة فى العبادات، تكاد تكون فوق طاقة البشر حتى أن أحد مريديه قال له: «يا مولاى إن مقامك مقام الرجاء، ولكنا نرى أعمالك أعمال الخائفين». فقال له يحيى: «اعلم يا ولدى أن من ترك عبادة الله فقد ضل». فالخوف والرجاء هما عماذا الإيمان، ومن المستحيل أن يقع الإنسان فى محظور ما دام يعمل بهما، لأن الخائفين يعبدون الله تعالى مخافة البعد عنه، والراجين يعبدونه رغبة فى الوصول إليه، ولولا العبادة لم يشعر الإنسان بلذة

---

(١) سورة الجن: آية ١٦.
(٢) سورة الأعراف: آية ٢٦.

الخوف ولا الرجاء، وحيث كان ذلك فلا فائدة من الخوف والرجاء إلا إذا اقترنا بالعبادة.

وله تآليف كثيرة وعبارات رقيقة، وتعاليم رشيدة، وهو أول من ارتقى على المنبر من أهل الذوق بعد الخلفاء الراشدين، وإنى لمغرم بأقواله السلسة العبارة، اللذيذة السماع.

· يروى أنه قال: «الدنيا دار الأشغال، والآخرة دار الأهوال، ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقر به القرار إما إلى الجنة وإما إلى النار»[١] فطوبى للنفس التى خلصت من الأشغال، وتخلصت من الأهوال والأغيار، وتجردت من الأفكار فى الدارين جميعا ووصلت إلى الله.

هذا وإن يحيى هو صاحب الرأى القائل بأن الغنى أفضل من الفقر. ولما سافر إلى خراسان ترك عليه ديونا كثيرة فى الرى، وبعد وصوله إلى بلخ حبسه أهلها ليعظهم وليعلمهم الحكمة، وأعطوه مائة ألف درهم فلما رجع إلى الرى اخترطته اللصوص مما كان معه فوصل إلى نيسابور وهو فى حالة رثة حيث توفى هناك، وكان يجله أكثر الناس.

٢٦- ومنهم شيخ شيوخ خرسان، ونادرة العالم أبو حفص عمرو بن سالم النيسابورى الحداد.

كان من كمل الصوفية، ممدوحا عندهم، وقد اجتمع بأبى عبد الله الأبيوردى وأحمد بن خضرويه، وأتاه الشيخ شاه بن شجاع ليزوره من كرمان. وكان قليل المعرفة بالعربية، ولما قدم بغداد لزيارة المشايخ هناك قال مريدوه: إنه لمن المخجل أن يحتاج شيخ خرسان إلى مترجم ليبين له ما يقوله المشايخ، فلما اجتمع بالصوفية فى بغداد، وكان معهم الجنيد، فى جامع الشونيزية تكلم معهم بالعربية الفصحى حتى أعجزهم من بلاغته، فسألوه عن الفتوة. قال

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١١٧-١١٨.

لهم: ليبتدئ أحدكم فى الحديث عنها. فقال الجنيد: الفتوة ترك الرؤية وإسقاط النسبة. فقال أبو حفص: «ما أحسن ما قاله الشيخ، ولكن الفتوة عند أداء الانصاف وترك مطالبة الانتصاف.» . فقال الجنيد: رحمكم الله يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته.

وكان سبب توبته أنه أحب فتاة وأشار عليه أصحابه أن ينشد مساعدة يهودى يعيش فى شاريستان من أعمال نيسابور فأمره ذلك اليهودى ألا يصلى أربعين يوما. ولا يذكر الله تعالى، ولا يعمل صالحا حتى يدله بعد ذلك على عمل ينيله مطلوبه، فعمل أبو حفص بما أمر اليهودى وبعد تمام الأربعين كتب اليهودى طلسما له، لكنه لم يجد نفعا. فقال له اليهودى: لابد أنك قد عملت عملا صالحا، فانظر ما هو هذا العمل. فقال أبو حفص: « لا أرانى عملت شيئا صالحا، فانظر ما هو هذا العمل». فقال اليهودى له: أما تستحى من الله سبحانه وتعالى، الذى لم يضيع لك عملا صغيرا، مع أنك أهملت أمره أربعين يوما؟. فتاب أبو حفص وأسلم اليهودى.

وقد كان أبو حفص يشتغل بالحدادة، حتى سافر إلى أبيورد واتبع أبا عبد الله الباوردى؛ فلما رجع إلى نيسابور سمع ذات يوم رجلا أعمى يقرأ القرآن فى السوق، فأصغى إليه حتى غلبه السماع فوضع يده فى النار والتقط قطعة من الحديد المحمى بلا ملقاط، فلما رأى صبيانه ذلك سقطوا مغشيا عليهم، وحينما عاد أبو حفص إلى صحوة نفسه ترك العمل ولم يعد إلى الاشتغال.

يروى أنه قال: «تركت العمل ورجعت إليه ثم، تركنى فلم أرجع إليه»[١]. لأنه من ترك شيئا بحوله وقوته فتركه ليس خيرا من العمل، ما دام العمل فاسدا، لأن قيمة العمل صادرة عن القدرة الإلهية، التى تفاض علينا من الغيب بلا حول منا.

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨.

فاذا نسب الإنسان هذه القدرة لنفسه كان خلوا من الصفاء الروحانى، إذ لا حول للأنسان أن يترك أو أن يمسك أى عمل إلا بقدرة الله تعالى وتدبيره، لأن الله سبحانه وتعالى قد أعطى وأخذ فى سابق علمه، فالإنسان لا يأخذ إلا ما أعطاه الله، ولا يترك إلا ما أخذه الله، ولو عمل السالك ألف سنة لنيل رضوان الله تعالى لكان ذلك أقل بكثير مما يناله بفضل الله فى نفس واحد، لأن سعادة الإنسان متوقفة على سابقة الفضل الإلهى، والعناية الربانية، ولا خلاص للانسان إلا بفضل الله تعالى ورحمته، فهنيئا، لمن أخرج المسبب من قلوبهم كل الأسباب.

٢٧- ومنهم قدوة أهل الملامة، ومن رضى بالبلاء على السلامة، أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار.

وينسب إلى كبار السلف الصالح، وكان من الذين جاهدوا أنفسهم فى ذات الله، وبلغ درجة عالية من الفقه والعبادة متبعا فى ذلك مذهب الثورى. أما فى الطريقة فإنه كان مريدا لأبى تراب النخشبى عن طريق على النظر بادى. وله رموز دقيقة فى المعاملة، وكلمات رقيقة فى المجاهدة، فلما اشتهر بها طلب منه أئمة نيسابور أن يخطب الناس فى الجمعة، فلم يقبل ذلك وقال: «لا يزال قلبى متمسكا بالدنيا ولذلك فان كلماتى لا تؤثر فى قلوب الآخرين، فاذا تكلمت بشئ لا يثمر كان ذلك ضعة للدين، وضياعا للشريعة السمحة[1]، إنما يتكلم من يضر بالدين سكوته ومن يشفى الأمراض كلامه».

ولما سئل لماذا كان السلف أوقع فى القلوب قال: «لأنهم كانوا يتكلمون لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق» اعلم أن كل من تكلم عن أمر الله، بدافع دينى أثرت موعظته فى قلوب العصاه والمذنبين، وأما إذا أصدر كلامه عن هوى فانه يكون

---

(١) فى الأصل السمحاء.

ضغثا على إبالة ولا يثمر. وهكذا اعلم أن هذا العظيم قد دفع الدنيا عن نفسه ولم يرغب فى اسم أو جاه.

٢٨- ومنهم الشيخ ذو الوقار، الواقف على الخواطر والأسرار، أبو السرى منصور بن عمار.

كان من نوابغ العراق، وأئمة خراسان، ولم يسبقه أحد فى بلاغة مواعظه وحسن موقعها، كان عالما بكل فروع العبادة والحديث وعلوم الأصول والمعاملات. وقد غالى فى مدحه بعض طلاب المتصوفه.

يروى أنه قال: «سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا، وقلوب الفقراء أوعية القناعة، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع»[1].

من المعلوم أن الله تعالى قد جعل فى كل عضو من الأعضاء صفة خاصة به، فجعل مثلا اليد للبطش، وجعل القدم للسعى، والعين للنظر، والأذن للسمع، واللسان للنطق، فلا اختلاف هناك إلا اليسير فى وظيفة كل منها.

وشغل القلوب بشواغل مختلفة، فسبحان من أقام العباد فيما أراد. فترى قوما اشتغلوا بمعرفة الله، وآخرون اشتغلوا بالخطيئة، وآخرون بالقناعة، وآخرون بالغفلة، وهلم جرا. فلذلك كانت معاملة القلوب هى القسطاس المستقيم التى يثاب عليها، أو يعاقب بها. وقد قال: «الناس رجلان: عارف بنفسه فشغله فى المجاهدة والرياضة، وعارف بربه فشغله بخدمته وعبادته ومرضاته»[2].

فعبادة الأول رياضة، وعبادة الثانى رياسة، والأول يعبد ليصل إلى درجة الكمال، والثانى يعمل مع بلوغه الكمال، فما أكبر الفرق بينهما. أحد هاتين الفئتين باق فى مجاهدة نفسه، والآخر باق فى مشاهدة ربه.

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٦.

(١) المرجع السابق ص ١٣٥.

يروى أنه قال: «الناس رجلان: مفتقر إلى الله فهو فى أعلى الدرجات على لسان الشريعة، وآخر لا يرى الافتقار لما علم من فراغ الله من الخلق والرزق والأجل والحياة والسعادة والشقاوة فهو فى افتقاره إليه واستغنائه به»[٢] فهم يطلبونه ولا يطلبون غيره، فاذا نالوه لم يفقدوا شيئا، فالأولون لوقوع نظرهم على حاجتهم حجبوا بها عن الجمال الإلهى. والآخرون لعدم نظرهم إلى حاجتهم كوشفوا وصاروا أحرارا. الأولون ينعمون بالنعم والآخرون ينعمون بواهب النعم.

٢٩- ومنهم ممدوح الأولياء، وقدوة أهل الرضا، أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكى.

من أعيان القوم وساداتهم، وكان عالما بعلوم الشريعة والأصول والفروع.

عمر طويلا واجتمع بأكابر السلف من تابعى التابعين، وكان معاصرا لبشر والسرى السقطى، ومريدا للحارث المحاسبى، وقد اجتمع بالفضيل وتذاكر معه. وقد قال: «إن أنفع الفقر ما كنت به متجملا راضيا»[١]. لأن غنى العوام فى إثبات الأسباب، وغنى الخواص فى نفى الأسباب وإثبات مسببها، وأن تنسب كل أمر إليه، وأن ترضى بقضائه وقدره.

فالفقر هو ترك الأسباب الثانوية، أما الغنى فهو وجودها. والفقر بعد التجرد عن الأسباب الثانوية غنى بالله تعالى، ولهذا فان الغنى بالأسباب حجاب عن الله والعكس. هذا بيان كاف فى فضل الفقر على الغنى.

٣٠- ومنهم سالك طريق الورع والتقوى، وكان فى الأمة على زهد يحيى، أبو محمد عبد الله بن خبيق.

وكان زاهدًا عابدا ناسكا، وقد كان من رواة الصحيح من الحديث. فقيها فى علوم الدين، من العبادات والمعاملات والأصول، ومتابعا فى ذلك مذهب الثورى، الذى اجتمع بتلاميذه.

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٣٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٤.

قال «من أراد أن يكون موسعا عليه فى حياته فلا يسكن الطمع فى قلبه» إذ أن الطامع فى قيد، يجعل للغفلة سلطانا على قلبه وهى كالخاتم على قلبه، والقلب المختوم عليه ميت لا محالة. طوبى لقلب يكون ميتا عن الأغيار حيا به، ذلك أن الله خلق الذل وهو الطمع، وخلق العز وهو الذكر، وفى هذا المعنى يقول عبد الله: «خلق الله تعالى القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق».

فالخوف والشوق هما عمادا الإيمان، لأنه إذا سكن الإيمان فى قلب امرئ اتبعه الذكر والقناعة، ولم يتبعه الشهوة والغفلة، فالشهوة هنا نتيجة الأعراض عن معية الله تعالى؛ والقلب الذى يكون معرضا عن الله سبحانه وتعالى ليس له نصيب من الإيمان، وذلك الإيمان أنس بالله تعالى، وإعراض عمن سواه. كما قالوا: الطامع مستوحش منه كل أحد. والله أعلم.

٣١- ومنهم شيخ المشايخ فى الطريقة، وإمام الأئمة فى الشريعة، أبو القاسم الجنيد بن محمد، البغدادى القواريرى.

كان مقبولا عند أهل الظاهر والباطن على السواء، كاملا فى كل فن، ثقة فى التوحيد، والشريعة والحقيقة وكان تلميذا للثورى، وعباراته عالية، وحاله كامل، حتى أن كل الصوفية اعترفوا له بالأمامة فى المعرفة.

كانت والدته شقيقة للسرى السقطى، الذى كان الجنيد مريده. سئل ذات يوم عما إذا كان المريد يبلغ درجة أكمل من الأستاذ؟. فقال: نعم! وان أوضح دليل على ذلك أن مرتبة الجنيد أفضل من مرتبتى، هذا وإن ذلك لمن بعد نظر السرى، وشدة تواضعه وانقياده للحق.

وكان الجنيد يتحاشى أن يدارس تلاميذه مدة حياة السرى، حتى طلب منه مريدوه أن يعلمهم فقال: «أما وشيخى موجود فلا، حتى أتاه رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال له: يا جنيد تكلم للناس فإن كلامك راحة للقلوب وإن الله جعل كلامك سببا فى نجاة كثير من أمتى.

فلما استيقظ من منامه ظن أن مقامه أكبر من مقام السرى لأن رسول الله ﷺ أمره بالدعوة فلما أرسل إليه السرى مريدا بالرسالة الآتية:

إنك لم تقبل أن تدرس تلاميذك إذ طلبوا منك ذلك، ورفضت وساطة مشايخ بغداد، وحيث أمرك رسول الله ﷺ فأطع الأمر. قال الجنيد فأخرجت هذا الرأى من قلبى، وعلمت أن السرى أعلم بظاهرى وباطنى، وأن مرتبته أكبر من مرتبتى، حيث أنه علم بسرى، وتحققت جهلى بمقامه، فذهبت إليه وسألته السماح وأن يخبرنى من أين علم أنى رأيت رسول الله ﷺ، قال لى: يا بنى رأيت رب العزة عز وجل فاخبرنى بأنه أرسل رسول الله ﷺ يأمرك بالدعوة. من هذه الحادثة تعلم صريحا بأن للعارفين معرفة تامة بأسرار مريديهم.

يروى أنه قال: «كلام الأنبياء نبأ عن حضور وكلام الصديقين إشارة عن المشاهدة»[1]، والمعرفة الحقة ناتجة عن النظر، ومن المستحيل أن تبين حقيقة أى شىءلم تشاهده، بينما أن الأشارة تدلك على شىء آخر، لذلك فنهاية الصديقين بداية النبيين. والفرق بين النبى والولى كالشمس فى رابعة النهار، وإنى لأعجب من شعوذة أهل الفئتين الضالتين، اللتين زعمتا أن الأولياء فاقوا الأنبياء فى الكمال.

يروى أنه قال: كنت أرغب فى رؤية إبليس عليه لعنة الله، فرأيت ذات يوم رجلا طاعنا دميمًا، دخل إلى الجامع، وأنا فى وسطه، متجها إلى فانتابنى رعب شديد لما اقترب منى، فسألته: من أنت، لا أب لك! . لأنى لا احتمل النظر إليك، ولا الفكر فيك فقال لى: أنا طلبتك. فقلت: وعليك لنعة الله! ما منعك أن تسجد لآدم؟. فقال: يا جنيد! كيف تتخيل أن اسجد لأحد غيره تعالى؟. فاندهشت لمقالته ونوديت من قلبى؛ قل له: كذبت! لو كنت عبدا لما خرجت من أمره ونهيه. فسمع إبليس صوت الكلام من قلبى فصرخ بأعلى

---

(١) انظر السلمى طبقات ص ١٦٢.

صوته: لقد أحرقتنى يا هذا. واختفى. يدلك هذا على أن الله سبحانه وتعالى يحفظ قلوب أوليائه، فى كل الأحوال، من الميل إلى حيل الشيطان اللعين.

وحكى أن أحد مريدى الجنيد حقد عليه إلى حد أن أعرض عنه، وبعد أن تركه رجع إليه ليسأله امتحانا له فعلم الجنيد ذلك منه، فقال له ردًا على سؤاله: هل تريد جواب أهل الرسوم، أو جوابا رواحانيا؟ فقال له التلميذ: أريد كليهما فأجابه الجنيد، عن الجواب الأول: أنك إذا سألت نفسك لما كانت لك حاجة بسؤالى، والجواب الروحانى إنك مبعد من ديوان الولاية. فاسود وجه الطالب بعد ذلك ونادى: قد ذهبت من قلبى حلاوة اليقين. وتذلل له واستسمحه بعد أن ترك غش نفسه، فقال له: هل علمت أن لأهل الله أسرار خفية وإنك لا تحتمل ضرباتهم. فألقى عليه نفسا، فرجع إلى ما كان عليه، وتاب من أن يحرج المشايخ والله أعلم.

٣٢- ومنهم ملك أهل التصوف، البرئ من آفة التكلف، أبو الحسين أحمد بن محمد النورى.

كانت له أحسن المعاملات وأبين الكلمات، وأظرف المجاهدات. وهو شيخ الطائفة النورية وهى إحد الاثنتى عشرة طريقة التى منها عشرة مقبولة واثنتان مردودتان، فالمقبولة هى: المحاسبيه، القصارية، والطيفورية، والجنيدية، والسهيلية، والحكيمية، والخرازية، والخفيفية، والسيارية؛ كل هؤلاء يؤكدون الحق، وهم من أهل السنة. والاثنتان المردودتان هما: الحلولية الذين يذهبون إلى الحلول والامتزاج وتشبع بهذا المذهب السليمية، وهم أهل كلام، والحلاجية الذين خرجوا عن دائرة الشرع الشريف، وتمسكوا بالبدع، ويدخل فيهم الاباحية، والفارسية، وبمشيئته تعالى أخصص قسما فى هذا الكتاب، لكل طائفة من هذه الطوائف، يجمع مذاهب كل طائفة ومعتقداتهم، والفرق بينهم، والخلاف بينهم وبين هاتين الفرقتين. وللنورى مذهب ممدوح فى ترك المداهنة، ورفع المسامحة، ودوام المجاهدة.

يروى أنه قال حضرت حلقة الجنيد وكان جالسا على كرسى للتدريس فقلت له: «يا أبا القاسم غششتهم فصدروك ونصحتهم فرمونى بالحجارة». ذلك لأن الملق يوافق هوى النفوس والإخلاص ضد ذلك، والناس يكرهون كل من خالف هواهم، ويميلون عنه، ويحبون كل من وافقهم.

وكان النورى معاصرا للجنيد، وتلميذا للسرى، وقد اجتمع بكثير من المشايخ، وقابل أحمد بن أبى الحوارى. وله عبارات وحكم لطيفة، فى علوم الحقيقة يروى أنه قال: «الجمع بالحق تفرقه عن غيره، والتفرقة عن غيره جمع به» لأن كل قلب اتصل بالله يوجب عدم التفكر فى المخلوقات، وهذا الترك قرب إليه سبحانه لأن «الضدين لا يجتمعان».

قرأت فى بعض الحكايات أن النورى وقف فى خلوته ثلاثة أيام بلياليها، لا يتحرك من مكانه ولا يترك الصياح فذهب إليه الجنيد وقال له: «يا أبا الحسن إذا كنت تعرف أن هذا الجؤار ينفعك فأخبرنى حتى أعمل مثلك، ولكن إذا علمت أنه لا يجدى نفعا فسلم له نفسك بالرضى عنه، حتى يفرح قلبك ويهدأ روعك. فسكن وقال: قد نفعتنى الله بك يا أبا القاسم».

يروى أنه قال: «أعز الأشياء فى زماننا شيئان: عالم يعمل بعمله، وعارف ينطق عن حقيقته»[1]. لأن العالم والعارف بهذا المعنى أندر من الكبريت الأحمر، حيث أن العالم لا يكون عالما إلا بعد عمله بعلمه، والعارف لا يكون عارفا إلا بعد معرفته حقيقة نفسه.

والنورى يقول هذا الكلام فى عصره، ولقد صدق لأنهما نادران فى كل زمان، وهما نادران الآن لأن من يشغل نفسه بالبحث عن الرجل العارف يضيع وقته سدى، ولا يجد مقصده. ويجب عليه أن يهتم بنفسه حتى يجد العلم فى كل مكان، إذ العلم كله فى العالم كله، ثم عليه أن يتحول عن نفسه متجها إلى

---

(١) انظر السلمى ص ١٦٩.

الله تعالى، حتى يرى العلم فى كل مكان.

يروى أن النورى قال: «من عقل الأشياء بالله فرجوعه فى كل شئ إلى الله»[(١)] لأنه لا يرتاح إلا لمشاهدة الخالق، ويكون فى بلية إذا شاهد أن الأسباب تنتج الأعمال، حيث أن إثبات ذلك شرك، وذلك لأن السبب لا وجود له بنفسه بلا مسبب فإذا رجعوا إليه خلصوا من كل الأغيار.

٣٣- ومنهم مقدم الخلف، وخير الخلف للسلف، أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى.

من قدماء وأجله الصوفية كان فريد عصره، وقدره رفيع فى كل القلوب. وكان من كمل الصوفية، وقد اجتمع بيحيى بن معاذ، والشيخ شاه بن شجاع الكرمانى؛ وقد صحبه إلى نيسابور لزيارة أبى حفص، وبقى معه حتى توفاه الله.

يروى عن مصدر ثقة أنه قال: «كنت أطلب الحق من طفولتى، وأهل الظاهر ينتقدوننى، وكنت اعتقد أن للشريعة السمحة[(٢)] سرا خفيا، ينطوى تحت هذه الرسوم، التى اقتدى بها العامة بلا تدبر ولا تفكر. فلما كبرت سمعت مذاكرة من يحيى بن معاذ الرازى، فوجدت هناك السر الذى كنت أبحث عنه. وصبحته حتى سمعت عن السشخ شاه بن شجاع ممن كانوا معه، فاشتقت إلى زيارته، فتركت الرى وذهبت إلى كرمان، فلم يصرح لى الأستاذ، بحضور مجلسه، وكانت حجته فى ذلك أنه يقول: «لقد سلكت على مذهب الرجاء الذى وقف عنه يحيى، ولا يمكن لمن وقف عند هذا المقام أن يسلك طريق التخلية، لأن الاعتقاد الآلى فى الرجاء يوجب الكسل والتراخى، فتشفعت إليه، ووقفت على بابه عشرين يوما، وأنا اسأل الله تعالى أن يعطف على قلب الأستاذ، حتى قبلنى لصحبته ومكثت أخدمه، حتى أخذنى لزيارة أبى

(١) انظر السلمى ص ١٦٩ .
(٢) فى الأصل السمحاء.

حفص النيسابورى، وكان الأستاذ فى هذه السياحة قد لبس القباء، فلما رآه أبو حفص قام له من مجلسه، وتقدم لمصافحته قائلا: «وجدت فى القباء ما طلبت فى العباء».

وكنت مدة إقامتنا فى نيسابور أجد فى نفسى رغبة شديدة فى الاجتماع بأبى حفص، ولكن خشيت غيرة الشيخ، وكنت؛ فى صلاتى أسأل الله تعالى أن يمتعنى بصحبة أبى حفص، بدون أن أغير قلب الأستاذ على، لأنه كان رجلا غيورا. وكان أبو حفص يعلم برغبتى فى صحبته، فلما آن الرحيل لبست ملابس السفر وتركت قلبى مع أبى حفص، فقال الشيخ: «أنا مسرور بهذا الفتى، فدعه يقيم معى». فالتفت إلى الأستاذ، وقال: «أقم حيث أمرك السيد» فمكثت مع أبى حفص، وشاهدت عجائب كثيرة فى صحبته.

قال المؤلف: فالله سبحانه وتعالى قد تفضل على أبى عثمان بأن يتلقى ثلاث مقامات على يد ثلاثة مشايخ، وهذه المقامات التى تلقاها عنهم جعلها مقاما له؛ فمقام الرجاء ناله بصحبته ليحيى، والغيرة بصحبته للشيخ شاه بن شجاع، والشفقة بصحبته لأبى حفص. وقد يسمح للمريد بأن يجتمع بالعارفين وأن ينال من مقاماتهم المختلفة. ولكنه من الأحسن للمريد ألا يخلط مكانه بمقامهم، وعليه أن يشير إلى كمالهم فى مراتبهم ويحفظ الأدب بأن ينسب الفضل إليهم. وقد كان لأبى عثمان قسط وافر فى انتشار الصوفية فى خراسان ونيسابور، وقد اجتمع بالجنيد ورويم ويوسف بن الحسين ومحمد بن الفضل البلخى؛ ولم يحصل أحد على ما حصل عليه الشيخ فى أساتذته، وكان يدرس لأهل نيسابور التصوف، ويجلسونه على كرسى إكراما له، وله كلام دقيق فى فروع هذا العلم.

يروى أنه قال: «حق لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يذله بالمعصية»[1].

---

(١) انظر السلمى طبقات ص ١٦٩.

ويدلك هذا على شدة مراقبته، لأنك تعلم أن الله سبحانه وتعالى أجل وأعظم من أن يهين من أكرمه بمعرفته، ويجعله يعصاه، ومع ذلك فان المعرفة هبة من الله، والعصيان عمل الإنسان، ومن المستحيل أن من أكرمه الله بفضله يهان بعمل نفسه لأن الله سبحانه وتعالى أكرم آدم بمعرفته ولم يهنه بالمعصية.

٣٤- ومنهم سهيل المعرفة، وقطب المحبة، أبو عبد الله أحمد بن يحيى ابن الجلا.

اجتمع بالجنيد، وأبى الحسين النورى، وكثير من المشايخ، وقد قال: «همة العارف ارتفعت إلى مولاه فلم يعطف على شئ سواه»[١]. لأن العارف ليس له هم غير المعرفة، إذ بها حياة قلبه ، ولهذا فهمه عاكف على مشاهدة الله، لأن كثرة الاشتغال يوجب الهموم، والهموم تبعد الإنسان عن الله.

وقد حكى عن نفسه أنه رأى يوما غلاما فى غاية الجمال، فوقف أمامه حتى مر به الجنيد فقال له: يا سيدى: هل يحرق الله هذا الوجه بالنار؟. فقال له يا ولدى هذه نظرة فى شهوة، وليست نظرة فى عبرة، ولو أنك نظرت باعتبار لوجدت نفس هذا الإعجاز فى كل ذرة من ذرات الوجود. إن الله سيعاقبك قريبا لهذا العمل الذى يعوزه الاحترام. قال: فما حول الجنيد وجهه عنى حتى أنسيت القرآن، ولم أعد أحفظ شيئا منه سنين عديدة، حتى كثر ابتهالى وتضرعى إليه واعترافى بذنبى، فاستردت القرآن[٢]. والآن لا أتجاسر بعد ذلك على أن أنظر إلى مخلوق، ولا أن أضيع وقتى بالنظر إلى الأشياء.

٣٥- ومنهم وحيد العصر، وإمام الدهر، أبو محمد بن أحمد.

كان صديقا حميما للجنيد، وكان على مذهب داود الظاهرى فى الفقه.

---

(١) انظر طبقات السلمى ص ١٨٤.

(٢) هذه أمور تروى كثيرا في كتب التصوف ولا يسندها دليل.

وكان عالما كبيرا فى تفسير القرآن وقراءاته، مشهورا بعلو حاله ونزاهة مقامه، وعرف سائحا متجردا من الدنيا، وهو ـ مع شدة الورع ـ لا مثيل له.

ولما كان فى آخر أيامه أخفى نفسه بين الأغنياء، ونال ثقة الخليفة، فولى القضاء. ولكن روحانيته كانت من الكمال بحيث لم يحجبه وضعه هذا عن الله تعالى.

قال الجنيد: «نحن نعبد الله تعالى مشتغلين بالدنيا، ورويم يعبده خالصا لذاته». وقد كتب كتبا كثيرة فى السماع أحدها سماه «غلط الواجدين» يستحق النظر، وإنى مشغوف به كثيرا.

وقد سئل ذات يوم: كيف حالك؟. فقال: «كيف حال من دينه هواه، وهمته دنياه، وليس بصالح تقى، ولا بعارف نقى»[1] يدلك هذا على قمعه أهواء النفس التى تميل إلى لذة الدنيا وزخرفها، لأن أهلها يعتقدون أن كل من وافق هواهم صار صالحا ولو كان ملحدا، وكل من خالفها صار طالحا ولو كان تقيا، وقد انتشر هذا المبدأ فى عصرنا هذا حفظنا الله من صحبة الشريرين.

ولا شك أن الشيخ أجاب بهذا القول بعد أن نظر إلى مرآة السائل، وكاشفه بما فيه، أو أن الله سبحانه وتعالى أوقفه على دسائس نفسه فى ذلك الوقت، وتكلم بذلك عن نفسه، وبما كان عليه فى الحقيقة.

٣٦- ومنهم بديع العصر، رفيع القدر، أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى.

وهو أحد كبار السلف وأئمة عصره. عاش طويلا، واجتمع بذى النون المصرى، وتلقى عنه، وخدم كثيرا من المشايخ. يروى أنه قال: «أذل الناس الفقير الطامع، والمحب لمحبوبه» وذلك كما أن أشرف الناس الفقير الصادق فإن الطمع يجعل الإنسان حقيرا فى الدارين، لأن الطامع مهان فى نظر أهل

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٢٩.

الدنيا، ويزداد هوانه كلما وثق فيهم. فالغنى مع الكرامة أكمل بكثير من الفقير مع الإهانة، والطمع يوقع الإنسان فى الطلب والاستجداء، أما من يعشق محبوبه فهو أحقر الناس أيضا، لأن العاشق الحقيقى يتذلل لحبيبه، ويضحى نفسه له وهذا أمر ناتج عن الرغبة، فعندما كانت زليخا ترغب فى يوسف، ازدادت فى كل يوم مهانة وذلا واحتقارا، فلما تركت الرغبة أعطاها الله تعالى شبابا وجمالا.

ومن المعلوم أنه كلما دنا المحب بعد المحبوب بدلاله، فاذا اكتفى العاشق بالمحبة اقترب المحبوب، والعاشق يفوز بالكرامة ما دام ليس له مراد فى الوصال، وما لم تحوله محبته عن أى رغبة فى الوصال أو الفراق كان حبه ضعيفا.

٣٧- ومنهم شمس سماء المحبة، وقدوة أهل المعاملة، أبو الحسن سمنون ابن عبد الله الخواص.

كان يجله جميع المشايخ، وكانوا يلقبونه سمنون المحب، ولكنه كان يقول عن نفسه: سمنون الكذاب، وقد لقى اضطهادا من غلام خليل، الذى تعرف بالخليفة، وتقرب من أهل مجلسه، مدعيا التقوى، لا بساحلة التصوف، كان هذا المنافق يشى بالمشايخ ألى الأمراء، رجاء أن يسقطوا من عين أهل السلطان، وتبقى له الكلمة.

وقد كان سمنون والمشايخ محظوظين فى الحقيقة، فلم يكونوا يعانون إلاً من واحد من هذا الطراز من الناس. أما فى يومنا هذا فهناك مئات من أمثال غلام خليل يرمقون كل عالم روحانى، ولا ضير فماذا يأخذون؟. الجيف أولى بالنسور.

لما ذاع صيت سمنون، واشتهر فى بغداد تدخل غلام خليل، أحمد بن غالب، ووشى به إلى الخليفة، وصادف أن امرأة أحبت سمنون، وطلبت منه أن يتزوجها، فلما وجدت منه صدا ذهبت إلى الجنيد، رجاء أن يقنع سمنون

بنصحه فلما طردها الجنيد، ذهبت إلى غلام الخليل، واتهمت سمنون بأنه أراد اغتصابها، فاصغى إلى أكاذيبها، وبلغها الخلفية، وطلب منه أن يقتله، فلما أراد الخليفة أن ينطق بالحكم عليه إلى الجلاد وقف لسانه فى حلقه، ولما بات تلك الليلة رأى من ينذره بزوال ملكه إن قتل سمنون، فلما أصبح استسمحه ورد عليه كرامته.

ولسمنون أقوال عالية، وعبارات دقيقة، فى معنى حقيقة الحب. وفى سفره إلى الحجاز طلب منه أهل فيد أن يذاكرهم فى هذا الموضوع، فلما ارتقى إلى المنبر تركه السامعون، فالتفت إلى المصابيح، وقال: إنما أتكلم لكم فسقطت المصابيح فى الحال وصارت ترابا.

ويروى أنه قال: « لا يعبر عن شئ إلا بما هو أرق منه، ولا شئ أرق من المحبة فبم يعبر عنها»[1] ومعنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المحبة الصادقة لا يمكن التعبير عنها، لأن التعبير صفة المعبر، والمحبة صفة الحبيب، ولذلك لا توجد عبارة تناسبها مطلقا.

٣٨- ومنهم سيد الشيوخ، الذى صار التغير عن أيامه منسوخا أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى.

هو من نسل الأمراء، اجتمع بأبى تراب النخشبى وكثير من المشايخ. وقد ذكرنا عنه نبذة فى ترجمة أبى عثمان الحيرى، وله رسائل عديدة فى الصوفية، أخص منها كتاباً سماه «مرآة الحكماء».

يروى أنه قال: «لأهل الفضل فضل مالم يروه، فإذا رأوه فلا فضل لهم. ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها، فإذا رأوها ولاية لهم»[2].

معنى ذلك أنه من نظر إلى كمال نفسه فقد حقيقة الكمال، وكل من ارتكن إلى ولاية سلبت منه الرعاية فالفضل صفة لا ترى. وأيضا الولاية، فإذا

---

(١)،(٢) طبقات السلمى ص ١٩٢،١٩٦ .

قال أحد: أنا فاضل، وولى، فلا هو فاضل ولا هو ولى.

ويروى أنه مكث أربعين سنة لا ينام[١]، فنام مرة ورأى ربه فى الرؤيا، فقال لله سبحانه وتعالى: «يا رب إننى كنت أبحث عنك فى قيام الليل، وقد وجدتك فى النوم». فقال له الله سبحانه وتعالى: «يا شاه لقد وجدتنى بقيام الليالى، لأنك لو لم تبحث عنى هناك لما وجدتنى هنا».

٣٩- ومنهم زعيم القلوب، ونور الأسرار، عمرو بن عثمان المكى.

كان من أكابر الصوفية، وله أقوال عالية فى دقائق العلوم. وتتلمذ للجنيد، بعد أن رأى أبا سعيد الخراز، وأجتمع بأبى عبد الله سعيد بن يزيد النباجى. كان «إمام عصره فى التصوف.

وقال: «لا يقع على كيفية الوجد عبارة، لأنه سر الله عند المؤمنين»[٢]. فدع الناس يعبرون عنه كما يشاءون، ومهما عبرت عنه عبارات العبد فلن تصيب ولما صار سر الله، ولا نقطعت صلة العبد بكل الأسرار الربانية.

يروى أنه لما قدم عمرو إلى أصفهان اجتمع عليه شاب بدون رغبة والده، فمرض ذلك الشاب، فذهب الشيخ مع عدد من مريديه لعيادته، فطلب المريض من الشيخ أن يأذن للقوال بأن يغنى، فطلب عمرو من القوال أن يقول:

مالى مرضت ولم يعدنى عائد   منكم ويمرض عبدكم فأعود

فلما سمع المريض هذا البيت استوى قاعدا، وذهب عنه ألم المرض، وقال: زدنى. فقال القوال:

وأشد من مرضى على صدودكم   وصدود عبدكم على شديد

---

(١) هذه أمور تخالف سنن الله في الأرض وكان النبي ﷺ ينام ويقوم كما جاء في حديثه الذي استنكر فيه قول الثلاثة الذين قال أحدهم أقوم ولا أنام وقال الاخر: أعتزل النساء فلا أتزوج، وقال الثالث: أصوم الدهر ولا أفطر، فلم يوافقهم ﷺ فيما ذهبوا إليه في حديثه المشهور.

(٢) طبقات الصوفية للسلمى ١٩٦.

فذهب عنه المرض ، وصرح له والده باللحاق بعمرو، واستغفر ربه من التهمة التى ملأت قلبه وصار ذلك الشاب من كمل الصوفية.

٤٠- ومنهم مالك القلوب، وماحى العيوب، أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى.

كان تقشفه عظيما، وعبادته كاملة، وله أقوال لطيفة فى الإخلاص، وأمراض نفس الإنسان، وأهل السبق يقولون عنه إنه جمع بين الشريعة والحقيقة، والحقيقة هى الشريعة، وكلامهم هذا مؤسس على أن كلام الأستاذ قريب للفهم. سهل للقبول عما يظهر عند غيره، وما دام الله سبحانه وتعالى قد وصل الشريعة بالحقيقة فإنه من المستحيل أن يفرق أولياؤه بينهما، لأنها إذا افترقا لزم أن يترك أحدهما، ويقبل الآخر؛ وترك الشريعة نفاق، وترك الحقيقة كفر وشرك، وإذا افترقتا فلا يكون ذلك لاختلاف فى معناهما ولكن لتأكيد الحقيقة.

وكان يقول على سبيل المثال: «إن كلمة لا إله إلا الله حقيقة، وكلمة محمد رسول الله شريعة» ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما بدون ذبذبة فى الإيمان، ومن الخطأ جدا أن يفرق. وفى النهاية فالشرع فرع من الحقيقة، فمعرفة الله تعالى هى الحقيقة، وإطاعة أوامره هى الشريعة، وأهل الظاهر ينكرون كل ما لا يوافق رأيهم، وأنه لمن الهلكة أن ينكر الإنسان أصلا من الأصول الموصلة إلى الله. فالحمد لله تعالى على ما وهبنا من حلاوة الإيمان.

يروى أنه قال: «ما طلعت شمس ولا غربت على وجه الأرض إلا وهم جهال بالله إلا من يؤثر الله على نفسه وروحه ودنياه وآخرته»[1].

أعنى أنه إذا تمسك الإنسان بمصالح نفسه كان ذلك دليلا على أنه جاهل بالله لأن معرفة الله توجب ترك التدبير، والتمسك بالتدبير ناتج عن الجهل بالقضاء والقدر.

---

(١) انظر طبقات السلمى ٢٠٢.

٤١- ومنهم أختيار أهل الحرمين، ومن هو لكل الشيوخ قرة عين أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن الفضل البلخى.

كان مقبولا عند أهل العراق وخراسان، وكان تلميذا لأحمد بن خضرويه وأبى عثمان الحيرى، الذى كان يعطف عليه دائما، وعندما طرده المتعصبون من بلخ لمذهبه ذهب إلى سمرقند حيث قضى أيامه.

وروى أنه قال: «أعرف الناس بالله أشدهم مجاهدة فى أوامره، واتبعهم لسنة نبيه». أى أن أقرب الناس إلى الله أشدهم تمسكا بأوامره وأبعد الناس عن الله أشدهم إهمالا فى اتباع سنة رسول الله ﷺ. ويروى أنه قال: «عجبت ممن يقطع البوادى والقفار والمفاوز، حتى يصل إلى بيته وحرمه لأن فيه آثار أنبيائه، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه لأن فيه آثار مولاه»[1]. يعنى بذلك أن القلوب هى كرسى معرفة الله تعالى، وهى اكرم على الله من الكعبة، التى يتوجه إليها المصلون. فالناس يديمون النظر إلى الكعبة، ولكن الله تعالى يديم النظر إلى قلوبهم، فأينما يكون قلبى يوجد محبوبى، وأينما يكون مرادى، أينما تكون آثار رسله فعيون من أحبهم متجهة إلى هناك.

٤٢- ومنهم الشيخ ذو الخطر، الفانى عن أوصاف البشر، أبو عبد الله محمد بن على الترمذى[2].

وهو مؤلف كتب كثيرة، وتدل على الكرامات التى نسبت إليه، منها «ختم الولاية»[3]، و«كتاب النهج» و«نوادر الأصول»[4]، وكثير غيرها، وأنى لأحترمه وأجله. قال شيخى: «محمد بن على جوهرة التوحيد التى ليس لها مثيل فى

---

(١) أنظر طبقات الصوفية للسملى ٢٠٧.

(٢) للدكتور أحمد السايح كتاب عن الحكيم الترمذي نشر مكتبة الثقافة -الدينية -القاهرة٢٠٠٦.

(٣) : ، وفقنا الله سبحانه وتعالى إلى تحقيق هذا السفر القيم نشر مكتبة الثقافة الدينية-القاهرة-٢٠٠٦.

(٤) حققه الدكتور احمد السايح والدكتور السيد الجميلي، ويعمل الآن على اختصاره د.السايح والمستشار توفيق.

العالم» وقد كتب كتبا عديدة فى علوم الرسم، وهو حجة فى أحاديث رسول الله ﷺ. وابتدأ بكتب تفسير القرآن ولكنه لم يطل عمره ليتمه، والجزء الذى كتب منه منتشر بين جميع الصوفية، وقد درس الشرع مع أحد أصحاب أبى حنيفة، وأهل ترمذ يسمونه محمد الحكيم، والحكيمية هم أتباعه الذين ينتمون إليه.

وله حكايات كثيرة تؤثر عنه، مثال ذلك أنه أجتمع بالخضر عليه السلام(١)، وروى مريده أبو بكر الوراق الترمذى أن الخضر كان يزوره كل يوم أحد وكانا يتحادثان معا.

يروى أنه قال: «كل من جهل معرفة أوصاف العبودية فهو بنعوت الربانية أجهل» يعنى أن كل من لم يتوصل إلى معرفة نفسه، ولم يتوصل إلى معرفة ربه، وكل من لا علم له بخساسة الصفات الإنسانية، جهل صفاء الصفات الإلهية، كما أن الظاهر متصل بالباطن، فكل من ادعى أنه يعرف الثانى بدون الأول فلا علم عنده، فمعرفة الربوبية متوقفة على معرفة حقيقة العبودية، ولا كمال بدونهما وهذه مقالته وفى غاية الفائدة وسنبينها فى موضعها.

٤٣- ومنهم شرف زهاد الأمة، مزكى أهل الفقر، أبو بكر محمد بن عمر الوراق.

كان شيخا كبيرا زاهدًا وقد رأى أحمد بن خضرويه، وصحب محمد بن على، وله كتاب فى أصول المريدين والسالكين، وقد سماه المشايخ: «مؤدب الأولياء».

وقد روى القصة الآتية: «أعطانى محمد بن على بعض وريقات، بقصد أن أرميها فى نهر جيحون، فلم يطاوعنى قلبى على هذا العمل ووضعتها فى بيتى، وذهبت إليه، وقلت له: قد أديت أمرك، فسألنى: وماذا رأيت؟. فقلت لم

---

(١) تنتشر هذه الحكايات عن لقاء البعض بالخضر في كثير من كتب التصوف ولكننا لم نجد لها سندًا.

أر شيئا فقال: لم تعمل بأمرى، ارجع فارمها فى النهر. فرجعت متشككا فى العلامة التى وعدنى بها، ورميتها فى البحر فانشق الماء وظهر الصندوق، وفتح غطاؤه حتى سقطت الوريقات فيه فقفل الصندوق، والتقت المياه واختفى الصندوق فرجعت إليه وأخبرته بما حصل، فقال لى: الآن رميتها، فسألته أن يبين لى سر ذلك، فقال: قد كتبت كتابا فى التصوف والزهد لا يمكن أن يناله إلا الكمل، فطلبه منى أخى الخضر، وقد أمر الله المياه أن تأتيه به[1].

ويروى أن أبا بكر الوراق قال: «الناس ثلاثة: العلماء، والفقراء، والأمراء. فإذا فسد العلماء فسدت الطاعة، وإذا فسد الفقراء فسدت الأخلاق، وإذا فسد الأمراء فسد المعاش» ففساد العلماء من الغفلة، وفساد الأمراء من الظلم، وفساد الفقراء من النفاق، والأمراء لا يفسدون حتى يجتمعوا بالأمراء، والفقراء لا يفسدون حتى يطلبوا الشهرة، ونفاق الأمراء ناتج عن الفقر إلى العلم، وغفلة العلماء ناتجة عن الحاجة إلى التقوى، ونفاق الفقراء ناتج عن الحاجة إلى التوكل على الله، أذن فأمير بلا علم، وعالم بلا عفة وفقير بلا توكل، قرناء الشيطان، وفساد العالم فى فسادهم.

٤٤- ومنهم سفينة أهل التوكل، أبو سعيد بن عيسى الخراز وهو أول من بين مذهب الفناء والبقاء، وهو مؤلف كتب هامة، وله عبارات دقيقة فى هذا الموضوع. وقد لقى ذا النون المصرى وبشرا الحافى والسرى والسقطى.

ويروى أنه قال شرحا لحديث رسول الله ﷺ: «جلبت القلوب على حب من أحسن إليها» فقال: «واعجبا لمن لم ير محسنا غير الله كيف لا يميل بكليته إلى الله».

الإحسان الحقيقى صادر عن رب الأشياء، وإنما تعطى لمن له حاجة بها،

---

(١) ليس هناك دليل يسند هذه القصة.

فكيف بمن يحتاج إلى فضل الغير أن يفيضه على غيره الله تعالى هو الملك والسيد، ولا يحتاج إلى شئ.

إن أحباب الله يعلمون ذلك. يرون أنه[1] المعطى والمتفضل فى كل عطاء وفضل قلوبهم منكبة على محبته معرضة عن الغير.

٤٥- ومنهم شاهد المحققين، ودليل المريدين، أبو الحسن على بن محمد الأصفهانى؛

وسماه بعض الناس على بن سهل[2]. كان شيخا كبيرا، وقد تبادل مع الجنيد كتبا ورسائل كثيرة. وذهب إليه عمرو بن عثمان المكى ليزوره بأصفهان، وقد اجتمع بأبى تراب والجنيد، وكان متبعا طريقا ممدوحا فى التصوف خاصا به، وتخلى بالرضا بقضاء الله تعالى، ورياضة نفسه. وكان محفوظا من المعاصى والذنوب، وقد تكلم بعبارات كاملة فى التصوف والمعاملة والأصول. وبين مشكلها ووضح غامضها.

روى أنه قال: «الحضور أفضل من اليقين، لأن الحضور وطنات واليقين خطرات» فالحضور مقره القلب، ولا يسمح بالغفلة. فالحاضرون قد دخلوا دار الأمان، أما الموقنون فهم على الأبواب، وموضوع الغيبة والحضور سنبيثه فى باب آخر فى هذا الكتاب.

وقد قال أيضا: «من وقت آدم إلى قيام الساعة والناس يقولون: القلب القلب، وأنا أحب أن أرى رجلا يصف أيش القب، وكيف القلب، فلا أرى أحدًا»[3].

والناس فى عرف الظاهر يجعلون كلمة القلب اسما لهذه اللحمة الصنوبرية، التى تخص المجانين والمجاذيب والأطفال الذين لا قلب لهم، فما

(١) كلمة أنه ليست في الأصل.
(٢) طبقات السلمى ص ٢٣٢-٢٣٦.
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٤.

هو هذا القلب الذى نسمع عنه كثيرا، أعنى إذا قلت أن العقل هو القلب فإنه ليس ذلك، وإذا قلت أن الروح هى القلب فإنها ليست ذلك، وإذا قلت أن المعرفة هى القلب فإنها ليست ذلك، وأن كل آيات الحق موجودة فى القلب ولكن لا يوجد إلا اسمه.

٤٦- ومنهم شيخ أهل التسليم، الذى هو فى طريق المحبة مستقيم، أبو الحسن محمد بن اسماعيل، خير النساج.

كان شيخا كبيرا، وله عبارات عالية فى التصوف، ومواعظ كبيرة وتوفى وهو متقدم فى السن، وقد تاب الشبلى وإبراهيم الخواص فى حضرته، وهو الذى أرسل الشبلى إلى الجنيد، بعد أن أوصى الشبلى بأن يرعى الأدب الواجب نحو الجنيد. وكان مريدا للسرى السقطى، ومعاصرا للجنيد، وأبى الحسن النورى؛ وكان الجنيد يجله كثيرا، كما كان أبو حمزة البغدادى يعامله بأعلى قدر من الرعاية.

يروى أنه سمى بخير النساج من الحادثة الآتية:

وهى أنه ترك بلده سامرا لأداء فريضة الحج، وعلى باب الكوفة وهو مار فى طريقه، أمسك به نساج حرير، وصرخ بأعلى صوته: أنت عبدى، واسمك خير. ورضاء بقضاء الله لم يرد أن يعارض النساج، وبقى سنين عديدة فى خدمته، وعندما كان يناديه سيده: يا خير، كان يقول: لبيك. حتى تاب الرجل مما عمله، وقال لخير: إنى أخطأت لأنك لست بعبدى، فتركه وسافر إلى مكة، وبلغ هناك درجة عالية، حتى قال الجنيد فيه: خير خيرنا. وكان يحب أن يسمى بخير، ويقول: إنه ليس من الحق أن أغير اسما سمانى به أحد المسلمين.

يروى أنه لما أتاه حينه، كان ذلك فى صلاة المغرب، ففتح عينيه، ونظر إلى ملك الموت، وقال: «قف عافاك الله، فإنما أنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، وما أمرت به لا يفوتك، وما أمرت به فهو شئ يفوتنى، فدعنى أمضى

فيما أمرت»(١)؛ فطلب الماء وتوضأ وأدى صلاة المغرب، وقبض إلى ربه؛ وفى هذه الليلة رآه أحد أتباعه فى المنام، وسأله: ماذا فعل الله بك؟. فقال: لا تسألنى عن هذا، ولكن استرحت من دنياكم»(٢).

روى أنه قال فى مجلسه: «إن الله شرح صدور المتقين بنور اليقين، وكشف بصائر الموقنين بنور حقائق الإيمان»(٣) فلا غنى للمتقين الذين تنشرح صدورهم بنور الإيمان عن اليقين. وأهل اليقين لا غنى لهم عن الإيمان ما دام نور بصيرتهم صادرا من نور الإيمان، لذلك فأينما يكون الإيمان يكون اليقين، وأينما يكون اليقين تكون التقوى، لأن أحدهما متصل بالآخر.

٤٧- ومنهم داعى العصر، وفريد الدهر، أبو حمزة الخرسانى.

هو من قدماء شيوخ خراسان اجتمع بأبى تراب، ورأى الخراز.

وله قدم ثابتة فى حقيقة التوكل وعنه فيه حكاية مشهورة وهى أنه سقط فى حفرة، وبعد مضى ثلاثة أيام مرت عليه قافلة من المسافرين، واقتربوا منه، فقال أبو حمزة فى نفسه: «سأناديهم. ثم قال: لا، إنه ليس من الصالح أن أطلب المساعدة إلا من الله تعالى، وإن فعلت ذلك فكأنى أشكو الله، لأنى أقول لهم: أن الله أوقعنى فى هذه الحفرة، وأسألهم نجاتى» فلما اقتربوا من هذه الحفرة وجدوها فى وسط الطريق فقالوا لنردم هذه الحفرة حتى لا يقع فيها أحد، وحتى ننال بذلك ثوابا. قال أبو حمزه: فقلقت قلقا شديدا، حتى فقدت كل رجاء، فبعد أن ردموا الحفرة وسافروا دعوت الله تعالى، وسلمت نفسى للموت، وتركت كل رجاء فى بنى الإنسان، فلما جن الليل سمعت حركة على ظاهر الحفرة، فأنصت لها، فانفتح فم الحفرة، ورأيت حيوانا كبيرا كالتنين، أرسل إلى ذيله، فعلمت أن الله قد أرسله لنجاتى، فأمسكت بذيله وسحبنى،

---

(١) طبقات السلمى ص ٢٣٤.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣.
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٤.

فنادانى صوت من السماء: إن هذه لنجاة عجيبة لك يا أبا حمزة، إنا قد أنجيناك من الموت بالموت، ألا وهو هذا الحيوان الفظيع[١].

. سئل: من هو الغريب؟ فقال: هو المتوحش بالألفة. لأن الفقراء ليس لهم دار ولا صحبة فى هذه الدنيا، ولا فى الأخرى[٢]، وعندما ينقطع إلفه من الكون يصير متوحشا من كل شئ، بعد ذلك يصبح غريبا، وهذه مكانة راقية.

٤٨- ومنهم داعى المريدين لحكم الأمراء، أبو العباس أحمد بن مسروق. كان من كبار أجلة خراسان.

ومن أولياء الله تعالى، وقد أجمع أولياء زمانه على أنه وتد من الأوتاد، وقد اجتمع بقطب زمانه، فلما سئل عن اسم القطب لم يبح باسمه، ولكنه أشار إلى ما يفهم منه أنه الجنيد، وقد خدم الأربعين أصحاب التمكين، وتلقى عنهم، وتمكن من علوم الظاهر والباطن.

يروى أنه قال: «من كان سروره بغير الحق فسروره يورث الهموم، ومن لم يكن أنسه فى خدمة ربه فأنسه يورث الوحشة»[٣]. يعنى أن كل ما عليها فان إلا وجهه سبحانه وتعالى، ومن يفرح بالفانى فسوف ينتابه الحزن عندما يزول عنه ما يفرحه، وكل شئ عبث سوى عبادته، وعندما يظهر للإنسان ما بالمخلوقات من شرور يتبدل أنسه وحشة، لذلك كان الحزن والوحشة فى العالم كله ناجما عن النظر إلى كل ما سوى الله سبحانه وتعالى والله أعلم.

٤٩- ومنهم أستاذ المتوكلين، وشيخ المحققين، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربى، كان مربيا حاذقا، مراقبا لأحوال مريديه، ومنهم: إبراهيم الخواص وإبراهيم الشيبانى، له مقالات عالية، وبراهين ظاهرة، وله مقام ثابت فى التجريد.

---

(١) هذه روايات ليس لها أى دليل يسندها ثم إن الانسان إذا ردم عليه التراب انقطع عنه الهواء والمسلم مطالب بالمحافظة على نفسه والا يتعرض للهلاك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

(٢) طبقات الصوفية للسلمى ص ٦٢٣.

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٤١.

قال ﷺ: «ما رأيت أنصف من الدنيا، إن خدمتها خدمتك، وإن تركتها تركتك»[١] يعنى أنه ما دمت تطلبها فهى فى طلبك، وإن تركتها وطلبت الله فرت منك، ولم تتعلق بقلبك الأشغال الدنيوية: إذن فكل من يعرض بصدق عن الدنيا يأمن شرها وينجو من آفاتها.

٥٠- ومنهم شيخ زمانه ووحيد عصره أبو على الجرجانى.

وله كتب عالية فى علم المعاملات وأمر أمراض النفوس، كان مريدا لمحمد بن على الترميذى، ومعاصرا لأبى بكر الوراق، كما كان ابراهيم السمرقندى مريدا له. ويروى أنه قال: «الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون، وعلى الظنون يعتمدون، وعندهم أنهم فى الحقيقة يتقلبون، وعن المكاشفة ينطقون»[٢] يدلك هذا القول على غرور النفس الطبيعى، وميلها إلى الأعجاب.

والناس ـ مع أنهم جاهلون ـ لهم عقيدة ثابتة فى الجهل خصوصا جهلاء الصوفية، الذين هم أذل خلق الله، على الرغم من أن العقلاء منهم أكرم خلق الله، فالآخرون فيهم الحق بلا غرور بينما الأولون مغرورون، ولا حق عندهم، وهم يرعون فى مراعى الغفلة، ويرون ـ اعتمادًا على الظن ـ أن هذا هو اليقين، ويتكلمون على الغرور معتقدين أنه اليقين. ويمشون على الرسوم، ظنا منهم أنها الحقيقة، ويتكلمون بكلام صادر عن الهوى، ويرون أنه مكاشفات. كل هذا يعلمونه لأن الظن لا يخرج من نفس الإنسان إلا بعد مشاهدة جلال الحق وجماله، لأنهم بمشاهدة جماله يرونه منفردا به فيفنى ظنهم. فاذا كوشفوا بجلاله لم يروا أنفسهم. فلم يعترضهم الظن والله أعلم.

٥١- ومنهم باسط العلوم، وواسط الرسوم، أبو محمد أحمد بن الحسين الجريرى.

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٤٣.
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

كان صديقا حميما للجنيد، والتحق بصحبة سهل بن عبد الله، وكان عالما بكل فروع العلوم، إماما فى زمانه فى الفقه، مجيدًا للأصول، ملما بعلوم الصوفية. بلغ من مرتبته فى التصوف أن الجنيد قال له: «علم مريدى، ومرهم بالرياضة» وخلف الجنيد فى الجلوس على كرسيه.

يروى أنه قال: «دوام الإيمان، وقوام الأديان، وصلاح الأبدان، فى خلال ثلاث: الاكتفاء، والاتقاء والاحتماء فمن اكتفى بالله صلحت سريرته، ومن اتقى ما نهى الله عنه استقامت سيرته، ومن احتمى ما لم يوافقه ارتاضت طبيعته؛ فثمرة الاكتفاء صفو المعرفة، وعاقبة الاتقاء حسن الخليقة، وغاية الاحتماء اعتدال الطبيعة»[1] أى أن كل من يكون مقبولاً من الله تعالى تصفو معرفته، وكل من يتسمك بالتقوى يحسن خلقه فى الدنيا وفى الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» وقال ﷺ: «يأتى الأتقياء يوم القيامة ووجوههم نور على منابر من نور». وكل من يأخذ طريق الاحتماء يحفظ جسمه من العلة، ونفسه من الشهوة. وهذه كلمات جامعة طيبة، والله أعلم.

٥٢- ومنهم شيخ الظرفاء، وقدوة أهل الصفاء، أبو العباس أحمد ابن محمد بن سهل الأدمى.

كان يحترمه معاصروه، وكان كاملا فى علوم التفسير والقراءات، وقد شرح دقائق القرآن، بعبارات ونظر اختص بهما، وكان من أكمل مريدى الجنيد، واجتمع بإبراهيم المارستانى، وكان أبو سعيد الخراز يحترمه ويجله، ويقول: «أنه لا أحد يستحق لقب الصوفية إلا هو».

يروى أنه قال: «السكون إلى مألوفات الطبايع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق» لأن الميول للبشرية آلات النفس، التى هى أصل الحجاب، ولكن الحقيقة أصل الكشف، والمريد المحجوب والساكن لا يكشف أبدا، إذن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

فإدراك الحقائق فى الأعراض عن مألوفات الطبائع والدواعى البشرية تتصل بأمرين: إما بهذه الدنيا وملاذها، وإما بالدار الآخرة وأحوالها، فاتصالها بالدنيا من جهة المجانسة، واتصالها بالآخرة عن طريق الخيال الذى يبحث عن المفارق للحواس، لهذا فتعلقها بالدار الآخرة تعلق بالخيال لا بحقيقة تلك الدار. لأنهم إذا علموا حقيقتها فروا من هذه الدنيا، وفقدت الطبائع البشرية كل قواها، وتكشفت لم الحقيقة ولا يمكن أن يكون هناك انسجام بين العلم الآخر وبين الطبيعة البشرية، لأن فى الدار الآخرة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ويمكن إدراك قيمة الدار الآخرة من صعوبة الطريق إليها، إما مجرد الخيال فلا قيمة له وإذا كان الخيال قاصرا عن إدراك حقيقة الآخرة فكيف يمكن للبشرية أن تأنس بالعين. والحقيقة أن البشرية لا تعرف من الدار الآخرة إلا ما يوصف لها من ملذاتها.

٥٣- ومنهم المستغرق فى المعنى، والمستهلك فى الدعوى، أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج. كان من الفارقين فى حقائق التصوف، له وجد شديد، وروحانية عالية.

وقد اختلف أقوال المشايخ فيه: فالبعض يرفضونه، والبعض يقبلونه، فمن بين القسم الأول عمرو بن عثمان المكى وأبو يعقوب النهرجورى، وأبو يعقوب الأقطع، وعلى بن سهل الأصفهانى وآخرون.

وقد قبله ابن عطاء، ومحمد بن خفيف، وأبو القاسم النصر اباذى وكثير من أهل العصر.

وآخرون قد توقفوا فى الحكم عليه، مثل: الجنيد والشبلى والجريرى والحصرى.

والبعض يتهمه بالسحر وما يتعلق به.

وفى أيامنا هذه يجله الشيخ الأكبر أبو سعيد بن أبى الخير، والشيخ أبو القاسم الجرجانى، وأبو العباس الشقانى، وينظرون إليه بالأكبار.

قال أبو القاسم القشيرى: إنه إذا كان الحلاج من أرباب المعانى فإنه لا يذم لمجرد أن الصوفية ذموه، وإن كان الحق قد رفضه فإنه لا يقبل بقبول العوام له، فالأحرى بنا أن نترك الحكم فى أمره لله، ونجله إجلالا لآثار الحق، التى وجدت عنده. والقليلون من المشايخ ينكرون كماله الروحانى، وصفاء نفسه، وكثرة مراقبته وزهده، ومن قلة الأمانة أن نترك ترجمته فى هذا الكتاب.

يقول بعض الناس: «إن ظاهره كان كظاهر المشركين». ولا يعتقدون فيه، ويتهمونه بالحيل والسحر.

ويظنون أن الحسين بن منصور الحلاج هو زنديق بغداد، الذى كان استاذا لمحمد بن زكريا ، وصاحبا لأبى سعيد القرمطى. ولكن الحسين هذا الذى اختلف الناس فى شأنه كان فارسيا من أهل البيضاء. وانكار المشايخ عليه لم يكن لطعنهم فى دينه ومبدئه، ولكن بسبب سلوكه وتصرفاته. وكان تلميذا لسهل بن عبد الله، فتركه دون أن يستأذنه، ليتصل بعمرو بن عثمان المكى، وترك عمرا أيضا دون أن يستأذنه لصحبة الجنيد، ولكن الجنيد لم يقبله، وهذا هو السبب الوحيد الذى أنكره المشايخ عليه والرجل الذى يحرم لسلوكه لا ينكر لعقيدته، ألم تر أن الشلبى قال: أنا والحلاج شئ واحد، خلصنى جنونى، وأهلكه عقله. ولو كان متهما فى دينه لما قال عنه الشلبى: أنا والحلاج شئ واحد. وقد قال محمد بن خفيف عنه: «أنه عالم ربانى» وأمثال ذلك فمن الغبن عقوق شيوخ الطريقة. والحلاج صاحب تآليف باهرة، وأقوال مهذبة وعبارات رمزية فى الأصول والفروع. رأيت خمسين تصنيفا له فى بغداد ونواحيها، ورأيت بعضها فى خوزستان وفارس وخراسان. ولكن كدأب صغار السالكن بعضها أشد والبعض أضعف، والبعض أسهل معرفة والبعض أكثر تعقيدا. ذلك أن الله إذا أكرم عبدا بشهوده، وحاول هذا العبد أن يصف ما رأى وهو فى فرط وجده، جاءت كلماته غامضة، وخاصة إذا عبر عن نفسه

فى عجلة وشدة أعجاب؛ ولهذا ينكره السامعون، ولا تدركه عقولهم فيقولون: «هذه عبارة عالية» سواء اعتقدوها أم لم يعتقدوها، ولكنهم يجهلون معناها. ومن جهة أخرى فإن أهل الروحانية العالية والنظر الثاقب عندما يشهدون المشاهد لا يحاولون وصفها ولا يشغلون أنفسهم بالإعجاب بأنفسهم ويستوى عندهم المدح أو الذم، ولا يقلقهم الإنكار أو الإيمان، وإنه لمن الخطأ أن يتهم الحلاج بالسحر، وأهل السنة يثبتون السحر كما يثبتون الكرامة، لكن إظهار السحر فى مقام الكمال شرك، كما أن إظهار الكرامة فى مقام الكمال معرفة بالله، لأن الأولى علامة على سخط الله، والثانية دلالة على رضاه، وسأبين هذا الأمر تماما فى باب إثبات الكرامة. وبموافقة أهل السنة الذين هم أهل البصيرة ثبت أنه لا يكون المسلم ساحرا كما لا يحتل المشرك مكان التكريم والإجلال، لأنه لا يجتمع الضدان. والحسين فى طول أيام حياته كان لا بسا لباس التقوى، من صلاة ودعاء وصيام وأقوال كثيرة فى التوحيد، فلو كانت أعماله سحرا لما صدرت عنه كل هذه الأمور، ولزم على ذلك أنها كرامات، والكرامة لا تنسب إلا لولى صادق.

وبعض أهل السنة ينكرون عليه أقواله التى تشير بالامتزاج والاتحاد، ولكن خطأه فى التعبير وحده، لا فى المعنى، لأن من غلبته النشوة على أمره لا قوة له على دقة التعبير، وزد على ذلك: أن المعنى المقصود من التعبير قد يصعب فهمه، لذلك فان الناس قد يجهلون مقاصد الكاتب، وهم بذلك لا ينكرون المعنى الحقيقى الذى أراده، ولكن ينكرون الفكرة التى كونوها لعقولهم عما أراد الكاتب أن يقول.

وقد رأيت فى بغداد وحواليها كثيرا من أهل الزندقة يدعون الانتساب للحلاج، ويجعلون أقواله دليلا على زندقتهم، ويسمون أنفسهم الحلاجية، وهم يتكلمون عنه بنفس الغلو الذى تكلم به الرافضة عن الإمام على رضي الله عنه وأرضاه، وسأرجع إلى مذهبهم فى الباب الذى أبين فيه الطرق المختلفة.

وفى النهاية إنه لا يلزمك أن تجعل كلام الحلاج دليل على مكانته، حيث أنه كان مغلوبا عليه، وليس بمتمكن، والرجل يلزمه أن يكون متمكنا قبل أن تقبل أقواله، وتكون حجة: ومع أنه عزيز إلا أن طريقته ليست ثابتة على أصل متين، ومقامه ليس ثابتا فى محل واحد، ومشاهده مختلطة بالأغلاط.

لما كنت فى مبدأ مشاهداتى كنت كثيرا ما أستعين به فى طريق البرهان، وفى أيامى الأولى كتبت كتابا فى شرح أقواله ودعمتها بالأدلة والبراهين، وزد على ذلك: أنى كتبت فى كتابى «منهاج الدين» بيانا كافيا فى تاريخ حياته من أولها لآخرها وقد بينت هنا التفاصيل الأخرى. ولكن يحتاج إلى بيان ودقة نظر، فالحقيقة والبدعة لا تجتمعان.

وكان دائما يبحث أن يقف على مذهب خاطئ، يروى أنه قال: «الألسنة مستنطقات، تحت نطقها مستهلكات» إن مثل هذه العبارات خطأ محض أو من الخطأ التعبير عن معنى الحقيقة فلو وجد المعنى لما أضاعه التعبير، أما إذا لم يوجد فإن التعبير عنه لا يوجده، إن التعبير فى هذه الحالة لا ينجم عنه إلا تصوير غير حقيقى، مما يجعل السالك يضل الطريق، إذ قد يعتقدان العبارة هى المعنى الحقيقى.

٥٤- ومنهم قائد المتوكلين، ومقدم المسلمين، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص.

بلغ درجة عالية فى طريق التوكل، وقد اجتمع بكثير من المشايخ، وله آثار باهرة، وكرامات ظاهرة، وتآليف كثيرة فى أصول التصوف.

يروى أنه قال: «المعرفة كلها عبارتين: لا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت» أعنى انه لا يلزمك أن تشغل نفسك بما قدر لك فى سابق علمه، ولا تهمل فى أوامره حتى توفق فى الدنيا والآخرة، ومعنى ذلك الا تتكلف فيما قسم لك، لأن ما كتب لك فى الأزل لا يتغير بتكلفك، ولا تقصر فيما أمرت به فترك الأمر يستوجب العقوبة.

سئل رضي الله عنه عن أعجب ما رأى، فقال: «رأيت عجائب كثيرة ولكن أعجب ما رأيت نبى الله الخضر، سألنى الصحبة فأبيت عليه، لا لأنى لا أريد صحبته، ومن أفضل منه؟ ولكن مخافة أن أتكل عليه دون الله، لقد يذهب توكل عليه تعالى، بأهمالى أداء ما أمرت به، اشتغالا بما يظهر لى على يديه». وهذه درجة عالية فى الكمال. والله أعلم.

٥٥- ومنهم صاحب الأسرار والتمكين، وأساس أهل اليقين، أبو حمزة البغدادى البزاز. كان من كبار المتكلمين فى علم الصوفية، وهو مريد الحارث المحاسبى، واجتمع بالسرى، وعاصر النورى وخير النساج. وكان يدرس بجامع الرصافة فى بغداد. كان عالما متبعا سير القرآن وحكمه، راوية لأحاديث رسول الله ﷺ بسندها الصحيح، وقد كان مع النورى فى وقعته وبلائه، وأنجاهما الله تعالى معا من القتل، وسأبين هذه الحكاية عندما أكتب فى مذهب النورية.

يروى أنه قال: «إذا سلمت منك نفسك فقد أديت حقها وإذا سلم منك الخلق فقد أديت حقهم».

معنى ذلك أن عليك واجبين: واجبا لنفسك، وواجبا للخلق؛ فاذا امتنعت عن المعصية، وبحثت عن طريق النجاة، فقد أديت واجب نفسك؛ وإذا أمن الناس بوائقك[1] فقد أديت واجبهم. احذر أن توقع نفسك فى المعصية، واحذر أن تلحق الضرر بالناس، وبعد ذلك قم عاملا بأداء ما افترضه عليك سبحانه وتعالى. والله أعلم.

٥٦- ومنهم من هو فى فنه إمام عالى الحال، لطيف الكلام، أبو بكر محمد بن موسى الواسطى.

كان صوفيا متعمقا، مكرما فى نظر المشايخ وكان من تلاميذ الجنيد،

---

(١) البوائق: الغشم والظلم.

وكان أهل الظاهر يتهمونه لغرابة عباراته وغموضها، ولم تطل له الاقامة فى أى بلد إلا فى مرو حيث أكرمه سكانها، وذلك للطافة طبعه، وحسن أخلاقه، فقد كان رجلا فاضلا فاستمعوا لأقواله، وقضى حياته كلها هناك.

ويروى أنه قال: «الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه». لأنه من نسى الذكر فلا شئ عليه، ولكن الذنب كل الذنب على من تذكر ذكره، وغفل عن المذكور، لأن إهمال المذكور مع الفكر فى الذكر أقرب إلى الغفلة بصورة يزيد على إهمال الذكر بدون فكر. وكل من نظر إلى نفسه، أثناء حضوره أوغيبته، يظن أنه حاضر مع الله. لذكل كان من يظن أنه حاضر مع الله ـ وهو ليس بحاضر ـ أقرب فى الحقيقة إلى الغفلة ممن هو غائب دون أن يعرف أنه غائب. لأن الغرور مهلكة لطالبى الحق، إذ كلما زاد الغرور قلت الحقيقة والعكس بالعكس. وينجم الغرور عن فساد الفكر. الذى ينجم بدوره عن ضراوة النفس الدنيئة. والهمة لا دخل لها فى هذين الأمرين، فذكر الله تعالى إما أن يكون فى غيبة أو فى حضور. فإذا كان العبد غائبا عن نفسه، حاضرا مع الله، فليس مقامه مقام الحضور، ولكنه مقام المشاهدة، ومن كان غائبا عن الله تعالى حاضرا مع نفسه، فليس ذلك بذكر وإنما يكون ذلك غيبة، والغيبة نتيجة الغفلة، والله أعلم بالحقائق.

٥٧- ومنهم سكينة الأحوال، وسفينة المقال، أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى. كان من المشايخ، وكانت حياته خالية من كل شائبة، وتمتع بكمال الوقت مع الله. كان دقيقا فى إشاراته، حيث قال أحد المحدثين عنه: «ثلاثة من عجائب الدنيا: إشارات الشبلى، ونكت المرتعش، وحكايات جعفر».

وكان ابن رئيس حجاب الخليفة، وقد تاب فى مجلس خير النساج، وصار بعد ذلك مريدا للجنيد، واتصل بكثير من المشايخ. يروى أنه قال فى تفسير الآية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[1] أى ابصار الرؤوس عن المحارم،

---

(١) سورة النور: آية ٣٠.

وأبصار القلوب عما سوى الله. يعنى ألا يتفكروا فى غير مشاهدة الله، وإنه من علامة الغفلة أن يتبع الإنسان شهوته، ويرغب فيما هو محرم، والخطأ العظيم الذى يعتور الغافل أنه يجهل خطأه، لأنه من كان جاهلا هنا صار جاهلا هناك، وذلك مدلول قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] وفى الحقيقة إذا لم يخلص الله سبحانه وتعالى قلب عبده من الرغبة فى اللذة فالعين الجسمانية لا أمن لها من الخطر الخفى، وإذا لم يثبت الله تعالى مراده فى قلب عبده فالعين الروحاينة لا تأمن النظر إلى غيره.

يروى أنه ذهب ذات يوم إلى السوق فقال عنه الناس: هذا رجل مجنون. فرد عليهم قائلا: «أنا عندكم مجنون وأنتم عندى أصحاء فزادنى الله فى جنونى، وزادكم فى صحتكم» أعنى أن جنونى هو نتيجة محبة الله الصادقة، بينما عقلكم هو نتيجة الغفلة الكبيرة، فاللهم زدنى فى جنونى حتى أكون قريبا منك، وزد فى عقلكم حتى تزدادوا بعدا. وقد قال هذا من غيرته على من لا يفرق بين الجنون والمحبة، ولا يكاد يفرق بينهما فى هذه الدنيا ولا فى الدار الآخرة.

٥٨- ومنهم حاكى أحوال الأولياء، بألطف الأقوال والأداء، أبو محمد جعفر بن نصير الخلدى.

وهو من كبار أصحاب الجنيد، ومن المتمكنين فى علوم الصوفية، وممن يجل المشايخ. وله أقوال دقيقة، ولكى يحفظ نفسه من الغرور نسب إلى غيره كافة ما ألفه، موضحا مختلف المواضيع.

يروى أنه قال: «التوكل استواء القلب عند الوجود والعدم» حتى لا تسر عندما تجد رغبتك، ولا تأسف على ما فاتك، لأنه ملك الله تعالى، الذى هو

---

(١) سورة الأسراء: آية ٧٢.

أعلم بالمحل الذى يضعه فيه، فلا تتدخل فى شئونه، واتركه سبحانه يعمل فى ملكه كيف شاء.

روى جعفر: أنه ذهب إلى الجنيد، فوجده متألما من حمى، فقال له: «يا سيدى سل الله أن يشفيك، فقال الجنيد: كنت عزمت أن أسأله ذلك بالأمس، ولكن سمعت من يهمس لى فى قلبى قائلا: إن جسمك ملك لى وأنا أحفظه صحيحا أو مريضا كما أشاء، ومن أنت حتى تتدخل فى ملكى»..والله أعلم بالصواب.

٥٩- ومنهم الشيخ المحمود، معدن الجود، أبو على محمد بن القاسم الروذبارى،

كان من فتيان الصوفية وقادتهم، ومن نسل الملوك، وتنسب إليه كرامات كثيرة، وفضائل عميمة. وكان يتكلم فى خفايا التصوف.

قال: «المريد لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له والمراد لا يريد من الكونين شيئا غيره» فكل من رضى بمشيئة الله تعالى لزمه أن يترك إرادة ما كان مريدا، وحيث أن العاشق لا إرادة له، حتى يجعل له مرادا، فمن أراد الله لا يريد إلا ما أراد، ومن أراده الله لا يريد إلا الله، لذلك كان الرضا من مقامات المبتدئين، والمحبة من أحوال المنتهين. والمقامات متصلة بظهور العبودية، بينما المشرب يوصلك إلى تثبيت الربوبية، وحيث كان ذلك كذلك فالمريد باق فى نفسه، والمريد باق فى ربه سبحانه وتعالى.

٦٠- ومنهم خازن التوحيد، ووسيط التفريد، أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدى السيارى.

اجتمع بأبى بكر الواسطى، وتلقى على يد مشايخ كثيرين. وكان أظرف الصوفية صحبة، وأزهدهم وأكثر ألفة، وله تآليف دقيقة، وعبارات رقيقة.

يروى أنه قال: «التوحيد ألا يخطر بقلبك ما دونه». أى أن التوحيد ألا

يخطر بقلبك المخلوقات، ولا يكون للكدر سبيلا إلى صفوة المعاملات، ذلك أن التفكير فى الغير إثبات لهم، وحينما يثبت الغير يسقط التوحيد. وكان من أسرة على علم ونفوذ فى مرو، لا تتقدمها أسرة، وورث عن أبيه ثروة طائلة، أعطاها ثمنا لشعرتين من شعر رسول الله ﷺ. وببركة هاتين الشعرتين أكرمه الله تعالى بإخلاص التوبة، فظفر بصحبة أبى بكر الواسطى، وبلغ درجة عالية، حتى صار إماما لفرقة من الصوفية. ولما أوشك على الوفاة أمر أهله بأن توضع هاتان الشعرتان فى فمه. وما زال قبره فى مرو يؤمه الناس سائلين الله حاجاتهم، فيحقق الله لهم مطلبهم، والله أعلم.

٦١- ومنهم ملك وقته فى التصوف، فانى الطبع من التكلف والتصرف، أبو عبد الله محمد بن خفيف،

كان إمام عصره فى علوم مختلفة، وكان مشهورا بمجاهداته، وشدة تدقيقه فى بيان الحقيقة، ودرجته الروحانية ظاهرة من تآليفه، وقد تعرف بابن عطاء، والشبلى، والحسين بن منصور والجريرى، واجتمع فى مكة بأبى يعقوب النهرجورى، وكانت له سياحة واسعة، متجردا من الدنيا، وهو من أسرة عالية المقام، ولكن الله منحه التوبة، فأدار ظهره إلى مباهة هذه الحياة الدنيا، وأصبح موضع احترام وإجلال. يروى عنه أنه قال: «التوحيد الإعراض عن الطبيعة». لأن طبائع الإنسان محجوبة عن الكرامة، وعمية عن فضل الله تعالى، ولذلك لا يلتفت العبد إلى الله حتى يترك طبعه، وصاحب الطبع لا يمكنه أن يذوق حلاوة التوحيد، الذى لا ينكشف إلا أذا رأيت فساد طبعك. وله كرامات كثيرة والله أعلم.

٦٢- ومنهم سيف السياسة، وشمس السعادة، أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى.

كان من كبار أهل التمكين، وله قدم ثابتة فى كل علوم المعرفة. كما كان صاحب رياضات وسياسة، وله أقوال عالية، وأدلة ثابتة فى رؤية الآفات.

يروى أنه قال: «من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب» استعمل هنا لفظ «الصحبة للأغنياء والمجالسة للفقراء»، لأن الإنسان لا يبتعد عن الفقراء إلا إذا كان قد جالسهم لأنه لا ترك بعد صحبة، فاذا ترك مجالسة الفقراء ليصحب الأغنياء صار قلبه ميتا بمرض الحاجة، وصار جسمه محبوسا فى الغفلة، ولذلك كان ترك المجالسة موتا «للقلب» فكيف بترك الصحبة. وقد وضحت معنى هذين اللفظين.

٦٣- ومنهم مبارز الصوفية، ومعبر أحوال العارفين، إبراهيم بن محمد ابن محمود النصراباذى.

كان فى نيسابور كأنه سابور، عظمه الملوك فى هذه الدنيا، أما سعادته ففى الدار الآخرة.

تنسب إليه أقوال حقيقة، وآيات عليه، وقد كان مريدا للشبلى، واستاذا لمشايخ خراسان المتأخرين. وكان أعلم أهل عصره وأعبدهم.

يروى أنه قال: «أنت بين نسبتين: نسبة إلى آدم، ونسبة إلى الحق؛ فاذا انتسبت إلى آدم دخلت فى ميادين الشهوات، ومواضع الآفات والزلات، وهى نسبة تحقق البشرية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[1] وإذا انتسبت إلى الحق دخلت فى مقامات الكشف، والبراهين والعصمة والولاية، وهى نسبة تحقق العبودية لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾[2]. نسبتك لآدم تنتهى يوم القيامة وأما نسبة عبوديتك لله فتبقى أبدا الآبدين فليرجع الإنسان عن نسبة نفسه إلى آدم، فإن أقصى درجة يبلغها هى أن يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، ولكن إذا رجع بنفسه إلى الله صار من الذى عناهم الله تعالى بقوله: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.
(٢) سورة الفرقان: آية ٦٣.
(٣) سورة الزخرف: آية ٦٨.

٦٤- ومنهم زعيم سالكى الطريق، وجمال عوالم أهل التحقيق أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى، كان إمام عصره فى التصوف، ولم يسبقه أحد فى زمانه، وله أقوال عالية، وعبارات غريبة فى كل الأمور الروحانية.

يروى أنه قال: «دعونى فى بلائى! هاتوا ما لكم، ألستم من أولاد آدم؟ الذى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ثم أمره بأمر فخالف؟ إذا كان أول الدن درديا فكيف يكون آخره؟». يعنى بذلك: إذا ترك الإنسان نفسه فإنه يكون غارقا فى المعاصى، ولكن إذا جذبته العناية الإلهية أصبح غارقا فى المحبة. وعليك أن تنظر إلى جمال نعم الله تعالى وتقارنها بقبح أعمالك وسلوكك، وتسير فى سائر أطوار حياتك على هذا التنسق.

ملحوظة:

قد ذكرت فى هذا الكتاب بعض مشايخ الصوفية المتقدمين، الذين هم الحجة لنا، ولو أنى ذكرتهم جميعا بتفصيل تراجمهم، وذكرت كل ما يروى عنهم لما أنجزت ما أزمع إنجازه، ولطال هذا الكتاب بصورة كبيرة، وسأذكر فى الفصل الآتى بيانا لبعض المحدثين من الصوفية.

الباب الثانى عشر

باب فى ذكر أئمة من المتأخرين رضوان الله عليهم أجمعين

أعلم أنه يوجد فى هذه الأيام قوم لم يتحملوا متاعب الرياضة، ولكنهم يطلبون الرئاسة بدون رياضة، معتقدين أن كل الصوفية مثلهم؛ وإذا سمعوا أقوال من مضوا وكمالهم، وقرأوا أعمالهم فى عباداتهم، ينظرون إلى أنفسهم فيجدون أنهم أصغر قدرا من الصوفيين الأوائل، ورغم ذلك فإنهم لا يعلمون عملهم بل يقولون: «نحن لسنا مثلهم ولا يوجد مثلهم فى عصرنا» هذا خطأ محض؛ لأن الله تعالى لا يترك الدنيا بلا حجة، أو دار الإسلام بلا ولى؛ مصداقا لقول رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى على الخير والحق قائمة، حتى تقوم الساعة»[1] وقال أيضا: «لا يزال فى أمتى أربعون على خلق ابراهيم» وبعض الذين أذكرهم فى هذا الباب انتقلوا إلى رحمة الله، والباقون موجودون إلى وقتنا هذا. رضى الله عنهم وعنا وعن جميع المسلمين، ورحمنا برحمته فهو أرحم الراحمين.

١- منهم طراز طريق الولاية، وجمال جميع أهل الهداية، أبو العباس أحمد بن محمد القصاب الآملى لحق به المتقدمون عنا وصحبوه، كان مشهورا بعلو الحال، وصدق المقال والفراسة، وكراماته كثيرة يقول أبو عبد الله الخياطى إمام طبرستان عنه: «أنه من اكبر نعم الله أن يجعل أميا لم يتعلم يجيب على أسئلتنا فى غوامض الدين ودقائق التوحيد». ومع أن أبا العباس القصاب كان أميا إلا أنه كان متفقا فى علوم الصوفية والدين.

سمعت حكايات كثيرة عنه، أذكر واحدة، لأنى اتجه فى كتابى هذا نحو الاختصار: كان جمل محمل بحمل ثقيل مارا فى سوق آمل، والسوق زلق فوقع

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك.

الجمل وانكسرت رجله، فبينما كان سائقه يبكى ويرفع يديه إلى السماء، طالبا معونة الله تعالى اجتمع الناس حوله وبدأوا يضعون الحمل عن ظهر الجمل، فمر بهم الشيخ، وسألهم عما هم فيه، فلما أخبر بالحالة أخذ خطام الجمل ورفع وجهه إلى السماء قائلا: «اللهم ارجع رجل الجمل كما كانت وإلا أذبت قلبى بدموع هذا الصبى» فقام الجمل من وقته ومشى فى طريقه.

يروى أنه قال: «لابد لكل بنى آدم، سواد أرادوا أم لم يريدوا، أن يصلحوا أنفسهم لله، وإلا ذاقوا الآلام إليه لأنك متى رجعت إليه فى الشدة رأيت مسببها، وبعدت عنك الشدائد، وإذا لم ترجع إليه رجعت إليك الشدة، وامتلأ قلبك ألما. وبما أن الله تعالى إن رضينا أو سخطنا فلن يغير ذلك من قضائه، فلذلك كان رضانا بكل ما أجراه علينا جزءا من سرورنا. فإذا رجع قلب أى إنسان إليه تعالى امتلأ ذلك القلب سرورا، وإذا بعد عن الله تعالى امتلكته الشدائد، وتمسكت به المصاعب وهو أعلم».

٢- ومنهم البيان للمريدين، والبرهان للمحققين، أبو على الحسن بن محمد الدقاق كان ثقة فى علومه، ولم يسبقه أحد من معاصريه فى مشاهداته؛ كما كان كاملا فى ظاهره، ومنطقه فى بيان طريقة الله تعالى، وقد رأى كثيرا من المشايخ واجتمع بهم. كان تلميذا للنصر اباذى، يقوم بالوعظ.

يروى أنه قال: «من آنس بغيره ضعف فى حاله، ومن نطق عن غيره كذب مقاله» لأن الأنس بغيره من قلة المعرفة والأنس به، هو الوحشة من غيره والرجل المتوحش بالغير لا يحب المتكلم معهم.

سمعت من رجل كبير السن أنه ذهب ذات يوم إلى مجلس الدقاق، كى يسأله عن حال المتوكلين، وكان الدقاق فى ذلك الوقت لا بسا عمامة جميلة من صناعة طبرستان، تمنى الرجل لو أخذها لنفسه، وقال للدقاق: «ما التوكل على الله؟» فقال له الشيخ: «أن تمتنع عن تمنى الحصول على عمائم الناس» وألقى بعمامته أمام ذلك السائل بعد أن قال له هذه الكلمات.

٣- ومنهم الإمام المنفرد، شرف أهل الزمان، أبو الحسن على بن أحمد الخرقانى من أجلة الشيوخ وقدمائهم. كان شيخا كبيرا ممدوحا من كل أولياء عصره. زاره الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير وتذاكرا معا فى كل العلوم فلما أرد أن يستأذن قال للزخرقانى: «قد اصطفيتك لتكون خلفا لى».

سمعت من الحسن المؤدب، الذى كان خادما لأبى سعيد، أنه لما حضر مجلس الخرقانى لم يتكلم كلمة ولكنه كان يصغى ولا ينطق إلا بالإجابة عما يسأل عنه، فسأله الحسن: «لماذا لا تتكلم؟». فأجابه: «إن مفسرا واحدا يكفى لشرح موضوع بعينيه».

وسمعت أبو القاسم القشيرى يقول: «لما قدمت إلى خرقان فقدت ما كان عند من فصاحة؛ ولم أقدر على التعبير من شدة احترامى لهذا المرشد، حتى عددت نفسى محرما من الولاية».

يروى أنه قال: توجد طريقتان، إحداهما باطلة، والأخرى صحيحة، فالطريقة الباطلة: هى أسلوب الأنسان تجاه الله، والطريقة الحقة هى هداية الله للإنسان فمن قال أنه وصل إلى الله فإنه لم يصل، ومن قال إنه خلق ليصل إلى الله، فإنه واصل، حقيقة ذلك: إن الوصول مرتبط بعدم الوصول، وعدم الوصول مرتبط بالوصول. والله أعلم.

٤- ومنهم ملك وقته وزمانه، المفرد فى بيانه وعيانه، أبو عبد الله محمد بن على المعروف بالداستانى كان مقيما فى بسطام، عالما بعلوم كثيرة وله أقوال مهذبة، وإشارات عالية، وقد اتخذ خلفا له الشيخ الهلجى، الذى كان إمام هذه الناحية.

سمعت من السهلجى بعض أنفاسه الدقيقة العجيبة قال: «التوحيد منك موجود، وأنت فى التوحيد مفقود» يعنى أن التوحيد إذا صدر منك كنت صادقا، ولكنك تخطئ فى التوحيد إذا لم تؤد مطالبه، إن أقل درجة فى التوحيد هى سلب حولك وقوتك، التى تملكها، وإثبات التوكل على الله فى كل أحوالك.

قال السهلجى أتى الجراد إلى بسطام سنة من السنين بكثرة هائلة، حتى غطى الأشجار والحقول. فصرخ الناس لهذا الخطب، فقام وصعد إلى سطحه ونظر إلى السماء، فطار الجراد ولما أتى العصر لم تر جرادة واحدة، ولم يفقد أى إنسان ورقة من الشجر والله أعلم.

٥- ومنهم شاهنشاه المحبين، ملك ملوك الصوفية، أبو سعيد فضل الله ابن محمد الميهنى. كان سلطان زمانه، وزينة أهل الحق، وكل معاصريه كانوا يرجعون إليه فى كمال مشاهداتهم، وكما عقيدتهم، وشدة حالهم. وكان عالما بكل فروع العلم، وله تجارب عديدة، دينية عجيبة، وقوة مدهشة فى قراءة أسرار النفوس، فوق ذلك كانت له براهين وأدلة ساطعة، ظهرت نتائجها فى هذه الأيام.

فى أوائل أيام حياته سافر من ميهنة إلى سرخس للدراسة، واتصل بأبى على زاهر، وكان يفطر يوما ويصوم ثلاثة، وكان يمضى الأيام الثلاثة فى العبادة وكان ولى سرخس فى هذه الأيام أبو الفضل حسن، وفى يوم كان أبو سعيد يتمشى على شاطئ نهر سرخس، فقابله أبو الفضل وقال: «ليس هذا طريقك ـ اسلك طريقك فلم يجتمع الشيخ به، ولكنه رجع إلى بلده، واشتغل بالزهد والورع حتى فتح الله باب الهداية عليه، ورفعه إلى أعلى الدرجات.

سمعت الحكايةالآتية من الشيخ أبى مسلم الفارسى، كان يقول إنه لم يكن يميل إلى الشيخ، ولكنه سافر يوما لزيارته، فصادف أن كانت مرقعته قذرة وتمزقت كالسيور، فلما دخل مجلسه وجده جالسا على وسادة، لابسا حلة من الكتان المصرى، فقال فى نفسه: «هذا الرجل يدعى أنه فقير مع كل هذا المتاع الدنيوى، وأنا أدعى أنى فقير مع تجردى من الدنيا، فكيف اتفق معه»، فقرأ ما كنت أضمره ورفع رأسه قائلا: «يا أبا مسلم، فى أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما فى مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير»، يعنى بذلك بان كل من شاهدوا الله كانوا أغنياء بالله؛ بينما ينشغل الفقراء فى مجاهدة أنفسهم،

فتبت من غرورى، ودعوت الله تعالى أن يعفو عن أفكارى هذه.

يروى أنه قال: «التصوف هو قيام القلب مع الله بلا واسطة». إن هذا ينتج المشاهدة، التى هى ذروة الحب، واستغراق الصفات الإنسانية فى التحقق بمشاهدة الله، وفنائهم فى بقاء الله. وسأبين موضوع مشاهدة المشاهدة فى باب الحج، إن شاء الله عز وجل.

كان أبو سعيد مسافرا مرة فى نيسابور إلى طوس، وكان الجو شديد البرودة، فى ذلك الحين، فشعر بقدميه تتجمدان فى نعله وكان معه درويش فقال: فكرت أن اقطع فوطتى قطعتين لألف بها قدمى الشيخ ولكنى لم أقدر على ذلك لأن فوطتى كانت ثمينة جدا، فلما وصلنا إلى طوس اجتمعت فى مجلسه، وسألته أن يبين لى الفرق بين الوسواس والإلهام، فقال لى: الإلهام هو الذى كان حثك على قطع فوطتك لتدفئ بهما قدماى، والوسواس هو الذى منعك من ذلك، وله كرامات كثيرة تماثل هذه متواترة وليست فيما نقصد إبراده.

٦- أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى هو استاذى فى التصوف، وكان عارفا بعلم التفسير والرواية، وعلى مذهب الجنيد فى التصوف، كان مريدا للحصرى، وصديقا للسيروانى، ومعاصرا لأبى عمرو القزوينى، وأبى الحسن سالبة.

أمضى ستين سنة فى التخلى عن هذه الدنيا، معظمها فى جبل لكام، وعمر طويلا، وله علامات وبراهين فى الولاية، ولكنه لم يلبس لباس الصوفية الظاهرى، وكان ينتقد بشدة أهل الرسم، ولم أر رجلا شديد المعاداة للدنيا أكثر منه.

يروى أنه قال: «الدنيا يوم، ولنا فيها صوم» يعنى أننا لا نأخذ شيئا ولا نشتغل، لأننا شهدنا فسادها وحجابها وولیناها ظهورنا.

كنت ذات يوم أصب الماء عليه ليتوضأ فحدث فى نفسى كما يحدث

دائما أنه ما دام كل شئ مقدار فلماذا يشتغل الأحرار بخدمة المرشدين؟ فقال لى الشيخ يا بنى قد علمت ما جال بنفسك، أعلم أن لكل قضاء سببا، لأنه إذا أراد الله تعالى أن ينعم بالتاج والملكة على رأس صعلوك منحه التوبة، وخصه بخدمة أحبابه، حتى ينال بذلك عطية الكرامة، وكان يقول لى مثل هذه العبارات الجميلة كل يوم.

توفى رحمه الله فى بيت الجن، وهى بلدة فى مقدمة ممر جبلى بين بانياس ونهر دمشق، ولما كان على فراش الموت، كان متكئا برأسه على صدرى، وكنت فى ذلك الوقت أشعر بالضيق من عمل قام به أحد أصدقائى نحوى، فقال لى يا ولدى: سأقول لك عبارة فى العقيدة، إذا تمسكت بها نجوت من المتاعب والمصاعب: «لا يغضبك ما صنع الله، ولا تأس له فى قلبك»، ولم ينطق بعدها وخرجت روحه رحمه الله ورضى عنه وسقاه صوب رضوانه.

٧- ومنهم الأستاذ الإمام، زين الإسلام، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى كان عجيبة زمانه، وله مكانة عالية، ومقام كبير، وحياته الروحانية، وفضائله التى لا تحصى معلومة لأهل عصرنا.

وله تآليف كثيرة، وعبارات دقيقة، كلها فى حقيقة التصوف، وفى كل فرع منه. وقد حفظ الله لسانه وجوارحه من الحشو.

سمعت أنه قال: «مثل الصوفى كعلة البرسام، أوله هذيان، وآخره سكون». يعنى أن حال الصوفى يكون على وجهين: الوجد، والرؤيا، فالرؤيا للمريدين. والتعبير عنها يكون كالهذيان، والوجد لأهل التمكن، والتعبير عنه محال. فاذا كان المريد ما يزال فى دائرة البحث نطق بأشارات عالية تبدو كالهذيان حتى لأهل الهمة. أما إذا وصل فإنه يسكن، فلا يمكنه التعبير بكلمة أو بأشارة. مثال ذلك سيدنا موسى ﷺ كان قصارى مراده النظر إلى الله، فعبر عن ذلك قائلا: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[١] إن هذا التعبير عن الرغبة

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

التى لم تتحقق تعبير أشبه بالهذيان عند العامة. أما رسولنا عليه الصلاة والسلام وكان منتهيا ومتمكنا، حيث أنه لما وصلت ذاته الكريمة إلى مقام الإرادة فنيت إرادته، وقال: «لا أحصى ثناء عليك» وهذه منزله رفيعة، ومقام على.

٨- ومنهم الشيخ الإمام الأوحد، الذى هو فى طريقه مفرد، أبو العباس أحمد بن محمد الأشقانى، كان إماما فى أصول العلوم وفروعها، وحجة فى كافة نواحيها، وقد تقابل مع المشايخ الكمل.

ومذهبه مؤسس على الفناء، وكل شطحاته لم تخرج عن حد نفسه ولكنى رأيت بعض الجهلاء يقلدونه، وفيما أعلم أنه ليس من السهل أن تقلد المعانى الروحانية، فكيف يكون الخطأ إذا قلد العبارة. لقد كنت وثيق الصلة به وكان يحبنى مخلصا، وكان أستاذا لى فى بعض العلوم، ولم أر فى أيام حياتى فى أى فرقة من الفرق من يخدم الشريعة ويجعلها أكثر منه.

كان مجردا من كل أمور الدنيا، ولا يمكن لأحد أن يتلقى عليه إلا من كان إماما فى هذا العالم، وذلك لدقة إشاراته الصوفية وكان يمقت الدنيا بطبيعته ويكره الآخرة، وكان دائما يصيح «اشتهى عدما لا عود فيه».

وكان يقول ما معناه بالفارسية: «كل إنسان له مراد مستحيل، وأنا لى مراد مستحيل كذلك، لتأكدى من أنه لن يتحقق، وأعنى به أن يرجعنى الله تعالى إلى عدم لا يرجع إلى وجود». وكان يطلب ذلك لأن المقامات والكرامات كلها حجب فى نظره، تحجب الأنسان عن الله، إذ أن الأنسان قد وقع فى حب ما يحجبه عنه سبحانه. فالعدم مع الرغبة فى الشهود خير من الفرح بالحجب، وبما أن الله سبحانه وتعالى هو ذات لا تخضع للفناء فما الذى ينقص من ملكه إذا رجعت إلى عدم لا وجود له. هذا مبدأ ثابت فى حقيقة الفناء.

٩- ومنهم قطب زمانه، ووحيد عصره، رضي الله عنه وأرضاه، أبو القاسم على

ابن عبد الله الجرجانى، أطال الله فى عمره ونفعنا والمسلمين به. كان فريدًا فى زمانه، ولم يسبقه أحد.

كانت بدايته محرقة، وكان فى سياحاته يراقب الشريعة السمحاء. وتوجه إيه قلوب أهل الحظيرة، ويعتقد فيه الطالبون، وله قوة عجيبة فى كشف حال المريدين وكان عالما بفروع المعرفة، وتلاميذه زينة المجتمعات التى يوجدون بها.

وإن شاء الله تعالى سيكون له خلف صالح مسموع الكلمة عند الصوفية، أعنى به أبو على الفضل بن محمد القازمذى.

أطال الله فى عمره، الذى لم يأل جهدا فى أداء خدمة سيده، ونأى بجانبه عن متاع الدنيا، وببركة هذا التجريد منحه الله تعالى لسان الحكمة، الذى كان لذلك الشيخ.

كنت يوما جالسا فى مجلس الشيخ، أسرد له أحوالى وأحلامى حتى يفصحها، فقد كانت له قدرة لا تبارى فى هذا الموضوع، وكان يستمع إلى كلامى بمزيد الرحمة، فدعانى غرور الشباب وحماسه أن أبين للسيد كل هذه المسائل وخطر بذهنى أنه ربما لم يحظ الشيخ فى حال بدايته بمثل هذه التجارب، وإلا لما أظهر مثل هذا التواضع نحوى، ومثل هذا الشغف لمعرفة مقامى الروحى. فلاحظ الشيخ ما خطر فى فكرى، وقال: «يا حبيب أبيك! اعلم أن ذلتى ليست لك، ولا لما مرَّ بك من تجارب، ولكنه لله تعالى، الذى أجرى هذه الحوادث، وأنها ليست خاصة ولكنها عامة لطلاب الحق». فلما سمعت منه ذلك أسقط فى يدى، فلما رأى انزعاجى قال لى: «يا ولدى! الإنسان ليس له صلة بهذا الطريق، إلا أنه إذا اتصل به تخيل أنه هو الذى أوجده، وإذا بعد عنه ألبسه خياله زخرف القول؛ لذلك كان النفى والإثبات، والفقد والوجود محض خيال، والإنسان لا يمكن أن يخرج من سجن خياله. فالواجب عليه أن يقف كالعبد على الباب، ويخلع كل نسبة إلا عبوديته وطاعته.

وقد تحادثت معه كثيرا فى مسائل روحانية. وإذا أردت أن أبين مشاهده العالية عجزت عن المقصود هنا. والله أعلم.

١٠- ومنهم رئيس الأولياء، وناصح أهل الصفاء، أبو محمد المظفر ابن أحمد بن حمدان بينما كان جالسا على مرتبة الرئاسة فتح الله له باب أسرار التصوف، وأكرمه بتاج الكرامة. وكان يتكلم بدقة نظر، وفى الفناء والبقاء.

قال الشيخ أبو سعيد: «وصلت إلى حضرة الله تعالى بطريق العبودية ولكن الخواجة مظفر وصل إليها بطريق الرئاسة». يعنى أننى بلغت درجة المشاهدة بالمجاهدة بينما وصل هو إلى المجاهدة عن طريق المشاهدة.

وسمعته يقول: «ما ناله كبار المشايخ بعد قطع الفيافى والقفار قد نلته وأنا جالس على كرسى الرئاسة». إن بعض الجهلة والمغرورين ينسبون هذا القول إلى الغرور، وليس من الغرور أن يبين الإنسان خصوصيته، وبخاصة إذا كان القائل أهلا لها.

وقد أكرمه الله تعالى بخلف صالح فى السيد أحمد. وقد كنت ذات يوم فى مجلسه، وكان أحد المدعين من أهل نيسابور يقول: «يكون المرء فانيا حين يصير باقيا»، فقال الخواجه مظفر: «كيف يأتى البقاء بعد الفناء؟ إن الإفناء هو العدم والبقاء هو الوجود، وكل معنى ينافى الآخر. إنا نعرف ما هو الفناء ولكن إذا لم يكن فناء وأصبح بقاء فقد حقيقته، والحقائق لا تحتمل الفناء. أما الصفات فإنها يمكن أن تفنى، وكذلك الأسباب، وحقيقته لا تحتمل الفناء». ولم أحفظ الألفاظ التى عبر بها الأستاذ ولكن هذا كل معناها، وسأبين لك ما كان يقصده جليا حتى تكون مفهومة على العموم.

إن اختيار الإنسان صفة من صفاته، يكون محجوبا بها عن اختيار الله، لذلك كانت صفاته تحجبه عن الله؛ والمعروف أن الإرادة الإلهية أزلية، والاختيار الإنسانى حادث؛ وما كان أزليا لا يفنى، وإذا كانت الإرادة الإلهية بالنسبة للإنسان باقية، فنيت إرادته، وفقد دافعه الشخصى. والله أعلم بالحقائق.

حضـرت مـجلسـه يومـا وكان النهـار شـديد القيظ، وكنت لا بسا لباس المسافرين، ولم يكن شـعرى ممشطا، فقال لى: «يا أبا الحسن! ما الذى تحبه فى هذه السـاعـة؟» فـقلت له: «أحب السـمـاع»، فـأرسل إلى القـوال وبعض الملحنين. بسبب شبابى وشدة حماسى، وما كنت عليه من وجد المبتدئين، كنت أضطرب من وقع السمـاع على مسـمعى، وبعد هنيهـة ذهب عنى مـا أجده، وهدأت حالتى، فسألنى: «كيف تجد هذا؟» فقلت له: «قد تمتعت به كثيرا». فقال لى: «سيأتى عليك زمان يكون صوت القوال وصوت الغربان عندك سواء، لأن قوة السماع تدوم حيث لا توجد المشاهدة، فإذا وصلت إلى درجة المشاهدة لا تكون للسماع سيطرة عليك احذر من أن تعود نفسك عليها، مخافة أن تعتاد عليها فتحول بينك وبين أمور أدق منها».



الباب الثالث عشر

باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار حسب بلادهم

لا أجد محلا لبيان تراجمهم كاملة، وإذا حذفت تراجم بعضهم لم أوف بغرضى من هذا الكتاب. لذلك فإنى سأقتصر على ذكر أسماء الصوفية والرؤساء المشهورين، الذين أدركتهم، أومن هم على قيد الحياة باستثناء أهل الرسوم حتى يتم بذلك المراد.

فى الشام والعراق:

الشيخ زكى بن العلاء ـ كان شيخًا كاملا وجدته كشعلة من شعل المحبة، وكان مشهورا بعجائب الآيات والكرامات.

الشيخ أبو جعفر بن مصباح الصيدلانى ـ كان فى مقدمة طلاب التصوف، وله مذكرات فى التصوف، وإعجاب بالحسين بن منصور الحلاج الذى قرأت بعض كلماته.

الشيخ أبو القاسم السدسى ـ كان من المجاهدين لأنفسهم. وله حياة فاضلة، وكان له عطف على الفقراء واعتقاد شديد فيهم.

فى فارس

الشيخ الأكبر أبو الحسن سالبه كانت له عبارات عالية فى التصوف، وإشارات دقيقة فى التوحيد، وأقواله مشهورة.

الشيخ أبو إسحاق بن شهريار ـ كان من أكابر الصوفية المحترمين وله رئاسة كاملة.

الشيخ الظريف أبو الحسن على بن بكران ـ كان متصوفا كبيرا.

الشيخ أبو مسلم ــ كان من كبار المحترمين فى عصره وله مجاهدات طيبة.

الشيخ أبو الفتح بن أبى الحسن سالبه ـ كان خير خلف مؤهل لوالده.

الشيخ أبو طالب ـ كان رجلا أسيرا لكلمات الحق.

رأيت كل هؤلاء المشايخ إلا أبا إسحاق.

أهل قوهستان وآذربيجان وطبرستان وقومسى:

الشيخ أحمد فرج المشهور بأخى الزنجانى.

الشيخ الورندى: من عظماء هذه الطريقة ومنه خيرات عميقة من مريدى الشيخ أبى العباس النهاوندى كان ذا خلق متين ومبدأ قويم.

الشيخ بدر الدين: من كبار أهل الطريقة وله خيرات عميمة.

بادشاه قائب: كان رجلا صاحب عبارة فى طريق الحق.

الشيخ أبو عبد الله جنيد ـ كان مرشدا خليقا بالاحترام.

الشيخ أبو طاهر المكشوف ـ كان من مشاهير ذلك العصر.

حسين سمنان ـ كان مأخوذا وكان من أهل الرجاء.

الشيخ السهلجى ـ كان من فحول المتصوفة الفقراء.

أحمد بن الشيخ الخرقانى ــ كان خير خلف لوالده.

أديب كومندى ـ كان من أشهر أهل عصره.

فى كرمان

على بن الحسين السيركانى ـ كان سائح عصره، وله سياحات ممتازة، ولولده حكيم مرتبة عالية.

الشيخ محمد بن سلمة ـ كان من كمل أهل العصر وكان معه كثير من

أولياء الله غير الظاهرين وكثير من الشبان الذى يرتجى فيهم الخير وهم موجودون إلى الآن.

فى خراسان:

التى بها إقبال الحق الشيخ المجتهد أبو العباس السرمقانى ـ كان سيد أهل المعنى وله حياة فاضلة وأوقات حسنة.

أبو جعفر محمد بن على الجورينى ـ كان من كمل صوفية هذا الطريق.

أبو جعفر الترشيزى ـ كان من أجلاء أهل عصره.

الشيخ محمود النيسابورى ـ كان حجة فى المشاهدات وله مذاكرات عالية.

الشيخ محمد معشوق ـ له حالة روحانية كاملة كان مؤججا بالحب وكان طيب الباطن حسنه.

الخواجة سيد مظفر بن ابى سعيد ـ مؤهل لأن يكون مثلا للصوفية وقبلة للقلوب.

الشيخ أحمد حمادى السرخسى ـ كان من فرسان أهل عصره واصطحبنى مدة قليلة وشهدت منه حوادث عجيبة حصلت له، وكان من فتيان التصوف.

الشيخ أحمد النجار السمرقندى ـ كان مقيما فى مرو وكان سلطان أهل عصره.

الشيخ أبو الحسن على بن على الأسود ـ كان أكمل خلف لوالده وكان غريبا فى دقة مشاهدته وثبات فهمه.

إنه من الصعب على جدا أن أذكر جميع مشايخ خراسان فقد اجتمعت بثلاثمائة، وفى هذه الولاية وحدها كلهم ممنوحون منحا عظيمة فى الحقائق حتى أن واحدا منهم يكفى لكل الدنيا، يدلك هذا على أن شمس المحبة والطريق الصوفى طالعة من هناك.

ما وراء النهر:

الخواجة أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمى كان من أكابر المستمعين وكان له عطف على طلاب الله. وهو إمام يحترمه الكبير والصغير.

الخواجة أبو محمد الباثغرى، له حياة روحانية كاملة وليس عنده ضعف فى أعمال العباده.

محمد الإيلاقى ـ كان شيخ أهل عصره ترك الرسوم والعوائد والرخص.

الخواجة عارف ـ لم يسبقه أحد فى أيامه.

على بن إسحق ـ كان محترما وكان صاحب لسان كامل.

رأيت كل هؤلاء المشايخ وحققت مراتبهم وكلهم من كمل الصوفية.

غزنة:

أبو الفضل بن أسد ـ كان مرشدا محترما، له آيات ظاهرة، وكرامات زاهرة وهو كلهيب نار المحبة. كانت حياته الروحانية مبنية على التلبيس.

إسماعيل الشاشى - كان مرشدا مكرما، متبعا لطريق الملامة.

الشيخ سالار الطبرى - كان من كمل العارفين وله حاله كاملة.

الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحكيم، المشهور بمريد - كان من العارفين لم يسبقه أحد فى مشاهداته فى أهل عصره. وحاله كانت خفية عن العوام، ولكن براهينه وأدلته كانت توجب الحذر، وحاله كانت طيبة فى الصحبة أكثر منها فيما يبدو عليه.

الشيخ سعيد بن أبى سعيد العيار ـ كان حافظا للأحاديث، رأى كثيرًا من المشايخ، وعمر طويلا، وله قوة روحانية عالية، ومعرفة كبيرة. ولكنه أتخذ طريق الكاتمين، ولم يبين حقيقة أحواله لأحد .

الخواجه أبو العلا عبد الرحيم بن أحمد السندى ـ كان محترمًا من مشايخ الصوفية، وقلبى يميل إليه. حالته الروحانية كاملة وله إلمام بفروع هذا العلم.

الشيخ الأوحد قسورة بن محمد الجرديزى ـ كانت له عاطفة شديدة للمتصوفين، ويحترم كل فرد منهم وقد رأى كثيرًا من المشايخ.

إن ما أعتقده أهل غزنة وشيوخها يجدد آمالى أنه سينظر فيهم أهل الإصلاح، وأنهم سوف ينبذون من صفوفهم أولئك المدعين، الذين وجدوا طريقهم إلى هذه المدينة وأساءوا إلى مظهر الصوفية. ولهذا فسوف ترجع غزنة إلى ما كانت عليه وتكون محلا لأولياء الله المكرمين.

والآن نعود إلى الفرق بين فرقهم ـ فى المذاهب ـ وبيان كل منها.



الباب الرابع عشر

فى فرقهم ومذاهبهم ومقاماتهم وحكاياتهم

قد بينت ترجمة أبى الحسين النورى أن الصوفية ينقسمون إلى أثنتى عشرة فرقة. منها اثنتان من أهل البدع وعشرة صادقة، وكل واحدة من العشرة لها طريقة كاملة، ومذهب دقيق فى المجاهدات والمشاهدات. وهم وإن اختلفوا فى أعمال تعبدهم ورياضاتهم لكنهم يتحدون فى الأصول استنتاجا من الشريعة السمحاء والتوحيد، وقد قال أبو يزيد «إن اختلاف الأولياء رحمة إلا فى تجريد التوحيد»[1] وهناك حديث مشهور فى هذا المجال.

وحقيقة التصوف صادرة عن الحقيقة، وتختلف فى المجال. لذلك سأبين أقوالهم على سبيل الاختصار، فى توضيح الصوفية، وأبين أصول كل مذهب وما هو مؤسس عليه، حتى يتبين ذلك للطالب، ويكون سلاحا للعلماء، وصلاحا للمريدين، وعلاجا للمحبين، ونجاحا للعقلاء، وتنبيها لأرباب المروءة، وثوابا لى فى الدارين. وبالله العون والتوفيق، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

المحاسبية

هم تلاميذ أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى، الذى كان باتفاق معاصريه رجلا مقبول النفس، عالما بالتصوف والفقه والحقائق. وله مذاكرات فى التجريد والتوحيد، وترى حالته الظاهرة والباطنة - تجاه ربه - عالية القدر.

وخصوصية مذهبه أنه لا يعتقد أن الرضا من ضمن المقامات، ولكنه جعله من الأحوال، وهو أول من دعا بهذا القول، الذى تمسك به أهل خراسان. أما أهل العراق فيعتقدون أن الرضا مقام من المقامات، وأنه أعلى درجات التوكل، والاختلاف بينهما متصل إلى وقتنا هذا[2].

---

(١) طبقات الصوفية ص ٧٠.

(٢) راجع الرسالة القشيرية جـ٢ ص ٤٢٢ ففيها تفصيل هذا الاختلاف.

بيان فى حقيقة الرضى وتعريف هذا المذهب

أريد أن أبين أولا حقيقة الرضى، وأنواعه المختلفة، وبالتالى أعبر عن معنى المقام والحال، والفرق بينهما.

أعلم أن الكتاب والسنة ناطقان بذكر الرضا، كما نص عليه إجماع الأمة لقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1] ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[2] وقوله ﷺ «ذاق طعم الإيمان من قد رضى بالله ربا»[3].

والرضى على قسمين: رضا الله عن العبد، ورضا العبد عن الله. فرضاء الرب ظاهر فى إرادة الله تعالى، بأن يجازيه على أعماله الصالحة، وأن يكرمه بالكرامات. ورضاء العبد واقع فى أداء أوامر الله تعالى، والخضوع لها لذلك كان رضاء العبد، لأن العبد إن لم يوفقه الله فلن يخضع لأوامره تعالى، أو يؤدى فرائضه، لأن رضا العبد متصل برضاء الرب وباق به.

والخلاصة أن رضاء العبد السكون للقضاء، فى حالتى المنع والعطاء واستقامة قلبه فى رؤية مظاهر الجمال والجلال، ويكون لا فرق عنده بين نار الغضب ونور الرحمة، لأن الغضب والرحمة من آيات الله، وكل ما يصدر عن الله فهو طيب فى نظره.

سئل أمير المؤمنين الحسين بن على رضي الله عنه عما يعنيه أبو ذر الغفارى بقوله: «الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب من الصحة» فأجاب الحسن رضي الله عنه: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: إن من أشرف على حسن اختيار الله لم يتمن إلا ما اختار الله. لأن الإنسان إذا رأى الإرادة الألهية وترك اختياره نجا من الحزن. كل هذا لا يتحقق فى حالة الغيبة عن الله تعالى، ولكنه يوجب

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٩.

(٢) سورة الفتح: آية ١٨.

(٣) رواه أحمد فى المسند، ومسلم في صحيحه والترمذى في سننه.

الحضور، لأن الرضا للأحزان ناف ومن الغفلة معاف، أى يخلص القلب من كل شاغل يشغله عن الله تعالى، ويحرره من قيد المصائب. فالرضا صفة النجاة.

وإذا نظرنا إلى الرضى ـ من الوجهة الخلقية ـ رأينا أنه تسليم الإنسان، الذى يعرف حق المعرفة أن العطاء والحرمان سابقان فى علم الله، فيؤمن بأن الله ناظر إليه فى كل الأحوال.

وأهل التسليم على أربع فرق: أولها الذين رضوا بعطاء الله، ألا وهم أهل المعرفة. ثانيها الذين رضوا بالنعم، وهم أهل الدنيا. وثالثها الذين رضوا بالبلاء وهم أهل المحن. رابعها الذين رضوا بالاصطفاء، وهم أهل المحبة.

فمن نظر إلى النعمة ـ لا إلى المنعم من الخلق ـ قبل النعمة من كل قلبه، فإذا قبلها زال من قلبه التعب والنصب؛ ومن التفت عن النعمة إلى المنعم من البشر فقد النعمة وسلك طريق الرضا بحوله، والحول تعب ونصب. والمعرفة لا تتحقق إلا بانبلاج معناها الحقيقى من الله عز وجل، كما أن المعرفة إذا بحث عنها بالحول فإنها حجاب وستائر. ومثل هذه المعرفة ليست بمعرفة.

ثانيا: من رضى من الدنيا دون الله تعالى فمآله إلى الدمار والخسران، لأن الدنيا لا تساوى شيئًا، حتى تشغل قلب محب لله بالفكر ودوام النظر لها. والنعمة لا تكون نعمة إلا إذا أوصلتك إلى المنعم، وإلا كانت نقمة. ومن رضى بالبلاء الذى يقدره الله تعالى رضى به، لأنه رأى أن الله سبحانه وتعالى هو المسبب له، ويتحمل البلاء بمشاهدة من أرسله. وزود على ذلك أنه لا يشعر بألم، وذلك لشدة سروره بمشاهدة محبوبه.

وفى النهاية من رضوا بالاصطفاء فهؤلاء هم المحبوبون، الذين لا يتغير حالهم فى السراء والضراء والذين تسكن نفوسهم بصفاء الحضور، فى جنة المشاهدة، الذين لا فكر لهم فى الكائنات، وتخلصوا من أوحال المقامات والأحوال، وأوقفوا نفوسهم على محبة الله.

وليس فى رضاهم هذا فقدان لشئ ما لأن الرضا مع الله تعالى هو

الجنة العالية. ولا تكون منازل قلوبهم إلا حضرة الله، ولا تكون قلوبهم حجابا إلا لروضة الأنس، هم الغائبون المستوحشون والناس حضور، وهم الأرواح والناس أجساد، وهم الموحدون بالله قطعوا قلوبهم عن الناس، وتخلصوا من قيد المقامات والأحوال، وصرفوا قلوبهم عن المكونات، وتمنطقوا بحزام المحبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[1] إذن فالرضا بغيره خسران والرضا به رضوان. ذلك أن الرضا به ملك صريح، وبداية العافية. قال النبى ﷺ: «من لم يرض بالله وبقضائه شغل قلبه وتعب بدنه»[2] والله أعلم.

فصل

روى أن سيدنا موسى عليه السلام قال: «اللهم دلنى على عمل إذا عملته رضيت عنى. فأجابه الله تعالى: «يا موسى، إنك لا تطيق ذلك» فخر موسى ساجدا متضرعا. فأوحى الله إليه: يا ابن عمران: إن رضائى فى رضاك بقضائى»

سأل بشر الحافى الفضيل عن عياض، عما إذا كان الزهد أكمل أم الرضى، فأجابه الفضيل: «الرضا، أفضل من الزهد، لأن الراضى لا يتمنى فوق منزلته» يعنى أن للزهد مقاما أعلى منه، وهو ما يديده الزاهد؛ ولكن لا مقام أعلى من الرضا، يريد الراضى أن يصل إليه، لأن المقام أعلى قدرا من الباب.

هذه الحكاية تدلك على صحة مذهب المحاسبية وهو أن الرضى متصل بالأحوال والنعم الربانية، لا بالمقامات التى يتوصل إليها بالمجاهدة. ومن الممكن مع ذلك أن تكون للعبد الراضى رغبة ما، فقد كان رسول الله ﷺ دائما يقول فى دعائه: «اللهم أنى أسألك الرضا بعد القضاء» ومعنى ذلك: أن

---

(١) سورة الفرقان: آية ٣.
(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط.

تحفظنى بالحالة التى ترضاها عندما يحصل القضاء، حتى يجعلنى التسليم راضيا بكل ما أرسلته إلى.

هنا يثبت جليا أن الرضى أرقى من التسليم، لأنه إذا كان سابقا له لزم أن يكون فرعا منه وذلك ليس هو حقيقة الرضا كما أنه لا يصح ـ قال أبو العباس ابن عطاء: «الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد» يعنى: أنه كلما نزل به ما يعتقد أنه إرادة الله السابقة، وقضاؤه الأزلى لا يحزن لذلك ولكنه يقبله بانشراح، قال الحارث المحاسبى صاحب مذهب الرضا: «الرضا: هو سكون القلب تحت مجارى الأحكام» وهذا هو المذهب الصحيح، لأن سكون القلب وطمأنينته، ليست بحول الإنسان وقوته، ولكنها من نعم الله. وفى الدلائل التى يثبتون بها أن الرضا هو حال وليس بمقام، ذكرهم حكاية عتبة الغلام الذى لم ينم ذات ليلة وكان يقول فيها: «إن تعذبنى فأنا لك محب، وإن ترحمنى فأنا لك محب» لأن ألم العذاب، ولذة النعمة لا يشعر بهما إلا الجسم. بينما اضطراب بالمحبة لا يسكن إلا فى القلب، الذى لا يتأذى بها. وهذا يؤيد مذهب المحاسبى، لأن الرضا هو نتيجة المحبة كما أن المحب يرضى بما قدره محبوبه.

قال أبو عثمان الحيرى: «منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته، وما نقلنى إلى غيره فسخطته» يدلك هذا على دوام الرضا، وكمال المحبة.

وإن قصة الدرويش الذى سقط فى دجلة مشهورة حيث أنه لما رآه الرجل من الشاطئ يحاول السباحة ولا يقدر عليها، قال له: «هل أحضر لك من ينجيك؟» فقال له: الرجل: «لا» فسأله الرجل: «إذن هل تريد الغرق؟ فأجابه «لا» فسأله: إذا ما تريد؟ فقال له الدرويش: أريد ما أراده الله، ما الذى استفيده بالتدبير؟.

وقد تكلم شيوخ الصوفية كلاما كثيرا عن الرضا. وأقوالهم تختلف فى ظاهر العبارة ولكنها تتحد فى أصل المبدأين اللذين بينتهما لك. واقتصر على هذا.

الفرق بين الحال والمقام

أعلم أن هذين التعبيرين مستفيضان بين شيوخ الصوفية، وجاريان على ألسنتهم، متداولان فى العلوم. ومن اللازم على المريد أن يكون على علم بهما، ولذلك لزمنى أن أبين هذه المسألة، ولو أنه لا صلة لها بهذا الفصل، فأقول:

المقام برفع الميم الإقامة؛ وبنصب الميم محل الإقامة، وفى العربية مقام الأقامة، ومكان الأقامة. والمقام هو القيام؛ مكان إقامة العبد فى الطريق لله، وأدائه للواجبات، التى يستدعيها هذا المقام، والمحافظة عليها حتى يبلغ الكمال الممكن للأنسان.

وليس من الجائز أن يتعدى الأنسان مقامه بدون أن يؤدى فرائضه. فأول مقام هو التوبة، وبعدها الأنابة، وبعدها الزهد، وبعده التوكل، وهلم جرًا.

وليس من الجائز أن يدعى الإنسان مقام الأنانية بدون التوبة، أو الزهد بدون أن يكون له قدرة على الأنابة، أو التوكل بدون الزهد. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1].

والحال هو ما يصل من الله تعالى إلى قلب الإنسان، بدون أن يكون له قدرة على رده إذا حضر، أو استحضاره إذا غاب بحوله وقوته، لذلك كانت عبارة المقام تدلك على طريق السالك، وتقدمه فى طريق الحق، ومقامه أمام الله سبحانه وتعالى، بالنسبة لكرمه سبحانه. والحال يعرفك مقدار الكرامة والنعمة، التى يتفضل بها الله تعالى على قلب عبده، التى لا اتصال لها بأى مجاهدة من العبد.

المقام من نوع الأعمال، والحال من نوع العطاء، لذلك كان صاحب المقام واقفا أمام مجاهدة نفسه، وأما صاحب الحال فهو فان فى نفسه، واقف بالحالة التى يكرمه الله تعالى بها، وقد اختلف الشيوخ فى هذا الموضوع

---

(١) سورة الصافات: آية ١٦٤.

فالبعض يعتقدون باستدامة الحال، والبعض ينكرون هذا الرأى. أما الحارث المحاسبى فإنه أثبت أن الحال يكون دائما. وبرهن على أن المحبة والشوق، والقبض والبسط، كلها أحوال، فلو لم تكن دائمة فلا يكون المحب محبا، وما لم يكن حال الإنسان صفة له فاسم هذا الحال لا ينطبق عليه تمام الانطباق. ولهذا فإنه يعتقد بأن الرضا نوع من الحال، وهذا الرأى هو لقول أبى عثمان أنه «منذ أربعين سنة ما أقامنى الله على حال فكرهته وما نقلنى إلى غيره فسخطته».

وبعض المشايخ ينكرون دوام الحال، قال الجنيد: «الأحوال كالبروق فان بقيت فحديث النفس». والبعض وافقوا على هذا ويقولون «الأحوال كاسمها يعنى أنها كما تحل بالقلب تزول». كل ما كان دائما فإنه يكون صفة، والصفات تبقى فى الشئ الذى يلزم أن يكون أكمل عنها. وهذا يضعف القول باستدامة الأحوال.

وقد بينت لك الفرق بين المقام والحال حتى تعرف المقصود من كلا التعبيرين إذا وجد فى أية عبارة من عبارات الصوفية، أو فى كتابنا هذا.

والخلاصة: أنه يلزمك أن تعرف أن الرضا هو نهاية المقامات، وأول الأحوال. وهو محل يرتكز جانب منه على التسليم والمجاهدة، والجانب الآخر على المحبة والجذب، ولا مقام أرقى منه. وفى هذه النقطة تقف المجاهدة، لأن أولها تابع للأشياء التى يمكن نيلها بالعمل، وآخرها تابع للأشياء التى يفيضها المنعم. لذلك فإنها تسمى مقاما أو حالا، على السواء. ومن هنا يحتمل أن من يرى رضاه بنفسه فى بداية الأمر يعتبره مقاما، ثم يرى فى النهاية أن رضاه بالله فيغيره. هذا مذهب المحاسبية فى أصول التصوف.

أما من الناحية التطبيقية فلم يكن هناك خلاف، إلا أنه كان يحذر تلاميذه عن العمارات والأعمال، التى توجب المنظنة وإن كانت فى نفسها صحيحة المبدأ. مثال ذلك: أنه كانت عنده ببغاء تصرخ بكلمة عالية، فزاره ذات

يوم أبو حمزة البغدادى، الذى كان من الزاهدين، فصرخ الطير وصرخ أبو حمزة. فقام الحارث وقبض على سكين عنده، وقال: كفرت، ولولا أن تلاميذه فرقوا بينهما بقتلها فقال له: «يا أبا حمزة، أسلم يا مطرود» فقال التلاميذ له «يا سيدنا!، إنا نعرفه، إن من أكابر الموحدين، فلماذا يتهمه الشيخ؟» فأجابهم الحارث: أنا لا أتهمه لأن آراءه كاملة، وأنا أعرف أنه موحد كامل، ولكن لماذا يعمل عمل الذين يعتقدون بالحلول، ويتشبه بالعمل الذى يستنتج من مذهبهم؟. لأنه إذا صاح طائر ـ كعادته ـ فلم ينظر إلى هذه العلامات كأنها صوت من أصوات الله تعالى؟ فهو ـ جل ثناؤه لا ينقسم إلى أجزاء، والقديم لا يحل بالعوارض، أو يتحد معها؛ فلما رأى أبو حمزة دقة نظر الشيخ، قال له: «يا شيخ! إنى والله صحيح الاعتقاد، ولكن حيث أن عملى شابه أعمال المضلين فإنى تبت وأنبت». وله حوادث مشابهة كثيرة اختصرتها.

وهذه طريقة مستحبة جدا؛ فطريق السلامة هو عدم الشطح فى حال الصحو. وقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم».

اللهم احفظ سلوكى من التهمة، ولكن ذلك مستحيل ما دام الإنسان على صلة بأهل الرسوم، الذين يغتاظون من كل من لا يوافق أضاليلهم وأكاذيبهم، نعوذ بالله من الجهل والضلالة.

القصارية:

هم أتباع أبى صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار. وهو عالم مشهور، وصوفى كامل، ومذهبه إظهار الملامة، وكان يقول: «معروفة الله بك أحسن من معرفة الناس بك، لأن معاملتك مع الله فى السر، أحسن من معاملتك مع الناس فى العلانية»، وإن اشتغالك بالناس هو من أكبر الحجب بينك وبين الله. وقد كتبت عن القصار فى باب الملامة كلاما وافيا.

وقد روى القصار الحكاية الآتية: «كنت يوما ما شيا فى حيرة نيسابور

فقابلت شخصا يدعى نوحا وهو من العيارين، المشهورين بالفتوة، وكان رئيسا لعيارى نيسابور. فسألته: «ما الكرم»؟. فقال لى: «كرمى أم كرمك؟» فقلت له: «صف لى كليهما!» فقال: «كرمى أن أنزع الجبة، وألبس المرقعة، وأعمل بما يلزم هذه الحالة حتى أكون صوفيا، وأمتنع عن الذنب خجلا، مما أشعر به أمام الله. ولكنك تركت المرقعة حتى لا يغشك الناس ولا يغتر الناس بك لذلك كان كرمى عبارة عن ملاحظة لرسوم الشريعة أما كرمك فهو اتباع روحى للحق» ـ وهذا مبدأ صحيح.

الطيفورية:

هم أتباع أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامى. كان رجلا كاملا ومذهبه فى الغلبة والسكر. فالغلبة شوق الله، والسكر فى المحبة. ولا يمكن نيله بحول أو قوة.

ولذلك فمن الخطأ أن تدعى شيئا لا يناله الكسب، ومن السخف أن تتظاهر بذلك. والسكر ليس صفة لليقظان، والإنسان لا حول له على جلبه لنفسه، والسكران مغلوب، ولا ينظر إلى المخلوقات حتى يتبين أشكالها، أو ينظر إلى التكليف. وقد اتفق مشايخ الصوفية أنه لا يكون إماما للآخرين إلا من كان مستقيما، خلص من دائرة الحال. ولكن هناك من يقولون بأنه من الممكن سلوك طريق الوجود والسكر بالجهد ذلك لأن رسول الله ﷺ قال: «ابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا» ولما كان تقليد البعض تظاهرا يعد من الشرك، ولكن الأمر يختلف إذا كان مقصودا لمقلد أن يرفعه الله تعالى إلى درجة من يقلدهم. مصداقا لحديث رسول الله ﷺ «من تشبه بقوم فهو منهم» وقد قال أحد المشايخ: «المشاهدة نتيجة المجاهدة» أما رأيى فى ذلك فإنه بالرغم من كمال المجاهدة إلا أن السكر والنشوة لا يمكن تحصيلهما بالمجاهدة التى لا تكون بنفسها سببا للسكر. وسأبين لك آراء المشايخ المختلفة فى السكر والصحو حتى تتحول عنك المشاغل.

بيان السكر والصحو

يلزمك أن تعرف أن السكر والغلبة لفظان اصطلح عليهما القوم، للدلالة على غلبة المحبة لله.

أما اصطلاح الصحو فيعنى تحقيق ما تهفوا إليه النفس. والبعض يقدمون الأول على الآخر، والبعض يعتقدون بكمال الآخر.

وكان أبو يزيد يفضل السكر على الصحو. ويقولون: أن الصحو هو إثبات وتحديد الصفات الإنسانية، التى هى أكبر حجاب بين الرب وعبده، بينما السكر هو عدم الصفات الآدمية: مثل النظر والاختيار، وفناء حول الإنسان وقوته فى الله حتى لا يبقى فى الإنسان ما ينسب إليه. وهذا هو الكمال، حيث أن داود عليه السلام، فى حال صحوه، صدر منه عمل نسبه الله إليه فقال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾[1] ولكن رسولنا عليه أفضل الصلاة وأتم السلام كان فى حالة سكره عندما صدر عنه أمر نسبه الله إلى نفسه فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[2] فشتان بين عبد وعبد.

فمن هو قائم بنفسه، وثابت بصفاته، يقال له: «أنت فعلت» على سبيل التكريم ومن هو قائم بالحق، يطلق عليه: «فانى الصفة» فقد فعلنا ما فعلنا ومن الأفضل أن يضاف فعل العبد إلى الحق، لا أن يضاف فعل الحق إلى العبد لأن فعل الحق إذا كان مضافا إلى العبد كان العبد قائما بنفسه، وإذا كان فعل العبد مضافا إلى الحق كان قائما بالحق؛ لأن العبد إذا كان قائما بنفسه كان كداود عليه السلام، نظر إلى ما حرم الله، أى إلى زوجة أوريا، حتى حدث ما حدث[3] .

وحينما يكون العبد قائما بالحق يكون كالمصطفى ﷺ حرم النظرة من

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥١. (٢) سورة الأنفال: آية ١٧.

(٣) هذه القصة من الاسرائيليات، وقد وردت فى التوراة المتداولة بين أيدى اليهود، وينكرها الإسلام إنكارًا تامًا. ونبى الله داود مبرأ عما قالوا، وقد نقلت بعض كتب التراث الإسلامى مثل هذه القصص الإسرائيلية مما يستوجب تنقية هذه الكتب مما لحق بها - انظر مثالا لذلك تاريخ اليعقوبى جـ١ ص ٣٨.

هذا القبيل من الرجل على المرأة، ذلك أن داود كان فى حال الصحو بينما كان المصطفى فى حال السكر.

والجنيد وأتباعه يفضلون الصحو على السكر، لأنهم يقولون إن السكر شر، لأنه ينطوى على اضطراب الأحوال العادية للفرد وفقدان العقل وعدم ضبط النفس، وحيث أن أصول الأشياء هو البحث عنها بطريقة الفناء أو البقاء أو المحو أو الإثبات، يثبت بذلك أن طريقة التحقيق لا يمكن الوصول إليها إلا إذا كان الباحث فى حالة صحو. فالعطاء لا يخرج الإنسان من ربقة الطبيعة والسبب الذى أوقف الناس عند الطبيعة؛ وأنساهم الله هو نظرهم إلى الأشياء على ما هى عليه، لأنهم إذا رأوها فروا منها. والنظر على قسمين لأن كل من نظر إلى شئ نظر إليه بعين البقاء، أو بعين الفناء، فإذا كان بعين البقاء أدرك أن الوجود بأجمعه غير كامل بالنسبة لبقائه، إذا أنه لا يعتبر الطبائع باقية بنفسها، وإذا نظر بعين الفناء أدرك أن كل المخلوقات فانية بالنسبة لبقاء الله تعالى. وفى كلتا الحالتين فإنه يفر من المخلوقات. وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أرنا الأشياء كما هى» أو كما قال: «لأن كل من رآها استراح». وهذا معنى الآية الكريمة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1] وهذه المشاهدة لا يمكن الوصول إليها تماما إلا فى حال الصحو، وليس للسكران إدراك لها، لأن موسى عليه السلام كان فى حال السكر لم يحتمل نظرة واحدة فصعق، أما رسول الله ﷺ فقد كان فى حال صحوه وشهد بذلك الجمال بكل معانيه، من مكة إلى أن صار: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[2] قريبا من الله تعالى وذلك مع صحوه:

شربت الراح كأسا بعد كاس ... فما نفد الشراب ولا رويت

---

(١) سورة الحشر: آية ٢.

(٢) سورة النجم: آية ٩.

وكان شيخى متبعا لمذهب الجنيد وكان يقول: «السكر هو ملعب الأطفال ولكن الصحو هو موقع الأبطال». أقول موافقة لشيخى: أن كمال حال السكران هو الصحو وأقل درجة فى الصحو هو اعتبار عجز القوة البشرية، لذلك كان الصحو الذى يبدو وكأنه شر أحسن من السكر الذى هو حقيقة البشر. يروى أن أبا عثمان المغربى أمضى ـ فى أوائل أيام مجاهداته ـ عشرين سنة فى التجرد، وكان يعيش فى الصحارى، لكى لا يسمع صوت إنسان، حتى انبرى جسمه، وصارت عيناه مثل سم الخياط. وبعد هذه العشرين سنة أمر بالاجتماع بالناس فرأى بأن يبتدئ بأهل الله، وهم مجاورو بيته الحرام، لكى ينال بذلك البركة. فما علم بذلك مشايخ مكة ذهبوا ليقابلوه، فرأوه يشبه الإنسان، فقالو ا له: يا أبا عثمان! قل لنا لماذا ذهبت؟ وما الذى رأيته ونلته؟ ولماذا أتيت؟ فقال لهم: «ذهبت من سكرى ورأيت خطأ السكر، ونلت الحيرة، وأتيت لضعفى». فقال له المشايخ: «يا أبا عثمان! ليس من حق أحد بعدك أن يشرح معنى الصحو والسكر، لأنك بينت حقيقته وأظهرت خطأ من يقومون فى السكر».

والسكر هو: أن يشهد الإنسان فناء نفسه مع وجود صفاته، وهذا حجاب والصحو من جهة أخرى هو شهود البقاء مع فناء الصفات، وهذا هو الكشف الحقيقى، وإنه من الخطأ المحض أن يعتقد الإنسان أن السكر أقرب إلى الفناء من الصحو، لأن السكر هو حالة تفوق الصحو، وما دامت صفات الإنسان تزداد فإنه خال من المعرفة، لكن إذا بدأ فى نقصانها فإن طلاب الحق لهم بعض الرجاء فيه.

يروى أن يحيى بن معاذ كتب إلى أبى يزيد: «ماذا تقول فيمن شرب قطرة من بحر المحبة فسكر بها؟» فأجابه أبو يزيد: «ماذا تقول فيمن إذا ملئت كل بحار الأرض من خمر المحبة شربها كلها، واستغاث طالبا المزيد؟».

الناس يظنون أن يحيى يتكلم عن السكر وأبو يزيد يتكلم عن الصحو،

ولكن العبارة بالعكس: فإن صاحب الصحو هو الذى لا يقدر على شرب قطرة، وصاحب السكر هو الذى يشرب الخمر كلها ويطلب المزيد، لأن الخمرة آلة السكر ولكنها ضد الصحو. السكر يطلب ما يجانسه ولكن صاحب الصحو ليس له لذة فى الشرب.

والسكر سكران: سكر بخمر المودة، وسكر بكأس المحبة. فالأول ينشأ من النظر إلى النعمة، ولكن لا علة للثانى إذ أنه ينشأ من النظر إلى المنعم. فمن رأى النعمة شاهدها فى نفسه، فلا يرى إلا نفسه، ومن رأى المنعم رأى بالمنعم، ولم ينظر إلى نفسه. ولهذا فبالرغم من سكره فإن سكره هو الصحو الحقيقى.

والصحو على نوعين: صحو الغفلة، وصحو المحبة. فالأول هو أكبر الحجب، والثانى هو أرق المكاشفات. فالصحو المتصل بالغفلة هو فى الحقيقة سكر، بينما الصحو المتصل بالمحبة صحو، على مافيه من سكر. وإذا تبين لك الأصل لم تجد فرقا بين الصحو والسكر، لأنك تراهما متشابهين. ولكن إذا ضاع الأصل فكلاهما لا أساس له. وفى النهاية فأينما سلك أهل الحق فالصحو والسكر هما نتيجة الاختلاف. ولكن إذا تغلب سلطان الحق بجماله كانت حالة الصحو والسكر كالطفيلى، لأن حدودهما متصلة، ونهاية الأولى بداية الآخر. والبداية والنهاية هما لفظان يفيدان التفرقة، وليس لهما وجود نسبى فى التوحيد كل التفرقة ممحوة كما قال الشاعر:

إذا طلع الصباح بنجم راح　　　تساوى فيه سكران وصاح

كان فى سرخس مرشدان كبيران: أحدهما اسمه لقمان والآخر اسمه أبو الفضل حسن، ومر لقمان ذات يوم بأبى الفضل، ووجد معه ورقة فى يده، فقال له: يا أبا الفضل، وما الذى تطلبه من هذه الورقة؟ فقال له أبو الفضل: اطلب الشئ الذى تطلبه من غير الورقة، فقال له لقمان: فلماذا هذا الفرق؟. فقال له أبو الفضل: أنت ترى فرقا بسؤالك عما أطلبه، كن صاحيا من السكر،

وتخلص من الصحو، حتى تبعد الفرق عنك، ولكى تعرف ما تطلبه أنت، وما أطلبه أنا.

والطيفورية والجنيد على اختلاف فى هذا الموضوع. أما بالنسبة للأصول فأبو يزيد يرى العزلة عن الناس، والتجرد من الدنيا. وقد صرح التلاميذ بذلك، وهذا طريق ممدوح وسيرة محمودة لو يسرت.

الجنيدية:

هم أتباع أبو القاسم الجنيد بن محمد، وكانوا يسمونه فى عصره طاووس الفقراء. وهو أشهر أهل هذا الطريق، وإمام أئمتهم، ومذهبه مؤسس على الصحو، ومخالفة لمذهب الطيفورية، كما وضحت ذلك قبل.

وطريقه أشهر طريق، وقد سلك المشايخ عليه، ولم يلتفت لكثرة الأقوال المختلفة فى أصول الصوفية، ولصغر هذا الكتاب يصعب على أن أفصل القول عن هذا الطريق فى كتابى هذا. فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه فى غير هذا الكتاب.

قرأت فى الحكايات: أن الحسين بن منصور الحلاج ـ فى حال غلبته ـ ترك صحبة عمرو بن عثمان المكى، وأتى إلى الجنيد، فسأله الجنيد: ما الذى أتى بك إلى؟. فقال الحسين: طمعا فى صحبة الشيخ، فقال له الجنيد: أنا لا أجتمع بالمجانين، والصحبة تتطلب كمال العقل، فإذا لم يتوفر ذلك تصرفت معى كما تصرفت مع سهل بن عبد الله التسترى وعمرا!. فقال له الحسين: يا شيخ. الصحو والسكر صفتان للعبد، وما دام العبد محجوبا عن ربه تفنى صفاته فقال له الجنيد: يا ابن منصور، أخطأت فى الصحو والسكر، لأن الصحو بلا خلاف عبارة عن صحة حال العبد فى الحق، وذلك لا يدخل تحت صفة العبد واكتساب الخلق، وأنا أرى يا ابن منصور فى كلامك فضولا كثيرا وعبارات لا طائل تحتها.

النورية:

هم أتباع أبى الحسين أحمد بن محمد النورى، من أكابر علماء الصوفية المشهورين، وهو بينهم كالنور بمناقبه اللامعة، وحججه القاطعة. وله فى التصوف مذهب مقبولا، ودراسات مختارة.

وأصل مذهبه مبنى على تفضيل الغنى على الفقر. أما فى مسائل المعاملة فإنه يوافق الجنيد. ومن خصائص طريقه أنه يحب من أصحابه الإيثار فى الصحبة، ويروى أن الصحبة بدونها حرام، ويعتقد أن الصحبة واجبة على الدراويش، وأن العزلة ليست مستحبة، وأنه واجب على كل إنسان أن يؤثر صاحبه على نفسه.

يروى أنه قال: إياكم والعزلة فإن العزلة مقارنة الشيطان، وعليكم بالصحبة فان فى الصحبة رضا الرحمن. وسأبين لك حقيقة الإيثار وعندما نصل إلى باب الصحبة والعزلة، فسأبين لك أسرار هذا الموضوع، حتى تتبلج لك حقيقته ونعم الفائدة.

«فى حقيقة الإيثار»

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١).

هذه الآية الشريفة نزلت فى حق فقراء الصحابة رضى الله عنهم بالخصوص وحقيقة الإيثار هو أن تحافظ على حق الذين تجتمع بهم، وأن تفضل صالحهم على صالحك، وأن تتعب نفسك لدوام سرورهم، لأن الإيثار هو القيام بمعاونة الأغيار، مع استعمال ما أمر به الجبار، رسوله المختار حيث قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(٢) وسأبين حقيقة ذلك فى شروط الصحبة.

---

(١) سورة الحشر: آية ٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٩٩.

والإيثار على نوعين: إيثار فى الصحبة كما بينته لك، وإيثار فى المحبة، والإيثار فى الصحبة يكون بشئ من التعب والجهد، وأما الإيثار فى المحبة فبالروح والراحة. من المشهور أنه لما اتهم غلام خليل رجال الصوفية بالزندقة، ألقى القبض على الشيخ النورى وأبى حمزة والرقام، وجئ بهم إلى مجلس الخليفة. قال غلام خليل: هؤلاء قوم من الزنادقة ولو أمر الخليفة بقتلهم لاجتثت الزندقة من أصلها، فهم زعماء هذه الفرقة، ولو تم هذا الأمر على يديه لضمنت له حسن الجزاء. فأمر الخليفة فى الوقت بقتلهم، فلما اقترب الجالد من الرقام تقدم النورى وقدم نفسه بدل الرقام بمزيد الفرح والسرور، فعجب لذلك الحاضرون وقال الجلاد له: يا أيها الشاب، إن السيف ليس بالشئ الذى يرغب فيه الناس، ويتقدمون إليه بمثل هذا الفرح، ولم يأت دورك بعد. فقال له النورى: نعم، قد فعلت ذلك لأن مذهبى مؤسس على الإيثار. الحياة هى أثمن شئ فى هذه الدنيا، وإننى أحب أن أضحى بنفسى ليحظى أخى ببضع من الدقائق الباقيات، إذ من رأيى أن الدقيقة فى هذه الدنيا خير من ألف سنة فى الدار الآخرة، لأن هذه الدار دار الخدمة، وأما تلك فهى دار القربة، والقربة لا تنال إلا بالخدمة. فحمل صاحب البريد هذا الأمر، وذهب إلى الخليفة، وأبلغه إياه، فتعجب من رقة الطبع ودقة الكلام حتى رجع عن عزمه، وبعث رسولا، وأوقف قتل الصوفية. وألزم القاضى أبا العباس بن على أن يبحث مسألتهم، فلما أخذهم القاضى إلى منزله، سألهم عن واجب الشرع والحق، فوجدهم فى غاية الكمال، وتأسف من الحادث الذى كانوا على وشك الوقوع فيه. فقال له النورى: يا أيها القاضى!. انك قد سألت هذه الأسئلة، ومع كل ذلك فإنك لم تحم حول النقطة المطلوبة، لأن لله عبادا لا يأكلون إلا به، ولا يشربون إلا به، ولا يعيشون إلا به، وثابتون فى مشاهدته، فإذا حرموا مشاهدته لحظة صرخوا وبكوا. فاندهش القاضى من دقة عبارته، ومن صحة حاله، وكتب إلى الخليفة: إذا كان هؤلاء زنادقة فإننى أشهد ألا موحد فوق الأرض. فدعاهم الخليفة إلى مجلسه، وطلب من كل منهم أن يسأل حاجته

فأجابوه جميعا، وقالوا: إن حاجتنا التى نطلبها منك أن تنسانا حتى لا تخطئ بمجبتك لنا أو سخطك علينا، لأن رضاك وسخطك سيان عندنا، فبكى الخليفة وودعهم بمزيد الكرامة.

يروى أن نافع قال: اشتهى ابن عمر أن يأكل سمكا، وبحثنا فى المدينة فلم نجده، ولكن بعد مضى أيام قلائل وجدت سمكة، وأمرت الخدم أن يشووها، وحملتها إليه على طبق، فلما قدمت إليه وجدت علامة السرور على وجهه رغم مرضه فعندما تناولها أتى على الباب سائل، فأمر بأن يعطى السمكة كلها، فقال له الخادم: يا سيدى!، أنت تشتهى السمك منذ أيام، فدعنا نعطى السائل شيئا آخر. فقال ابن عمر: إن هذه السمكة حرام على، أخرجتها من قلبى لحديث سمعته من رسول الله ﷺ: «أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له».

قرأت فى الآثار: أن عشرة من الفقراء تاهوا فى الصحراء، فلما غلب عليهم العطش، وكان معهم قدح من الماء، آثر كل منهم غيره على نفسه، حتى إنه لم يشرب منهم أحد، فماتوا جميعا إلا واحدا شربه، فوجد قوة فى نفسه ونجا، فقال له بعضهم: كان من الأحسن ألا تشربه، فقال له: أمرنى الشرع بذلك، لأننى إن لم أشربه كنت قد قتلت نفسى، ويعاقبنى الله تعالى على ذلك. فقال له الآخر هل قتل أصحابك أنفسهم؟. فقال الدرويش: لا، لأن كل واحد منهم ترك الشرب رغبة فى أن يشرب أخوه، ولكن لما بقيت أنا صار من الواجب الشرعى على أن أشربه.

وحينما نام على، كرم الله وجهه، على فراش الرسول، وخرج الرسول ﷺ مع أبى بكر مهاجرين من مكة، ودخلا الغار، وكان الكفار قد تآمروا على قتل الرسول ﷺ، قال الله تعالى لجبريل وميكائيل: لقد آخيت بينكما، ولكنى قدرت حياة أحدكم أطول من حياة الآخر فمن الذى يؤثر أخاه على نفسه ويختار الموت؟. فأختار كلاهما الحياة، فقال الله تعالى لجبرائيل وميكائيل: انظرا إلى

شرف على وفضله عليكما، فقد آخيت بينه وبين رسولى هذا، فاختار على قتله وموته، ونام فى مكانه، وضحى بروحه فداء للرسول، وأثر الحياة لهلاك نفسه، اذهبا الآن إلى الأرض، واحفظاه من الأعداء. فنزل جبريل وميكائيل وقبع أحدهما إلى الأرض، واحفظاه من الأعداء. فنزل جبرائيل وميكائيل وقبع أحدهما على رأسه والآخر بأسفل قدميه وقال جبرائيل: «بخ بخ بمثلك يا ابن أبى طالب يباهى الله تعالى ملائكته، وأنت نائم هنيئا فى فراشك. وحينذاك نزلت الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

تروى امرأة من صالحات الأنصار، أنه حينما امتحن الله المؤمنين بمحنة أحد، خرجت بشربة ماء، قالت: لأسقينها أحد ذوى. وفى ميدان الحرب رأيت واحدا من أجلة الصحابة جريحا يجود بالنفس فأشار إلى أن اسقينى، فأعطيته الماء، فصاح جريح آخر: اسقينى، فلم يشرب وحولنى إليه، وحينما حملته إليه صاح آخر، ولكنه لم يشرب وحولنى إلى آخر، وهكذا، حتى بلغوا سبعة أشخاص، وحينما أراد السابع جاد بالروح، فعدت قائلة: فلأسقى الآخر، وكان الستة الآخرون قد أسلموا الروح. وهكذا توفى السبعة، وحينئذ نزلت الآية الكريمة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

كان فى بنى اسرائيل رجل عابد، عبد الله سبحانه وتعالى أربعمائة سنة، فقال ذات يوم: يا رب لو لم تخلق هذه الجبال لكانت السياحة أسهل على عبيدك. فأوحى الله إلى نبى ذلك العصر أن يقول لهذا العابد: من الذى أدخلك فى ملكى؟. وحيث أنك تدخلت فإنى محوت اسمك من ديوان السعداء، وكتبته فى ديوان الأشقياء. فلما سمع العابد ذلك اهتز فرحا وسرورا. وسجد لله شكرا فقال الرسول له: يا مجنون!. ليس من اللازم عليك أن تشكر على

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٧.

(٢) سورة الحشر: آية ٩.

حرمانك فقال العابد: إن شكرى هذا ليس على القطيعة، بل لأن اسمى ذكر فى أحد دواوينه، ولكن لى سؤال إليك أيها النبى. قل لله سبحانه وتعالى: حيث أنك قضيت على بالنار فكبر جسمى، حتى آخذ حمل كل عصاة الموحدين، واجعلهم يذهبون إلى الجنة. فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يخبر العابد أن الامتحان الذى بلوتك به لم يكن لتصغيرك، ولكن لأظهره للناس، وإنه فى يوم القيامة سأشفعه فيمن يحب أدخلهم الجنة.

سألت أحمد حمادى السرخسى: ما هو السبب فى توبتك فقال لى: سافرت ذات مرة من سرخس، وأخذت كل جمالى معى إلى الصحراء ومكثت مدة طويلة، وكنت دائما أحب الجوع وأعطى بعض طعامى للآخرين متذكرا قول الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] كانها امام نظرى وكانت لى عقيدة ثابتة فى الصوفية، فأتى ذات يوم أسد جائع فافترس جملا من جمالى وتأخر هنيهة إلى ربوة عالية، وصرخ فأتى على صوته كل الوحوش واجتمعوا حوله، فقطع الجمل إلى قطع، ورجع ثانية إلى محله دون أن يأكل شيئا فأخذت الوحوش الأخرى من الثعالب وابن آوى والذئاب يأكلونه، وانتظر الأسد حتى مضوا، فاقترب بعد ذلك ليأكل شيئا منها، فنظر على بعد ثعلبا أعرج فانسحب للوراء حتى أكل ذلك الثعلب نصيبه وبعد ذلك جاء وأكل منها جزءا بسيطا، فلما خلص منها قال لى وهو مار على: يا أحمد، أن تؤثر غيرك على نفسك فى مسألة الأكل هذا لا يليق إلا بالكلاب[2]، والرجل من يضحى بحياته ونفسه. فلما رأيت هذه الآية تركت كل مشاغل الدنيا وكان ذلك أول توبتى.

---

(١) سورة الحشر: آية ٩.

(٢) يبدو الكلام ناقصا. والعبارة ينبغى (أن تكون أن تؤثر غيرك على نفسك فى مسألة الأكل. لأن الأكل دون الإيثار لا يليق إلا بالكلاب).

قال جعفر الخلدى: جئت ذات ليلة إلى باب أبى الحسين النورى وكان يدعو الله فى العزلة فأردت أن استمع إلى دعائه، لأننى كنت أعلم أنه فصيح لبق فسمعته يقول: اللهم، قد سبق فى علمك وسلطانك وقدرتك، أن تعاقب أهل النار الذين خلقتهم بيدك، وإن شئت ملأت النار بهم، وأنت قادر على أن تملأ النار وكل كهوفها بى وحدى، وترسلهم إلى الجنة، فأندهشت من مقالته، فرأيت فى هذه الليلة أن آت أتانى وقال لى: إن الله يأمرك بأن تقول لأبى الحسين: إن الله عفا عنه وذلك بعطفه على خلق الله وإجلاله له سبحانه.
وقد سمى النورى لأنه كان إذا تكلم فى غرفة مظلمة أضاءت الغرفة بنور روحانيته، وكان يقرأ بنور الحق ما يخالج صدور تلاميذه، حتى أن الجنيد قال: أبو الحسين جاسوس القلوب. هذا هو حقيقة مذهبه. وهو أصل صحيح، وذو أهمية كبرى لمن له دقة نظر. وليس أصعب على الإنسان من بذل روحه عدم وعدم لا متاع عن محبوبه. لأن الله تعالى جعل هذا البذل مفتاحا لكل خير حيث قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] إذا بذل الإنسان نفسه فماذا تكون قيمة ثروته وصحبه وقميصه وطعامه، هذا هو أساس الصوفية. جاء أحدهم إلى رويم وقال له: «أوصنى»، فقال رويم: «يا ولدى فى ليس هذا الأمر غير بذل الروح إن قدرت على ذلك وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية». أعنى أن كل شئ غير هذا هو ترهات وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] ويقول أيضا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾[3] فالحياة الباقية إنما تنال ببذل النفس والتخلص من صالحها فى أداء أوامر الله وإطاعة أحبابه.
ولكن إذا نظرنا إلى الإيثار من وجهة المعرفة وجدنا أن الإيثار والاختيار تفرقة وأن حقيقة الإيثار هو الاتحاد مع الله، لأن الأصل الحقيقى لصالح النفس هو

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٢.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٩.
(٣) سورة البقرة: آية ١٥٤.

تركها، وما دام الطالب مشتغلا بالكسب فهو غارق، ولكن إذا جذبته جواذب العناية احتقر أعماله وفقد كل قوة على التعبير ولا يوافقه اسم بين الأسماء ولا وصف من الأوصاف ولا يجانسه شئ وقد قال الشلبى فى هذا المعنى:

غبت عنى فما أحس بنفسى ... وتلاشت صفاتى الموصوفة

فأنا اليوم غائب عن جميع ... ليس إلا لعبارة المألوفة

السهلية:

هم أتباع سهل بن عبد الله التسترى. وهو من محتشمى أهل التصوف وكبارهم كما تقدم ذكره. وفى الجملة كان سلطان الوقت فى زمانه، ومن أهل الحل والعقد فى هذه الطريقة. وله براهين ساطعة يعجز العقل عن إدراكها. وكان يشغل تلاميذه بالمجاهدة والعبادة يروى عنه فى خبر صادق أنه أمر أحد تلاميذه قائلا: اجتهد أن تقول طول يومك: يا الله يا الله وافعل ذلك اليوم بعد التالى، والذى بعده إلى أن اعتاد هذا الشخص على هذه الكلمات. فأمره بعد ذلك أن يكررها ليلا حتى صارت عادة له ينطق بها عند منامه وعند قيامه، ثم أمر الا ينطق بها ولكن أن يجعل أعضاءه مداومة فى ذكر الله فعمل هذا التلميذ حتى اشتغل فكره فى الله. وقال بعضهم: «ذكر اللسان غفلة، وذكر القلب قربة».

وكان يوما فى بيته فسقطت على رأسه قطعة من خشب السقف فجرحت رأسه وكانت نقط الدم التى سالت تخط فى الأرض: الله. الله. الله.

وطريقة السهيلة: أن يعلموا تلاميذهم بموجب المجاهدات والعبادات، أما طريقة الحمدونية[1] فهى خدمة الفقراء واحترامهم، وطريقة الجنيدية مراقبة الباطن. والمقصود من كل هذه العبادات والمجاهدات هو معارضة النفس، وما دام الإنسان لا يعرف فعبادته لا فائدة فيها، ولذلك وجب أن أبين لك معرفة النفس وطبيعتها وفى التالى أوضح لك طريق المجاهدة وأساسه.

---

(١) الحمدونية نسبة إلى حمدون القصار ويقال لهم القصارية أو الملامتية.

بيان حقيقة النفس ومعنى الهوى

النفس فى علم اللغة: هى وجود الشئ لا حقيقته وذاته، ولكن يستعملها العوام بمعانى متناقضة لتدل على معنى الروح والجسد والمروءة والدم. والصوفية متفقون على أنها أصل الشر، ويقول البعض منهم: إنها عين من أعيان الجسد كالروح مثلا، بينما الآخرون يعتقدون أنها صفة من صفات الجسم قائمة به كالحياة. ولكنهم متفقون أنها تصدر عنها كل الأعمال الخبيثة، وأنها السبب الوحيد للأعمال التى يلام عليها. وهذه الأعمال منقسمة إلى قسمين: المعاصى، والأخلاق الدنيئة: مثل الكبر والحسد والبغضاء والغضب والحقد وخلافها من الأعمال التى لا يحمدها الشرع ولا العقل، وهذه الصفات يمكن أزالتها بالرياضة أما المعاصى فيمكن أزالتها بالتوبة. والمعاصى راجعة إلى أعمال الظاهر، بينما ترجع الأوصاف السابق ذكرها إلى أعمال الباطن، ولهذا فإن الرياضة أعمال ظاهرية والتوبة صفة باطنية. فالخلق القبيح الذى يظهر من باطن النفس يمكن إزالته بأخلاق كاملة ظاهرية، كما يمكن تطهير الخطايا الظاهرية عن طريق الصفات الباطنية المحمودة، والنفس الدنية والروح أجسام لطيفة موجودة فى الجسم، كما أن الأبالسة والملائكة والجنة والنار موجودة فى العالم، ولكن أحدها محل للنفع والآخر محل للضرر، مثلما تكون العين محلا للبصر، والأذن للسمع، والفم للذوق وما يشا به ذلك من الأعيان والأوصاف المودعة فى الإنسان، لذلك كانت معارضة النفس الأمارة بالسوء من أكبر أعمال المجاهدات، ورأس كل العبادات، وبها لا بغيرها يمكن الإنسان الوصول إلى الله، لأن الخضوع للنفس الأمارة بالسوء يجب الهلاك، ومقاومتها توجب النجاة. لذلك أمر الله تعالى وتقدس بخلافها، ومدح الذين يجاهدونها وذم من يسيرون حسب هواها كما قال تبارك وتعالى :

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾(٢) وأخبر عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾(٣).

وقال الرسول: «إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه». وورد فى الأخبار: أن الله أوصى داود عليه السلام: «يا داود عاد نفسك وودنى بعداوتها فإن ودى فى عدواتها».

وكل صفة تحتاج إلى موصوف حتى يقوم بها إذ لا تقوم بنفسها، لأن معرفة هذه الصفة التى نحن بصددها وهى النفس لا يمكن الوصول إليها إلا بمعرفة كليات الجسم. وهذه المعرفة تتطلب بيانا كافيا عن أوصاف الطبيعة الإنسانية وأسرارها. وذلك لازم على كل طلاب الحق لأنه من جهل نفسه فقد جهل أمورا كثيرة، وحيث أن الإنسان مطالب بمعرفة الله، لذلك فعليه أن يعرف نفسه، حتى إذا عرف نفسه شاهد بوجوده المؤقت قدم الله تعالى، وبفنائ بقاءه سبحانه وبذلك قال رسول الله ﷺ ونص الكتاب فاطق بذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(٤) يعنى جهل نفسه وقال أحد الشيوخ: «من جهل نفسه فهو بالغير أجهل».

قال رسول الله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» لأنه متى عرف نفسه بالفناء فقد عرف ربه بالبقاء ويقال: «من عرف نفسه بالذلة فقد عرف ربه بالعزة: من عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية ومن لم يعرف نفسه حرم كل المعرفة».

---

(١) سورة النازعات: آية ٤٠-٤١.
(٢) سورة البقرة: آية ٨٧.
(٣) سورة يوسف: آية ٥٣.
(٤) سورة البقرة: آية ١٣٠.

بقى علينا أن نتكلم فى الطبيعة الإنسانية، والآراء المختلفة فيها، فبعضهم يعتقدون أن الإنسان هو الروح، وهذا الجسم ودرع أو هيكل لها لكى يحفظها من ظلمات الطبائع، والحس والعقل من صفاتها. وهذا الرأى رأى فاسد لأن الجسم الذى بدون روح يسمى إنسانا، فإذا اتصلت به الروح كان انسانا حيا، وإذا خرجت منه الروح فهو إنسان ميت زد على ذلك أن النفوس موجودة فى كل الدواب ولا يسمى أحد منها بالإنسان. فإذا كانت الروح هى سبب الإنسانية لزم أن تكون الإنسانية موجودة فى كل المخلوقات الحية، وعلى وذلك فهذا الرأى فاسدد. والبعض يقولون: أن اسم الإنسانية ينطبق على الروح والجسد فى آن واحد ولا ينطبق على أحدهما إذا افترق عن الأخر، كما أن اللونين الأسود والأبيض إذا اجتمعا فى حصان قيل عنه إنه أبلق فاذا افترقا عن بعضهما قيل للأبيض أبيض وللأسود أسود. وهذا ظن كاذب، وبرهان ذلك قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[1] يتضح من هذه الآية الشريفة: أن الطينة الإنسانية التى كانت بدون روح لأن الروح لم تتصل بها بعد، كانت تسمى إنسانا. والبعض يظنون أن الإنسان جوهر دقيق موجود فى القلب الذى هو مصدر الصفات البشرية. وهذا أيضا ظن فاسد لأنه إذا قتل أى إنسان وأخرج قلبه من جسده فإنه لا يفقد اسم الإنسانية. زد على أنه من المتفق عليه أن القلب لم يكن بالجسد قبل الروح. وبعض مدعى التصوف وقعوا فى هذا الخطأ بهذا الموضوع، فيقولون بأن الإنسان ليس هو الذى يأكل ويشرب ويتألم ويموت، ولكنه سر إلهى كان هذا الجسد رداء له، وهو موجود بامتزج الطبع واتحاد الجسم.

أقول ردا على هذا، أن اسم الإنسان بالإجماع قد وضع على الرجل العاقل والمجنون، وللمشركين والمؤمنين، وللجاهلين الذين ليس بهم مثل هذا

---

(٢) سورة الإنسان: آية ١.

السر، ويأكلون ويتألمون ويموتون، ولا يوجد شئ فى الجسم يسمى إنسانا حالة وجوده أو بعد فنائه، وضع الله تعالى اسم الإنسان على المادة التى ركبها خالية من تلك الأشياء، التى ليست موجودة فى بعض بنى الانسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] وهذا قول الله تعالى وهو أصدق القائلين لذلك كان الشكل المخصوص بكل عناصره، وكل ما يعتوره من التغيرات هو إنسان. ويشابه ذلك ما قاله بعض السنية من أن الإنسان هو المخلوق الحى ذو الشكل والصفات المخصوصة، وأن الموت لا يخرجه من هذا الإسم وأنه صورة المعهود، وآلة المرسوم بالظاهر والباطن. وبقولهم: صورة المعهود يعنون بها المرض أو الصحة، وبقولهم: آلة المرسوم يعنون بها العقل والجنون. ومن المعقول أنه كلما كان الشئ صحيحا كمل فى تركيبه لذلك وجب عليك أن تعرف رأى الصوفية فى ذلك وهو أن الإنسان مركب من ثلاثة عناصر مختلفة: الروح، والنفس، والجسم، وأن كل هذه الأشياء الثلاثة لها أوصاف موجودة فيها فصفة الروح العقل، وصفة النفس الهوى، وصفة الجسم الحس. والإنسان نموذج العالم، والعالم اسم لكلا الدارين، والإنسان فى كليهما يكون صورة لهما، لأنه مركب من بلغم ودم وصفراء وسوداء. هذه الأنواع الأربعة توافق عناصر هذا الكون وهى الماء والتراب والهواء والنار وعلاقة العالم الآخر: الجنة والنار والأعراف، فالروح هى نتيجة غضبه، والجسد هو الأعراف، لأنه قد يكون السبب فى القهر والأنس. وبالمثل فإن روح المؤمن تشرف عليها المعرفة، ونفسه تقذف عليه الخطيئة فهى تحجبه عن الله كما أنه فى يوم القيامة سيتخلص المؤمن من النار، قبل أن يصل الجنة لكى ينال المشاهدة الحقة والحياة الفاضلة. كذلك

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١٢-١٤.

فى هذه الدنيا يلزمه أن يفر من نفسه قبل أن يصل إلى درجة السلوك الذى لا يكون حقيقيا إلا بمعونة الروح المقربة إلى الله بالمعرفة ـ لذلك فإن من عرفه فى هذه الدنيا والتفت بوجهه عن كل شئ سواه، سالكا صراطه المستقيم، كان حقيقا بأن لا يرد النار ولا الصراط فى يوم الحشر. وبالاختصار فإن روح المؤمن تدعوه إلى الجنة وهى نموذج لها فى هذه الدنيا، ونفسه تدعوه إلى النار وهى نموذج لها فى هذه الدنيا، لذلك كان من الواجب على طلاب الحق ألا يهملوا فى مقاومة النفس الأمارة بالسوء حتى يكونوا بذلك معوانا للروح والفهم وهما بيتا السر الألهى.

(فصل)

أما ما قاله العارفون فى هذا الموضوع المختص بالنفس فقد قال ذو النون المصرى: «أشد الحجاب رؤية النفس وتدبيرها». لأن طاعتها هى مخالفة لله وذلك هو أصل كل الحجب قال أبو يزيد البسطامى: «النفس صفة لا تسكن إلا بالباطل». أعنى أنها لا تطلب الحق، قال محمد بن على الترمذى[1]: «تريد أن تعرف الحق مع بقاء نفسك فيك، ونفسك لا تعرف نفسها، فكيف تعرف غيرها؟». أى نفسك فى حال بقائها محجوبة فى نفسها فإذا حجبت بنفسها كيف تكاشف خالقها قال الجنيد: «أساس الكفر قيامك على مراد نفسك، لأن النفس الدنيئة لا تتصل بحقيقة الإسلام، وتجتهد أن تبعد عنها ومن التفت أنكر ومن أنكر أشرك». قال أبو سليمان الدارنى: «أن النفس خائنة مانعة، وأفضل الأعمال خلافها». فهى خائنة فى الأمانة، ومانعة فى طلب الرضاء فالخيانة فى الأمانة غيريه وترك الرضاء فقدان. وأنفاسهم فى هذا المعنى أكثر من أن تعد هنا. أرجع إلى مقصدنا الأصلى، وهو أن نبين حقيقة

---

(١) محمد بن على الترمذى: هو الحكيم الترمذى المولود في سنة ٢٠٥هـ والمتوفى سنة ٣٢٠هـ «انظر السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من السنة النبوية. رسالة دكتوراه للدكتور احمد السايح. وقد حققنا كتابه (ختم الأولياء) نشر مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٦ .

مذهب السهلية المختص بمجاهدة النفس وتربيتها.

فصل فى مجاهدات النفس

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه فى الله»، وقال أيضا: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة النفس»[2] قد حكم رسول الله ﷺ: أن مجاهدة النفس هى أشق من جهاد السيف هذا لأن الأول أشد ألما، وحيث علمت ذلك لزمك أن تعرف أن طريقة المجاهدة ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، وأنه قد وافق عليها أكابر الأئمة، وجميع الفرق والأديان والملل، وإنما يلاحظها ويراقبها أهل التصوف على الخصوص. وعبارة مستفيضة بين الصوفية على اختلاف طبقاتهم، وقد تكلم المشايخ عليها بكثير من الحكم.

أما سهل بن عبد الله فإنه أخذ بهذا الأصل، وجعله نهاية مقصده يروى أنه كان لا يفطر إلا مرة واحدة، فى كل خمسة عشر يوما، ولم يأكل إلا قليلا طوال حياته. ومع أن أهل التصوف يثبتون الحاجة إلى المجاهدة، ويقولون عنها إنها سبب من أسباب نيل المشاهدة؛ إلا أن سهل أثبت: أن المجاهدة هى علة المشاهدة وقد جعل الطلب سببا قويا فى الوصول، بل إنه كان يعتبر الحياة الدنيا، التى يقضيها الفرد فى الطلب أعلى قدرا من الحياة الآخرة. وقد قال: «إن أنت عبدت ربك فى هذه الدنيا نلت القرب منه فى الدار الآخرة، وبدون أن تعبده هنا لن تتقرب إليه هناك»، ويتبع ذلك أن مجاهدة النفس، بمعونة الله تعالى، هى أقرب سبب موصل إلى الله تعالى. فقد قيل: «المشاهدات مواريث المجاهدات». والآخرون يعتقدون أنه لا يوجد سبب ما يوصل إلى الله، ولا يتوصل إلى الله إلا بفضله. وهذا بعيد عن أعمال الإنسان، ولذلك فهم

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادى.

يقولون: إن المجاهدة ليست إلا لتهذيب النفس الأمارة بالسوء، لا للوصول لنيل القرب، وما دامت المجاهدة منسوبة للأنسان، والمشاهدة منسوبة لله، فإنه من المستحيل أن تنتج أحداهما الأخرى، وسهل يثبت رأيه بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١) أعنى أن كل من جاهد نفسه نال المشاهدة، وأنه قال أيضا: «أن كل الكتب السماوية، والشرائع الإلهية، والأوامر الدينية، توجب على الإنسان المجاهدة فإذا كانت المجاهدة لا توجب المشاهدة كانت كل هذه الكتب باطلة» زد على ذلك أن كل شئ فى هذه الدنيا والدار الآخرة متصل بأصول وأسباب، فإذا قلنا إن الأصول ليست لها أسباب انتهينا إلى حد الشرع الشريف والأوامر الإلهية؛ إذ لو كان ذلك كذلك لم تكن هناك حاجة إلى الواجبات الدينية، ولم يكن الطعام سببا للشبع، ولا الثياب سببا للدفء. لذلك كان إثبات الأسباب من التوحيد ونفيها من التعطيل، ومن أثبت ذلك فقد وافق على حقيقة المشاهدة، ومن أنكرها فقد أنكر وجود المشاهدة ألم تر أن الرياضة تغير طباع الوحوش وتبدلها بطابع الإنسان، كالحصان مثلا حيث أنك تراه يلتقط السوط من الأرض ويناوله لسيده، أو يدحرج كرة بالكيفية التى يعملها الصبى بدون شعور، والدخلاء يتعلمون بالتربية اللغة العربية، ويتبدل فيهم لسانهم الطبيعى؟ والبازى الوحشى يبلغ درجة من الرياضة بحيث إذا أطلقوه انطلق وإذا استدعوه عاد والكلب النجس المتروك يصل بالرياضة إلى مرتبة يكون فيها المصيد الذى يقوم به حلالا. إذن فحرام على الآدمى ألا يقوم بالرياضة والمجاهدة، ومثل هذا كثير ومدار الشرع والرسم على المجاهدة، والرسول ﷺ، مع قربه من الخلق، وبلوغه المراد، وأمنه العاقبة، وتحققه من العصمة، قد جاهد كثيرا، من القيام الطويل، والصيام المتصل حتى نزل عليه قول الله تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾(٢) وروى أبو هريرة: «أن الرسول ﷺ كان يحمل حجرا بيديه

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

(٢) سورة طه: آية ١-٢.

الكريمتين فى عمارة المسجد، وكان التعب يبلغ منه كل مبلغ، قلت: يا رسول الله، أعطنى الحجر أحمله عنك، قال: يا أبا هريرة، خذ غيره، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة» وروى حيان بن خارجة: «سألت عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما تقول فى الغزو؟ قال إبدأ بنفسك فاغزها، فإنك إن قتلت فارا بعثك الله فارا. وإن قتلت مرائيا بعثك الله مرائيا، وإن قتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا». وإذن فما دام لتأليف العبارات وتركيبها أثر فى المعانى فإن لتأليف المجاهدات وتركيبها أثرا فى الوصول إلى المعانى الروحية، فكما لا يصح بيان بلا عبارة، لا يصح وصول بلا مجاهدة. ومن يدعى ذلك مخطئ. ذلك أن وجود العالم، وثبوت الحدوث دليلان لمعرفة الله تعالى، ومعرفة النفس ومجاهدتها دليلان على الوصول.

وهنا أبين لك براهين الطائفة المعارضة لهم، فهم يقولون: أن الآية التى أشار إليها سهل لعب فيها التقديم والتأخير دوريهما، ومعناها الحقيقى «الذين هديناهم سبلنا يجاهدون فينا» قال رسول الله ﷺ: «لن ينجوا أحدكم بعمله، قالوا يارسول الله ولا أنت قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته» فالمجاهدة هى من أعمال الإنسان، ولا يمكن أن يكون عمله سببا فى نجاته المرتكنة على إرادة الله تعالى الذى قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾(١) وقال أيضا: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾(٢) بإثبات إرادته تعالى قد أنكر أثر الشرائع الإلهية التى وضعت لبنى الإنسان. وإذا كانت المجاهدة هى سبب الوصول فلم طرد إبليس من رحمة الله؟. وإذا كان إهمال المجاهدة سببا فى الطرد فلم قبل الله آدم؟ ـ فالسبب محمول على العناية الإلهية وليس على كثرة المجاهدة وليس كل من جاهد نفسه يكون آمنا ولكن كل

---

(١) سورة الانعام: آية ١٢٥.
(٢) سورة آل عمران: آية ٢٧.

من تفضل الله عليه يكون قريبا منه. فالراهب فى صومعته ربما كان بعيدًا عن الله والعاصى فى معصيته، حتى وهو فى الخرابات، ربما كان قريبا منه، وإن أكرم شئ فى هذه الدنيا هو إيمان الأطفال الذين لم يكلفوا بظاهر الشرع، والمجانين الذين هم من هذا النوع أيضا، فإذا لم تكن المجاهدة وذلك لأن المجاهدة سببا فى نيل أكبر العطايا فلا لزوم للأسباب فى الأعمال الصغرى. أقول أنا على بن عثمان الجلابى: ان الفرق بين هاتين الطائفتين ليس إلا فى العبارة: احداهما تقول من طلب وجد. والأخرى تقول من وجد طلب. فالبحث هو سبب الوجود وليس بأقل من أن نعتبر أن الوجود هو سبب البحث ففريق يعتمدون على المجاهدة لنيل المشاهدة. والأخرون يعتمدون على المشاهدة لنيل المجاهدة هى فى مقام واحد بالنسبة للمشاهدة مع توفيق الله، الذى هو عطاؤه لطاعته، لأنه من الخطأ المحض أن يطلب الإنسان الطاعة بدون التوفيق كذلك من العبث أن يطلب التوفيق بدون طاعة، وحيث أنه لا مجاهدة بدون مشاهدة، فلا مشاهدة بدون مجاهدة، والإنسان يساق إلى المجاهدة بومض من الجمال الإلهى، كما أن هذا الومض هو سبب فى وجود المجاهدة، فالهداية إذا سابقة للمجاهدة.

أما بخصوص ما استدل به سهل وأتباعه من أن إنكار المجاهدة يوجب جحود الشرائع الإلهية، التى أنزلها الله تعالى للعمل بها، فهذه القضية تحتاج إلى تصحيح، لأن التكليف مبنى على الهداية، وأعمال المجاهدة إنما تستعمل لأثبات آيات الله لا للاتحاد معه. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الانعام: آية ١١١.
(٢) سورة البقرة: آية ٦.

إذ يتساوى عندهم الترهيب والترغيب، فقلوبهم مختومة لأن سبب العقيدة ليس إلا إرادتنا، وليست بأعمال المجاهدة، حينئذ يكون ما أوحى الله به إلى أنبيائه وما أنزله عليهم من الأديان السماوية ليس الا سببا للوصول، لا علة لأنه بالنسبة للفرائض قد استوى أبو بكر وأبو جهل لكن أبا بكر وصل بعدله وفضله، بينما هلك أبو جهل بعدله وفضله، لذلك فعلة الوصول هو الوصول نفسه، لا طلب الوصول، لأنه لو كان الطالبون متحدين مع المطلوب لكان الطالب والمطلوب واحدا، وفى هذه الحالة لا يكون طالبا، لأن الواصل قد استراح، بينما الطالب ليس كذلك، وقال ﷺ: «من استوى يوماه فهو مغبون»[1] أى أن الطالب يستوى يوماه غبن، فالواجب عليه أنه يتقدم وهذه درجة الطالبين. وقال أيضا: «استقيموا ولن تحصوا»[2]، إذن فقد رأى أن للمجاهدة سبب وأثبت هذا السبب كما أثبت حجته ونفى الوصول من السبب لتحقيق الإلهية.

أما من جهة برهانه أن أوصاف الخيل تتغير بالمجاهدة، فاعلم أن المجاهدة سبب استخرج أوصاف كانت كامنة فى الخيل، لكنها لم تظهر إلا بعد التربية، لأن المجاهدة لا تجعل الحمار حصانا، ولا الحصان حمارا، لأن هذا تغيير للحقائق. وحيث أن المجاهدة ليس لها قوة على تغيير الحقائق فإنه من المستحيل إثباتها فى الحضور مع الله. لقد كانت تحدث لهذا المرشد مجاهدات يخص بها نفسه، ومع أنه كان متحققا بها فإنه لم يكن يقدر على التعبير عنها بالكلمات، ولم يكن مثل بعضهم الذين جعلوا ديدنهم التكلم فى المجاهدة بدون العمل بها. فما أقبح أن ينقلب العمل إلى مجرد كلام، وبالاختصار فالصوفية يجمعون على وجود المجاهدة وتهذيب النفس، ولكن يخطئ من جعل قصارى جهده التفكير فيها، فهؤلاء الذين ينكرون المجاهدة لا ينكرون حقيقتها، ولكن ينكرون مجرد النظر إليها أو أن أحدهم يفرح بأعماله، ذلك أن المجاهدة عمل الانسان أما المشاهدة هى الحالة التى يضع الله تعالى

---

(١) حديث موضوع – انظر كشف الخفاء للعجلوني.

(٢) رواه أحمد وابن حبان وغيرهما.

بها عبده. ولن تكون لأعمال الإنسان قيمة إلا إذا أعده الله تعالى لها. ولعمرى إنك لا تحصل بنفسك على قلبك حتى لو قمت بتزيينه كثيرا بنفسك ولم تر فضله. فمجاهدة الذين يحبهم الله عمل الله فيهم بدون اختيار من أنفسهم، وذلك يغمرهم؛ ويغنيهم عن وجودهم؛ ولكن مجاهدة الجهلاء هى عمل أنفسهم من أنفسهم باختيارهم، وذلك يزعجهم ويحزنهم، والحزن من الشيطان. لذلك يلزمك الا تتكلم عن أعمالك ما دمت لا يمكنك تجنبها، ولا تتبع فى أى حال من الأحوال نفسك الأمارة بالسوء، لأنها هى التى تحجبك عن الله تعالى، لأنك إذا حجبت بعمل واحد من أعمالك لزم أن تحجب بعمل آخر، وحيث أن وجودك كله حجاب فأنت لا تستحق البقاء تفنى فناء كاملا، «لأن النفس كلب باغ وجلد الكلب لا يطهر إلا بالدباغ».

يروى عن مصدر ثقة: أن الحسين بن منصور الحلاج أتى إلى الكوفة، ونزل ببيت محمد بن حسين العلوى، فصادف أن وصل إبراهيم الخواص إلى الكوفة أيضا، فلما سمع بالحلاج ذهب ليراه، فقال له الحلاج: «يا ابراهيم، ماذا أفدت من الصوفية خلال هذه السنين الأربعين، التى اتصلت فيها بهم؟؛ فأجابه ابراهيم قائلا: لقد جعلت مبدأ التوكل على الله مبدأى، فقال الحلاج: ضيعت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد» أعنى أن التوكل عبارة تدل على حسن سلوكك فى الله، وكمالك الروحانى فى أن تعتمد عليه، فاذا أمضى الإنسان حياته فى مداراة حاله الروحانية، احتاج إلى عمر آخر ليداوى طبيعته الإنسانية، وقضى عمره دون أن يجد طريقا يوصله إلى الله.

حكى عن الشيخ أبى على سياه المروزى[1] أنه قال: «رأيت نفسى الأمارة بالسوء على صورة تشابهنى فأمسكها أحدهم من شعرها وقدمها لى، فربطتها فى شجرة، بعد أن عزمت على هلاكها، فقالت لى: يا أبا على، لا تتعب نفسك فإنى من جيوش الله ولا يمكنك أن تفنينى». يروى عن محمد بن عليان النسوى وكان من كمل أصحاب الجنيد أنه قال: لما كنت فى بدايتى، وعلمت بخبائث النفس الأمارة بالسوء ومخبآتها، كنت أشعر بشدة كرهى لها من قلبى،

---

(١) ويقال أبو على الأسود سياه المروزى.

فخرج ذات يوم من حنجرتى شئ مثل جرو الثعلب، وأعلمنى الله بأنها نفسى، فجعلتها تحت قدمى وكلما رفستها ازدادت ضخامة، فقلت: إن كل الأشياء تهلك بالألم والضرب، فلماذا تزدادين؟. فأجابتنى: بأنى خلقت بالعكس، حيث أن كل ما يؤلم الأشياء الأخرى يسرنى. وأن ما يسرها يوذنى. قال الشيخ أبو العباس الأشقانى، الذى كان إمام عصره، دخلت ذات يوم إلى بيتى، فوجدت كلبا أصفر نائما على فراشى، فظننت أنه دخل من الشارع، فأردت أن أطرده، لكنه أنسل بين قميصى واختفى. وقد قال الشيخ أبو القاسم الجرجانى، وهو قطب عصرنا هذا، أنه كان فى أيام بدايته يرى نفسه على صورة الثعبان؛ وقال درويش: رأيت نفسى على صورة الفأر فقلت له: من أنت؟. فقال: أنا مهلكة الغافل، لأنى أحضه على الشر، ونجاة لمن يحبون الله، لأنى لو لم أكن معهم بدنسى لكانوا يتكبرون عجبا، إذ أنهم حينما ينظرون إلى طهارة قلوبهم وصفاء صدورهم ونور ولا يتهم واستقامتهم يظهر زهوهم، ثم، إنهم حينما ينظرون إلى ما بين جنبيهم يتطهرون. بكل هذه الحكايات نثبت أن النفس مادة عينية وليست بصفة، ولها صفات نشاهدها حقا، قال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك» فإذا ازددت معرفة بها تحققت أنه ليس فى وسعك أن تسيطر عليها إلا بالتهذيب، لكن حقيقتها ومادتها لا تفنى، فإذا عرفها الإنسان حق المعرفة، وصارت منقادة له فعندئذ ليس على الطالب أن يقلق رغم وجودها لأن النفس كلب نباح وإمساك الكلب الرياضة مباح، لذلك كان القصد من مجاهدة النفس إن تقضى على صفاتها لاعلى حقيقتها، وللشيوخ فى ذلك حكم كثيرة، واكتفى بذلك مخافة التطويل. والآن أبين لك حقيقة الهوى والتجرد من اللذة.

بيان فى حقيقة الهوى

اعلم أعزك الله أن بعض أهل الرأى يقولون إن الهوى لفظ يطلق على صفات النفس.

ويروى الآخــرون: أنه اصطلاح يدلك على إرادة الطبع الذى به تنقــاد النفس الأمارة، كما تنقاد الروح بالفهم وكل روح خالية من الفهم غير كاملة، كما أن كل نفس خالية من الهوى ناقصة. ونقص الروح نقص القرب، ونقص النفس عن القرب. والإنسان مجدوب بعامل عقله وهواه إلى طرق متباينة، فإذا أطاع دعوة الفهم نال الإيمان، أما إذا أطاع هواه فإنه يصل إلى الضلالة والكفران، لذلك فالهوى حجاب ودليل باطل، والإنسان مأمور بمقاومته، ومنهى عن ركون إلى هواها. كما يقال لأن من ركن إلى هواها هلك، ومن خالفها ملك. كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾(١) وقال النبى ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى أتباع الهوى ونهى النفس عن الهوى» وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾(٢) أى أن الهوى إله معبود فويل لكل من يكون الهوى معبوده، ويكون همه فى الليل والنهار طلب رضى هواه. والهوى على قسمين: هوى فى طلب الشهوة واللذة، وهوى فى طلب الدنيا والرياسة. فمن طلب اللذة والابتهاج لها أوى إلى الحانات، وسلم الناس معصيته، ولكن من كان مراده الشهدة والنفوذ سكن الصوامع والأديرة، وبعد بذلك عن طريق الحق، وصار فتنة للخلق. وزد على ذلك أنه قاد غيره إلى طريقه، وكل من اعتمد على هواه، وسكن إلى اتباعه فهو بعيد عن الله تعالى، وإن كان معك فى المسجد، ومن ترك هواه وتجرد منه فهو قريب من الله تعالى، وإن كان بالكنيسة. روى ابراهيم الخواص أنه قال: «سمعت مرة أنه يوجد فى الروم راهب أقام سبعين سنة فى دير من الأديرة فاستعجبت لذلك، وقلت إن أربعين سنة هى أقصى مدة يتعهد الراهب بقضائها فى الدير فكيف تكون حال هذا الرجل الذى أقام سبعين سنة؟. فذهبت لأراه فلما اقتربت منه فتح كوته وقال لى: يا ابراهيم،

---

(١) سورة النازعات: آية ٤٠.

(٢) سورة الجاثية: آية ٢٣.

إنى أعلم لماذا جئت، إنى لم أمكث هنا هذه السبعين سنة تنسكا، ولكن مخافة من كلب هواى، وقد أحببت السكنى هنا لمراقبة هذا الكلب حتى أحفظه من أن يضر الغير. فلما سمعت منه ذلك قلت: اللهم إنك قادر على أن تتفضل على الرجل بأتباع سبيل الحق، رغم وقوعه فى الضلالة!. فقال لى: يا إبراهيم إلى متى تبحث عن الناس اذهب وابحث عن نفسك فإذا وجدتها فراقبها مراقبة، لأن هذا الهوى يلبس فى اليوم ثلاثمائة وستين حلة يضل الناس بها.

وبالاختصار: فإبليس لا يمكنه أن يدخل قلب الإنسان إلا بعد أن يريد عمل معصية ولكن إذا ظهر فى القلب شئ من الهوى يمسك بها الشيطان ويزينه للإنسان. وهذا ما يسمى الوسواس، وأصله الهوى وبالإشارة إلى هذا الأمر قال الله تعالى لإبليس عندما قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١) الآية: ﴿ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(٢) لأن إبليس فى الحقيقة ليس إلا النفس الأمارة بالسوء والهوى، لذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وقد غلبه شيطانه الا عمر قهر شيطانه».

فالهوى إذن ممزوج بطينة آدم وريحانه قلوب أبنائه لقوله عليه الصلاة والسلام: «الهوى والشهوة معجونة بطينة ابن آدم». فمن تجرد عنه صار ملكا، ومن اتبعه صار أسيرا، فزليخا حين اتبعت هواها وكانت أميرة، وصارت أسيرة. أما يوسف حينما خالف هواه، كان أسيرا فصار أميرا.

سئل الجنيد: «ما هو الوصل فقال:.ترك الهوى» لأنه لا يوجد عمل من أعمال القربات إلى الله تعالى أكبر من مقاومة الهوى، لأنه من السهل على الإنسان أن يظفر بكل ما عليه من أن يقاوم هواه. قرأت فى حكايات ذى النون المصرى أنه قال: «رأيت انسانا يطير فى الهواء، فسألته بماذا بلغت هذه الدرجة؟. فقال: قد وضعت قدمى على الهوى طلبا فى أن أطير فى الهواء».

---

(١) سورة ص: آية ٨٢.
(٢) سورة الحجر: آية ٤٢.

يروى عن محمد بن الفضل البلخى أنه قال: «انى لأعجب ممن يذهب بهواه إلى بيت الله ليزوره كيف لا يطأ على هواه حتى يصل إليه سبحانه. والشهوة هى أقوى صفات النفس الأمارة بالسوء وهى من الأمور المنتشرة فى كل عضو من أعضاء البدن وتخدمها الحواس. واللازم على الإنسان يحفظ أعضاءه منها حيث أنه سيسأل عن كل عمل من أعمالها. فشهوة العين فى النظر، وشهوة الأذن فى السمع، وشهوة الأنف فى الشم، وشهوة اللسان فى الكلام، وشهوة الذوق فى الطعام، وشهوة الجسد فى اللمس، وشهوة العقل فى الفكر.

ومن الواجب على طالب الحق أن يصرف كل أيام حياته ولياليها فى أن يخلص نفسه من شباك الهوى التى تبدو وتظهر عن الحواس، ويسأل الله تعالى أن يخلص باطنه منها، لأنه من ابتلى بالشهوة فهو محجوب بها عن الأمور الروحانية، ومن أراد أن يتخلص منها بحوله فإن عمله يكون شاقا طويلا. وأكمل الطريق هو التسليم. يروى أن الشيخ أبا على سياه المروزى قال: «ذهبت إلى الحمام وكان معى شفرة اقتداء برسول الله ﷺ فقلت فى نفسى: يا أبا على جز هذا العضو الذى هو أصل كل شهوة وكل بلية، فسمعت صوتا يهمس فى قلبى قائلا: يا أبا على كيف تدخل فى أمور مملكتى، أليست أعضاؤك متساوية تحت سلطانى؟ فوعزتى وجلالى لإن فعلت هذا لأضعن تحت كل شعرة من هذه الشعرات مائة شهوة بدلا منها.

منتنى الإحسان دع إحسانك اتركه يخشى الله باذنجانك

ومع أن الإنسان ليس له قوة ولا سلطان على ما فى طبعه من شرور فإنه يصل إلى أن يغير صفة من هذه الصفات بمعونة الله تعالى، وتسليم نفسه لقضائه والتخلص من حوله وقوته إلى حول الله تعالى وقوته. وفى الحقيقة أنه إذا سلم نفسه حفظه الله، وبحفظ الله تعالى يكون أقرب إلى هلاك شيطانه، مما لو استعان بمجاهدة نفسه، حيث أنه من السهل أن تطرده «لأن نفى الذباب بالمكبة أيسر من نفيه بالمذبة» فإن لم يسبق حول الله تعالى

للإنسان فإنه لا يمتنع عن أى شئ يحوله وكل عمل بالحول موضوع تحت نوعين: إما أن يتخلص الإنسان من قضاء الله تعالى، أو ينال الإنسان شيئا على رغم القضاء، وكلا هذين الأمرين مستحيل، فالجد بالله يكون جدا، وحينما لا يكون من الله جد للعبد فلا نفع له وتسقط قوة طاعته بالجد، وترتبط به كل أنواع الجهود فإما أن يحول قضاء الحق أو يكسب شيئا بنفسه وهذان مستحيلان.

يروى عن الشبلى أنه لما كان مريضا أتاه طبيب فأوصاه بالحمية فقال له: أمتنع عما ينعم على به ربى؟ أم عما لم ينعم على به؟، ومن المستحيل أن امتنع عن الأول والأمر الثانى ليس فى يدى. فإن المشاهد لا يجاهد.

سأشرح هذا الموضوع شرحا وافيا فى غير هذا الموضوع.

الحكيمية:

هم أتباع أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى. كان إمام من أئمة الدين فى عصره، ومؤلفا لكتب كثيرة فى كل علوم الظاهر والباطن، ومذهبه مؤسس على الولاية، وله عبارات عن حقيقة الولاية ومراتب الأولياء. وله نظر فى ترتيب درجاتهم وهذا بحر بلا نهاية ولكى تعلم مذهبه يلزمك أن تعرف أن الله تعالى له أولياء استخلصهم من بنى الإنسان، جعل قلوبهم خالصة من شباك هذه الدنيا، ونجاهم من الإحساسات الباطلة وأقام كلا منهم فى درجة مخصوصة، وكشف لهم عن أسرار هذه المقامات، وكشف درر المعانى أمامهم. وفى هذا المعنى كلام كثير وعدة أصول، وسنبين لك ذلك على سبيل الاختصار فأقول وبالله التوفيق.

بيان فى أثبات الولاية

إعلم أن أصول التصوف ومعرفة الله تعالى مبنية على الولاية، وقد أثبتها كل المشايخ، رغم أنهم عبروا عنها بعبارات مختلفة، ومما اختص به

محمد بن على الحكيم أنه ربط بين الولاية وبين نظرية الصوفية. الولاية بالفتح هى النصرة، والولاية بالكسر، هى الإمارة، والولاية كذلك تعنى الربوبية لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾[1] لأن المشركين لو بحثوا عنه لوجدوه وتركوا آلهتهم. والولاية أيضا معناها المحبة، وقد تكون «ولى» صيغة فاعل بمعنى المفعول، حيث أن الله تعالى قال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[2] لأن الله سبحانه وتعالى لا يترك عبده لأعمال نفسه وصفاتها، ولكنه يتولاه. ولفظة «ولى» يمكن أن تكون صيغة فاعل، المساوية لفعيل، بمعنى المبالغة، لأن الإنسان يهتم بطاعة الله تعالى وأداء أوامره، لذلك كان الولى معنى من معانى المريد فاذا بنيت للمجهول دلت على معنى المراد. وكل هذه المعانى إذا دلتك على صلة الله بالعبد، أو على صلة العبد بالله فكلها مقبولة، لأن الله تعالى يكون وليا على أحبابه، كما إنه وعد بولاية لأصحاب رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3] وقال أيضًا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[4] وقال: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[5] فإذا لم يكن للكفار ناصر فمما لا شك فيه أن للمؤمنين ناصرا ينصرهم ويجعل عقولهم فى الاستدلال بالآيات وبيان المعالى وقلوبهم فى كشف البراهين أمام اسرارهم، وينصرهم فى مخالفة النفس والهوى والشيطان التوفيق لأمورهم وزد على ذلك أنه ربما يكون المعنى: بمودته كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[6] فليتفتون بذلك عن مرضاة بنى الإنسان فهو وليهم وهم أولياؤه وأنه سبحانه وتعالى يكرمهم بولايته، ويعينهم على القيام بطاعته ويحفظهم من المعصية، حتى يقيموا على طاعته، ويخشون معصيته ويهرب الشيطان من جوارحهم ويكرم الآخرين بولاية

---

(١) سورة الكهف: آية ٤٤.
(٢) سورة الاعراف: آية ١٩٦.
(٣) سورة البقرة: آية ٢١٤.
(٤)، (٥) سورة محمد: آية ١١.
(٦) سورة المائدة: آية ٥٤.

الحل والعقد واستجابة دعائهم. قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره». ومن المشهور أنه كان فى زمن ولاية سيدنا عمر بن الخطاب وقف النيل عن الزياده. وكانوا قبل الاسلام يرمو فيه كل سنة عروسا مزينة حتى يزيد فكتب له عمر يقول: «يأيها النيل إذا كنت وقفت بارادتك فقد أخطأت وإذا كان ذلك بأمر الله تعالى فعمر يأمرك بالزيادة» فلما ألقيت هذه الورقة فى النيل رجع إلى ما كان عليه. والقصد من بيان الولاية وإثبات حقيقتها أن تعرف أن لقب الولى لا يكون حقيقا إلا لمن تحلى بجمال المعانى المذكورة، وصلح حاله وقد كتب كثير من المشايخ المتقدمين كتبا كثيرة فى هذا الموضوع، لكنها صارت نادرة الوجود، وما أسرع أن اختفت. وسأشرح لك بعبارة ذلك المرشد الكامل الذى هو حجة هذا المذهب. لأن عقيدتى فيه كبيرة، حتى تزداد معرفة بها، ولا يكون ذلك مختصا بك نفسك ولكن لكل طلاب الصوفية لمن ساعدهم الحظ على قراءة هذا الكتاب.

(فصل)

أعلم أن لفظ «ولى» شائع بين العامة وهو موجود فى القرآن الشريف وأحاديث الرسول ﷺ قال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) وقال فى موضع آخر: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢) وقال أيضا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣) وقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لعبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله، صفهم لنا لعلنا نحبهم قال: قوم تحابوا بروح الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»(٤) ثم تلا الآية: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٥) وقد قال رسول

---

(١)، (٥) سورة يونس: آية ٦٢.
(٢) سورة فصلت: آية ٣١.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٧.
(٤) الجامع الصغير ٦٩/٢.

الله ﷺ: « إن الله تعالى قال: من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى» هذه الآيات الشريفة والأحاديث النبوية تدلك على أن لله تعالى أولياء، اختصهم بمحبته، وانتخبهم لأن يكونوا خلفاء عنه فى ملكه، وأظهرهم ليظهر لك عجائب قدرته، وأكرمهم بمختلف الكرامات، وخلصهم من طبائع نفوسهم، ونجاهم من إطاعة هوى أنفسهم، حتى صارت كل أفكارهم مشتغلة به سبحانه وتعالى، وعلاقاتهم معه لا غير. وقد كان ذلك فى الزمن الماضى وهم موجودون الآن وسيبقون إلى يوم القيامة، لأن الله سبحانه وتعالى شرف الدين الإسلامى على جميع الأديان، ووعد بأن يحفظه. وكما أن الأحاديث والبراهين الدينية قد قام بحفظها العلماء فيتبع ذلك أن البراهين الظاهرة موجودة بين الأولياء.

وأما معارضى هذا الموضوع. فطائفتان تردان موضوعنا هذا، وهم المعتزلة والحشوية. فالمعتزلة ينكرون أن يكون فرد من أفراد المسلمين مختصا دون غيره بكرامة. الرد عليهم: أنه إذا ضاعت خصوصية الولى فلا خصوصية لنبى. وهذا شرك.

أما الحشوية فيجيزون هذه الخصوصية، ويقولون بأن هؤلاء المختصين لم يعدلهم بقاء فى عصرنا هذا، ولو أنهم كانوا موجودين فيما مضى. وسواء أكان أنكارهم منطبقا على المستقبل أم على الماضى فإنكارهم ليس بأحسن من إثباتهم لأن الله سبحانه وتعالى قد أكرمنا ببقاء البرهان النبوى إلى يومنا هذا، وجعل الأنبياء سببا لظهوره لكى يجعل علامات الحق والبرهان الدامغ بصدق محمد ﷺ باقية على مضى الأزمان. والله سبحانه وتعالى جعل الأولياء حكاما على العالم لقد حبسوا أنفسهم على تنفيذ إرادته، بعد أن امتنعوا عن اتباع عواطفهم وميولهم، وإن الأمطار لتنزل من السماء ببركة إخلاصهم وإن النباتات لتنبت من الأرض لصفاء أنفاسهم، وإن المسلمين لينالون النصرة على أعداء الدين بهمتهم ومن بين هؤلاء أربعة آلاف مختفون، لا يعرف بعضهم بعضا ولا يدركون كمال مقاماتهم، وهم فى كل الأحوال

مختفون عن أنفسهم وعن بنى آدم. اثبتت ذلك أحاديث رسول الله ﷺ. وقد وافق ذلك أقوال الأولياء الأجلة وقد أكرمنى الله تعالى فى هذا الموضوع بخبر العيان، ومن أهل الحل والعقد وأعضاء الحضرة الإلهية ثلاثمائة يسمون بالأوتاد، وثلاثة يسمون بالنقباء وواحد يسمى القطب أو الغوث. كل هؤلاء يعرف بعضهم بعضا، ولا يبتون فى أمر إلا بموافقة الجماعة. والرواة ناطقون بصحة هذه الأخبار، وأهل السنة مجتمعون عليها.

عقيدتى فيه كبيرة، حتى تزداد معرفة بها، ولا يكون ذلك مختصا بك نفسك ولكن لكل طلاب الصوفية لمن ساعدهم الحظ على قراءة هذا الكتاب.

هنا يقول الجاهل ردا على قولى: بأنهم يعرف بعضهم بعضا، بدعوى أنه إذا كان ذلك كانوا آمنين من وجهة مآلهم فى الدار الآخرة. أقول له: من الخطأ المحض: أن تعتقد أن معرفة الأولياء توجب الأمان فالمؤمن يكون له معرفة بإيمانه ولا يكون آمنا، فلماذا لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للولى الذى يعرف ولايته؟ ومع ذلك فمن الممكن أن يطلع الله عبده بكرامة منه فيشهده أو يمنحه الأمان فى الدار الآخرة، ويحفظ عليه عافيته الروحانية ويتولاه بعدم الوقوع فى المعاصى.

والمشايخ يختلفون فى هذا السؤال للسبب الذى بينته فأقول: إن التابعين للأربعة آلاف المختفين، لا يقبلون القول بأن الولى يعرف نفسه بأنه ولى بينما. الآخرون الذين من القسم الثانى يرون غير ذلك. وكلا الطائفتين تحظى بتأييد عدد من الفقهاء والعارفين. فأبو اسحاق الأسفراينى وبعض المتأخرين يعتقدون بأن الولى يجهل بأنه ولى. وأبو بكر بن فورك وبعض المتأخرين يعتقدون بأنه يعلم ذلك. وإذا سئل أهل الطائفة الأولى ما الذى ينال الولى من الشر أو الحرمان بمعرفة نفسه؟. فإذا قالوا: بأنه يكون مغترا إذا عرف نفسه بأنه ولى؟ فأقول: بأن الولاية الإلهية لازمة فى أحوال الأولياء. وأن الرجل المحفوظ بعناية الله تعالى من الشيطان كيف يقع فى الغرور، وأنه من العجيب

أن وليا من الأولياء تنسب إليه كرامات؛ ولا يعرف نفسه بأنه ولى، ولا أن الكرامات هى كرامات، ولكلتا الطائفتين أتباع من العوام ولكن ليس لا بدائهم أى احترام.

أما المعتزلة فينكرون الكرامات كلية. ويرون أن كل المسلمين أولياء الله جل جلاله ما داموا مطيعين، وكل من يقوم بأحكام الإيمان ويقول بنفى الصفات عن الله تعالى، وأنكار أنه يمكن أن يرى رأى العين وبجواز خلود المؤمن فى النار، وبجواز التكليف بالعقل دون بعث الرسل أو نزل الكتب، يكون وليا باجماع المسلمين، ومثل هذا الشخص ولى، ولكنه ولى الشيطان.

والمعتزلة أيضا: يثبتون أنه إذا كانت الولاية لابد لها من الكرامة لزم أن يكون لكل المؤمنين كرامات تنسب إليهم، لأنهم شركاء فى الإيمان، ومن كان شريكا فى الأصول كيف لا يكون شريكا فى الفروع.

وهم يقولون أيضا: أن الكرامات تنسب إلى المؤمن والكافر على السواء، أعنى أنه إذا جاع أى إنسان أو تعب فى سفر ربما ظهر له من يطعمه أو من يعينه بركوب دابة. ويقولون أنه إذا كان فى وسع شخص ما أن يقطع مسافات شاسعة فى ليلة واحدة لكان ذلك فى وسع النبى عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك فعندما بدأ النبى رحلته إلى مكة أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾[1].

أقول: ردا على هذا الزعم إن برهانكم هذا باطل حيث أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[2] والكرامات خصوصية وليست بعمومية، فلو أن كل الصحابة قد نقلوا بمعجزة من المعجزات إلى مكة لقلنا إن الكرامة عمومية ولتعارض ذلك

---

(١) سورة النحل: آية ٧.
(٢) سورة الإسراء: آية ١.

مع مبادئ الإيمان بالغيب. فالإيمان عبارة عامة تنطبق على الصالح والشرير سواء بسواء أما الولاية فخصوصية، فسفر الصحابة رضوان الله عليهم إلى مكة واقع تحت القسم الأول، وحيث أن الأسراء برسول الله ﷺ عمل خاص به فالله تعالى قد أسرى به من مكة إلى القدس، ومن ثم إلى «قاب قوسين أو أدنى، فى ليلة واحـــدة ورجع ولم يمض من الليل شئ، وإنكار الإكـــرام الخصوصى ليس من الموافق عليه عقلا، حيث أنه توجد فى القصور الحراس والبواب والكلاف والوزراء ومع أنهم يقومون جميعا بخدمة الملك إلا أنهم ليسوا متساويين فى الدرجات لذلك فالمؤمنون متساوون بالنظر للإيمان لكن بعضهم عاص، وبعضهم مطيع والبعض الآخر عابد.

(فصل)

قد تكلم المشايخ جميعهم، بعبارات دقيقة، فى وصف معنى حقيقة الولاية وسأذكر لك نبذا منها: قال أبو على الجوزجانى: «الولى هو الفانى فى حاله الباقى فى مشاهدة الحق، لم يكن له عن نفسه أخبار ولا مع غير الله قرار»، لأن الإنسان يعلم بحال نفسه فقط، فإذا فنيت جميع أحواله عجز أن يتكلم عن خصوصية، ولا يرتاح لأحد غير نفسه يبث لها حاله، حيث أن اطلاع الغير على حاله الخفى يعد كشفا لسر المحبوب، الذى لا يمكنه أن يبوح به إلا للمحبوب نفسه. وزد على ذلك أنه فى حال مشاهدته لا يمكنه أن يعتبر أحد غير الله، ويلتفت لأحد غير الله، فكيف يرتاح مع ابن آدم. قال الجنيد: «من صفة الولى ألا يكون له خوف، لأن الخوف توقع مكروه يحل فى المستقبل، أو انتظار محبوب يفوت فى المستأنف. والولى ابن وقته، ليس له مستقبل ليخاف، وكما أنه لا خوف له لا رجاء له، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل، أو مكروه يكشف، وذلك فى التالى من الوقت، كذلك لا يحزن لأن الحزن من حزونة الوقت، ومن كان فى ضياء الرضا وروضة الموافقة فأين يكون له حزن كما قال

الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

ويظن العامة: أن الأولياء يشعرون بالأمن إذ ليس لديهم خوف أو حزن، والحقيقة أنهم لا يشعرون بالأمن، إذ أن الأمن ينشأ من عدم رؤية ما هو خاف، ومن تجاهل الوقت، وأن عدم الشعور بالأمن هو من صفات من لا ينظرون إلى بشريتهم، ولا يقنعون بصفاتهم فالخوف والرجاء والأمن والحزن كلها أوصاف تشير إلى مطالب النفس الأمارة بالسوء، فإذا فنيت هذه الأوصاف حل محلها الرضى، وإذا نال الإنسان الرضى كان مستقيما فى نظر المحول، والتفت بوجهه عن كل الأحوال فيكشف له مقام الولاية فى قلبه. وتتبلج له معانيها ظاهرة فى سره قال أبو عثمان المغربى: «الولى قد يكون مشهورا ولا يكون مفتونا» وقال آخر: «الولى قد يكون مستورا ولا يكون مشهورا إذ أنه يتجنب الشهرة والشهرة تورث الفتنة» وقال أبو عثمان: «من الجائز أن تكون شهرة لكنها شهرة بلا فتنة، لأن الفتنة لا تكون إلا عن باطل؛ وما دام الولى صادقا فى ولايته، والكرامة لا تظهر على يد كاذب فإن، الفتنة لا تلحق به.

هذان القولان يشيران إلى نقطة الجدل حول ما إذا كان الولى عالما بأنه ولى أم لا، فإذا عرف ذلك كان مشهورا، وإذا لم يعرف ذلك كان مفتونا. ولكن توضيح هذه العبارة يحتاج إلى تطويل. يروى أن إبراهيم بن أدهم قال لأحد الناس: «هل تحب أن تكون من أولياء الله؟ فقال له: نعم. فقال له: لا ترغب فى شئ من الدنيا والآخرة وفرغ نفسك لله وأقبل بوجهك عليه»، لأن الطمع فى هذه الدنيا التفات عن الله تعالى لشئ زائل والطمع فى الآخرة التفات عن الله تعالى لشئ باق والشئ الزائل يفنى ولا دوام له ولكن الشئ الدائم لا فناء له والزهد فيه لا يزول. قال أبو يزيد البسطامى عندما سئل من هو الولى: «الولى هو الصابر تحت الأمر والنهى» لأن الإنسان كلما أحب الله ازداد قلبه

---

(١) سورة يونس: آية ٦٢.

احتراما لأوامره وابتعد بجسمه عما حرمه. روى عنه أيضا أنه قال: «أخبرت أن وليا من أولياء الله تعالى موجود فى بلدة كذا، فهاجرت إليه، فلما وصلت إلى مسجده رأيته وقد خرج من مجلسه، فبصق على أرض المسجد، فالتفت عنه بدون أن أسلم عليه، وقلت فى نفسى: الولى يلزمه أن يحفظ حدود الله تعالى من البصق على أرض المسجد، أو على الأقل أن يحفظه الله تعالى من أن تنسب إليه هذه المعصية. فرأيت فى تلك الليلة رسول الله ﷺ يقول لى: يا أبا يزيد، إن الله سبحانه وتعالى سيكافئك على ما فعلت؛ وفى غد ذلك اليوم وصلت إلى الدرجة التى تراها».

· سمعت رجلا أتى أبا سعيد فدخل المسجد بشماله، فأمر تلاميذه بأن يطردوا هذا الرجل قائلا: إذا كان لم يعرف كيف يدخل بيت الحبيب فإنه لا يصلح لنا.

إن بعض الزنادقة يقولون بمبدأ خطير: مفاده أن عبادة الله تعالى لازمة لنيل الولاية ولكن إذا بلغ الإنسان مرتبة الولاية أهملها. وهذا خطأ محض حيث أنه لا يوجد مقام من مقامات طريق الحق يجوز فيه ترك العبادة وسأبين هذا الموضوع فى موضعه الخاص.

بيان فى إثبات الكرامة

اعلم أن الكرامة تنسب إلى الولى ما دام متبعا أوامر الشرع الشريف وقد وافق على هذا كل أهل السنة والجماعة، بل إن ذلك لا يستحيل عقلا، لأن الكرامة هى من النوع الذى يتفضل به الله تعالى. وإظهارها لا يخالف أصول الشريعة السمحاء، وليست بعيدة عن العقل حتى يعتبرها ضربا من المحال. والكرامة دليل على صدق الولى، ولا يمكن أن تنسب إلى المضل، اللهم إلا أن تكون علامة على بطلان دعواه، وهى فعل ناقض للمادة، يصدر عن الولى ما دام مطيعا لواجبات الشرع الشريف. وكل من أمكنه أن يميز بين الحق والباطل، وذلك بمعرفة من الله تعالى، يهبها له، فإنه يكون وليا أيضا. ويقول

بعض أهل السنة بإثبات الكرامة ولكن بحيث لا تصل إلى درجة المعجزة، فهم يقولون مثلا بأن دعاء الولى يستجاب بصورة تخالف ما اعتاده الناس، وإنى أسائلهم: ما الذى تعدونه خطأ فيما يحصل على يد الولى ما دام مطيعا لأمر الله تعالى، من الأعمال الخارقة للعادة؟ فإذا قالوا: إن هذا ليس مما قدره الله أخطأوا، وإن قالوا: إنه مما قدره الله تعالى ولكن ظهوره على يد الولى يتعارض مع النبوة، ومع ما اختص الله به أنبياءه، كان قولهم هذا أيضا غير مقبول، إذ إن الكرامة مختصة بالأولياء، والمعجزة مختصة بالرسل، والمعجزة لم تكن معجزة لغيبها، إنما كانت معجزة لحصولها، ومن شرطها اقتران دعوى النبوة بها، فالمعجزة تختص بالأنبياء والكرامات» وما دام الولى وليا والنبى نبيا فلا موجب للمقارنة بينهما، وليس هناك ما يوجب الخوف إن رفعة الرسل عليهم الصلاة والسلام متوقفة على إجلال مقامهم الشريف وعلى عصمتهم من المعصية، وليست على الكرامة والمعجزات أو الأشياء الخارقة للعادة، وكل الأنبياء متساوون ما دامت لهم القدرة على المعجزة ولكن البعض أرقى من البعض الآخر بدون النظر إلى مساولتهم فى الأعمال فلماذا لا تنسب الكرامة التى هى خارقة للمادة إلى الأولياء مع أن الأنبياء أرقى منهم بالطبع. وحيث أن العمل الخارق للعادة بالنسبة للأنبياء لا يجعل البعض أفضل من الآخر، فكذلك الحال مع الأولياء إذا نسبت اليهم الكرامة فلا يجعلهم ذلك أفضل من الأنبياء، أعنى أن الأولياء إذا نسبت إليهم الكرامة لا يكونون مثل الرسل وهذا البرهان يبعد عن العاقل كل المصاعب التى تواجهه بالنسبة لهذا الموضوع ولقائل أن يقول إنه ربما ادعى ولى من الأولياء الذين تنسب إليهم الكرامات الخارقة للعادة مقام الرسل عليهم السلام، فأقول ردا على هذا الزعم، إن هذا جد مستحيل لأن الولاية تتضمن الصدق، وكل من تكلم بالباطل فليس وليا، رد على ذلك أن الولى إذا ادعى الرسالة غطى على حقيقة المعجزة وذلك شرك. الكرامات تنسب فقط لأتقياء المؤمنين، والباطل زندقة فاذا كان ذلك كذلك فكرامات الأولياء تثبت معجزات الأنبياء. وليس من الصعوبة أن توفق بين

ا لنوعين فالنبى يثبت رسالته بإثبات حقيقة المعجزة، والولى يثبت ولايته بالكرامة، التى تكون دالة على صدق الرسول وعلى صدق ولايته، فكرامة الأخير هى عين معجزة الأول، فالمؤمن الذى يرى كرامة الولى يزداد إيمانا بصدق النبى ولا يزاد شكا، لأنه لا تناقض بينهما. وهذا أشبه بما يحدث فى مجال القضاء فاذا كان بعض الورثة متفقين فى دعواهم، وأثبت أحدهم دعواه، ثبتت دعوى الآخرين. ولا ينطبق هذا إذا كانت دعواهم متضارية. وحيث أن النبى بأظهار معجزاته يثبت صدق نبوته ولما كان هذا البرهان يزداد بأثبات الكرامة للولى فأنه من المستحيل أن تظهر شبهة من هذا المعنى.

بيان الفرق بين المعجزة والكرامة

حيث ثبت لك أن الكرامة والمعجزة لا تتحققان على يد دجال أو مدع لزمنا أن نبين الفرق بينهما ـ المعجزة تلزمها الشهرة، والكرامة يلزمها التستر لأن نتيجة الأولى التأثير على الغير، لكن الثانية خصوصية للفرد الذى يقوم بها؛ وصاحب المعجزة يكون متأكدا أنه عملها، بينما لا يكون صاحب الكرامة متحققا هل ما أتى به كرامة أو استدراج. وصاحب المعجزة له سلطان على الشرع، وله أن ينفى أو يثبت ما شاء بأمر الله تعالى؛ أما صاحب الكرامة فلا يختار لنفسه شيئا إلا ما قدره الله تعالى؛ مع خضوعه للأوامر الإلهية التى كلف بها؛ لأن كرامة الولى لا يمكن أن تكون بوجه من الوجوه مغايرة لما أتى به النبى. وإذا قيل: أنه إذا كانت المعجزة تدل على صدق النبى، وإذا قلت أن فى وسع من ليس بنبى أن يأتى بأمور معجزة؛ أصبحت تلك الأمور شيئا معتاد يأتى على يد الكثيرين، وهكذا فإن برهانك عن حقيقة المعجزة ينافى برهانك فى إثبات الكرامة ـ فأقول ليس هذا هو المقصود. لأن كرامة الولى هى مطابقة لمعجزة النبى، وتزيد فى بيانها، لأن نوع لإعجاز الذى يظهر فى أحدها لا يخل بالنوع الذى يظهر فى الأخر، لأن المشركين لما وضعوا «حبيبنا» على الخشبة فى مكة رآه رسول الله ﷺ وهو جالس فى مسجده بالمدينة، وأخبر

أصحابه بما يعمل فيه، ورفع الله الحجاب عن عينى حبيب، حتى رأى رسول الله ﷺ، وصرخ قائلا: السلام عليك، وأ سمع الله رسوله سلام حبيب، كما أسمع حبيب تحية رسول الله ﷺ، ويثبت لك أن رؤية رسول الله ﷺ لحبيب، وهو فى المدينة كانت معجزة، ورؤية حبيب لرسول الله ﷺ فى مكة كان أمرا خارقا للمادة، وبيناء على ذلك فانه لا فرق بين الغيبة فى الزمان والغيبة فى المكان لأن كرامة حبيب كانت وهو غائب عن رسول الله ﷺ من حيث المكان، وكرامات العصور التالية قد تمت فى غيبة عن النبى ﷺ من حيث الزمان، هذا أمر واضح، وبرهان ظاهر، علما أن الكرامة لا تناقض الأعجاز.

والكرامة لا يمكن إثباتها ما لم تدل على صدق من أتى بالمعجزة، ولا تنسب إلا لأنقياء المؤمنين، الذين يبرهنون على ذلك، وكرامة المسلمين هى معجزة لرسول الله ﷺ، لأنه ما دام شرع النبى ﷺ باقيا لزم أن تكون الحجة باقية، كذلك الأولياء هم الشهود على صدق ما جاء به النبى ﷺ، ومن المستحيل أن تصدر الكرامة من رجل مشرك، وفى هذا الصدد نذكر حكاية عن أبراهيم الخواص مناسبة جدا لموضوعنا هذا. الخواص قال: خرجت للصحراء وأنا فيما اعتدته من تجريد، فلما قطعت مسافة ظهر أمامى رجل، وسألنى الصحبة، فنظرت إليه وشعرت بنفور منه، فقال: يا أبراهيم، لا تنزعج، أنا نصرانى، ومن الصابئة بينهم، وقد أتيت من أقصى الروم رجاء أن أصحبك، فلما عرفت أنه كافر رجعت إلى سكينتى وارتحت لصحبته، ولقيامى بواجبى نحوه فقلت له: أيها الراهب إنى أخاف أن تتعب من قلة الماء واللحم، وليس معى شئ فقال لى: يا أبراهيم هل تبلغ شهرتك فى الدنيا مثل هذا، وتشتغل باللحم والماء؟ فعجبت من يقينه ورضيت بصحبته لكى أمتحنه فى دعواه، فبعد أن سافرنا سبعة أيام بلياليها أخذ منا العطش فوقف، وقال لى: أن صوتك يدوى كالطبل فى أنحاء الدنيا فأرنى مقامك عند الله تعالى، أية جرأة لك على، حظيرته لأننى لا يمكننى أن احتمل أكثر من ذلك. فوضعت رأسى على

التراب، وقلت: اللهم لا تفضحني أمام هذا الكافر الذى برغم غيريته يظن فى خيرا، وأوف حسن ظنى بنفسى. فلما رفعت رأسى رأيت طبقا عليه رغيفين وقدحين من الماء فأكلنا وشربنا وسافرنا فى طريقنا فلما مضت علينا سبعة أيام رأيت أن أمتحنه قبل أن يطلب منى هذا البرهان ثانيا، فقلت له: أيها الراهب، الآن اتى دورك أرنى نتيجة مجاهدتك، فوضع رأسه على الأرض ونطق ببعض كلمات فظهر طبق عليه أربعة ارغفة وأربعة أقداح بأسرع ما يمكن. فعجبت وأسفت ويئست من مجاهداتى، لأنى قلت فى نفسى: أن هذا قد ظهر لكافر فكيف آكل وأشرب منه، فطلب منى أن أذوقه فرفضت ذلك قائلا: أنت لست أهلا لذلك وليس هذا موافقا لحالتك الروحانية، لأنى إذا عددتها كرامة فالكرامة لا تنسب لكافر، وإذا عددتها معونة منك لزمنى أن أتهمك بالسحر فقال لى ذق يا ابراهيم، وأنى لأبشرك بأمرين أولهما اعتاقى الإسلام، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله، وثانيهما بالمقام الذى أكرمك به الله تعالى فقلت له: كيف ذلك، فأجابنى: ليس عندى قوة للكرامة، ولكن خجلى منك جعلنى أضع رأسى على التراب، وأسأل الله أن ينزل علينا رغيفين وقدحين من الماء إذا كان الإسلام دين حقا، ورغيفين وقدحين إذا كان ابراهيم الخواص وليا من أولياء الله تعالى. فأكل إبراهيم وشرب، وصار ذلك الراهب من مشاهير أولياء الإسلام هذا الأمر المخالف للعادة وإن كان منسوبا بالكرامة ولى إلا أنه أشبه بمعجزة النبى، ومن النادر أن تحدث معجزة من معجزات نبى على يد رجل آخر. أو أن يقوم شخص آخر بكرامة ولى فى حضرته، والواقع أن نهاية الولاية هى بداية الرسالة، هذا الراهب كان من أولياء المغمورين، مثل سحرة فرعون، فإبراهيم أثبت معجزة الرسول ليخالف العادة أما صاحبه فقد حاول تأكيد نبوة النبى عليه الصلاة والسلام، وولاية ولى من أولياء الله وقدره فى سابق علمه. هذا فرق واضح بين الكرامة والأعجاز وفى هذا كلام كثير لا يتحمله هذا الكتاب وظهور الكرامة

للأولياء كرامة ثانية لهم لانهم يلزمهم أن يخفوها وألا يتعمدوا البوح بها.

كان شيخى يقول إذا أظهر الولى ولايته فأن ذلك لا يضر بصحة جالسه إلا إذا تعرض لأشهار نفسه عمدا فأنه يبعد بالغرور.

بيان عما يصدر مما يماثل المعجزات على أيدى قوم يدعون بها الربوبية

اتفق أهل السنة وعلماء الصوفية: أن أشياء مخالفة للعادة تشابه معجزة الرسول قد تصدر على يد الكافر، حتى يظهر للناس بأدائها بدون شك أنه دجال. مثال ذلك: أن فرعون عاش أربعمائة سنة بدون أن يمرض مرة واحدة، وكان إذا طلع مطلعا مرتفعا تبعه الماء، وكان الماء يقف إذا وقف ويتحرك بأمره ومع كل ذلك فأهل العقل السليم لم يشكوا فى أن هذه دعوى كاذبة للربوبية لأن كل إنسان عاقل يعتقد أن الله تعالى ليس بمجسم ولا بمركب. ويمكن أن تجسم بالمقارنة على الأعمال العجيبة التى أتى بها شداد الذى كان ملكا على إرم وعن النمرود، وقد أخبرنا الصادق الأمين أنه فى آخر أيام الدهر يأتى الدجال ويدعى الربوبية، ويمشى معه جبلان: واحد عن يمينه، وآخر عن يساره، فالذى عى يمينه يكون جنة لمن اتبعه، والذى على يساره يكون عذابا لمن ينكر عليه. وأنه سوف يدعو الناس إليه، ويعاقب من لم يتبعه، ولكن مع كل ما يأتى به هذا الدجال من الأعمال الخارقة للعادة فإن صاحب العقل لا يشك فى بطلان دعوته، لأنه من المعلوم: أن الله تعالى لا يركب عل أتان، ولا يكون أعور العين ولا يتغير ولا يتلون، ومثل هذه الأمور هى من باب الاستدراج وهكذا من يدعى الرسالة بأدائه الأعمال الخارقة للعادة، فإنه يثبت على نفسه أنه، دجال، كما أنه إذا صدر مثل هذا العمل على يد رسول دل ذلك على صدق دعوته؛ ولكن لا يمكن التسليم بأمر مثل هذا ما دام هناك أدنى شك أو صعوبة فى التمييز بين الداعى الحقيقى والدجال، والا بطلت النبوة وزد على ذلك

فإنه ربما حدثت مثل هذه الأيام الأمور المشابهة للكرامة على يد متشبه بالأولياء صادق فى تدينه وإن كان غير ممتاز فى سلوكه إذا أراد بهذه الكرامة أن يثبت صدق الرسول ويظهر كرامة الله التى أكرمه بها غير ناسب هذا العمل لنفسه.

إن الذى يقول الحق بدون دليل مادى فى الأمور المتعلقة بالإيمان سوف يقول الحق دائما ببرهان وعقيدة ثابتة فى مسألة الولاية، لأن عقيدته هى من نوع عقيدة الأولياء، ولو كانت أعماله لا تستوى مع عقيدته، فإن ولايته ما تتعارض أعماله مع عقيدته، وفى الحقيقة فالكرامة والولاية هما فضل الله تعالى وليستا من كسب الإنسان، لأن الكسب لا يكون دليلا على فضل الله تعالى.

قلت فيما مضى: أن الأولياء ليسوا معصومين من المعصية، لأن العصمة للأنبياء، لكنهم محفوظون من المعاصى، التى تكون سببا فى إنكار ولايتهم لأن إنكار الولاية بعد ثبوتها لا يكون إلا بشئ خارج عن حد الشرع، مثل الردة ولا يكون بمجرد المعصية، وهذا مذهب محمد بن على الحكيم الترمذى والجنيد وأبى الحسين النورى والحارث المحاسبى وكثير من أهل الحقائق لكن أهل المعاملات مثل سهل بن عبد الله التسترى وأبو سليمان الدارانى وحمدون القصار وغيرهم يقولون: بأن الولاية هى مع استدامة الطاعة، وأنه إذا حدث ولى نفسه بعمل كبيرة طرد من الولاية ـ وكما بينت لك سابقا أنه بإجماع المسلمين أن المعصية لا تخرج الإنسان من دائرة الإيمان فالولاية ليست أحسن من ذلك، وحيث أن الولاية هى معرفة الله تعالى وهى أساس الكرامة التى يوليها الله تعالى لا تفقد بالمعصية، فإنه من المستحيل أن يكون ما هو أدنى مرتبة منها، وهو الكمال والكرامة تفقد بالمعصية. والجدال فى هذا الموضوع طال أمده بين العلماء، ولا أريد أن أبينه هنا ـ ومن المهم لك أن تعلم حقيقيا فى أى حال تصدر عن الولى هذه الكرمات، أفى حال سكره؟ أم فى حال صحوه؟، أم فى حال غلبته أم فى حال حال تمكينه؟ وقد بينت معنى الغلبة

والصحو فى بيان مذهب أبى يزيد. لأنه هو وذو النون المصرى ومحمد بن خفيف والحسين بن منصور الحلاج ويحيى بن معاذ الرازى متمسكون بأن الكرامة لا تنسب للأولياء إلا إذا كانوا فى حال غلبتهم، أما معجزات الأنبياء فتكون فى حال صحوهم، يتضح من مذهبهم هذا الفرق بين المعجزة والكرامة، لأن الولى فى حال غلبته لا يهتم بالناس ولا ينظر إليهم ولا يدعوهم لا تباعه، أما أن النبى فهو فى حال صحوه يبذل جهدا لينال مقصوده ويدعو الناس ليشهدوا ما عمله. زد على ذلك أن النبى له الخيرة فى إظهار أو إخفاء أى معجزة، أما الأولياء فلا خيرة لهم، لأنهم ربما حرموا الكرامة إذا طلبوها وربما تظهر الكرامة إذا لم يطلبوها، لأن الولى ليس له شريعة حتى تكون أوصافه باقية، لكنه مخفى وكمال حاله أن تفنى صفاته، فالرسول صاحب شرع والولى صاب ستر، لذلك فإن الكرامة لا تنسب للولى إلا إذا كان فى حال غيبته عن نفسه وحيرته، بشرط أن تكون كل أعضائه تحت أمر الله تعالى، فالصفة البشرية أن يكون لاهيا أوساهيا أو إلهيا، والأنبياء هم الإلهيون إطلاقا فإذا كان الأولياء مع أنفسهم وأثبتوا بشريتهم أصبحوا محجوبين، أما إذا رفع الستار عنهم احتاروا واندهشوا لظهور كرامة الله - والكر امة لا يمكن إثباتها إلا فى حال الكشف، التى هى رتبة القرب، ومن كان فى هذا المقام استوى عنده الذهب والتراب، وهذا مقام الغلبة الذى لا يستمر فيه أحد من البشر بصورة مستديمة باستثناء الرسل، إلا إذا كان عارية ولا يكون إلا حال السكر مثلما حدث لحارثة، انقطع عن هذه الدنيا وكوشف بالآخرة فقال «عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها وفضتها ومدرها» فلما رؤى اليوم الثانى يعمل فى النخيل، وقيل له ماذا تفعل؟ قال إنى أطلب قوتى، لذلك فالأولياء فى حال صحوهم يكونون كالعامة، وفى حال غلبتهم يكونون فى رتبة الأنبياء ويكون العالم عندهم كالذهب قال الشبلى بيتًا ما معناه:

ذهب حيثما ذهبنا ودر حيث درنا وفضة فى الفضا

سمعت سيدنا أبا القاسم القشيرى يقول: سألت الطبرانى عن ابتداء حاله، فقال لى: احتجت إلى حجر فى قاع نهر سرخس، فتحول كل حجر ألمسه إلى لؤلؤ، فرميتها جميعًا بعيدًا عنى؛ هذا لأن الحجارة واللؤلؤ سيان عندى، أولأن اللؤلؤ أقل قيمة عندى من الحجر، وذلك لعدم احتياجى له. وقد سمت أن الإمام الخزامى قال بسرخس ذهبت فى طفولتى إلى حى من أحياء باغستان. لإحضار أوراق التوت لدودة القز، فلما انتصف النهار تسلقت شجر ة، وهززت أفرعها، وبينما كنت مشتغلا بذلك مر على أبو الفضل بن الحسن، لكنه لم يرنى، ولم أشك أنه كان غائبا فى نفسه، وأن قلبه كان مع ربه، فرفع رأسه على حين فجاة، وصرخ بحرقة قائلا: يارب لقد مضت على أكثر من سنة ولم تعطنى دانقًا حتى أقص شعرى، أفبهذا تعامل أحبابك؟ فما إن نطق بها حتى رأيت أوراق الشجر وفروعها وجذورها انقلبت ذهبًا. فقال أبو الفضل: ما أعجبك! تسرع فى إجابة من سألك لتخلص بلد لك. يروى أن الشبلى رمى أربعة آلاف دينار فى نهر دجلة، فلما سئل: ماذا يصنع؟ قال الحجارة أولى بالماء فسئل: لماذا لا تعطيها الفقراء؟ فقال سبحان الله ماذا أقول له إذا سألنى: لماذا رفعت الحجاب عن قلبى ووضعته فى قلوب إخوانى المسلمين، فإنه ليس من الدين أن تنسى لأخيك أقل مما تتمناه لنفسك. كل هذه الأحوال متعلقة بأحوال السكر التى بينتها، ومرادى هنا إثبات الكرامات. أما الجنيد وأبو العباس السيارى وأبو بكر الواسطى ومحمد بن على الترمذى، صاحب هذا المذهب، فتمسكوا بأن الكرامة تظهر فى حالة صحو الولى وتمكينه، لا فى حال سكره وغلبته، وهم يبرهنون على ذلك بأن أولياء الله تعالى هم القابضون على مملكته، والمنظمون للمجموعة التى جعلها الله تعالى تحت تصرفهم، بذلك لزم أن تكون أحكامهم أكمل الأحكام، وقلوبهم أشفق من كل قلوب الناس لأنهم قد كملت حالهم، وحيث أن الاضطراب والغلبة علامة على قلة الخبرة، فالاضطراب مع كمال الحال ينقلب إلى سكون، ولا يكون الولى وليًا فى الحقيقة إلا بذلك، بل ولا تكون الكرامة كرامة حقا إلا بعد ذلك.

ومن المعلوم لدى الصوفية: أن الأوتاد عليهم كل ليلة أن يمروا على العالم، فإذا لم تقع أعينهم على مكان منا فلأنه حصل لذلك المكان نقص، ولزمهم أن يبلغوا القطب بذلك حتى يلاحظ لك النقطة الضعيفة بنظرة وبركة، ويتحول المقص.

أما بخصوص إثبات أن الذهب والتراب يكونان سواء عند الولى، فإن عدم الاهتمام هذا علامة على غلبته، وعلى عدم تمكنه من النظر إلى حقائق الأشياء وما أكمل الرجل صاحب النظر السليم، والحواس الكاملة الذى يكون فى نظره الذهب ذهبًا والتراب ترابًا، ولكن ينظر إلى الذهب وما فيه من شر، فيقول «يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى لأنى عالم بفساد كما» فمن نظر إلى فساد الذهب والفضة وجدهما حجابا بينه وبين الله تعالى، وكافأه الله على الزهد فيهما اما من كان الذهب والتراب عنده سواء فإنه لا يكمل بزهده فى التراب. ولما كان حارثة فى حال غلبته قال: إن الأحجار والذهب عنده سواء، لكن أبا بكر فى حال تمكينه رأى أن الشر كل الشر فى ملك متاع الدنيا، وعلم أن الله تعالى سيكافئه على تركه فزهد فيه، ولما سأله رسول الله ﷺ عما أبقاه لأهله قال: الله ورسوله.

يروى أبو بكر الوراق الترمذى هذه القصة قال: «أن محمد بن على الحكيم أخبرنى انه سيأخذنى إلى، محل فقلت له: على الأستاذ أن يأمرنى، وعلى أن أطيع، وما أسرع ما خرجنا حتى وجدنا صحراء بلقع، وبوسطها عرش مذهب موضوع تحت شجرة خضراء، وأمامه عين جارية، وكان جالسا على ذلك العرش رجل يرتدى زينة فاخرة، وقد قام ذلك الرجل عند اقتراب محمد بن على، فطلب منه أن يجلس على العرش، وبعد هنيهة أتى من كل جهة قوم حتى استكملوا الأربعين فرفع محمد بن على يده إلى السماء، فظهرت مائدة فأكلنا، وبعد ذلك سأل محمد بن على رجلا آخر سؤالا، وفى الرد عليه أطال فى الشرح الذى لم أع منه كلمة وفى الآخر الشرح استأذن الشيخ

وخرجنا، قائلا لى: اذهب فقد بارك الله فيك، وعند رجوعنا إلى ترمذ، سألته عن المكان وعن الرجل، فقال لى: إن ذلك المكان هو تيه بنى إسرائيل، وأن ذلك الرجل هو القطب، الذى عليه نظام العالم: فقلت له: يا شيخى كيف وصلنا إلى تيه بنى إسرائيل من ترمذ فى وقت قصير؟. فقال لى: يا أبا بكر، إن عليك الوصول، ولا عليك السؤال والكيفية. هذا ليس علامة للغلبة. ولكنه علامة للصحو، وهنا أبين لك بعض كرامات وحكايات السادة الصوفية، وأوضح لك بعض الآيات الموجودة فى الأحاديث والقرآن الدالة على ذلك، حتى يكون ذلك تنبيها للمريدين، وترويحا للعلماء، وتذكيرا للمحققين، أما للعوام فزيادة فى اليقين.

بيان فى كراماتهم

حيث وضحت لك حقيقة الكرامة بالبرهان الوضعى، لزمنا أن نثبت لك ذلك من القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، فالقرآن والسنة يثبتان لك الكرامة، والأعمال الخارقة للعادة، الصادرة من الأولياء، وإنكار هذا إنكار للشرع الشريف، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾[1] فلقائل أن يقول: أن هذه معجزة لموسى، وأنا لا أعارضه فى ذلك، لأن كرامة الأولياء معجزة لمحمد ﷺ ماذا قال إن هذه الكرامة حدثت فى غيبة موسى، ولو أنها فى عصره ولذلك لزم أن لا تكون صادرة منه، أجيبه، أن هذا الأصل الصالح فى حق موسى لما ترك قومه وذهب إلى جبل سيناء يصدق كذلك على سيدنا ومولانا محمد ﷺ لأنه لا فرق بين أن يكون الإنسان غائبا فى الوقت أو أن يكون غائبا فى المكان وقد أخبرنا بكرامة آصف ابن برخياء الذى أتى بعرش بلقيس لسليمان عليه السلام قبل أن يرتد إليه طرفه، ولا يلزم أن يكون ذلك معجزة لآصف لأنه لم يكن رسولا، ولكن الله أراد أن يظهر شرفه للخلق، وأن يظهر كرامته ويظهر لأهل الزمان أن الكرامة جائزة، قال

---

(١) سورة البقرة: آية ٥٧.

سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾[1]، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[2]، فرد آصف: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3] ولم يتغير سليمان عليه ولم ينكره عليه، ولم ير استحالة فيه، ولم يكن هذا معجزة، لأن آصف لم يكن نبيا، فلا شك أنها كرامة ولو أنها جرت على يد سليمان لكانت معجزة.

وإن مريم ابنة عمران كان يدخل عليها زكريا، فيجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء حتى قال لها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[4] وكلنا نعلم ونعتقد أن مريم لم تكن رسولا وقد قال الله تعالى لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[5].

وزد على ذلك أن لدينا قصة أهل الكهف، وكيف نعلم ونعتقد أن كلبهم كان وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[6] هذه أمور خارقة للعادة ولما لم تكن معجزة لزم أن تكون كرامة. هذه الكرامات إما أن تكون استجابة لدعاء فى إنالة مطلوب لا يخرج عن حد الشرع الشريف، أو قطع المسافات فى زمان قصير، أو ظهور طعام من مكان مخالف للعادة، أو قراءة إنسان لأفكار الغير.

ومن بين حديث رسول الله ﷺ حديث أهل الغار الذى أسرده لك برمته؛ سأل الصحابة رسول الله ﷺ أن يخبرهم عن قصة غريبة، من أخبار الأمم الماضية، فقال ﷺ: كان ثلاثة أشخاص مسافرين، فلما غربت الشمس التجأوا إلى غار حيث ناموا وحينما انقضى شطر من الليل وحال نومهم سقطت

---

(١) سورة النمل: آية ٣٨.

(٢) سورة النمل: آية ٣٩.

(٣) سورة النمل: آية ٤٠.

(٤) سورة آل عمران: آية ٣٧.

(٥) سورة مريم: آية ٢٥.

(٦) سورة الكهف: آية ١٨.

صخرة من الجبل وهم نائمون، فسدت فوهة الغار، فقال كل واحد منهم للآخر، إنا لن ننجوا من هذا المكان، حتى نتضرع إلى الله تعالى بخير أعمالنا الصالحة، فقال أحدهم: كان لى والدان، ولم يكن عندى إلا شاة، وكنت أسقيهما لبنها، وكل يوم أجمع الحطب فأبيعه وأصرف ثمنه فى شراء طعام لهما، ولنفسى، وأتيت البيت يوما متأخرا وقبل أن أحلب اللبن لهما وأضع فيه الطعام ناما، فحملت القدح ووقفت دون أن آكل شيئا إلى الصباح، إلى أن استيقظا وأكلا، وقلت اللهم إن كنت صادقا فى هذه المسألة فخلصنا وكن معنا؛ قال رسول الله ﷺ: فانفتح من الصخرة شئ يسير. فقال الرجل الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم جميلة، وكنت بها كلفا، ولكنها لم تصغ لمحبتى، فتمكنت من إرسال مائة وعشرين دينارا لها، ووعدتها بأن تكون الدنانير ملكا لها إن هى متعتنى ليلة، فلما أتت أخذنى الخوف من ربى فالتفت عنها، وتركت لها الدنانير ثم قال: اللهم إن كنت صدقت فى ذلك فخلصنا، قال رسول الله ﷺ: فازدادت تلك الفتحة، لكنهم لم يقدروا على الخروج. فقال الرجل الثالث كان عندى بعض العمال يشتغلون، فلما انتهى العمل أخذ كل منهم أجره إلا واحدا تفقدته فلم أجده، فاشتريت له بأجره شاة، فلما مضت سنة صارت اثنتين وفى السنة الثالثة صارا أربعة حتى صارت قطيعا، وبعد مضى سنين عديدة رجع ذلك العامل وطلب منى أجره فقلت: أذهب وخذ كل هذا القطيع فإنه ملكك، فظن أنى أهزأ به، ولكنى أقسمت له أننى ما قلت إلا حقا، فذهب وأخذ القطيع. قال الراوى: اللهم إن كنت قلت حقا فنجنا، فما قال ذلك حتى انفتح فم الغار، وخرج منه الثلاثة. صدق رسول الله ﷺ.

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: أحدهما عيسى بن مريم، وكلكم تعلمونه، والآخران هذان قصتهما: كان فى بنى إسرائيل راهب يسمى جريج وكان له أم أتت ذات يوم لرؤية ولدها، وكان منشغلا بالصلاة فلم يفتح باب الصومعة، فعادت فى اليوم الثانى، وكان

منشغلا بالصلاة فلم يفتح باب الصومعة، فعادت فى اليوم الثانى، وفى اليوم الثالث دون جدوى حتى ضاق صدرها، فدعت عليه قائلة يارب افضح ابنى هذا وخذ بحقى وكان فى ذلك الزمان بغى قالت لجماعة: سوف أغوى جريج فذهبت إلى صومعته، فلم يلتفت إليها، فعاشرت راعيا فى ذلك الطريق وحملت منه، وحين دخلت المدينة قالت: هذا من جريج. وحينما وضعت حملها قصد الناس صومعته وجروه إلى الحاكم، فقال جريج: يا غلام من أبوك؟ قال: يا جريج، أمى تفترى عليك الكذب، أبى هو الراعى. والثالث أن امرأة كانت تجلس على باب دارها وقد حملت طفلها، فمر فارس حسن الوجه والملبس فقالت يارب: اجعل ابنى كهذا الفارس. فقال الطفل يا رب لا تجعلنى مثله. وبعد فترة مرت امرأة سيئة السمعة فقالت: يا رب لا تجعل ابنى مثل هذه، فقال: يا رب اجعلنى مثلها، فتعجبت المرأة، وقالت: لم تقول هذا يا بنى؟ فقال: ذلك الفارس جبار من الجبابرة، أما المرأة فصالحة والناس يتقولون عليها بالسوء، ولا أريد أن أكون من الجبارين بل أريد أن أكون من المصلحين».

أما حديث زايدة جارية عمر بن الخطاب فهو معروف دخلت زائدة على رسول الله ﷺ وسلمت، فقال يا زايدة لماذا لا تزورينا إلا لمما، أنت صالحة، وأنا أحب أن أراك، قالت: يا رسول الله جئت اليوم بالأمر العجب قال: بأى شئ جئتى؟ قالت: ذهبت فى الصباح احتطب، وحينما حزمت الحطب وضعته فوق صخرة حتى أرفعه، فرأيت فارسا قد نزل من السماء وألقى على السلام وقال لى: أبلغى محمدا منى السلام، وقولى إن رضوان خازن الجنة يقرئك السلام، ويقول: البشرى لك فالجنة لأمتك على ثلاث: جماعة يدخلون الجنة بلا حساب، وجماعة بحساب يسير، وجماعة يغفر لهم بشفاعتك قال هذا ثم صعد إلى السماء، والتفت إلى بين السماء والأرض، فرأى أننى لم أرفع حزام الحطب؛ فقال: يا زايدة دعيها على الصخرة، وقال للصخرة: احملى هذه الحزمة مع زايدة، إلى منزل عمر بن الخطاب، فنهض الرسول وذهب مع

الصحابة إلى منزل عمر فرأوا آثار سير الصخرة، فقال: الحمد لله إن لم يقبضنى عن الدنيا إلا بعد أن بشرنى رضوان بدخول أمتى الجنة وأكرم الله تعالى هذه المرأة وبلغها درجة مريم.

ومن المعروف أن الرسول أرسل علاء بن الخضرمى إلى الغزو فقابله بحر فى الطريق، فوضعوا أقدامهم عليه، وعبروا دون أن تبتل أقدامهم.

ومعروف عن عبد الله بن عمر أنه كان يسير فى طريق، فرأى جماعة من الناس قد توقفوا فى الطريق، قد قطعه عليهم أسد، فقال عبد الله بن عمر: أيها السبع إذا كنت مؤتمرا بأمر الله فتخل عن الطريق، وإلا فأفسح لنا الطريق حتى نمر فنهض الأسد وطأطأ له ثم مضى.

ومعروف عن سيدنا إبراهيم أنه رأى رجلا جلس فى الهواء فقال له: يا عبد الله، بم وجدت هذا؟ قال: بشئ يسير. سأله: أى شئ قال: حولت وجهى عن الدنيا وامتثلت لأمر الله، فقال له: وماذا تريد الآن؟ قال: أن يكون لى مسكن فى الهواء حتى ينقطع قلبى عن الخلق.

وقصة ذلك الغلام العجمى الذى أتى إلى المدينة وقد بيت نية قتل عمر فقالوا له: إن أمير المؤمنين نائم فى الخلاء، فذهب ورآه نائما فوق التراب فحدث نفسه قائلا: كل هذه الفتنة فى الدنيا من هذا، إن قتله عندى الآن يسير، جدا وسل سيفه، فظهر أسدان وهاجماه فاستغاث واستيقظ عمر فقص له ما جرى وأسلم.

وفى خلافة أبى بكر أرسل خالد بن الوليد غازيا إلى سواد العراق ومن بين الغنائم أتوا بقارورة تحوى سما قاتلا لا يوجد فى خزانة ملك ففتح خالد هذه القارورة ووضع ما فيها على كفه وسمى ثم وضعه فى فمه فتعجب الحاضرون ودخل كثير منهم الإسلام.

وروى الحسن البصرى أنه كان بعبادان زنجى يأوى إلى المناطق الخربة فاشترى يوما شيئا من السوق وحمله إليه، فقال: ما هذا؟ قال الحسن: طعام

جئت به، ربما احتجت إليه فأشار بيديه وضحك فرأيت الحجارة والحصى فى هذه الخربة قد تحولت إلى ذهب، فأسفت على فعلى وتركت ما أحضرت ووليت فرارا.

وروى إبراهيم بن أدهم: مررت براع، واستسقيته، فقال: عندى لبن وماء، أيها تريد؟ فقلت: أريد ماء، فنهض وضرب بعصاه الحجر، فانبجس منه ماء عذب ونظيف فتعجبت فقال: لا تعجب فحينما يطيع العبد ربه ينقاد له كل ما فى الكون.

وكان أبو الدرداء وسليمان رضى الله عنهما قد جلسا معا، وبينما كان يأكلان كانا يسمعان تسبيح الأطباق.

يروى أن أبا سعيد الخراز قال: كنت أعتاد فى زمن مضى أن آكل كل ثلاثة أيام مرة، فلما سافرت فى الصحراء شعرت فى اليوم الثالث بضعف عن جوع شديد، فنادانى صوت من السماء: هل تختار طعاما يقوى بشريتك أو مخلصا من هذا الجوع يمكنك أن تقاوم به الضعف بدون أكل؟ فقلت: اللهم أعطنى القوة. فداخلتنى قوة، قمت بها وقطعت اثنى عشر منزلا دون طعام أو شراب.

ومن المشهور للآن أن منزل سهل بن عبد الله التسترى يسمى بيت السباع، وقد اتفق أهل تستر أن كثيرا من السباع كانت تأوى إليه، وكان يطعمها ويعطف عليها وأهل تستر خلق كثير.

وقد روى لنا أبو القاسم المروزى الحكاية الآتية. قال: مررت وأبو سعيد الخراز على شاطئ البحر، فرأيت صبيا لابسا خرقة مرقعة، وبيده ركوة معلق بها دواه قال أبو سعيد فكنت كلما نظرت إلى هذا الصبى قلت إنه واصل، إذا نظرت إلى دواته ظننت إنه طالب فاستوقفته وسألته: ما الطريق إلى الله؟ فقال الصبى: إن الطريق طريقان: طريق العوام، وطريق الخواص التى ليست لك علم بها؟ أما طريق العوام التى تسلكها فهى أنك تعتبر أن أعمالك توصلك إلى الله تعالى، وظنك أن الأدواة حجاب دون الوصول.

قال ذو النون المصرى كنت مسافرا من مصر إلى جدة فى سفينة، وكان بين ركابها فتى لا بسا مرقعة، فاشتقت إلى صحبته، لكنه كان يضن بها بكمال حاله واشتغاله بالعبادة، حتى انى لم أتمكن من سؤاله، ففقد أحد الركاب ذات كيسا فيه جوهرة له، ووقعت التهمة على هذا الفتى، وكان الركاب على وشك إهانته، لكنى قلت لهم: دعونى أسأله لكم باللين فقلت له: إن القوم اتهموك بسرقة هذا الكيس، وإنى خلصتك من أذيتهم، فما الذى تراه ـ فرفع رأسه إلى السماء وهمهم ببعض كلمات، فظهرت حيتان البحر على ظهر الماء وفى فم كل منها جوهرة، فأخذ جوهرة منها، وأعطاها لصاحب الجوهرة المفقوده ثم، وضع رجله على الماء ومشى عليه، فأسقط السارق الكيس من يده، وتاب الناس من سوء ظنهم ـ.

يروى أن إبراهيم الرقى. قال: أردت فى بدايتى أن أزور مسلم المغربى، فوجدته فى زاويته يصلى بالناس ولا يحسن النطق بالفاتحة، فقلت فى نفسى: لقد ذهب تعبى سدى وعندما ذهبت لأتوضأ على الفرات فى اليوم التالى وجدت أسدا مستلقيا فى الطرى فرجعت قافلا، ولكنى وجدت أسدا آخر كان يترقبنى، فلما سمع مسلم صوت انزعاجى خرج من صومعته، وهرول إلى، فلما رأته السباع طأطأت له، فقبض على أذن كليهما وعركها قائلا: يا كلاب الله، ألم آمركما الا تلمسا زوارى؟. ثم التفت إلى وقال يا أبا أسحاق قد اتعبت نفسك بإصلاح ظاهرك لخلق الله فخفتهم، لكنى عكفت على إصلاح باطنى لله فخافنى خلقه.

وسافر شيخى مرة من بيت الجن إلى دمشق وقد كنت فى صحبته، فهطلت الأمطار بشدة حتى أنى كنت أمشى فى الوحل لكنى لا حظت أن أستاذى يمشى وكأنه على يابس، وذلك لنظافة نعليه، فلما أخبرته بذلك قال لى: لقد حفظنى الله من الوحل منذ أن توكلت عليه بلا سؤال وحفظ قلبى من الاشتغال بغيره.

أصابنى ذات مرة طارئ، وأشكل على حله، فقصدت أبا القاسم الجرجانى فى طوس، فوجدته منفردا فى خلوته فى الجامع، يجيب على نفس الخاطر الذى دار فى خلدى، ولكنه كان يوجه كلامه إلى أحد أعمدة المسجد، فقلت له: «أيها الشيخ، إلى من توجه هذا الكلام؟». فقال لى: «يا ولدى إن الله تعالى قد جعل هذا العمود يكلمنى ويسألنى هذا السؤال».

كان فى فرغانة، فى قرية هناك تسمى شلاتك، رجل كبير السن من الأوتاد واسمه بابا عمر وقد سمى بابا لأن أهل تلك البلاد يلقبون كبار مشايخهم بالبابا، وكانت له زوجة عجوز تسمى فاطمة، فسافرت من ازكند لأراه، فلما دخلت مجلسه قال لى لماذا أتيت؟ فقلت له: حتى أنظر لشخص الأستاذ وينظر لى فقال: انى قد رأيتك من مدة كذا وإنى أحب أن أراك ما دمت قريبا منى، فحسبت اليوم والسنة التى ذكرها لى، فوجدتها أول أيام توبتى، فقال لى الشيخ: قطع المسافات لعب الأطفال، لكن الزيارة بالمهمة وليس من الأهمية زيارة الشخص أو حضور الشيخ، ثم أمر فاطمة بأن تحضر لى طعاما، فاحضرت لى طبقا من الرطب، والرطب لا يوجد فى فرغانة.

وذات يوم كنت جالسا أمام قبة الشيخ أبى سعيد فى مهينة رأيت حمامة بيضاء تطير ثم تدخل تحت الكسوة فظننت أن الطائر فر من صاحبه، فلما رفعت القماش لم أجده، وتكرر هذا الحدث فى اليوم الثانى والثالث، ولم يحضرنى فهم هذه المسألة، حتى رأيت ذلك الولى فى المنام، فسألته عما رأيته فقال لى: هذه الحمامة هى صفاء المعاملة التى تأتينى كل يوم لتنادينى: «وهنا ذكر المؤلف قصة أبى بكر الوراق مع محمد بن على الترمذى وقد مرت».

قال المؤلف: ويمكن أن أسرد لك حكايات كثيرة من هذا القبيل لا تنتهى أبدا، لكن غرضى من هذا الكتاب أن أبين لك أصول التصوف أما بخصوص الفروع، ومسائل السلوك، فقد أفعمت الكتب بها، ووصفها أهل النقل، وذكر بها الأئمة المذكرين على المنابر لكنى سأبين لك بعد هذا بعض قصص دقيقة

فى موضوعنا الحالى حتى لا تحتاج إلى الرجوع إليه مرة ثانية.

بيان فى أفضلية النبوة على الولاية

اعلم أنه قد أجمع مشايخ الصوفية أن الأولياء فى كل الأوقات وكل الأحوال أتباع للأنبياء، مصدقين برسالاتهم، فالأنبياء أفضل من الأولياء لأن نهاية الولاية بداية النبوة، وكل نبى ولى، ولكن بعض الأولياء ليسوا أنبياء والأنبياء منزهون دائما عن دواعى البشرية، أما الأولياء فإنهم يتخلصون منها لحين. وكل ما كان حالا طارئا للأولياء فهو مقام للأنبياء، وقد تمسك بهذا الرأى أهل السنة وأهل الحقائق، ولكنه مضاد لمذهب الحشوية والمجسمة من أهل خراسان، الذين يذكرون أصول التوحيد بعبارات طابقت هواهم، ومع عدم معرفتهم لمذهب الصوفية يسمون أنفسهم أولياء، نعم إنهم أولياء لكنهم أولياء الشياطين، لأنهم يقولون أن الأولياء أرقى من الأنبياء، وهذا برهان كاف لبطلان زعمهم، وحيث أنهم يقولون هذا فهم يفضلون أنفسهم على سيدنا ومولانا محمد حبيب الله ومصطفاه ومثل هذا الرأى الفاسد تمسك به المشبهة الذين يدعون التصوف ويعتقدون فى مذهب الحلول والانتقال والتجزئة وسأوضح هذه الأمور توضيحا كافيا عندما أكتب فى أهل هاتين الطائفتين اللذين ضل سعيهم.

وبرغم أن أهل هاتين الطائفتين يدعون الإسلام إلا إنهم يوافقون مذهب البراهمة فى إنكار خصوصية الرسل عليهم الصلاة والسلام ومن اعتقد بهذا المذهب فإنه كافر لا محالة زد على ذلك أن الرسل أصحاب تشريع وأئمة هدى أما الأولياء فاتباع. وأنه لمن الخلط فى القول أن تعتقد أن تابع الإمام يكون أرقى من الإمام نفسه. وبالاختصار فلو جمعت حياة الأولياء وتجاربهم وقدراتهم الروحية فإنها لا توازى عملا واحدا من أعمال الأنبياء الصادقين لأن الأولياء باحثين كالحجاج، أما الأنبياء فإنهم وصلوا فوجدوا ثم رجعوا لهداية الخلق وتقويم اعوجاجهم فإذا أدعى أحد هؤلاء الضالين أنه رسول

الملك إلى شخص آخر يكون أقل منه درجة، ويضربون المثل بأن جبريل أقل من الرسل وأن ذلك يتناقض مع ما قلته، فإنى أرد عليه أن الرسول الذى يرسل لجماعة من الناس أو لأمة من الأمم، أو لجميع الأمم لزم أن يكون أرقى منهم درجة، لذلك فالأنبياء أرقى من الأمم، أو لجميع الأمم لزم أن يكون أرقى منهم درجة، لذلك فالأنبياء أرقى من الأمم التى أرسلوا إليها. وكذا فإن لحظة من الأنبياء أفضل من طول حياة الأولياء لأن الأولياء إذا وصلوا إلى مقصودهم، فإنهم يتكلمون عن مشاهدة ويتخلصون من حجاب البشرية رغم أنهم أناس فى حقيقتهم.

. وبالتالى فالمشاهدة هى أول قدم للأنبياء، وحيث أن أول خطوة فى طريق الأنبياء هى مقصود الأولياء، لزم ألا يتساووا فى الدرجة، ألم تعلم أن الأولياء الطالبين لله قد أجمعوا على أن مقام الجمع هو من كمال الولاية هذا المقام الذى يصل إليه الإنسان يبلغ به إلى درجة غالبة الحب حتى أن همته لا يعتورها أدنى قصور فى النظر إلى فعل الله تعالى وفى تألهه إلى الفاعل، لا يشهد إلا هو فى جميع العوالم، قال أبو على الروزباوى: لو زالت عنا رؤيته ما عبدناه. لأننا نكون قد فقدنا اسم العبودية لانا نقتبس لذة العبادة من مشاهدته هذا هو أول حال الرسل كما أن التفرقة ليست مشهداً لهم فهم دائما فى حالة الجمع، أثبتوا ونفوا، قربوا أو بعدوا، وفى بداياتهم أو نهايتهم، فإبراهيم ﷺ ر أى الشمس فقال ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[1] ونظر إلى القمر والنجوم فقال ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[2] وذلك لأن قلبه تغلب عليه الحق وكان فانيا فى عين الجمع حتى أنه لم ير غيره، وحتى إذا كان قد رأى خلاف ذلك فإنه لم يره بعين الغيرية لكن بعين الجمع فلما كمل فى مشهده قال ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[3] وحيث أنه بدأ بالجمع فإنه ختم به، والولاية لها بداية ونهاية، أما

---

(١)،(٢) سورة الأنعام: آية ٧٦.
(٣) سورة الأنعام: آية ٧٦.

الرسالة فلا بداية ولا نهاية لها، الرسل رسل من الأزل إلى الأبد، وكانوا قبل وجودهم أنبياء فى حضرة علم الله. سئل أبو يزيد: ما تقول فى حال الأنبياء؟ فقال إنه بعيد على أن آراه وأن أتكلم عنه، لا قدرة لنا على أن نتكلم عنهم وإذا تكلمنا عنهم لم نتكلم إلا بقدر نفوسنا. إن الله سبحانه وتعالى قد وضع إنكارهم وإثباتهم فى درجة أكبر من أن يشاهدها العقل الإنسانى أو أن يصل إليها ولما كانت رتبة الانبياء خفية عن نظر الإنسان، فهكذا مرتبة الانبياء محجوبة عن أن يحكم عليها الأولياء: قال أبو يزيد وهو حجة عصره رأيت أن سرى أسرى به إلى السماء، فلم ينظر إلى أى شئ ولم يلتفت إلى جنة ولا إلى نار، ولم يشتغل بهما. لأنه كان خالصا من دواعى البشرية والحجب فصرت طيرا فأخذت أطير فى فضاء الألوهية فأشرت على ميدان الأزلية ورأيت فيه شجرة الأحدية فلما نظرت إلى نفسى وجدتنى كل ذلك فقلت: اللهم إنى بكل أنيتى لا يمكننى أن أصل اليك ولكن لا يمكنى الفرار من أنيتى فماذا أفعل فقال لى الله تعالى: يا أبا يزيد إنك تتخلص من أنيتك باتباعك لحبيبى محمد ﷺ اكتحل بتراب قدميه وتابعه دائما.

هذا مقام يطول شرحه والصوفية يسمونه بمعراج أبى يزيد وكلمة معراج تعنى القرب ومعراج الرسل يكون بظاهرها وبأجسامهم أما معراج الأولياء فلا يكون إلا بباطنهم وفى سرهم، وجسم النبى يشابه قلب الولى فى صفائه وقربه إلى الله وهذه درجة عالية.

والولى إذا غلب عليه حاله حتى يصير إلى السكر، عرج من نفسه يسلم روحانيته، واقترب إلى الله تعالى، فإذا رجع إلى مقام صحوه تشكلت هذه المرائى فى لوح خياله، ويدأ يتحصل على العلم بها. لذلك فيوجد فرق بين الذى يؤخذ بشخصه، وبين الذى يؤخذ بفكره.

فصل

فى افضلية الرسل والاولياء على الملائكة

أجمع أهل السنة ومشايخ الطريق: بأن الأنبياء والمحفوظين من الأولياء أعلى درجة من الملائكة.

ويقول المعتزلة: بعكس هذا المذهب، إذ يقولون: بأن الملائكة أرقى من الرسل، حيث أنهم فى درجة عالية وأجسامهم نورانية، وأكثر طاعة لله، فأقول لهم: إن هذا ليس كما تزعمون، لأن الجسم الطائع ذا الرتبة العالية لطيف سببا للأفضلية التي يضعها الله حيث يشاء، فإبليس جمعت فيه كل الصفات المذكورة لكنه طرد ولعن، وأفضلية الرسل على الملائكة مثبتة فى سجود الملائكة لآدم بأمر الله، لأن حال المعبود أرقى من حال العابد، فإذا قالوا: إن المؤمن أفضل من الكعبة، التى هى بناية حجرية، ومع ذلك فإنه يصلى نحوها، وعلى هذا القياس فإن الملائكة أعلى درجة من آدم ولو أنهم، أسجدوا له، وردا على ذلك أقول: إن المسلمين عامة لا يعتقد واحد منهم أنه يسجد لحائط لكنهم يسجدون لله، وقد أقر الجميع وثبتت الحجة بأن الملائكة قد سجدوا لآدم مصداقا لقوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[1] كما أمر المؤمنين قائلا: ﴿وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[2] فكيف نقارن الكعبة بآدم، والمسافر إذا كان على ظهر دابة وأتى وقت الصلاة سامحة الشرع بالإلتفات عن الكعبة إذا لم يكن بد من ذلك، وكذلك التائه فى الصحراء إذا فقدت عنه دلائل القبلة يجوز له أن يتجه إلى أى جهة أراد. والملائكة لم يعتذروا عن السجود لآدم، والذى اعتذر عن ذلك صار ملعونا إلى الأبد وهباء. وهذه كلها دلائل واضحة لمن أعطاه الله النظر الثاقب.

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

(٢) سورة الحج: آية ٧٧.

الملائكة فى المعرفة مجبرون، فليس فى خلقهم شهوة، ولا فى قلوبهم مرض وفساد، وليس رزقهم حيلة، غذاؤهم طاعة، وشرابهم عى أمر الإقامة. بينما الشهوة طبيعة لازمة للإنسان والناس ميالون بطبائعهم إلى المعاصى ومنقادون لزخارف هذه الدنيا.

والشيطان له عليهم سلطان كبير، حتى أنه ليجرى فى أجسامهم مجرى الدم، ومتصل بالنفس الدنية التى تقودهم إلى المعاصى. فمن كانت فى طبيعته كل هذه الأخلاق، وهو مع سيطرة شهوته يمتنع عن المعصية، ويترك الدنيا مع حرصه عليها، ويرجع عن المعاصى مع أن قلبه لا يزال يقع تحت وسوسة الشيطان، فإنه يترك المعاصى، ويقبل بوجهه على العبادة والتقوى، ومجاهدة نفسه ومعارضة شيطانه، فمثل هذا هو فى الحقيقة أرقى من الملائكة، الذين لم يدخلوا معارك الشهوة، وليست لهم رغبة فى الغذاء واللذة، ولا يهتمون بزوجة ولا ولد ولا أهل، ولا يحتاجون إلى أسباب وآلات. وليست لهم أطماع فاسدة.

ولعمرى إنى لأعجب من ذلك الذى يرى فضلا فى أعماله أو عزا فى حجاله، أو عظمة فى نواله ثم يتخلى سريعا عن تلك النعمة والعظمة ولم لا؟ إذ يرى الفضل فى مالك الأعيان، والعز من رضاء السبحان، والعظمة من المعرفة والإيمان، حتى يصير منعما إلى الأبد، ويسعد قلبه به فى الدارين.

فجبريل الذى عبد الله سبحانه وتعالى ألوفا من السنين لكى ينال خلعة الإكرام كانت خلعته أن صار حامل الغاشية لمحمد ﷺ، وكان أكبر ما أكرم به أن يكون سائسا لبراق سيدنا ومولانا محمد ﷺ فكيف يكون هو أرقى ممن يقوم بتهذيب نفسه، ومجاهدتها فى هذه الدنيا، حتى ينظر الله له، ويمنحه الفضل، وهو شهود وجهه الكريم، وأن يخلصه من الاشتغال بغيره.

لما اشتد عجب الملائكة، وصار كل منهم يباهى بصفاء حاله، وصاروا يتكلمون بلسان ذرب فى لوم بنى آدم، أراد الله تعالى أن يكاشفهم بحقيقة حالهم فأمرهم أن يختاروا ثلاثة أشخاص من أكابرهم الذين يثقون فيهم، لكى

ينزلوا إلى الأرض. ويكونوا خلفاء فيها ويصلحون أحوال الناس، ويحكموا بين الناس فاختاروا ثلاثة منهم، ولكن قبل أن يصلوا إلى الأرض رأى أحدهم فسادها فسأل الله تعالى أن يرجع، ولما وصل الإثنان غير الله طبائعهما حتى شعرا بالجوع وابتليا بشهوتهما، فعاقبهما الله تعالى على هذا، إذ شاهدوا فضل بنى آدم على الملائكة عيانا.

وبالاختصار فخواص المؤمنين أفضل من خواص الملائكة، وعلى ذلك فيكون المعصومون من بنى آدم المحفوظون من المعصية أرقى درجة من جبريل وميكال، والذين حافظوا على الشرع الشريف يكونون أرقى من الحفظة والكرام الكاتبين.

وقد قال العلماء فى هذا المعنى أقوالا كثيرة: والله تعالى يهب الفضل لمن يشاء على ما يشاء. وهذا هو مذهب الحكيمية فى التصوف، واختلاف المتصوفة معهم أوردته على سبيل الاختصار والتخفيف.

ويلزمك أن تعرف: أن الولاية من أسرار الله تعالى، التى لا تكشف إلا بعد الممارسة، لأنه لا يعرف الولى إلا ولى، لو كان هذا الأمر مشاعا صار من المستحيل أن تفرق بين الصديق والعدو، وبين الواصل والغافل، لذلك فالله سبحانه وتعالى، أراد بأن يجعل جوهرة محبته فى صدفة محتقرة هى الخلق ورماها فى بحر المصائب، حتى يبذل طالبوها النفس والنفيس فى البحث عنها وذلك لعظمتها، حتى يلجأوا إلى غوص البحر، وهناك إما أن ينالوا ما يطلبون، وأما ان تنتهى مدة أحوالهم فى هذه الدنيا. وكنت قد أردت أن أطيل فى هذا الأمر، ولكن خوف الملامة ونفور الطبع متعانى حتى سقت العنان نحو الاختصار. وقد يكون هذا المقدار مقبولا لمن يدقق النظر.

الخرازية:

هم أتباع أبى سعيد الخراز، الذى له تآليف عالية فى التصوف، وبلغ درجة عالية فى التجريد من الدنيا. وهو أول من بين حقيقة الفناء والبقاء، وبنى أساس مذهبه على هاتين العبارتين[1]. وسأبين لك معناهما وأوضح لك

(١) الرسالة القشيرية جـ١ ص ٢١١ / ٢١٣ ففيها شرح عن حال الفناء والبقاء.

الخطأ الذى وقع فيه بعضهم فى هذا الخصوص، حتى تعلم ماهية مذهبه، وتعرف مقصود الصوفية عند استعمالهم لهاتين الكلمتين الشائعتين.

فصل فى البقاء والفناء

يقول الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[١] ويقول تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٢].

اعلم أن الفناء والبقاء لهما معنى عامى، وآخر صوفى، وأن أهل الظاهر أشد حيرة فى هاتين الكلمتين من كل اصطلاحات الصوفية. فالبقاء اشتقاقا وعلما على ثلاثة معان:

(١) بقاء يبتدئ من الفناء وينتهى فى الفناء وذلك هو بقاء هذه الدار التى لها أول وآخر وهى قائمة فى وقتنا هذا.

(٢) والبقاء الذى صار له وجود وليس له فناء وهو بقاء الجنة والنار والدار الآخرة وأهلها.

(٣) وبقاء كان كما كان هو على ما هو عليه كان، وذلك بقاؤه سبحانه وتعالى وبقاء صفاته القديمة، والمراد من بقائه دوام وجوده، تعالى الله عما يقول الظالمون، لا يشاركه أحد فى أوصافه، لذلك فمعرفة الفناء مخصوصة بمعرفتك بفناء هذه الدنيا، ومعرفة البقاد بمعرفة دوام الآخرة وذلك لقوله تعالى:﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٣] وأبقى هنا مبالغة، ذلك أن بقاء عمر الدنيا ليس فى فنائها.

أما بقاء الحال وفناؤه يعنى مثلا أنه إذا فنى الجهل لزم بقاء المعرفة، وإذا فنيت المعاصى لزم بقاء الطاعة وإذا توصل الإنسان إلى معرفة تقواه

---

(١) سورة النحل: آية ٩٦.

(٢) سورة الرحمن: آية ٢٦-٢٧.

(٣) سورة الأعلى: آية ١٧.

فنيت غفلته بذكر الله تعالى، أعنى أن الإنسان إذا نال معرفته سبحانه، وصار باقيا فى معرفته فهو فان عن كل عقبات الجهل به، وإذا فنى عن غفلته صار باقيا فى ذكره، وهذا هو إسقاط الصفات المذمومة، واستبدالها بالصفات المحمودة، ولخاصة الصوفية ذوق أرقى فى هذا الموضوع، فأنهم لا ينسبون هذه التعابير إلى العلم والحال، لكنهم يطبقونها على مرتبة الكمال، التى ينالها الأولياء، الذين تخلصوا من ألم مجاهدتهم وفروا من سجن مقاماتهم، وأطوار أحوالهم، وانتهى بهم البحث إلى الكشف حتى رأوا الأشياء على حقائقها، وسمعوا كل ما يمكن سماعه، ووجدوا كل أسرار القلب، حتى إذا علموا نقص مكاشفاتهم فروا من جميع الأشياء، وفنوا فى المراد وفى حقيقة إرادتهم فقدوا كل رغباتهم، ووصل الطريق إلى نهايته، وسقطت الدعوى، وانقطعت عن المعنى، وصارت الكرامات حجبا، وتحولت المقامات إلى غاشية، ارتدت الأحوال، وصارت رداء الفساد، وبقيت فى عين المراد بلا مراد للمراد، وسقط المشرب عن الكل وصار الأنس بالمستأنسات هدرا لقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[1] وأقول أنا فى هذا المعنى:

فناء فنائى بعقد هوائى ... فصار هوائى فى الأمور هواكا

فإذا فنى العبد عن أوصاف إدراك البقاء بتمامه، أى أن العبد إذا فنى فى حالة وجود الأوصاف عن آفة الأوصاف صار باقيا فى فناء المراد ببقاء المراد، فلا يكون له قرب أو بعد، أو وحشة أو أنس، أو صحو أو سكر، أو فراق أو وصول، فلا طمس ولا اصطلام، ولا أسماء أو أعلام، ولا سمات أو أرقام ويقول أحد الشيوخ فى هذا المعنى:

وطاح مقامى والرسوم كلاهما فلست ... أرى فى الوقت قربا ولابعدا

فذبت به عنى فبان لى الهدى فهذا ... ظهور الحق عند الفنا قصدا

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤٢.

فالفناء الحقيقى عن أى شئ لا يصلح الا بعلمك بنقصه، وغيبة الطلب له، لا أن يقول الإنسان إذا أحب شيئا: أنا باق فيه، وإذا كره شيئا أن يقول: أنا فان عنه، لأن هذه الصفات هى أخلاق من هم على البحث دائبون. فالفناء ليس فيه محبة ولا كراهة، والبقاء ليس فيه رغبة فى القرب أو البعد.

والبعض يتخيلون خطأ أن الفناء هو فقدان الذات وعدم الشخص، أو أن البقاء يشير إلى بقاء الله تعالى فى العبد، وكلا هذين الزعمين باطل وقد حصلت بيني وبين شخص ادعى العلم بتفسير القرآن فى بلاد الهند مناقشة فى هذا الموضوع فلما بحثت كل دعاويه وجدت أنه لا يعرف شيئا فى الفناء والبقاء، وأنه لا يكاد يفرق بين القديم والمحدث، وكثير من جهلاء الصوفية يعتبرون: أن الفناء الكلى ممكن. ولكن ذلك خطأ عظيم لأن فناد الأجزاء المختلفة من المادة لا يجوز وإنى لسائل هؤلاء المغرورين ما الذى تعنون من هذا الفناء فإذا قالوا بفناء العين فإن هذا مستحيل، وإذا قالوا بفناء الصفات فذلك قد يكون جائز فى حالة فناء صفة عن طريق بقاء صفة أخرى، وكلتا الصفتين منسوبة للإنسان وإنه لمن الخطأ أن نعتبر ان أحدهما يبقى عن صفات شخص آخر.

ومذهب النساطرة من الروم والنصارى يعتقدون أن مريم عليها السلام أفنت بمجاهدتها كل صفات الناسوت، حتى اتصل بها البقاء الربانى فصارت باقية ببقاء الله تعالى وأن عيسى عليه السلام هو ثمرة ذلك، وإنه ليس فى الحقيقة مركبا من المادة الآدمية لأن بقاءه حاصل من تحقيق بقاء الله تعالى، ولذلك فإنه هو وأمه والله سبحانه وتعالى باقون عن بقاء واحد؛ وذلك البقاء قديم، وهو صفة من صفات الله، كل هذا موافق لمذهب الحشوية الذين يقولون إن الذات الآلهية محل للحوادث وإن القديم ربما تكون له صفات حادثة ـ وإنى لسائل كل من اعتقد بذلك ما هو الفرق بين من يقول: إن القديم هو محل للحوادث وبين رأى من يقول الحادث هو محل للقديم. أو بين إثبات أن القديم

له صفات قديمة. كل هذه المذاهب تذهب مذهب الدهريين، وتبطل الحجة بحدوث العالم، وتضطرنا أن نقول إن الخالق والمخلوق إما إن يكونا قديمين أو حديثين أو أن المخلوق قد يمتزج بمن لم يخلق وينزل الذى لم يخلق إلى المخلوق، فإذا اضطروا إلى القول بأن الخلق حادث لزم أن يكون الخالق أيضا حادثا، لأن محل الشئ مثل مادته، فاذا كان المحل حادثا لزم أن يكون من حل فيه حادث أيضا، وعلى العموم فإذا كان الشئ الواحد متصلا أو متحدا أو ممتزجا بشئ آخر فكل هذه الأشياء هى فى الأصل كالواحد لذلك لأن بقاؤنا صفتان من صفات انفسنا ولهذا فهما تتشابهان فى أنها صفات. فالفناء هو فناء صفة مع بقاء أخرى.

ولقائل أن يقول عن فناء مستقل عن البقاء وعن بقاء مستقل عن الفناء وفى هذه الحالة فمعنى الفناء هو فناء عن ذكر الغير والبقاء يعنى به فى ذكر الحق. فمن فنى عن مراده بقى فى مراد الله لأن مرادك فان ومراد الله باق فإذا وقفت بمرادك كنت متصلا بالفناء، ولكن إذا خضعت لمراد الله تعالى صرت متصلا بالبقاء، وكان ذلك أشبه بالقوة التى تشعل كل ما يقع فيها من أشياء. وحيث أن قوة مراد الله تعالى هى أكبر وأشد من النار فالنار تؤثر فى الحديد ولا تغير مادته لأن الحديد لا يمكن أن يكون نارا والله أعلم.

فصل

وقد ذكر شيوخ الطريق تعريفات دقيقة لهذا الموضوع يقول أبو سعيد الخراز: «الفناء فناء العبد عن رؤيته العبودية، والبقاء بقاء العبد يشاهد الألوهية». بمعنى أنه فى أفعال العبودية آفة، هى النظر إليها، ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حين لا يكون ناظرا إلى أعماله، وأن يفنى عن رؤية أعماله حتى لا يراها وحت يبقى عن طريق مشاهدة أعمال الله، وعندئذ تعزى كل أعماله لله. وإذا كانت أعمال الشخص المرتبطة بنفسه غير كاملة فان أعماله المتصلة به لمن الله كاملة وعليه فعندما يفنى الفرد عن الأشياء المرتبطة به يبقى فى الجمال الإلهى.

يقول أبو يعقوب النهر جورى: « صحة العبودية فى الفناء والبقاء» إذ لا يكون الشخص جديرا بعبادة الله بإخلاص ما لم يتخلص من ذاتيته، ولهذا فان التخلص من الآدبية فناء والأخلاص فى العبودية بقاء.

يقول إبراهيم بن شيبان[1]: «يقوم علم الفناء والبقاء على الإخلاص والوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة»[2] بمعنى أنه عندما يعترف الفرد بوحدانية الله تقهره قدرته تعالى، ويفنى المغلوب فى قدرة غالبة. وعندما يتحقق من فنائه يعترف بضعفه، ولا يجد له ملجأ إلا عبادة الله، ويحاول أن يكتسب رضاه.

أما من يحاول أن يشرح هاتين العبارتين بصورة أخرى ويقول إن الفناء هو فناء المادة والبقاء هو بقاء الله «فى الإنسان» فهو زنديق، ومذهب النصارى هكذا، كما سبق أن ذكرنا.

وإنى ـ على بن عثمان الجلابى ـ أعلن: أن كل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى رغم اختلافها فى التعبير، وكنهها الحقيقى أن الفناء يأتى للفرد عن طريق مشاهدته لعظمة الله، وإدراك قلبه لقدرته تعالى، بحيث ينمحى هذا العالم والعالم الآخر أمام الإحساس القوى بعظمته، وتظهر المقامات والدرجات محتقرة أمام فكره السامى، وتتلاشى فى نظره الكرامات وتصبح كأنها لا شئ.

إنه يفنى عن العقل والنفس معا، بل يفنى عن الفناء نفسه، وفى فناء الفناء هذا لا ينطق لسانه إلا عن الحق، ويخشع جسمه، ويخضع ويرجع إلى صورته الأولى عندما أخذ الله من بنى آدم ظهورهم ذريتهم قبل أن يتأثروا بالشر وأخذ منهم ميثاق العبودية لله.

ويقول أحد المشايخ رضى الله عنهم فى هذا المعنى:

لا كنت إن كنت أدرى كيف السبيل إليكا
أفنيتنى عن جميعى فصرت أبكى عليكا

---

(١) أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٠٢. وفى الطبقات الكبرى للشعراني بتحقيقنا جـ١.

(٢) طبقات الصوفية ص ٤٠٤.

ويقول آخر:

ففي فنائي فنا فنائي   وفي فنائي وجدت أنت
محوت اسمي ورسم جسمي   سئلت عني فقلت أنت

هذه هي أحكام الفناء والبقاء وقد ذكرت جانبا من هذا الموضوع في باب الفقر والصفوة. وكلما ظهرت هاتان العبارتان في كتابي هذا فإنهما تحملان المعنى الذي شرحته وهذا هو أساس مذهب الخرازية وأصل هذا الشيخ العظيم ذي المجاهدات الطيبة وهو أصل طيب، والفصل الذي يكون دليلا للوصل يرتد إلى الأصل.

الخفيفيون:

هم أتباع أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، وهومن كبار وسادات هذه الطائفة وله تصانيف معروفة في مختلف فروع الصوفية، ومناقبه أكثر من أن تحصى.

كان ذا أحوال، معرضا عن شهوات النفس. وقد سمعت أنه عقد على أربعمائة زوجة ويرجع هذا إلى أنه كان من أصل ملكي، وأنه بعد توبته كان موضع محبة أهل شيراز. وكانت بنات الملوك والأمراء يرغبن في الزواج منه، من أجل ما يلحق بهن من بركته، فكان يستجيب لرغبتهن، ثم يطلقهن قبل أن يدخل بهن[1].

ولكن خلال حياته كانت هناك أربعين زوجة يخدمن فراشه، مثنى أو ثلاث، وكانت إحداهن ابنة وزير، وقد ظلت معه أربعين عاما، وقد سمعت من أبي الحسن علي بن بكران الشيرازي أن بعض زوجاته اجتمعن ذات يوم، وأخذت كل واحدة تقص قصة عنه فأجمعن على أنه لم يلا مسهن، وكانت له واحدة تظن أنه يعاملها بهذه الصورة دون زميلاتها، ولكن عندما علمن أن سلوك الشيخ معهن جميعا كان على حد سواء استبدت بهن الدهشة، وأردن أن

---

(١) ليس هناك زواج من أجل التبرك أو البركة، وهذه الصورة من الزواج غير جائزة في الإسلام.

يعرفن إن كان سلوكه على هذا النحو مع بنت الوزير، إذ كانت بينهما طول الصحبة وحسن العشرة، فأرسلن اثنتين لها يسألانها عن سلوكه معها، فأجابت: «عندما زففت إلى الشيخ، وقيل لى إنه سيزورنى فى تلك الليلة اعددت عشاء طيبا وتزينت له، وما أن جاءنى وأعددت مائدة الطعام حتى نادانى، ثم نظر لفترة من الزمن إلى وجهى ثم إلى الطعام، ثم أخذ يدى وأدخلها فى كمه، فألفيت من صدره إلى سرته خمس عشرة عقدة فى بطنه فقال: «أسألينى عن هذه العقد» فسألته فأجاب: «إنها عقد ناجمة عما أعانى من الألم الإعراضى عن وجه كهذا وطعام كذاك». ولم يزد على ذلك ثم تركنى وخرج وهذا هو مدى ارتباطى به[1].

إن مبدأه فى التصوف مبنى على الغيبة والحضور، وسأحاول أن أشرح ذلك على قدر إمكانى.

فى الغيبة والحضور:

برغم أن هاتين العبارتين متعارضتان فى ظاهرهما إلا أنهما تعبران عن نفس المعنى من عدة وجوه، فالحضور هو حضور القلب، كبرهان على اليقين، بحيث يصبح لما هو محجوب عنه نفس الأثر الذى يكون لما هو ظاهر له. أما الغيبة فهى غيبة القلب عن كل ما عدا الله، حتى أنه ـ أى القلب ـ يصبح غائبا عن نفسه بل غائبا عن الغيبة بحيث لا يرى لنفسه أثرا.

وعلامة هذا المقام البعد عن حكم الرسوم، وهو فى هذا يصبح قريب الشبه بالنبى، عندما تحفظه عناية الله من الوقوع فى المعصية. وعليه فإن الغيبة عن النفس حضور مع الله، والعكس بالعكس، والله هو مقلب القلوب، فعندما تسيطر الجذبة على القلب السالك تصبح غيبة قلبه مساوية لحضوره ـ مع الله ـ ويختفى الشرك والانقسام، وتنتهى سيطرة النفس، وكما قال أحد المشايخ:

(١) لا يقر الإسلام مثل هذه التصرفات فإما أن يمسكهن بمعروف أو يسرحهن بإحسان وما ذكر عاليه ليس من المعروف ولا من الإحسان.

ولى فـؤاد أنـت مـالكـــه بلا شــريك فكيف ينقــسم

فعندمـا يكون الله هو المالك الوحـيد لقلب عبـده يجعله فى غيبة وفى حضور كيف يشاء، وحسب ما يقتضيه الوضع، وهذا هو أسلوب الأحباب. ولكن عندما يفاضلون بين الغيبة والحضور تختلف الآراء حول الموضوع، إذ يفضل البعض الحضور على الغيبة، بينما يعلن الآخرون أن الغيبة أعلى قدرا من الحضور، وهو نفس الخلاف الذى يدور حول الصحو والسكر، الذى سبق لى شرحه.

ولكن هاتين الكلمتين أى ـ السكر والصحو ـ تفيدان أن الصفات البشرية ما زالت قائمة. أما كلمتا: ـ الغيبة والحضور ـ فتفيدان فناء الصفات البشرية ولهذا فهما أعلى شأنا.

ويفضل الغيبة على الحضور ابن عطاء الحسين بن منصور الحلاج وأبو بكر الشبلى وبندار بن الحسن وأبو حمزة البغدادى وسمنون المحب وعدد من شيوخ العراق وهم يقولون: «أن نفسك أكبر حجاب بينك وبين ربك». فعندما تغيب عن نفسك تفنى عنك كل الشرور القائمة فيك، وتمر بمرحلة من التغير الأساسى فعندئذ تصبح مقامات السالكين حجابًا لك، ومقامات الباحثين مصدر تعب لك، وتصبح عينك مغمضة عن نفسك، ومن كل ما عدا الله، وتحترق صفات بشريتك بلهيب القرب.

إن هذه هى نفس الغيبة التى كنت فيها عندما أخرجك الله من ظهر آدم، وأشهدك كلمته العلية واصطفاك برداء الوحدة ولباس المشاهدة. فكلما غبت عن نفسك حضرت مع الله دون حجاب، ولكن إذا حضرت مع صفاتك البشرية غيبت عن القرب من الله وهكذا يصبح حضورك هلاكك.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٤.

ومن ناحية أخرى فإن الحارث المحاسبى والجنيد وسهل بن عبد الله وأبا حفص الحداد وحمدون القصار وأبا محمد الجريرى والحصرى ومحمد ابن خفيف صاحب هذا الطريق وغيرهم يرون أن الحضور أفضل من الغيبة ويقولون إنه إذا كانت كل ألوان الجمال مرتبطة بالحضور، وإذا كانت الغيبة عن النفس تؤدى إلى الحضور مع الله، فلا داعى للتمسك بالوسيلة بعد أن تكون قد وصلت إلى الهدف، إذن فكل من يتمسك بالغيبة يصل إلى الحضور فالغيبة بلا حضور جنون أو غلبة أو موت أو غفلة. وحين يوجد الوجود تسقط الغلبة. كما قيل:

«ليس الغائب من غاب من البلاد، وإنما الغائب من غاب عن المراد. وليس الحاضر من ليس له مراد، وإنما الحاضر من ليس له فؤاد حتى استقر به المراد». وقد قال أحد الشيوخ فى هذا المعنى:

من لم يكن بك فانيا عن نفسه ... وعن الهوى بالأنس والأحباب
فكأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظ أو لحسن مآب

ومعروف أن أحد مريدى ذى النون ذهب لزيارة أبى يزيد وعندما وصل إلى صومعته وطرق بابه قال أبو يزيد: من أنت ومن تريد؟. فأجاب الطارق: أبا يزيد. فسأل أبو يزيد من هو أبو يزيد؟ وأين هو؟ ماذا هو؟ لقد كنت أبحث عن أبى يزيد لمدة طويلة، ولكنى لم أجده. وعندما رجع التلميذ إلى ذى النون، وروى له ما حدث، قال ذو النون: أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين إلى الله[1].

وجاء رجل إلى الجنيد وقال له: كن حاضرا معى هنيهة أتحدث إليك فأجابه الجنيد: «يا رجل أنت تطلب منى شيئا مكثت طويلا أبحث عنه، لقد حاولت لسنين أن أحضر مع نفسى دقيقة دون أن أقدر على ذلك فكيف أكون حاضرا معك الآن؟.»

ولهذا فإن «الغيبة» وحشة الحجاب، أما الحضور فراحة الكشف.

---

(١) الرسالة القشيرية جـ١ ٢١٦.

وليس الكشف كالحجاب. ويقول الشيخ أبو سعيد فى هذا الموضوع:

تقشع غيم الهجر عن قمر الحب   وأسفر نور الصبح عن ظلمة الغيب

وخلاف المشايخ حول العبارتين خلاف صورى، وهو فى ظاهره مجرد خلاف لفظى إذ يبدو أن العبارتين مترادفتان تقريبا.

فالحضور مع الله غيبة عن النفس، فما هو الفرق؟. والشخص الذى لا يغيب عن نفسه لا يحضر مع الله. وعليه فضيق أيوب ببلائه لم يصدر عن نفسه فقد كان حاضرا مع الله عندما صاح قائلا: ﴿مَسَّنِىَ الضُّرُّ﴾[1] فقال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾[2] وواضح أن هذا الحكم قائم على الطبيعة الحقيقية للأشياء فتأمل. ويروى أن الجنيد قال: «مكثت فترة وكأنما كانت السماء والأرض تبكى لحيرتى، ثم أصبحت وكأنما أبكى على غيبتهم فى، وأصبحت الآن فى وضع لا أدرك فيه شيئا عنهم أو عن نفسى». هذا خير دليل على الحضور.

لقد شرحت باختصار معنى «الحضور والغيبة» حتى تتعرف على مبدأ الخفيفيين وتدرك معنى هاتين العبارتين فى نظر الصوفية.

السياريون:

هم أتباع أبى العباس السيارى، إمام مرو فى كافة العلوم، وصاحب أبى أبى بكر الواسطى، وله فى يومنا الحاضر أتباع عديدون فى نسا، ومرو.

وطريقته هى الطريقة الوحيدة التى احتفظت بمبدئها الأصلى دون تغيير ويرجع السبب فى ذلك إلى أن مدينتى نسا ومرو احتفظتا دائما بمن يقر بسلطته ويهتم بأن يسير أتباعه على نهج إمامهم، وقد تراسل أتباعه من نسا مع أتباعه من مرو. وقرأت بعض رسائلهم فى مرو، وهى ممتازة، وتقوم

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٨٣.

(٢) سورة ص: آية ٤٤.

مناقشتهم حول موضوع «الجمع» و «التفرقة» وهاتان الكلمتان معروفتان لسائر العلماء، ويستخدمها المتخصصون فى كل فرع من فروع المعرفة لشرح أفكارهم ولكنهما تحملان معانى مختلفة فى كل حالة.

فالجمع عند الرياضيين يعنى الإضافة، والتفرقة هى طرح الأعداد وعند النحويين يعنى الجمع «اتفاق الكلمات فى اشتقاقاتها». أما التفرقة فهى الاختلاف فى المعنى.

ويعنى الجمع عند الفقهاء «القياس» والتفرقة «بالنص» أو عكس ذلك فى علم الأصول يعنى الجمع «صفات الذات» وتعنى التفرقة «صفات الفعل» وسأقوم هنا بشرح معنى هاتين الكلمتين كما يراه الصوفية وسأسرد الآراء المختلفة للشيوخ فى هذا المجال.

فصل عن الجمع والتفرقة

لقد جمع الله البشر كلهم فى دعوته إذ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾(١) ثم فرق بينهم فى الهداية الربانية إذ قال: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) فقد دعاهم جميعا ثم طرد البعض طبقا لإرادته.

لقد وحد بينهم جميعا وأصدر إليهم أمرا ثم مزقهم، ونبذ فريقا دون أن يمنحه العون والمساعدة، وقرب إليه فريقا آخر من المعونة الإلهية. ثم قال مرة ثانية بجمع فريق. وتفرقة فريق، إذ حفظ الفريق الأول من الوقوع فى المعصية، وجعل الفريق الثانى يميل إليها وعليه فإن سر الجمع معرفة الله ومشيئته.

أما التفرقة فهى إظهار أوامره ونواهيه، مثال ذلك أنه أمر إبراهيم بقتل اسماعيل، ولكنه شاء تعالى ألا يفعل إبراهيم ذلك، وأمر أبليس أن يسجد لآدم ولكنه شاء غير ذلك، وأمر آدم ألا يأكل الحنطة وشاء أن يأكلها، وما يشبه لذلك كثير.

---

(١)،(٢) سورة يونس: آية ٢٥.

[الجمع ما جمع بأوصافه والتفرقة ما فرق بأعماله] ويقتضى كل هذا توقف الارادة الإنسانية وتأكيد الإرادة الإلهية، بحيث لا يكون هناك أى دافع شخصى.

وفيما يختص بكل ما قيل حول موضوع الجمع والتفرقة فإن كل أهل السنة باستثناء المعتزلة يوافقون الصوفية فميا ذهبوا إليه ولكنهم يختلفون عند هذه النقطة، إذ أن البعض يطبق عبارتى الجمع والتفرقة على التوحيد ويطبقها آخرون على الأوصاف، ويطبقها الفريق الثالث على الأعمال.

أما من يشيرون إلى التوحيد فيقولون إن هناك درجتين من درجات الجمع أحدهما خاصة بصفات الله، والأخرى بصفات الإنسان، فالأولى هى سر التوحيد وليس لعمل الإنسان فيها أى دخل، والثانية تقتضى الاعتراف بالتوحيدعن عقيدة واقتناع وهذا هو رأى أبى على الروزبارى.

أما من يعزو كلمتى الجمع والتفرقة إلى الصفات فيقولون أن الجمع من صفات الله والتفرقة عمل من أعماله تعالى، لا دخل للأنسان به، أذن الله لا منافس له فى الربوبية وعليه فلا يمكن الاشارة بكلمة إلا إلى حقيقته وصفاته إذ أن الجمع هو التسوية فى الأصل ولا يتساوى شيئان فى الأبدية إلا حقيقته وصفاته تعالى وإذا فصلناهما بعبارات التفضيل يتحدان.

ويعنى هذا أن لله صفات أبدية خاصة به ولا تقوم إلا عن طريقه وأن ذاته تعالى، وصفاته ليسا شيئين إذ أن توحيده لا يسمح بالفرقة والتعدد وعلى هذا الأساس يصبح الجمع إلا بهذا المعنى.

وتشير التفرقة فى الحكم إلى أعمال الله وهى جميعا متفرقة، فهناك حكم على شئ بالوجود، وحكم على شئ آخر بالعدم ـ وهو عدم قادر على الوجود. وحكم على شئ ثالث بالفناء، وعلى آخر بالبقاء. وهناك آخرون يطلقون هاتين العبارتين «الجمع والفناء» على العلم ويقولون إن الجمع هو العلم بالتوحيد والتفرقة هو العلم بالأحكام وعليه فالأصول جمع وفروعه تفرقة. وقد قال أحد المشايخ فى هذا المعنى.

«الجمع هو ما اجتمع عليه أهل العلم والتفرقة هى ما اختلفوا فيه» وعندما يستخدم الصوفية كلمة «التفرقة» فى حديثهم وشروحهم يستخدمونها مشيرين إلى الأعمال الإنسانية والمكاسب مثل الخضوع ويستخدمون الجمع مشيرين إلى المنح الإلهية أو المواهب مثل المجاهدة والمشاهدة.

فكل ما يمكن الحصول عليه عن طريق الخضوع فهو مفرقة أما ما هو موهبة من الله وهداية منه سبحانه فهو «جمع» ومما عظم الله به الإنسان أنه مع بقاء أعماله واستمرار خضوعه، يمكنه أن يغير بفضل الله من قصور عمله ويراها قائمة على كرمه تعالى، فيعتمد بكليته على الله، ويعزو كل صفاته وأعماله تعالى لا لنفسه كما قال جبريل للنبى فى الحديث القدسى «لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ولسانا بى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يبطش»[1] .

ومعنى هذا أنه عندما يذكرنى ينتشى بذكره لى ويفنى كسبه فلا يذكره ويطغى ذكرى على ذكر نفسه وتزول عن إدراكه آدميته وعندئذ يصبح ذكرى ذكره ويصبح فى حال غلبة مثل أبى يزيد عندما قال: «سبحانى سبحانى ما أعظم شأنى». لقد كانت هذه الكلمات ظاهر عبارته أما المتحدث فهو الله ولذلك قال النبى ﷺ: «الحق ينطق على لسان عمر»[2].

والحقيقة أنه عندما تسيطر القدرة الإلهية على الإنسانية تنقل الإنسان من حالته بحيث كلامه كلام الله ولا يعنى هذا أى امتزاج بين الله ومخلوقاته أو أى اتحاد أو إنه يحل فى الأشياء تعالى الله عن ذلك وعما يلصقه الملحدون به علو كبيرا.

وقد يحدث عندئذ أن تسيطر محبة الله على قلب عبده ولغلبتها وإفراطها يكون عقل العبد وطبيعته بحيث لا يحتمل هذه النشوة وعندئذ يفقد كل قدرة على الكسب. وتسمى هذه الحالة «جمعا» فحينما كان الرسول ﷺ

---

(١) رواه البخارى فى الصحيح والطبرانى فى الكبير.

(٢) رواه أحمد والترمذى وأبو داود..

مستغرقا وفى حال الغلبة وحدث منه فعل دفع الله تعالى الفعل عنه وقال: هذا فعل لا فعلك مهما بدا عليه أنه فعلك ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(١) يا محمد. إن هذه القبضة من التراب التى ألقيت بها فى وجه العدو لم تلقها أنت ولكنى ألقيتها أنا. ومن نفس هذا النوع حدث فعل من داود عليه السلام قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾(٢) وهذا ف حال التفرقة.

وفرق بين من يضاف إليه الفعل وهو محال الآفة والحدوث وبين من يضيف فعله إليه تعالى وهو القديم الذى لا يتطرق إليه الفساد. إذن فحينما يصدر من انسان فعل ليس من فعل البشر ففاعله لا محالة هو الله جل وعلا وتتصل بهذه الحالة كافة المعجزات والكرامات. إن كافة الأعمال غير العادية من مثل الوصول إلى «قاب قوسين» فى ليلة واحدة ليس فعلا معتادا ولكنه فعل إلهى وهذه النار التى لا تحرق ليست عادية وليست إلا فعل الله.

ويمنح الله المعجزات والكرامات لأنبيائه وأوليائه ويعزو أعمالهم له وأعماله لهم ففعل أحبائه فعله وبيعتهم بيعته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾(٣) وقال جل شانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾(٤) ومن ثم فإن أولياء الله مجتمعون بأسرارهم ومتفرقون بسلوكهم بحيث يقوى حبهم لله بجمعهم الباطنى ويقوى إبتاعهم الصحيح لواجباتهم الظاهرية كعبيد الله تعالى ويقول أحد كبار المشايخ فى حال الجمع(٥):

قد تحققت بسرى فناجاك لسانى

واجتمعنا لمعان وافترقنا لمعانى

فلئن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى

فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

---

(١) سورة الأنفال: آية ١٧.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٥١.
(٣) سورة الفتح: آية ١٠.
(٤) سورة النساء: آية ٦٩.
(٥) القائل هو الجنيد الرسالة القشيرية جـ١ ص ٢١٠.

إنه يطلق كلمة «جمع» على الوحدة الباطنية وكلمة «تفرقة» على النجوى باللسان. ثم يقول: إن كلا من الجمع والوحدة فى نفسه، ويعزو قاعدتهما له، وهذه نقطة دقيقة.

(فصل)

[الخلاف القائم]

ويجب على هنا: أن أشير إلى الخلاف القائم بيننا وبين من يقولون إن إظهار الجمع إنكار للتفرقة، وأن العبارتين متناقضتان، وأنه عندما يصبح الإنسان خاضعا بكليته للهداية الإلهية يتوقف عن العمل وعن مجاهدة نفسه.

ليس هذا القول إلا التعطيل المحض إذ لا يصح لشخص أن يتوقف أبدا عن العبادة والمجاهدة، ما دامت لديه القوة على ذلك. وعلاوة على ذلك فليس الجمع شيئا منفصلا عن التفرقة، إنفصال الضوء عن الشمس والحدث عن المادة، والصفة عن الموصوف، ولهذا فليست المجاهدة منفصلة عن الهداية الإلهية ولا الشريعة عن الحقيقة، ولا الانكشاف عن البحث، ولكن قد تسبق المجاهدة الهداية الإلهية، وقد تعقبها.

وفى الحالة الأولى تزيد هموم الشخص، إذ يكون فى حالة الغيبة أما فى الحالة الثانية فليست لديه هموم وآلام لأنه يكون فى حالة «الحضور» وأن من يكون الأنكار مشربهم وعين أعمالهم يرتكبون خطأ جسميا، وقد يصل الفرد إلى درجة يعتبر فيها كل صفاته خاطئة، إذ أنه عندما يرى صفاته الحميدة ناقصة وغير حميدة تكون صفاته الخاطئة أكثر نقصانا وشرا.

وإنى أذكر هنا هذه الإعتبارات لأن بعض الجهلة الذين وقعوا فى الخطيئة التى هى أقرب إلى الكفر، يقولون: إن عملنا لا طائل وراءه، ولما كانت أعمالنا وعباداتنا خاطئة، ومجاهداتنا غير كاملة فإن عدم عمل الشئ خير من عمله. وإنى أجيب على هذه الدعوى قائلا: إنكم توافقون على أن كل ما نقوم به هو فعل لنا، وتقولون إن كل أفعالنا مركز الخطأ ومصدر للشر والفساد

وينتج عن ذلك أنكم تفترضون أيضا أن الأشياء التى لا نقوم بأدائها فعل وبما أن هناك فى كلتا الحالتين عمل معرض للخطأ فكيف نعتبر ما نتركه دون عمل أفضل مما نعمله؟. ومن الواضح أن هذا الرأى ليس إلا محض افتراء، ولا يعتبر قياسا صادقا نقيس به المؤمن والكافر.

إنهم يتفقون على أن أفعالنا خاطئة ولكن المومن يعتبر أن القيام بالعمل خير من تركه وهو فى هذا يمتثل أمر الله. أما الكافر فيعتبر أن ترك العمل خير من أدائه وهو فى هذا يعصى أوامر خالقه.

ولهذا فإن الجمع يقتضى أنه رغم إدراك النقص الناجم عن التفرقة فلا يصح التخلى عن حكمها، كما أن التفرقة تقتضى أنه رغم كون الشخص محجوبا عن الجمع فعليه أن يعتبر التفرقة جمعا.

ويقول أبو الحسن المزين الكبير فى هذا[1]: «الجمع الخصوصية، والتفرقة العبودية، موصول أحدهما بالآخر، غير مفصول عنه» إذ يجب فى حال الخصوصية القيام بواجبات العبودية. ولهذا فعلى الرغم من أن آلام المجاهدة ومتاعبها قد تزول عن كل من يقوم بواجبه فى هذا المجال إلا أنه لا يجوز أن لا يتخلى الفرد عن المجاهدة، والالتزام بأوامر الدين، حتى إلى حقيقة الجمع، ما لم يكن له عذر واضح تقره الشريعة وسأشرح الموضوع باستفاضة حتى يحسن إدراكه.

الجمع جمعان: جمع سالم، وجمع تكسير.

والجمع السالم وهو ما يوجده الله فى الإنسان عندما يصبح فى حالة الغلبة بالله ويقدر الله له أن يطيع أوامره ويجاهد نفسه.

وكان هذا مقام سهل بن عبد الله وأبى حفص الحداد وأبى العباس السيارى صاحب هذا الطريق.

---

(١) أبو الحسن المزين الكبير عالم جليل صحب الجنيد وسهل بن عبد الله وتوفى سنة ٣٢٧هـ.

وكان أبو يزيد البسطامى وأبو بكر الشبلى وأبو الحسن الحصرى وغيرهم من كبار الشيوخ فى حالج غلبة دائمة حتى تحين الصلاة، وعندئذ يعود إليهم شعورهم، وبعد أدائها يعودون إلى جذبهم مرة ثانية فعندما تكون فى حال التفرقة تكون أنت وتقوم بأداء أوامر الله، ولكن عندما يجذبك الله فمن حقه أن يراك تقوم بأداء أوامره لسببين:

أولا: حتى لا يزول عنك شعار العبودية.

ثانيا: حتى يصدق وعده تعالى بأن يحفظ شريعة محمد ﷺ.

أما جمع التكسير فهو أن يصبح تقدير المرء مرتبكا متحيرا بحيث يكون أقرب إلى تقدير المجانين وعندئذ فإما أن يعفى من أداء التزاماته الدينية أو يشكر عليها وإن حال من يشكر على أدائها أفضل من حال من يعفى منها.

وعليك أن تعرف باختصار أن الجمع بذاته لا يقتضى وجود مقام أو حال فالجمع هو جمع الهمة وتركيزها فى مقصودك ويرى البعض أن هذا يتم فى عدد من المقامات، ويرى آخرون أنه يتم فى الأحوال وفى كلتا الحالتين فإن مقصود صاحب الجمع لا يتحقق إلا بتركه شهوته، لأن التفرقة فصل والجمع وصل. وهذا صحيح فى كافة الأحوال.

مثال ذلك: أن يعقوب جمع همته وكل أفكاره وركزها فى يوسف، حتى أنه لم يعد يفكر إلا فيه، وركز المجنون همته فى ليلى، ولم يعد يرى فى العالم كله سواها، تشكلت كافة الخلائق فى نظره بصورتها فى عينه. ومما يشبه ذلك أنه حدث مرة، عندما كان أبو يزيد فى صومعته، أن جاءه شخص وسأل قائلا: «أبو يزيد فى البيت؟ فقال أبو يزيد هل فى البيت إلا الله؟». ويروى أحد الشيوخ أن أحد الدراويش جاء إلى مكة وظل يتأمل فى الكعبة سنة كاملة، ولم يكن خلال هذا الوقت يأكل أو يشرب أو ينام أو يغتسل[1]، بسبب تركيزه همه فيها بحيث أصبحت طعام جسمه وشراب روحه.

---

(١) يعنى شغلته سنة كاملة.

والمبدأ الذى ينتظم هذه الأحوال جميعا واحد، وأعنى به أن الله تعالى قد قسم محبته، وهو يمنح منها ذرة لكل فرد من أحبابه، منحه خاصة بهم ينسبه انجذابهم نحوه، ثم يلبس ذرة المحبة هذه بلباس البشرية والطبع والمزاج والروح حتى تقوم بقوة فاعليتها بتحويل هذه الذرات التى تتصل بها وتصبغها بصبغتها.

فيكون المحب بكليته فى المحبوب، وتكون أعماله ونظراته أمورا لازمة للمشق، هذه الحالة تسمى جمعا عند من اعتبروا المعنى الباطن، ومن نظروا ظاهر التعبير، قال الحسين بن منصور الحلاج فى هذا المعنى:

لبيك لبيك يا سيدى ومولاى لبيك لبيك يا قصدى ومنائى

يا عين عين وجودى منتهى هممى يا منطقى وإشاراتى وأبنائى

يا كل كلى ويا سمعى ويا بصرى يا جملتى وتباعيضى وأجزائى

ولذلك كان من العار لمن كانت صفاته مستعارة من الله تعالى أن يثبت وجوده، ومن قبيل لبس الزنار الإلتفات إلى الكونين لأن كل الموجودات المخلوقة تكون حقيرة عن أن يشغل نفسه بها.

ثم إن البعض قادهم تشقيق الكلام، وإعجابهم بذلك إلى التكلم عن جمع الجمع، وهو تعبير جميل، لكنك إذا اعتبرت المعنى وجدت أنه من الأحسن أن لا تثبت جمع الجمع لأن إصلاح الجمع لا يكون حقيقة إلا بعد فرق، فقبل أن يجمع الجمع يلزم أن يفترق أولا، بينما الحقيقة أن الجمع لا يحتمل تغير حاله فيكون هذا التعبير حينئذ غير قابل للفهم لأنه من يكون فى حالة الجمع لا ينظر إلى ما تحته أو فوقه، وتلاحظ أنه فى حالة الإسراء بحبيب الله كشف له عن حقيقة الدنيا والآخرة، فلم يلتفت إلى شئ فيها، وكان وقت ذاك فى الجمع، ومن كان جامعا لا يشهد تفرقة، لذلك قال الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ

وَمَا طَغَى﴾[1] وفى أول أيام بدايتى ألفت كتابا فى هذا الموضوع وسميته «كتاب البيان لأهل العيان» ووضحت هذه المسألة بطولا فى كتاب «بحور القلوب» فى فصل الجمع فلا أطول على قراء هذا الكتاب ما ذكرته قبلا فى غيره.

انتهى ذكر الفرق المقبولة عند أهل التصوف، بالحديث عن السيارية المتبعين طريق الحق، وأرجع الآن إلى آراء المضلين الذين انتسبوا للتصوف وجعلوا عبارات الصوفية أحبولة تنشر أضاليلهم، وقصدى بذلك أن أبين خطأهم لئلا يغتر السالكون بحيلهم، ويحفظوا أنفسهم من الخطأ.

مذهب الحلولية

لعنهم الله تعالى مصداقا لقوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾[2].

هذه الطوائف الغالية فريقان، يدعيان الارتباط بالصوفية، أحدهما فريق الحلولية اتباع أبى حلمان الدمشقى، والروايات التى يذكرها عنه تابعوه توافق ما كتبه عنه المشايخ فى كتبهم، لأنه بينما يعتبره الصوفية واحدا منهم فإن هؤلاء الضالين ينسبون له مذهب الحلول والامتزاج، وتناسخ الأرواح، رأيت هذه الرواية فى كتاب المقدسى الذى يتهمه، ويمثل هذا يرميه علماء الأصول والله أعلم بالحقائق.

والفرقة الثانية: ينسبون مذهبهم إلى فارس، الذى يدعى أنه تلقاه من الحسين بن منصور الحلاج، ولكنه الوحيد من بين أتباع الحسين الذى يتمسك بهذه العقيدة. رأيت أبا جعفر مع أربعة آلاف رجل متفرقين فى العراق، كلهم من أتباع الحلاج، وكلهم يلعنون فارس على مذهبه هذا وزد على ذلك إن إشارات الحلاج لا يوجد فيها إلا الكمال الصرف، أقول أنا على بن عثمان الجلابى، إنى لا علم لى بفارس هذا، ولا بأبى حلمان ولا بما قالاه، ولكن كل

---

(١) سورة النجم: آية ١٧.

(٢) سورة يونس: آية ٣٢.

من تمسك بمذهب ينافى التوحيد والتحقيق، فليس له حظ فى هذا الدين لأنه إذا كان الدين، الذى هو الأصل، ليس بثابت، فالصوفية التى هى الفرع، وهى ثمرة الدين، لزم أن تكون غير كاملة لأنه لا يتصور أن تنسب الكرامات والآيات إلا لأهل التقوى الموحدين. وكل خطأ هذه الطوائف منحصر فى مسألة الروح وسأبين لك جنسها وأصلها على حسب مذهب أهل السنة، وحين أذكر هذا البيان أظهر لك خطأ وأضاليل هذه الطوائف لكى يقوى إيمانك.

بيان فى ذكر الروح

أعلم أن معرفة وجود الأرواح ضرورى وأن الادراك لا يمكنه أن يحيط بكنهاا، وقد ألمع كل عالم ربانى إلى بعض آرائه فى هذا الموضوع، كما بين ذلك المشركون فى الطوائف الأخرى، أرسل مشركو قريش بإيعاز من كبير اليهود النضر بن الحارث ليسأل رسول الله ﷺ عن جنس الروح وحقيقتها التى أثبت الله عينها، فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[1] ثم نفى قدمها بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[2] وقال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[3] ولدينا دلائل كثيرة على وجود الروح، لكنها ليس بها حجة ثابتة تبين كيفيتها، فالبعض قال: إن الروح هى «الحياة التى يحيا بها الجسد»[4] وهذا الرأى تمسك به كثير من المتكلمين، وعلى هذا الزعم تكون الروح عرضا يحفظ الجسم حيا بأمر الله وعنه يصدر الاتصال والحركة والتماسك وعلم جرا هى التى يتغير بها الجسم من حال إلى حال.

والبعض يشيرون إلى أنه «غير الحياة ولا توجد الحياة إلا معها كما لا

---

(١)، (٢) سورة الأسراء: آية ٨٥.

(٣) رواه البخارى عن عائشة وأحمد فى المسند ومسلم وأبو داود.

(٤) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦٨ تحقيق الدكتور أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبه. ط مكتبة الثقافة الدينية.

توجد الروح إلا مع البنية ولن يوجد أحدهما دون الآخر كالألم والعلم به لأنهما شيئان لا يفترقان» والروح بهذا المعنى عرض كالحياة.

وكل أهل المعرفة وأهل السنة متمسكون بأن الروح مادة ليست بصفة وأنها مادامت متصلة بالجسم، فالله بيده الحياة وأن حياة الإنسان هى صفة بها يعيش، لكن الروح موضوعة فى الجسم، وقد تفترق عنه وهو حى كما يحصل ذلك فى النوم، لكنها إذا فارقته لا يبقى معه الإدراك والفهم لأن رسول الله ﷺ قال: «أرواح الشهداء فى حواصل الطيور»[1] .

لذلك لزم أن تكون مادة وقد قال رسول الله عنها أيضا إنها «جنود مجندة» والجنود الباقية والعرض لا بقاء له لأن العرض لا يقوم بنفسه. فالروح إذا جسم لطيف تحضر وتغيب بأمر الله، فى ليلة المعراج، لما رأى رسول الله ﷺ فى السماء آدم، ويوسف، وموسى، وهارون، وعيسى، وإبراهيم إنما رأى أرواحهم. فلو كانت الأرواح عرضا لم تقم بنفسها حتى تكون مشهودة لأنها تحتاج إلى مكان فى مادة والمادة كثيفة. فثبت من ذلك أن الروح لطيفة وما دامت جائزة الرؤية جاز أن تكون فى حواصل الطير أو تصبح جنودا وربما تتحول من هنا إلى هناك. أثبت ذلك الأحاديث الشريفة وغدوها ورواحها بأمر الله تعالى لقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[2].

نحن على طرفى نقيض مع هؤلاء الضالين الذين يؤكدون قدم الروح ويعبدونها، ويعتبرونها العامل الوحيد الذى يسيطر على الأشياء ويسمونها روح الله التى لم تخلق، ويعبرون انها تنتقل من جسم الى آخر ولم أر خطأ نال إقبالا واسعا مثل هذا المذهب، الذى يتمسك به النصارى، ولو انهم يعبرون عنه بعبارات متناقضة، ويتمسك به الهنود وأهل التبت والصين، وينادى به أيضا الشيعة والقرامطة والإسماعيلية، وقد تمسك به هاتين الطائفتين الضالتين،

---

(١) مسند أحمد كما أخرجه الترمذى. وروى مسلم: (أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر).

(٢) سورة الإسراء: آية ٨٥.

وكل هذه الطوائف يبنون عقيدتهم على استدلالات مخصوصة ويأتون ببراهين دفاعا من معتقداتهم، وإنى لسائلهم: ما الذى تعنونه بالقدم؟ هل تعنون به الوجود القبلى لشئ ليس بقديم أم تعنون به شيئا قديما لم يكن حادثا؟

فإذا عنوا به أنه الوجد القبلى فلا فرق بيننا وبينهم فى هذا المبدأ، لأنا نقول: إن الروح محدثة وأنها كانت موجودة قبل الجسم، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد». فعلى ذلك تكون الأرواح نوعا من مخلوقاته، وبهذه الصلة توجد الحياة بقدرته لكن الروح لا تحتمل التنقل من جسم إلى آخر، فكما أن الجسم لا يكون له حياته فكذلك الروح لا تحل بجسمين، وإذا لم تثبت هذه الحقائق بأحاديث رسول صادق وعرضنا المسألة على العقل الناقد البصير، فإنا نجد أن الروح هى الحياة وليست شيئا آخر، وعلى ذلك فهى الحياة وليست شيئا آخر،

وعلى ذلك فهى صفة وليست بمادة، فاذا اعتبروا من جهة أخرى أن الروح هى شئ قديم، لم يكن موجودا فأقول لهم هل تقوم بنفسها أم بشئ آخر؟ فإذا قالوا بنفسها أقول لهم هل الله سبحانه وتعالى عالم بها أم لا؟ فاذا قالوا إن الله تعالى ليس عالما بها فإنهم يثبتون شيئين قديمين وذلك مناف العقل، لأن القديم لا حد له، فإذا قالوا بأن الله عالم بها فحينئذ أقول لهم، بأن الله تعالى قديم وأن مخلوقاته محدثة، لأنه من المستحيل أن يتحد القديم بالحادث أو يكون واحد معه، أو يمتزج فيه أو يكون المحدث محلا للقديم محل الحديث،

لأن كل ما اتصل بشئ لزم أن يشابهه فى بعض الأشياء لأن الأشياء المتجانسة هى التى يمكن أن تتصل أو تنفصل.

فإذا قالوا بأن الروح لا تقوم بنفسها ولكن تقوم بشئ آخر لزم أن يكون ذلك الشئ إما صفة أو عرضا، فإذا كان عرضا فإما أن يكون له مكان أم لا، فإذا كان له مكان لزم أن يشابهه، وكلاهما لا يطلق عليه القدم فإذا قلنا إنه ليس له مكان فذلك باطل محض لأن العرض لا يقوم بنفسه فاذا قلنا ثانية

بأن الروح هى صفة قديمة، وهذا مذهب الحلولية. ومن يعتقد بالتناسخ[1] ويسمونه صفة الله تعالى، أقول ردا على ذلك الزعم: أن صفة الله القديمة يستحيل أن تكون صفة لمخلوقاته لأنه، إذا كانت حياته سبحانه وتعالى هى حياة مخلوقاته لزم أن تكون قدرته قدرتهم وكما أن الصفات متجانسة مع ما تدل عليه فكيف تكون صفة القديم صفة للحادث لذلك فإنى أقول كما بينت لك قبلا: أن القديم لا صلة بالحادث، وأن مذهب هؤلاء المضلين باطل محض - الروح مخلوقة وهى تحت أمر الله سبحانه وتعالى وإنى أشكر الله تعالى وأحمده بلا حد وحصر على حفظه لنا من الأضاليل ومن الخلل والخطأ وعلى إكرامه لنا بالفهم حتى ميزنا بين الصحيح والخطأ ببراهين ساطعة ومنحنا الإيمان به سبحانه - حمدا لا غاية له، فالحمد المحدود أمام النعيم الممدود لا قيمة له.

وحينما سمع أهل الظاهر هذه النقاط من أهل الأصول وقر فى قلوبهم أن كل الصوفية على هذا حتى حجبوا عن جمال أخبارهم بخطأ فاحش، وخسران بين وغمضت عليهم لطائف ولاية الحق وومضها واللوائح الربانية فأنكروا على العظماء والسادات، ولكن إنكار الخلق وقبولهم يستويان مثلا.

فصل:

[الروح]

يقول أحد المشايخ: «الروح فى الجسد كالنار فى الحطب فالنار مخلوقة والفحم مصنوعة، ولا يجوز القدم إلا على ذات الله وصفاته» وأبو بكر الواسطى من المشايخ الذين تحدثوا كثيرا عن الروح يروى عنه أنه قال: «الأرواح عشرة مراتب: أرواح المخلصين، وهى محبوسة فى ظلمة لا تدرى ما هى فاعلة فيها، وأرواح الطاهرين التى تنطلق سعيدة فى السماوات الدنيا جزاء عملها، قد أطاعت فأخذت تسير بقوتها، وأرواح المريدين وهى فى السماء الرابعة مع الملائكة، وذلك للذة صدقهم وإخلاصهم فى أعمالهم، والرابعة أرواح المتمسكين بالسنن وهى معلقة فى قناديل من نور بالعرش، غذاؤها الرحمة وشرابها اللطف والقربة، والخامسة أرواح أهل الوفاء وهم

---

(١) يقولون بتناسخ الأرواح فى الأجساد وانتقالها من شخص إلى شخص وبعضهم يقول بتناسخ روح الإله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

يطربون فى حجاب الصفاء ومقام الاصطفاء، والسادسة أرواح الشهداء وهى فى حواصل طيور فى رياض الجنة يذهبون حيث يريدون وأنى يريدون، والسابعة أرواح المشتاقين وقد قامت على بساط الأدب فى حجب أنوار الصفاء، والثامنة أرواح العارفين وهى فى حظيرة القدس تستمع صباح مساء إلى كلام الله وترى مكانها فى الجنة والدنيا، والتاسعة أرواح الأحباب وقد استغرقت فى مشاهدة الجمال ومقام الكشف لا ترى إلا إياه، ولا تأنس إلى شئ قط سواه، العاشرة أرواح الفقراء التى استقرت فى مقام الفناء، وتبدلت أوصافها، وتغيرت أحوالها.

وروى عن المشايخ رضى الله عنهم أن كل واحد منهم رآها على صورة وذها يجوز مادمنا قد قلنا إنها موجودة كجسم لطيف يمكن أن ترى وحينما يشاء الله تعالى يظهرها للعبد. يقول صاحب الكتاب إن كل حياتنا برمتها لله تعالى وثباتنا به وحياتنا من فعل الحق ونحن أحياء بخلقه لا بذاته وصفاته، ولقب «الروحانية» بجملته باطل ومن الضلالة العمياء بين الخق ذلك أنهم يقولون أن الروح قديمة، وأطلقت كل جماعة عبارة ما وافق هواها ففريق يقول: «النفس والهيولى» وفريق «النور والظلمة» أما ضالو الصوفية فيقولون «الفناء والبقاء» أو «الجمع والتفرقة» أو مثل هذه العبارات المنمقة ويحسنون كفرهم بهذا، والصوفية أبرياء من هذه الجماعة ذلك أن إثبات الولاية وحقيقة محبة الله لا تصلح إلا بمعرفته وذلك الشخص الذى لا يعلم القديم من المحدث كل ما يأتى على لسانه من قول محض جهل ولا يميل العقلاء إلى قول الجهال.

والآن انتهى ما هو مقصود من الكلام حول هاتين الجماعتين الضالتين ومن كان يريد أكثر من ذلك فليطلبها فى كتب أخرى لى. فليس مرادى هنا هو التطويل.

والآن اكشف حجب معاملات وحقائق أهل التصوف وأبينها فى هذا الكتاب بالبراهين الظاهرة حتى يسهل عليك طريق معرفة المقصود وأن يرتد منكروهم ـ إن كانت لهم بصيرة ـ عن غيهم ويكون لنا بذلك الثواب والدعاء.

الباب الخامس عشر

كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ: «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور وزالت بدعائكم الجبال»(٢). والمعرفة على نوعين علمية وحالية، فالمعرفة هى أساس كل خير فى الدنيا والآخرة، لأن أهم الأشياء للإنسان فى كل أوقاته وأحواله هى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣) أى ليعرفون لكن أكثر الناس يهملون هذا الواجب إلا من اختصهم الله ونجاهم من ظلمات الدنيا وأحيا قلوبهم، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾(٤) يعنى عمر ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(٥) يعنى أبا جهل.

المعرفة هى حياة القلوب عن علام الغيوب وخلو السريرة عن كل ما سوى الله. وقدر كل إنسان على حسب معرفته، ومن كان على غير معرفة فليس بشئ يذكر ومن ثم فإن العلماء والفقهاء وغيرهم يطلقون لفظة المعرفة على علم الله لكن الصوفية يسمون الحال الحقيقى إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الاسم، أى المعرفة:

لذلك فإنهم قالوا: إن المعرفة أكمل من العلم، لأن الحال الحقيقى ثمرة العلم الحقيقى، لكن العلم الحقيقى ليس كذلك، أعنى من لم يكن عنده علم بالله فليس بعارف، ولكن ربما يكون الإنسان عالما بدون أن يكون عارفا. وأصحاب هذين الرأيين، على اختلافهما فى التعبد، جهلا الفرق بين هذين النوعين، فيتناقشوا فى هذا الأمر بلا طائل، حتى أدى ذلك إلى إنكار بعضهم بعض، وسأبين لك ذلك جليا ليزداد علمك.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩١. (٢) لم نقف عليه.

(٣) سورة الذاريات: آية ٥٦.

(٤)، (٥) سورة الأنعام: آية ١٢٢.

فصل

[المعرفة والعلم]

أعلم أسعدك الله: أن الناس اختلفوا كثيرا فى المعرفة والعلم الإلهى، فالمعتزلة يثبتون أن المعرفة حق العقل وأنها لا تكون إلا فى شخص عاقل، وهذا المذهب ليس مقبولا، لأن المجانين الذين فى دائرة الإسلام، قد يظن فيهم المعرفة وأن الأطفال غير العاقلين قد يكونون مؤمنين فلو كان قياس المعرفة عقليا صرفا لم يكن مثل هؤلاء الأشخاص عارفين، ولكان المشركون لا ينبغى أن يرموا بالشرك مع كمال عقلهم ولو كان العقل هو سبب المعرفة لكان لزاما على كل عاقل أن يعرف الله، ولكان كل ناقص العقل يكون جاهلا به، الأمر الذى هو خطأ محض.

والبعض الآخر يقولون: بأن الاستدلال هو علة معرفة الله وأن مثل هذه المعرفة لا ينالها إلا من استنتجها بهذه الطريقة، وخطأ هذا المذهب قد أوضحه إبليس لأنه رأى كثيرا من الآيات الباهرة ومن الجنة والنار وعرش الرحمن، ومع ذلك فكل هذه العلل لم تجعله عارفا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[1][2] أما أهل السنة من المسلمين وأهل العقل الكامل فإنهم يعتبرون أن الآيات هى سبب المعرفة وليست بعلة لها وأن العلة الحقيقية فى ذلك هى مشيئة الله وعنايته، لأن العقل بلا عناية أعمى والعقل لا يحيط علما بنفسه ولم يعرف حقيقته أحد من العقلاء فكيف يعلم غيره فالاستدلال والرؤية والتفكر فى الآيات دون عناية خطأ وأهل الضلالة من كل الأجناس يستعلمون طريق الاستدلال ولكن أكثرهم لا يعرفون الله.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٥. (٢) الآية الكريمة الموجودة فى النص الفارسى هى﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ سورة الأنعام: آية ١١١.

وفى صحة المعرفة بالطالب التسليم من الطلب. فالطلب أصل لا وجه لتركه، والتسليم أصل لا وجه للاضطراب فيه، والحقيقة أن كلاهما لا يعتبر معرفة واعلم حقيقة أنه دال على الطريق ولا شارح لقلب العبد إلا الله، تعالى الله عن جميع ما يقول الظالمون علو كبيرا. وليس لوجد العقل أو الأدلة امكان الهداية وليس هناك أوضح على ذلك دليلا مما يقوله الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾(١) أى أن الكفار لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم. وحينما سئل أمير المؤمنين على رضي الله عنه عن المعرفة قال: «عرفت الله بالله وعرفت ما دون الله بنور الله».

أذن فقد خلق الله تعالى الجسد، وجعل حياته بالروح وخلق القلب وجعل حياته بنفسه فعقلك ورأيك لا قدرة لهما على أحياء الجسد كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(٢) فجعل الحياة كلها من لدنه وحينذاك قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾(٣) أى أننى خالق النور الذى يمشى به المؤمنون وقال أيضا: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٤) فجعل شرح القلب أيضا منه وجعل الختم عليه أيضا منه قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾(٥).

وقال أيضا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾(٦) إذن فما دام القبض والبسط، والشرح والختم منه فمن المجال أن يكون هناك هاد سواء فكل ما دونه علة وسبب ولا يستطيع العلة أو السبب ابداء الطريق دون عناية المسبب: فهو كاشف الحجب عن الطريق لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٧) فأضاف اليه جل شأنه التزيين والتحبب وإلزام كلمة التقوى، التى هى عين المعرفة منه وليس للملزم فى إلزامه اختيار الدفع أو

---

(١) سورة الأنعام: آية ٢٨.
(٢)، (٣) سورة الأنعام: آية ١٢٢.
(٤) سورة الزمر: آية ٢٢.
(٥) سورة البقرة: آية ٧.
(٦) سورة الكهف: آية ٢٨.
(٧) سورة الحجرات: آية ٧.

الجلب، إذن فبدون تعريفه لا نصب للخلق من معرفة إلا العجز، يقول أبو الحسين النورى رضي الله عنه: «لا دليل على الله سواه إنما العلم يطلب لأداء الخدمة» فليس لمخلوق قدرة على هداية مخلوق إلى الله، وليس هناك أعقل من أبى طالب، كما أنه ليس هناك هاد أفضل وأعظم من محمد ﷺ، فلما كان القضاء قد جرى على أبى طالب بالشقاء لم تجده هداية محمد فتيلا.

وأول درجة فى الاستدلال الاعراض عن الخلق، ذلك أن الاستدلال تأمل فى الغير، وحقيقة المعرفة الأعراض عن الغير، ووجود جملة المطلوب بالاستدلال عادة، والمعرفة خلاف العادة فمعرفته ليست إلا دوام حيرة العقل، أما إقبال عنايته فلا سبيل للخلق إليها بالكسب، وليس إلا إنعامه وألطافه للعبد دليلا، هذا من فتوح القلوب، ومن خزائن الغيوب، فكل ما دونه محدث.

وإذن فمن الجائز أن يصل المحدث إلى ما يماثله وليس من الجائز أن يصل إلى خالقه مع وجوده وكل ما يأتى عن كسبه فهو كسب. والكاسب غالب والمكتسب مغلوب، فليس من الكرامة أن يثبت العقل الفاعل بفعله، والكرامة أن ينفى القلب وجود ذاته بنور الله سبحانه وتعالى، فلذلك معرفة القال، ولهذا معرفة الحال. وقل لذلك الفريق الذى يعتبر العقل علة المعرفة: أنظروا أى شئ يثبت فى القلب من عين المعرفة؟

فما يحدث فى القلب بدلائل العقل ويرى أنه الله فهذا بخلافه، فأى مجال للعقل إذن فى معرفته بالاستدلال ذلك أن العقل والوهم كلاهما من جنس واحد، وحينما يثبت أنهما جنس تنتفى المعرفة. إذن فإثبات استدلال العقل تشبيه وفيه تعطيل ولا مجال له إلا فى هذين الأصلين، وكلاهما معرفة. فالمشبة والمعطلة[1] لا يعدون من الموحدين إذن فالعقل يسير قدر إمكانه وكل ما يأتى فهو منه، ولا مناص لقلوب الأحباب من الطلب، فإنهم قد استراحوا على بلاط العجز، ولا قرار لهم فى راحتهم، فرفعوا أيديهم متضرعين ويحثوا لجراح قلوبهم عن دواء، ويلغت طرقهم قدر نوع طلبهم. فقدرة الحق هنا قدرتهم، أى أنهم وجدوا الطريق به. واستراحوا من ألم الغيبة، وتنعموا فى

---

(١) يطلق البعض ذلك على المعتزلة لتعطيلهم الصفات.

روضة الأنس، واستقروا فى الروح والسرور، وحينما وصل عقل قلوبهم إلى المراد، خضع البصر لتصرفه، وعجزها لا يوجد، وتحير، وحينما تحير نزل، وحينما نزل صار من حده حينذاك أن يرتدى لباس الخدمة وقال: مادمت معى، فأنت محجوب وسائل تعرفك، وحين فنيت الوسائل عجز، وحينما عجز وصل.

إذن فللقلب القرب وللعقل الخدمة، والمعرفة هى المعرفة - فالله عز وجل جعل العبد عارفًا بتعريفة، وتعرفه جعله عارفًا به، معرفة ليست متصلة بوسيلة، معرفة يكون وجوده فيها عارية، فالأنية خيانة لكل وجود العارف حتى يكون ذكره بلا نسيان، ومجاهداته بلا تقصير، وتكون معرفته حالا لا مقالا.

وبعضهم يقول إن المعرفة هى ثمرة الإلهام وهذا مستحيل أيضًا، لأن المعرفة تمد بقياس يميز الصدق من الكذب، بينما الإلهام لا يمد بشئ مثل هذا فمن قال إنى أعرف بالإلهام أن الله فى محل، وآخر قال إنى أعرف بالإلهام أنه ليس فى محل، فأحد هذين الحكمين المتضادين يلزم أن يكون صادقًا، ولكن يلزم البرهان لتأييد الحكم الذى يكون فيه الصدق، فيلجأون إلى الدليل ويبطل الإلهام وهذا الرأى يتمسك به البراهمة[1] والإلهاميون.

ورأيت فى عصرنا هذا كثيرًا غالوا فى هذا المذهب للنهاية ووصلوا مقامهم بمذاهب أهل الدين ولكنهم فى خطأ محض وإثباتهم هذا وهمى جدًا، وبطلانه ظاهر لعقلاء المسلمين والكافرين على السواء ذلك أنه إذا ادعى عشرة أشخاص إلهامًا فى شئ معين بعشرة أقوال متناقضة فإنهم باطلون فى الحكم، ولا شخص منهم على صواب. فإذا قيل إن ما يخالف الشريعة السمحاء ليس بإلهام، فأقول: إن هذا البرهان غير صحيح الأساس. لأنه إذا كان يقاس الإلهام بحد الشرع، فالمعرفة لا ترتكن على الإلهام، لكن على الشرع والنبوات والعناية الإلهية.

والبعض يقول: بأن معرفة الله تعالى جبرية، وهذا أيضًا مستحيل لأن كل ما يعرف بهذه الكيفية يلزم أن تكون معرفته بدهية لكل أهل العقل وكما

(١) هم أتباع الديانة البرهمية وهى إحدى ديانات الهند وينكرون الأنبياء والرسل ويقولون بوحدة الوجود.

نرى أن بعض العقلاء ينكرون وجود الله، ويتمسكون بمذاهب التشبيه والتعطيل، يثبت لك جليًا أن معرفة الله ليست جبرية. وزد على ذلك أنه إذا كان الأمر كما ذكر، لزم أن يفسد مبدأ التكليف لأن هذا المبدأ لا ينطبق على الأشياء التى من الضرورى معرفتها، مثل نفس الإنسان، والأرض والسموات والنهار والليل، والفرح والألم، والأمور التى لا ينكر وجودها العقل ولا يشك فيها، والتى يلزم أن يعرفها ولو ضد إرادته.

ولكن بعض الصوفية، باعتبار حال اليقين التى يشعرون بها، يقولون إننا نعرف الله بالضرورة فسموا اليقين بالضرورة. فالمعنى صحيح ولكن العبارة قبيحة، لأن المعرفة الضرورية لا يمكن أن يختص بها إلا الكمل دون غيرهم وبالعكس، فإنها تخص كل أهل العقل، زد على ذلك أنها تظهر فى قلوب الأحياء بدون أدنى سبب أو برهان بينما معرفة الله مسببة. لكن الشيخ أبا على الدقاق، والشيخ أبا سهل الذى كان والدا لسهل إمام نيسابور يريان أن أول المعرفة بالاستدلال، وأن آخرها بالضرورة، كما تنال المعرفة بالطاعات ولا تكون ضرورية فى النهاية، كما أجمع على ذلك أهل السنة، فهم يقولون ألا ترى أنه فى الجنة تكون معرفة الله تعالى ضرورية، فلماذا لا تكون ضرورية فى هذه الدنيا؟

والرسل، عليهم الصلاة والسلام، متى سمعوا كلمة الحق تعالى إما مكاشفة منه، أو عن لسان ملك، أو كشفا، يعرفونه بالضرورة، فأجيبهم أن أهل الجنة يعرفون الله تعالى بالضرورة فى الجنة لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يخافون العاقبة وآمنون من القطيعة وكل من يعرفه بالضرورة لا يخاف القطيعة ويتمتع باليقين، الذى يتمتع به أهل المعرفة الضرورية. وكمال المعرفة والإيمان موجود فى خفائهما، فإذا صار كالمشهود كان الإيمان جبرا، ولا يكون مقصود اعينا، وبذلك يضعف أساس الدين، ويثبت أساس الكفر. ولو أن الأمر على ما وصفوا لما أمكن وصف بلعام وإبليس وبرصيصا[1] بالشرك

---

(١) بلعام وبرصيصا كانا عابدين ثم ضلا.

لأنهم على العموم لديهم معرفة بالله، فإبليس فى حال الطرد والرجم قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] .

وهذا يدل على معرفة. والعارف متى كان باقيا فى معرفته فليس لديه خوف من القطيعة لأن القطيعة تحصل عن فقد المعرفة، لكن المعرفة الضرورية لا يمكن أن تفقد أبدا وهذا المذهب شديد الخطر وبخاصة على العامة، ولأجل أن تبتعد عن الخطأ ينبغى أن تأخذ منه بقدر ما ينجيك، وأن تعرف أن علم الإنسان ومعرفته بالله تتوقف كلية على سابق علمه وهدايته، وقد يزداد يقين الإنسان فى المعرفة وينقص لكن أصل المعرفة لا يزداد ولا ينقص، فزيادتها نقصان ونقصها نقصان - ولا تدع التقليد الأعمى يدخل إلى معرفتك بالله ويلزمك أن تعرف صفاته وكماله، وهذا لا يمكن الوصول إليه إلا بسابق الفضل، وعناية الله، الذى له سلطان على كل القلوب، فإذا أراد جعل أحد أفعاله دالا يدلنا عليه وإذا جعل هذا الفعل عقبة تمنعنا عن الوصول اليه، لذلك فإن عيسى عليه السلام كان هاديا لبعضهم ودلهم على المعرفة، لكنه كان عقبة لآخرين، واوقفهم عنها فأهل المعرفة الأولى قالوا عنه: عبد الله وأهل المعرفة الآخرى قالوا: إنه ابن الله، ومثل هؤلاء من عرفوا الله تعالى بالأوثان، وبالشمس والقمر وغيرها فضلوا بها. ولو كان الدليل كله المعرفة للزم أن يكون كل مستدل عارفا، وهذه مكابرة واضحة، فالله تعالى يختار واحدا، ويعطيه الطريق لكل الأشياء حتى يصل اليه بسببه، فيعرفه وإذن فالدليل هو السبب لا العلة، ولا يكون سبب أولى من سبب، فالله هو المسبب للأسباب، ولعمرى أن إثبات العارفين للسبب فى المعرفة زنار، والإلتفات إلى غير المعروف شرك ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾[2] وما دام شخص قد كتب شقيا فى اللوح المحفوظ فأى دليل أو استدلال يهديه؟ «من التفت إلى الأغيار فمعرفته زنار» وذلك الذى تلاشى واستغرق فى قهر الله، من يستطيع أن يأخذ

---

(١) سورة ص آية ٨٢.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٨٦.

بيده دون إذن الله.

حينما خرج إبراهيم من النار لم ير شيئا بالرغم من ضوء النهار وما فيه من برهان: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾(١). فلو كان أساس المعرفة الدليل لزم أن يكون الدليل أوضح نهارا عنه ليلا.

إذن فالله سبحانه وتعالى، وبما يشاء، يدل العبد على الطريقة الموصلة اليه، ويفتح له باب المعرفة، حتى يصل إلى درجة تكون فيها حقيقة المعرفة غير، وصفاتها مهلكة، ويحجب بمعرفته عن المعروف، ويظهر له أن معرفته دعوى. قال ذو النون المصرى: «اياك أن تكون بالمعرفة مدعيا».

ولذلك فإنه لا يلزمك أن تدعى المعرفة لئلا تهلك فى الدعوى، لكن تمسك بمعناها حتى تنجو، فإذا أكرم الإنسان بمشاهدة الربوبية كان وجوده وبالا عليه، وكانت كل صفاته مصدرا لهلاكه فإن من كان لله وكان الله له لا يتصل بأى شئ فى هذا العالم، وحقيقة المعرفة أن تعرف أن الله هو الجامع المالك، وإذا عرف الإنسان أن كل ما يملكه تحت تصرف الله سبحانه وتعالى المطلق فكيف يشتغل بالناس؟ أم كيف يحتجب عن ربه بهم أو بنفسه؟ كل هذه الحجب نتيجة الجهل، فإذا فنى الجهل فنيت هذه الحجب، وصارت الحياة الدنيا فى مستوى واحد مع الحياة الأخرى.

فصل

[المعرفة]

لكى أزيدك علما أذكر لك بعض أقوال المشايخ التى نطقوا بها. قال عبد الله بن المبارك: «المعرفة لإن لا تتعجب من شئ» لأن التعجب يحدث من شئ فوق قدرة الفاعل، وحيث أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذه الأفعال، فمن

---

(١) سورة الأنعام: آية ٧٦. (٢) طبقات الصوفية ص ١٨.

المستحيل على العارف أن يتعجب من أفعاله، فإذا كان لابد من الاستغراب لزم الإنسان أن يندهش من تقديس الله تعالى لقبضة من التراب جعلها فى درجة تقوم بأوامره، وقطرة من الدم رقاها لدرجة أن تبين حقيقة المحبة والمعرفة، وتطلب مشاهدته والاتحاد معه.

قال ذو النون المصرى: «المعرفة إطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار» أعنى أنه حين يسبق فى عنايته سبحانه أن ينور قلب الإنسان ويحفظه من الدنس تكون المخلوقات كلها فى نظره لا تساوى مثقال حبة من خردل فى قلبه، ولا تغلب عليه مشاهدة لأسرار الربانية ظاهرا وباطنا فإذا فعل لله ذلك فيه كانت نظراته مشاهدة.

قال الشبلى: «المعرفة دوام الحيرة»[1]. والحيرة على نوعين: حيرة فى الذات، وحيرة فى الصفات، فالأولى كفر وشرك، لأن العارف لا يمكنه أن يشك أبدا فى وجود الذات الإلهية، أما الحيرة الثانية فهى المعرفة لأن صفات الله تعالى بعيدة عن تصور العقول، لذلك فقد قال بعضهم: «يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا[2]»، ففى البداية أثبت وجود الله سبحانه وتعالى وكمال صفاته، ووضح أنه هو مقصد الناس، مجيب الدعوات، وأنه ليس للمتحيرين تحير إلا فيه حينذاك طلب منه زيادة الحيرة.

واعلم أن للعقل حين الطلب حيرة واضطراب بين الشك والوقوف. وهذا القول جميل جدا، ولنا أن نقول أيضا: إن المعرفة بالله تعالى تحتوى على حيرة الإنسان فى معرفة وجوده، لأنه متى عرف الإنسان ربه وأنه القاهر عرف نفسه أنه مقهور بالقهر الإلهى. وحيث أن وجوده متوقف على الله تعالى، وعدمه صار من الله، وحركته وسكونه بقدرته، تحصل له الحيرة فيقول: «من أنا؟ وعلى أى شئ أكون؟».

وقد قال رسول الله ﷺ فى هذا المعنى: «من عرف نفسه فقد عرف

---

(١) السلمى ص ١٥٧. (٢) الرسالة القشيرية ص ٨٥.

ربه» أعنى من عرف أن نفسه فانية عرف أن ربه باق أبدا . فالفناء يحيط بعمل العقل وكل الصفات الإنسانية، فإذا كانت عين الأشياء ليست قريبة من العقل لا يمكن معرفتها بدون الحيرة.

قال أبو يزيد: «المعرفة أن نعرف أن حركات الخلق وسكناتهم بالله» وأنه بدون إذنه ليس لأحد أى سلطة فى ملكه إلا بإذنه، وأن الإنسان لا يقدر على أداء أى عمل إلا إذا خلق فيه القدرة على العمل، ووضع إدارة العمل فى قلبه، أن أعمال الإنسانية مجازية محضة، وأن الله هو الفاعل الحقيقى.

قال محمد بن واسع فى وصف العارف: «من عرف الله قل كلامه ودام تحيره» لأن الأشياء التى ليست قريبة من العقل لا يمكن معرفتها بدون الحيرة.

قال الشبلى: «حقيقة المعرفة العجز عن المعرفة» أعنى عجزك عن معرفة أى شئ بحقيقته التى ليس للإنسان أن يدرك كنها إلا باستحالة الوصول إليها، لذلك فالوصول إليها هو الا تنسب لنفسك أى حظ لأن العجز هو الطلب، وما دام الإنسان معتمدا على قوته وصفاته، فإنه لا ينطبق عليه وصف هذا التعبير فاذا انتفت عنه قوته وصفاته لم يكن حاله عجزا بل يكون فناء.

وبعض المدعين عن إثباتهم الصفات الآدمية، وبقاء التكليف بصحة الخطاب، ونفوذ الإرادة الألهية فيهم بالبراهين يقولون: إن المعرفة هى العجز وأنهم عاجزون، ولا يقدرون على نيل أى شئ، فإجابة على زعمهم هذا أقول لهم: ما الذى عجزتم فى طلبه؟ العجز له علامتان، وهاتان العلامتان ليستا موجودتين فيكم، أولا فناء الوسيلة، وثانيا ظهور تجلى الله. وعندما يحصل فناء الوسيلة تتلاشى العبارة، وإذا كشف لكم التجلى لا يمكن أن يظهر الإنسان دليلا ولا أن يلاحظ فرقا لأنه لو كان عاجزا لا يعرف أنه كذلك ولا أن الصفة المنسوبة إليه هى العجز، فكيف يعرف هذا والعجز هو غير، عن الله وإثبات

معرفة غير المعرفة، وحيث أنه لا محل فى القلب لغير الله وإمكان التعبير عن شئ غير الله. فالمعرفة الحقيقية لم تنالوها. ولا يكون عارفا إلا إذا التفت عن كل ما هو غير الله.

قال أبو حفص الحداد: «منذ عرفت الله تعالى ما دخل فى قلبى حق ولا باطل» يعنى أنه متى شعر الإنسان بإرادة أو هوى فإنه يميل إلى نفسه حتى تقوده إلى النفس الدينية وهى محل الباطل فإذا وجد برهان المعرفة رجع إلى نفسه حتى تقوده إلى الروح هى نبع الحق والصدق، فإذا لم يدخل فى نفسه العارف غير الله كان التفاته إلى نفسه عملا وثنيا.

ويوجد فرق كبير بين من يلتفت إلى نفسه وبين من يلتفت إلى الله تعالى قال ابو بكر الواسطى: «من عرف الله انقطع بل خرس وانقمع» وقال النبى ﷺ: «لا أحصى ثناء عليك»[1] أعنى أنه من عرف الله انقطع عن كل الأشياء وخرس عن كل العبارات. لذلك فإن رسول الله ﷺ فى حال غيبته قال: «أنا أفصح العرب والعجم».

لكنه فى حال حضوره مع ربه قال: «لا أحصى ثناء عليك» أى صرت عاجزا عن القول، الحال بلا حال، فأنت أنت فإما أن يكون قولى منى لنفسى أو لك فإن أتحدث إليك صرت بكسبى معيبا ومحجوبا عن قربك إذن فلا أقول. فقال له سبحانه وتعالى: يا محمد لعمرك إذا سكت فى ثنائى فالكل منك ثنائى وحيث وجدت نفسك عاجزا عن شكرى فإنى سأجعل العالم كله تبعا يذكروننى باسمك والله أعلم. وبالله التوفيق وحسبنا والله ونعم الوكيل.

---

(١) رواه مسلم فى الصحيح وأحمد فى المسند.

الباب السادس عشر

فى كشف الحجاب الثانى عن التوحيد

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(١).

وقال أيضا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ فى حديث طويل: «إن رجلا فيمن كان قبلكم لم يعمل خبرا قط إلا التوحيد فقال لأهله إذا مت أحرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى نصفى فى البر ونصفى فى البحر فى يوم رائح ففعلوا فقال الله عز وجل للريح اجمعى ما أخذت فإذا هو بين يديه فقال له: ما حملك على ما صنعت فقال استحياء منك فغفر له»(٤).

وحقيقة التوحيد مركب فى إثبات توحيد شئ ما وفى كمال معرفة توحيده وكما أن الله واحد ليس له شريك فى ذاته ولا فى صفاته، وليس له بديل ولا شريك فى أعماله وحيث أن الموحدين يعتقدون بأنه كذلك فمعرفتهم بالتوحيد تسمى توحيدا.

والتوحيد على ثلاثة أنواع:

الأول: توحيد الله لنفسه أعنى علمه بتوحيده.

والثانى: توحيد الله فى خلقه، وذلك أمره للإنسان بنطق التوحيد وخلق التوحيد فى القلب.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٣.

(٢) سورة الاخلاص: آية ١.

(٣) سورة النحل: آية ٥١.

(٤) ورد فى تنبيه الغافلين لنصر بن محمد السمرقندى.

والثالث: توحيد الناس لله، وذلك معرفتهم بتوحيده، والنطق بأنه واحد غير قابل للجمع أو الفرق، أو قابل للإثنينية وأن واحدنيته ليست فى عدد حتى تكون اثنين بجمع واحد للآخر، وأنه ليس محدودا حتى تكون لست جهات وإثبات الأعداد لا نهاية له، وأنه ليس له مكان وليس فى مكان حتى يمكن إثبات المكان، والمكان يحتاج إلى مثبت ومبطل، حكم الفعل والفاعل والقديم والمحدث، وأنه ليس عرضا حتى يحتاج إلى جوهر، وأنه ليس بطبع تثبت فيه الحركة والسكون، وأنه ليس بروح حتى تحتاج إلى هيكل تحل فيه، وأنه ليس بجسم مركب فى أعضاء.

وأنه لا يحل فى الأشياء وليست الأشياء محلا له، وأنه ليس متصلاً بأى شئ، لأنه لو كان كذلك لكان جزءا منه، وأنه بعيد عن النقائص ومنزه عن العيب، وأنه لا شبيه له حتى لا يستوى معه خلقه، وأنه لا ولد له يجعله أصلا المؤمنون والموحدون، والتى وصف بها نفسه، وأنه منزه عن الصفات التى ينسبها إليه الملحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون، وأنه حى عالم غافر كريم، مريد قادر سميع بصير، متكلم باق، وأن علمه ليس حالا فيه، وأن قدرته ليس صلبة فيه، وأن سمعه وبصره ليسا متجردين عنه، وأن كلامه ليس منقسما فيه وأنه هو بصفاته موجود فى القدم، وأن الأشياء المحدثة ليست خارجة عن علمه وأن كل الكائنات متوقفة على إرادته.

وأن ما سبق فى علمه يكون، وأنه لا يحيط بعمله أحد من خلقه، وأنه مطلق فى حكمه، وأن أحبابه لا يجدون ملجأ إلا التسليم، وأنه سبحانه وتعالى مقدر الخير والشر، وأنه هو الذى يخاف ويرجى من خلقه، وأنه خالق الخير والشر، وأنه بيده الحكم وحكمه عدل، وأنه لا يمكن لأحد الوصول إليه، وأن أهل الجنة سيرونه، وأن التشبيه غير مقبول فى حقه، وأن المقابلة والمواجهة لا تنطبقان على جنابه، وأن أولياءه يتمتعون بمشاهدته فى هذه الدنيا، وكل من يعلم أنه كذلك ليس أهلا لقطيعه، وكل من يعلم خلاف ذلك فهو ليس من أهل الدين، وفى هذا كلام كثير فى الأصول والفروع حذفته خوف التطويل.

وأنا على بن عثمان الجلابى، قلت فى أول هذا الفصل: أن التوحيد مبنى على إثبات الوحدة لشئ ما، وأن ذلك الإثبات لا يمكن أن يقرر بغير معرفة، فأهل السنة أثبتوا توحيد الله بالفهم الحقيقى، وذلك لشهود دقة العمل وغريب الحكمة، وأن هذه الأشياء لا يمكن أن توجد بنفسها وبدون صانع، وأنهم أثبتوا براهين وأدلة على حدوث الأشياء، وأنهم أوجبوا وجود الفاعل، الذى خلق هذا العالم من أرض وسماء وشمس وقمر، وبر وجبل وصحراء، وحركات الكائنات وسكناتها، وعلمها ونطقها، وحياتها وموتها.

وأنه لا بد لكل هذه الأشياء من صانع لا يستغنى عنه، لذلك فأهل السنة فى نفيهم وجود صانعين أو ثلاثة يثبتون لأنفسهم الاكتفاء بصانع واحد، كامل حى عليم قادر لا شريك له، وكما أن الفعل يحتاج إلى فاعل واحد على الأقل فوجود فاعلين لفعل واحد يوجب استقلال الواحد عن الآخر، فمن ذلك أن الفاعل واحد فى الحقيقة بلا جدال، ونحن فى هذا الصدد على طرفى نقيض مع أصحاب المذاهب الثنوية الذين يقولون النور والظلام[1] ومع المجوس الذين يعتقدون بيزدان وأهريمن ومع الفلاسفة الطبيعيين الذين يقولون بالطبع والقوة، والفلكين الذين يصدقون بالأفلاك السبعة، والمعتزلة الذين يقولون بتعدد الخالقية والصناع بدون حد.

وقد وضحت كل هذه الآراء الفاسدة فى كتابى الذى سميته «الرعاية لحقوق الله» الذى ألفت إليه نظر الطالب أو إلى كتب السلف الصالح فليس هنا مجال بيان ترهات تلك الطوائف والآن أرجع إلى إرشادات أهل المعرفة فى هذا الخصوص وأقول.

فصل

[التوحيد]

يروى أن الجنيد قال: «التوحيد أفراد القديم عن الحديث» أعنى أنه لا يجوز لك اعتبار القديم أن يكون محلا للحادث، ولا الحادث أن يكون محلا

---

(١) الثنوية – القائلين بالنور والظلمة وأنهما أزليان وقديمان وزعموا أن العالم مركب منهما.

للقديم، ويلزمك أن تعرف أن الله قديم وأنك حادث وأنه لا شئ منك متصل به وأن لا شئ من صفاته مزدوج بك، وأنه لا تجانس بين القديم والحادث، ذلك أن القديم كان قبل وجود المحدثات فلا حاجة به إليها. هذا الرأى مضاد لمذهب من قال بقدم الروح وقد تقدم ذكره، فإذا اعتقدنا أن القديم نزل إلى الحادث، لو أن الحادث اتصل بالقديم لم يبق برهان على قدم الله وعلى وجود الكون، هذا يذهب بنا إلى الدهريين[1] نعوذ بالله من اعتقاد السوء فكل أعمال الحادث براهين ناطقة على توحيد الله وآيات دالة على قدرة الله.

وفى كل شئ له آية　　تدل على أنه الواحد[2]

وهى علامات توضح قدمه سبحانه، ولكن الناس شديد والغفلة فى الرغبة فيه وحده، أو الا كتفاء بذكره، وحينما لا يعلمون ألا شريك له فى خلقه وأهلاكه، ولا شريك له فى صنعه يكونون قد زلاوا عن الطريق السوى.

قال الحسين بن منصور الحلاج: «أول قدم فى التوحيد فناء التفريد» لأن التفريد هو النطق بأن الواحد انفصل عن الآفات بينما التوحيد هو إثبات وحدة الشئ. لذلك ففى الفردانية يمكن إثبات شئ غيره والوحدانية ربما لا تكون لشئ غيره، لذلك فالقدم فى التوحيد هو إنكار شريك له ونفى المزاج عن المنهاج لأن المزاج فى طريق الله هو بحثك عن المنهاج بلا سراج.

قال الحصرى: «أصولنا فى التوحيد خمسة: إزالة رفع الحدث، وإثبات القدم، وهجر الأوطان ومفارقة الأخوان، ونسيان ما علم وما جهل» ذلك أن رفع الحدث يعنى أن الحدث لا علاقة له بالتوحيد ولا يمكنه أن يصل إلى حقيقة العلية. زما إثبات القدم فيعنى: أن الله جل جلاله موجود أبدا.

وقد شرحت ذلك فى مناقشة ما قال الجنيد أما هجر الأوطان فيعنى بالنسبة للمريد ترك المسرات المعتادة للنفس الدينية ومظاهر هذه الدنيا ويعنى بالنسبة للمتمكن ترك المقامات العليا والأحولا والكرامات ـ ويعنى مفارقة الاخوان الابتعاد عن مجتمع البشر والاتجاه نحو الله إذ أن أى خاطر فى غير

---

(١) الدهرية يقولون بقدم العالم وأبديتهوينكرون الخالق ويعتقدون أن ما يحدث فى العالم إنما هو بقوانين الطبيعة .

(٢) اللمع للسراج الطوسى ص ٥٣.

الله حجاب ونقص وكلما ارتبطت أفكار الإنسان بما هو غير الله كلما حجب عن الله فمن المعروف أن الأتحاد هو جمع الهم زما الرضا بما هو دون الله فهو تفرقة الهم، أما نسيان ما علم وما جهل فيعنى النظر إلى الأشياء بعين الوحدة ذلك أن الوحدة ومعرفة حقيقة الوحدة لا يتأتى إلا عن طريق إنكار التصوف الشخصى الذى يتكون منه المعرفة والجهل وإحدهما على تبصرة والآخرى غفلة.

ويقول أحد الشيوخ: «بينما كان الحصرى يتحدث إلى أحد مستمعيه أخذنى النعاس فرأيت فيما يرى النائم أن ملكين نزلا إلى السماء واستمعا حينا لما يقول ثم قال أحدهما للآخر: «أن ما يقوله هذا الرجل علم التوحيد لا عين التوحيد» وعندما استيقظت كان ما يزال يشرح التوحيد ثم نظر إلى وقال: يا فلان، من المستحيل أن تتحدث عن التوحيد إلا فيما يتصل بالعلم».

ويذكر عن الجنيد أنه قال: «التوحيد أن يكون العبد شبحا بين يدى الله يجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكمام قدرته فى لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلف له فوجود وحدانيته فى حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته ليقام الحق له فيما أراد منه وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون»[1] .

ويعنى هذا كله أن الموحد لا إرادة له خاصة له ولا ينظر إلى نفسه فى حال الوحدة ذلك أنه فى محل القرب تفنى نفسه ويعزب حسه ويجرى عليه أحكام الحق بإرادة الحق حتى يصبح ذرة كما كان فى الأزل عندما صدر ميثاق الوحدة وأجاب الله تعالى عن السؤال سأله جل جلاله وكانت تلك الذرة موضع سؤاله.

ومن يكون على هذا النمط لا يستريح إلى بشر حين يدعوه ولا يأنس إلى شخص حين يتصل به ويشير هذا القول إلى محو الصفات الإنسانية

---

(١) اللمع للسراج الطوسى ص ٤٩.

والاستسلام الكامل لله فى الحالة التى يكون فيها الإنسان مقهورا بتجلى جلاله حتى يصبح أداة طيعة لا يشعر بشئ وجوهرا لطيفا يستوى عنده أن يمر على كبد حمزة أو ظهر مسيلمة ويفنى عن الكل فى الكل ويكونجسمه موضعا لأسرار الله الذى ينسب اليه كل قول وعمل. ولكن بالرغم من فقدانه الشعور بكل شئ فإنه يظل متمسكا بالشريعة حتى حجة الله ـ هكذا كان النبى ﷺ عندما حمل إلى حضرة القرب ليلة الإسراء وأصبح حاله غريبا عن النوع المعلوم للخلق وانقطع عن الأوهام إلى حد أنه فقد كونه وفقد نفسه وصار فى فناء الصفة متحيرا بلا صفة واضطربت طبائعه واعتدل مزاجه فوصلت النفس إلى محل القلب والقلب إلى درجة الروح والروح إلى مرتبة السر والسر إلى صفة الرب وانفصل من الكل فى الكل، ولقد طلب أن يذوب جسده وتتمحى شخصيته،

ولكن كانت إرادة الله أن يظهر حجته فأمر رسوله أن يبقى فى الحالة التى كان عليها وبذلك قوى جسمه الشريف وشاهد وجود الله سبحانه وتعالى فى وجوده العدمى حتى عاد فقال: «إنى لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى» وكما قال ﷺ: «لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل».

يروى أن سهل بن عبد الله قال: «ذات الله موصوفه بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا، وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول وتراه العيون فى العقبى ظاهراًفى ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليهم بآياته، والقلوب تعرفه والعقول لا تدركه ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية»[1].

هذا القول يشمل كل أصول التوحيد.

قال الجنيد

---

(١) اللمع للسراج الطوسى ص ١٣٢.

إن أعلى كلمة فى التوحيد هى ما قاله أبو بكر رضى الله عنه: «سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»[٢] وقد أخطأ كثيرون فيما عناه سيدنا أبو بكر من هذه الكلمات وظنوا أن العجز فى نيل المعرفة هو عدم معرفة الله تعالى، وهذا خطأ محض لأن العجز يشير إلى حالة موجودة لا إلى حالة معدومة، مثل ذلك الإنسان الميت ليس غير مؤهل للحياة،، لكنه لا يكون حياً فى حال موته، والإنسان الأعمى ليس غير مؤهل للنظر لكنه لا يرى فى حال عماه، كذلك المقعد ليس عاجزاً عن القيام فى القعود ولكنه عاجز بالقعود كذلك فالعارف ليس غير مؤهل للمعرفة مادامت المعرفة موجودة لأنه فى هذه الحالة تشبه معرفة النظر العقلى فقول أبى بكر يمكن أن يتصل بمذهب أبى سهل الصعلوكى وأبى على الدقاق اللذين يثبتان أن المعرفة تنال فى أول الأمر بالكسب حتى تكون فى النهاية جبرية وصاحب المعرفة يصير مضطراً وغير قادر على تركها،، أو الاحتفاظ بها لنفسه.

وبناء على قول سيدنا أبى بكر رضي الله عنه وأرضاه، فالتوحيد هو حكم الله فى قلوب عباده.

قال الشبلى: «التوحيد حجاب الموحد عن جمال الأحدية» لأنه يقال أن التوحيد هو فعل العبد وفعل العبد لا يكون كشفاً لجمال الله، وفى حقيقة الكشف يكون الشئ الذى لا يوجب الكشف حجابا- الإنسان بكل أوصافه هو غير لأنه إذا كانت كل صفاته ربانية كان هو ربا وذلك يكون الموحد والتوحيد والواحد كل واحد منهما علة للأخر وهذا هو تثليث النصارى بعينه، فإذا منعت الطالب لله أى صفة من فناء نفسه فى التوحيد، فهو محجوب بتلك الصفة، وحالما يكون محجوباً فإنه ليس بموحد، لأن كل ما خلا الله فهو باطل.

هذا فقه لا إله إلا الله، ومعروف فى الحكايات أن إبراهيم الخواص حينما ذهب إلى الكوفة لزيارة الحسين بن منصور قال له : يا إبراهيم كيف تمضى أوقاتك؟ قال: هيأت نفسى على التوكل قال: ضيعت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد؟

وقد بين المشايخ بتوضيح واسع العبابرات التى يعرف منها التوحيد فبعضهم قال: إنه فناء لا يمكن الوصول إليه حقيقة إلا بوجود الصفات، والبعض قال: إنه لا يوجد توحيد إلا بفناء الصفة، ويجب قياس ذلك على الجمع والتفرقة وموضوع الجمع والفرق يمكن أن يطبق فى هذا الموضع حتى يفهم.

أقول أنا على بن عثمان الجلابى: التوحيد هو سر يكاشفه الله لعباده وأنه لا يمكن التعبير عنه بالكلام وأنه أدق من أن يشار إليه بأكمل العبارات وكل ما قرره المشايخ من العبارات المنمقه وكل من استعملها هو فى غير الله وإثبات ما هو غير عن الله فى التوحيد هو إثبات الشرك وهو حينذاك يلهو والموحد إلهى لا لاهيا. وهذه هى أحكام التوحيد ومسلك أرباب المعرفة فيه على سبيل الاختصار.

[الباب السابع عشر](*)

كشف الحجاب الثالث عن الإيمان

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(١) وقال فى موضع آخر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال رسول الله ﷺ «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»(٢) والإيمان اصطلاحاً هو التصديق، أما بخصوص أصوله المطابقة للشرع الشريف ففيه كلام كثير واختلافات كثيرة، فالمعتزلة يتمسكون بأن الإيمان يشمل جملة الطاعات من علمية وعملية، ولذلك فأنهم يقولون أن المعصية تخرج الإنسان من دائرة الإيمان، وكذلك الخوارج الذين ينسبون الإنسان إلى الكفر على عمل معصية وهم على مثل هذا الزعم، والبعض يثبتون أن الإيمان هو الإقرار ليس إلا. إقرار المرء بلسانه، والبعض يقولون: إنه ليس إلا معرفة الله تعالى، وبعض أهل السنة يثبتون أنه هو التصديق المطلق.

وقد كتبت كتاباً خاصاً بهذا الموضوع، ولكن مقصدى هنا أن أشرح عقيدة الصوفية فهم ينقسمون فى هذا الموضوع كما انقسم فيه الفقهاء من أهل هاتين الطبقتين، فبعضهم مثل الفضيل بن عياض وبشر الحافى وخير النساج وسمنون المحب وأبى حمزة البغدادى وأبى محمد الجريرى يرون أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالعمل وكثيرون غيرهم مثل إبراهيم بن أدهم، وذى النون المصرى وأبى يزيد البسطامى وأبى سليمان الدارانى والحارث المحاسبى والجنيد وسهل بن عبد الله التسترى وشقيق البلخى وحاتم الأصم ومحمد بن العضل البلخى، وكثيرين غيرهم يقولون بأن الإيمان إقرار باللسان.

(*) ساقطة فى الأصل

(١) سورة النساء: آية ١٣٦.

(٢) رواه البخارى ومسلم .

وبعض الفقهاء مثل مالك والشافعى وأحمد بن حنبل متمسكون بالرأى الأول، بينما أبو حنيفة والحسين بن فضل البلخى وأتباع أبى حنيفة مثل محمد بن الحسن وداود الطائى، وأبى يوسف يؤيدون القول الثانى، والاختلاف بينهم لفظى محض، وخلو من المعنى وسأوضح لك ذلك حتى لا يتهم إنسان بخروجه عن محجة الإيماغن لتمسكه برأى دون آخر.

فصل

[الإيمان أصل وفرع]

أعلم: أن جماعة المسلمين والصوفية متفقون على أن الإيمان له أصل وفرع، والأصل هو التحقيق فى القلب، والفرع هو ملاحظة الأمر والنهى، والعرب يستعملون فيما بينهم أسم الأصل للفرع بطريق الاستعارة، كقولهم عن ضوء الشمس أنه الشمس وبهذا المعنى فأهل الطبقة الأولى المذكورة آنفاً يطلقون اسم الإيمان على الطاعة التى يحفظ بها الإنسان نفسه من العقاب الآجل. والعقيدة مع عدم أداة الأوامر الربانية لا توجب الأمان، وحيث أن الأمان مبنى على الطاعة وأن الطاعة مع العقيدة والإقرار باللسان هما سبب النجاة فإنهم جعلوا ذلك هو الإيمان فى رأيهم، فكل من كانت طاعاته أكثر كان أكثر أمناً من العقوبة.

والطائفة الأخرى، يثبتون أن المعرفة هى سبب للنجاة وليست الطاعة فهم يقولون الطاعة لا معنى لها بدون المعرفة وأن العارف الذى تنقصة الطاعة سيكون من الناجين، ولو أنه يكون مركناً على إرادة الله إن شاء عفا عنه بفضلة أو بشفاعة رسوله أو عوقب على قدر معصيته ويخرج من النار إلى الجنة.

وحيث أن أهل المعرفة على معصيتهم لا يخلدون فى النار بسبب معرفتهم بينما الكادحون بغير معرفة لا يخلدون فى النار بسبب معرفتهم،

بينما الكادحون بغير معرفة لا يدخلون الجنة ثبت من ذلك أن الطاعة ليست سبباً فى النجاة وقد قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل الجنة أحدكم بعمله».

والحقيقة التى لا جدال فيها بين المسلمين هى: أن الإيمان هو المعرفة والإقرار. وقبول الأعمال فكل من عرف الله عرفه بإحدى صفاته. وصفاته سبحانه وتعالى على ثلاثة أنواع: أوصاف متصلة بجماله وأخرى متصله بجلاله وثالثه متصلة به فليس للخلق طريق إلى كمال معرفته إذا أثبتوا الكمال له ونفو النقص. ومثل ذلك أهل الجمال والجلال فمن كان برهانهم جمال الله تعالى فهم يكونون فى معرفتهم مشتاقين إليه دوما وقلوبهم فى مقام الهيبة، أما للشوق فهو ثمرة العشق أو المحبة، وكذلك كره الصفات الآدمية لأن رفع الحجاب عن الصفات الآدمية هو عين حقيقية المحبة، ولذلك فالإيمان والمعرفة هما المحبة والطاعة علامة عليها. فحينما يكون القلب محلاً للمحبة، والروح محلا للعبرة والقلب موضعاً للمشاهدة يجب ألا يكون الجسد تاركاً للأمر والا يكون غافلاً عن المعرفة، وهذه الآفة منتشرة بين المتصوفة فى عصرنا هذا وبعض أهل الإلحاد فمن شاهدوا جمال أحوالهم وقدرهم ومنزلتهم يجارونهم فى هذه الدرجة العالية ويقلدونهم فيها ويقولون إن التكاليف تكون قبل التعريف فإذا وصلت إلى معرفته تحولت عنك التكاليف الجسمية للطاعة، ولكنهم مخطئون لكنى أقول أنك متى عرفته امتلأ قلبك بالتعظيم، وصار حكمه فى نظرك أجل مما كان قبل وإنى أقر بأن الإنسان التقى يبلغ درجة يتخلص بها من عناء التكليف، وذلك بنمو التوفيق الإلهى حتى يؤدى ما يتعب الغير بلا تعب لنفسه،

لكن هذه النتيجة لا يمكن أن يتحصل عليها إلا بشوق مقلق مزعج. والبعض يقولون: أن الإيمان إنما يأتى بالكلية من الله، والبعض يقولون: إنه إنما يتأتى من الإنسان، وقد وقع فى هذا جدال عظيم بين أهل العراق فإثبات أن الإيمان إنما يتأتى كلية عن الله هو القول بالجبر، لأنه يثبت أن الإنسان

ليس له اختيار. ومن قال: بأنه يصدر من الإنسان فإن ذلك اختيار، لأن الإنسان لا يعرف الله تعالى إلا بالعلم الذى يمنحه إياه، ومذهب التوحيد هو دون الجبر وفوق الاختيار، والأولى أن يقال أن الإيمان حقيقة هو عمل الإنسان مصحوباً بتوفيق الله كما قال الله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾(١).

وعلى هذا الأصل فالميل للاعتقاد توفيق الله تعالى، أما الاعتقاد فهو عمل الإنسان وعلامات الاعتقاد هى فى القلب، بشدة تمسكه بالتوحيد، وفى العين بامتناعها عن النظر إلى المحرم والنظر بإمعانه فى الآيات، وفى الأذن بسماع كلمته، وفى البطن بخلوها من المحرم شرعاً، وفى اللسان بالتصديق، وفى الجسد بالعفة حتى تتفق الدعوى مع المعنى.

هذا ومن قال بأن الإيمان عن الله تعالى، يثبت بأن المعرفة والإيمان قد يزيد وينقص، الأمر الذى أجمع على بطلانه الجميع، لأنه لو كان حقاً لكان موضوع المعرفة محلاً للنقصان والزيادة. وعلى ذلك فالزيادة والنقصان يلزم أن تكونا فى الفرع الذى هو الحكم، والمتفق عليه عموماً هو أن الطاعة قد تزيد وتنقص، وهذا لا يرضى الحشوية الذين يقلدون أهل الفرقتين إذ يقول بعضهم إن الطاعة من الإيمان، وبعضهم يقولون: إن الإيمان هو إقرار باللسان ليس إلا وكلا هذين المذهبين غير صادق.

وبالاختصار: فالإيمان هو حقيقة اشتغال الأوصاف الآدمية بجملتها فى طلب الله، ويلزم كل مؤمن أن يقر بهذا، إذ أن سلطان المعرفة يقوى على صفة الشرك وإذا وجد الإيمان ذهب الشرك لأنه كما قيل: «إذا طلع الصباح بطل المصباح» وكما قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾(٢) لأن المعرفة إذا سيطرت على قلب العارف اندرست معالم دول الشك والرأى والشرك

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٥.

(٢) سورة النمل آية ٣٤.

وسيطر سلطان المعرفة على حواسه، وهو أن يجعلها فى طاعته فيكون نظره وفعله محفوظاً بحصون السنة.

قرأت أنه لما سئل إبراهيم الخواص عن حقيقة الإيمان؟ أجاب: لا يحضرنى جواب على هذا السؤال الآن. لأن كل ما أقول ليس إلا عبارة عنه وأنه يلزمنى أن أجيب عنه بأعمالى، ولكنى مسافر إلى مكة فاصحبنى حتى أجيبك عليه. قال الراوى فقبلت منه ذلك وكان فى طول سفرنا فى الصحراء يأتينا كل يوم رغيفان وقدحان من الماء فيعطينى أحدهما ويأخذ الآخر لنفسه. فذات يوم رأيت رجلاً كبير السن اقترب منا ثم نزل وتكلم مع إبراهيم لحظة من الزمان، ثم تركنا. فسألت إبراهيم أن يخبرنى من هو؟ فقال: هذا هو جواب سؤلك فقلت له كيف ذاك؟ فقال: ذاك الخضر طلب منى أن يصحبنى لكنى رفضت ذلك مخافة أنى فى صحبته أتوكل عليه دون الله وبذلك ينقص توكلى فحقيقة الإيمان هو التوكل على الله تعالى لقوله تعالى﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

وقد قال محمد بن خفيف: «الإيمان هو تصديق بالقلب بما أعلمه الغيب».

ذلك أنهم يكشفون له بما هو موجود فى الغيب، ويعلمونه إياه، وأصل الإيمان أنه بالغيب، لأن الله تعالى غائب عن عين السر، ولا يمكن أن يجلى ليقين العبد إلا بالقوة الإلهية، وذلك لايكون إلا بمشيئة الله تعالى لأنه معرف العارفين والعلماء، جل جلاله، وعم نواله، ولأنه هو الذى خلق العلم والمعرفة فى قلوبهم، وقطع ذلك عن كسبهم وإذن فكل من وهبه معرفته من أصحاب القلب يكون مؤمناً وفى هذا الباب كلام كثير حذفته منعاً للتطويل، وإذا كانت ثمة هداية من الحق كفى ما قيل، إذن فلا تحدث عن العبادات واكشف حجبها.

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٣.

الباب الثامن عشر(*)

كشف الحجاب الرابع - حول الطهارة

الفرض اللازم على كل فرد بعد الإيمان هو الطهارة لأداء الصلاة، وهو نظافة الجسد من النجاسة والجنابة وغسل الأعضاء الثلاثة الوجه واليدين والرجلين ومسح الرأس كما وصفه الشرع أو باستعمال التيمم إذا فقد الماء أو القدرة على استعماله.

والطهارة على نوعين: ظاهرية وباطنية. فالصلاة لها طهارة الظاهر والمعرفة لها طهارة الباطن، وكما أن الحالة الأولى يلزمها طهارة الماء فالحالة الثانية يلزمها صفاء التوحيد والعقيدة من الشرك والصوفية مشغولون دائماً بطهارة ظاهرهم وباطنهم.

قال رسول الله ﷺ لأحد أصحابه: «داوم على الوضوء يحببك حافظك»[1].

وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2] وكل من يداوم على طهارة الظاهر تحبه الملائكة أما من يداوم على طهارة الباطن فإن الله يحبه. وكان رسول الله ﷺ يذكر دائماً دعائه «اللهم طهر قلبي من النفاق»[3] ولم يجد النفاق سبيلاً إلى قلبه قط. وذلك أنه كان يعتبر المعجزات التي تحصل على يده ﷺ غيراً من الله، وأنه لمن النفاق إثبات الغير في التوحيد.

وما دامت عين الطالب مشغولة بأقل ذرة من كرامات شيخه عن عين الكمال الأصلي كانت هذه الذرة حجاباً كثيفاً بينه وبين ربه فكل ما كان غير الله كان حجاباً كثيفاً، ويستوي في ذلك رؤية النفس ورؤية شئ آخر. فقد قال أبو يزيد: «نفاق العارفين أفضل من إخلاص المريدين» يعني أنه ما كان مقاماً للطالب كان كحجابا للكامل، فمراد الطالب أن يجد الكرامات لكن العارف

---

(١) رواه انس بن مالك. (*) ساقطة في الأصل.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢.

(٣) الخطيب البغدادي في التاريخ عن أم معبد الخزاعية.. وضعفه السيوطي في الصغير جـ١ ص ١٠١

يطلب واهب الكرامات. وبالاختصار فإثبات أو أى شئ يشغل النظر من الله هو نفاق فى عين طالبى الحق، وهم الصوفية، وعلى ذلك فكل ما كان مبعداً لأحباب الله يكون سبباً لخلاص العصاة وما يكون مهلكاً للعصاة يكون سبباً لنجاة المشركين، لأنه إذا كان المشركون يعلمون ما يعلمه العصاة من أن ذنوبهم تغضب الله نجوا جميعاً من الشرك. ولو أن العصاة علموا ما يعلمه أحباب الله من أن كل أعمالهم ناقصة نجو من المعصية وطهروا من الآفات فلذلك يلزم اتحاد الطهارة الظاهرة والباطنة أعنى أنه متى غسل الإنسان يديه يلزمه أن يغسل قلبه من الاشتغال بالدنيا وإذا استنجى فكما يطهر من النجاسة الظاهرة ينبغى أن يطهر باطنه من حب الغير وإذا تمضمض يلزمه أن يطهر فمه من ذكر غير الله فإذا استنشق ينبغى أن يحرم على نفسه رائحة الشهوات، فإذا غسل وجهه التفت عن كل ما سوى الله ووجه وجهه إليه، فإذت مسح رأسه سلم كل أموره لله، فإذا غسل رجليه يلزمه أن لا ينوى بها الوقوف على أى شئ إلا حسبما يأمره حكم الله فيكون بذلك قد أتى بالطهورين. وذلك أن كل الأحكام الشرعية يلزم أن يتحد ظاهرها مع باطنها، ومثال ذلك الإيمان فهو شهادة باللسان واعتقاد بالقلب وأحكام للطاعة تجرى على الجسد، أذن فطريق الطهارة هو التفكر والتدبر فى آفات الدنيا والدين ذلك أن الدنيا دار غادرة ولا يخلو موضع فيها من فساد للقلب وهده الدرجة لا تنال إلا بكثرة مجاهدة النقفس وأعم أعمال المجاهدة هى دقة مراعاة أدب الظاهر فى كل الأحوال.

يروى عن إبراهيم الخواص أنه قال: أحب أن يهبنى الله تعالى حياة باقية فى هذه الدنيا. حتى أكون مع اشتغال الناس بنعيم الجنة ونسيانهم لخدمة الله تعالى مراقباً لأوامر الشرع الشريف مع شدة الألم فيها ذاكر الله تعالى فى كل آن.

ويروى عن أبى طاهر الحرمى أنه جاور الحرم المكى أربعين سنة وكان

فى كل هذه المدة إذا أراد أن يتوضأ ذهب لخارج حدود الحرم الشريق وكان يقول: الأرض التى أضافها الله تعالى لنفسه أكره أن يسيل فيها الماء المستعمل.

وكان إبراهيم الخواص وهو مريض بالإسهال فى المسجد الجامع بالرى يتوضأ ستين مرة فى اليوم والليلة حتى مات وهو فى الماء.

وكان أبو على الروزبارى أصيب فى بعض أيامه بالوسواس وفى الطهارة فقال ذات يوم ذهبت إلى البحر فى الفجر، ومكثت هناك حتى طلعت الشمس وفى طول هذه المدة وأنا متشكك فقال بأعلى صوتهك «اللهم العافية» فناداه صوت من البحر: «العافية فى العلم».

روى أنه لما كان سفيان الثورى فى مرض الموت: توضأ ستين مرة لصلاة واحدة وقال على الأقل أخرج من هذه الدنيا وأنا طاهر.

يروى عن الشبلى ذات يوم توضأ بنية الدخول فى الجامع فسمع صوتاً يقول لقد غسلت ظاهرك فأين طهارة باطنك. قال: فرجعت وخرجت من كل ما امتلك ومكثت سنة لا ألبس إلا ما هو لازم للصلاة، ثم أتى للجنيد فقال له الجنيد يا أبا بكر لقد كان هذا الوضوء نافعاً لك والله يحفظك طاهراً أبداً وبعد ذلك اشتغل الشبلى بمداومة الطهارة وحالما كان عند النزع ولم يقدر بعد على أن يطهر نفسه أشار إلى أحد مريديه أن يوضئه ففعل ذلك المريد لكنه نسى تخليل لحيته. ولما كان الشبلى غير قادر على الكلام مسك بيد المريد وأشار إلى لحيته وبذلك تمم وضوءه، وروى عن الشبلى أيضًا أنه قال: «ما تركت شرطًا من شروط الطهارة قطذ إلا وأبدلنى الله مما تركت قيدًا فى باطنى» وقال أبو يزيد: «إذا اشتغل قلبى بهذه الدنيا توضأت وإذا اشتغلت بالأخرى اغتسلت لأن هذه الدار محدثة ونتيجة الفكر فيها هو الحدث أما الدار الآخرة فهى غيبة وراحة ونتيجة التفكر فيها الجنابة، لذلك فالحدث الشرعى يلزمه الوضوء والجنابة يلزمها الغسل.

وتوضأ الشبلى ذات يوم فلما أتى إلى باب المسجد ناداه صوت من قلبه هل أنت على كمال الطهارة حتى تدخل بيتى بمثل هذه الجرأة؟ فرجع فناداه ذلك الصوت قائلاً: هل تلتفت عن بابى؟ إلى أين تذهب؟ فصرخ بأعلى صوته فناداه ذلك الصوت هل تشتمنى؟/ فوقف ساكناً. فقال: هل تدعى تحمل بلائى فقال الشبلى «المستغاث بك منك».

هذا وقد بين مشايخ الصوفية: معنى الطهارة الحقيقية بكل دقة وكلفوا مريديهم أن لا يتوقفوا عن الطهارة باطناً وظاهراً لأنه من أراد أن يعبد الله يلزمه أن يطهر نفسه ظاهراً بالماء، ومن أحب أن يتقرب إلى الله يلزمه أن يطهر نفسه باطناً بالتوبة وسأبين لك أصول التوبة وفروعها.



فصل
فى التوبة وفروعها

اعلم أن التوبة هى أول مقام السالكين كما أن الطهارة هي أول خطوة لمن أراد أن يعبد الله لذلك قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾(١) وقال أيضاً: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ: «ما من شئ أحب إلى الله تعالى من شاب تائب»(٣)، وقال ﷺ: «التائب فى الذنب كمن لا ذنب له»(٤) وقال أيضاً: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»(٥)، ثم تلا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾(٦).

فإن قيل: ما علامة التوبة؟ والإجابة: الندم، أما ما قيل: أن الذنب لا يضر الأحبة أى أن العبد لا يكفر بذنبه، ولا يتأتى فى إيمانه خلل. وحينما لا يضر الذنب بالأساس، فإن الخسران بالمعصية الذى يكون فى نتيجتها النجاة لا يكون خسراناً. واعلم أن التوبة لغة هى الرجوع فتاب أى رجع وحقيقته تشمل رجوع الإنسان من كل ما حرمه الله تعالى مع خشيته فيما أمر قال رسول الله ﷺ «الندم توبة»(٧).

وهذه الجملة تشمل كل شرائط التوبة. ذلك أن أول شرط للتوبة: هو الأسف على المخالفة. والثانى: هو ترك الزلة فى الحال والثالث العزم على عدم العودة إلى المعصية. وهذ ه الشروط الثلاثة متعلقة بالندم، لأنه إذا حل الندم فى القلب، استتبع حلوله الشرطين الآخرين وكما أن للتوبة ثلاثة شروط

---

(١) سورة التحريم آية ٨.
(٢) سورة النور آية ٣١.
(٣) أخرجه أبو المظفر السمعاني فى أماليه عن سلمان.
(٤) ورد فى الجامع الصغير ١٧٥/٢-١٧٦ كنوز الحقائق ١٤٧/٢.
(٥) أنظر مسند أحمد
(٦) سورة البقرة آية ٢٢٢.
(٧) أخرجه الطبراني وأبو نعيم فى الحلية من أبى سعيد الأنصاري.

فللندم ثلاثة أسباب أولها : أن يسيطر الخوف من العقاب على القلب وتجرى هموم الأفعال السيئة على القلب، وثانيها : أن تستولى إرادة الثواب على القلب ويصير معلوما أنه لا يتأتى بالأفعال السيئة وعدم الامتثال للأمر وثالثها : أن يستحى من الله.

ففى الحالة الأولى يكون النادم تائباً وفى الحالة الثانية يكون منيباً وفى الحالة الثالثة يكون آيباً. وكذلك التوبة لها ثلاث مقامات التوبة والإنابة والأوبة، فالتوبة تأتى عن خوف عقوبة الله تعالى والإنابة عن رغبة فى طلب الجزاء والأوبة لأجل المحافظة على أحكامه والتوبة هى مقام عامة المؤمنين لقوله تعالى :﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[1] وتستلزم التوبة ترك الكبيرة والإنابة هى مقام الأولياء والمقربين لقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[2].

والأوبة هى مقام الأنبياء والرسل عليهم السلام لقوله تعالى ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[3] التوبة هى الرجوع عن الكبائر إلى الطاعة، والإنابة هى الرجوع عن الصغائر إلى المحبة، والأوبة هى الرجوع من نفسك إلى الله تعالى. وفرق بين العودة من الفواحش إلى الأوامر، والعودة من اللمم والخواطر إلى المحبة، والعودة من النفس إلى الحق. وأصل التوبة: إنما جعلت لتكون من زواجر الله تعالى ولإيقاظ القلوب من نوم الغفلة ورؤية الغيب لأنه إذا تفكر الإنسان فى سوء فعله وأعماله الخبيثة.

فإنه يطلب الخروج منها، والله سبحانه وتعالى يجعل ذلك سهلاً عليه بالتوبة ويقوده بها إلى حلاوة الطاعة هذا وإجماع المسلمين ومشايخ الصوفية هو على أن الإنسان إذا تاب عن معصية ووقع فى أخرى لا يمنعه ذلك من التوبة والجزاء على التوبة لأنه امتنع عن المعصية بها ولأنه ببركة هذا الجزاء

---

(١) سورة التحريم آية ٨. (٢) سورة ق آية ٣٣.

(٣) سورة ص آية ٤٤.

ربما امتنع عن المعاصى أجمعها مثلما يتوب شخص عن الزنا ويصر على شرب الخمر فتوبته عن الزنا قائمة مع إصراره على شرب الخمر، لكن فرقة من المعتزلة يقولون: بأن الإنسان لا يسمى تائباً إلا إذا ترك جميع الكبائروهذا مذهب باطل وذلك لأن الإنسان لا يعاقب إلا على المعاصى التى يرتكبها وإذا ترك جانباً منها فلا يخاف العقاب عليها وعلى ذلك فإنه تائب وكذلك إذا هو أدى بعض الفرائض الدينية وأهمل الآخر فإنه يجازى على ما أداه ويعاقب على ما أهمل فيه وزد على ذلك أنه إذا كان لأى إنسان أن يتوب من أية معصية لا يقدر عليها فى ساعته فهو تائب لأنه بسابق توبته نال الندم الذى هو أصل من أصول التوبة وفى الحال فإنه رجع كل المعاصى التى من هذا القبيل وقرر عدم الوقوع فيها حتى ولو صارت لديه قدرة وتوفرت له أسباب عملها فى وقت آت.

أما بخصوص وصف التوبة وصحتها فالصوفية اختلفوا كثيراً فيها فسهل بن عبد الله التسترى وآخرون يعتقدون: أن التوبة «ألا تنسى ربك» وأن يدم أسفك عليه حتى ولو عملت أعمالاً صالحة فينبغى ألا ترضى عن نفسك لهذا الخصوص لأن توبيخ الضمير على الآثام السابقة خير من الأعمال الصالحة ولأن الإنسان الذى لا ينسى معاصيه لا يقع فى الغرور.

والجنيد وبعضهم متمسكون بضد هذا الرأى وهو أن التوبة أن تنسى ذنبك يبرهنون على ذلك بأن التائب هو حبيب الله وحبيب الله يكون فى مشاهدة الله، وأنه من الخطأ أن يذكر الإنسان ذنوبه حال مشاهدته لأن ذكر الذنوب حجاب بين الله وبين من يشاهدونه فذكر الجفاء جفاء وذكر الجفاء حجاب من الوفاء. وهذا الاختلاف يرجع بنا إلى اختلافهم فى المجاهدة والمشاهدة الذى ذكرته فى الكلام على فرقة السهلية. فمن قالوا: بأن التائب قائم بنفسه اعتبروا نسيان المعصية غفلة أما هؤلاء الذين قالوا إنه قائم بالله رأوا أن ذكره المعصية يكون شركاً. وفى الجملة: إذا كان التائب باقى الصفة فعقدة أسراره لا تحل وحينما يكون فانى الصفة لا يصح منه ذكر الصفة

فموسى حال بقاء صفاته قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾(١) لكن رسول الله ﷺ فى حال فناء الصفة قال «لا أحصى ثناء عليك» فكما أنه يلزم التائب ألا يذكر نفسه فكيف يذكر معاصيه. وعلى ذلك فإن ذكر المعصية معصية لأن المعصية هى حالة يرجع بها الإنسان عن الله وكذلك ذكرها أو نسيانها حيث أن كلاهما أن الذكر والنسيان متصلان بنفسه قال الجنيد قرأت كتباً عديدة لكننى لم أر شيئاً مفيداً فيها مثل هذا البيت.

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة   حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

فحينما يكون وجود الحبيب فى حضرة الحبيب جناية فأية قيمة للصفة

وفى اختصار: فالتوبة توفيق ربانى والمعصية عمل جسمانى فإذا دخل الندم القلب لا يصير للجسد قدرة فإذا كانت فى البداية لا قدرة للإنسان على طردها فكذلك فى النهاية لا قدرة للإنسان على حفظها قال الله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢) والقرآن الكريم يحتوى على كثير من الآيات من هذا النوع أشهر من أن تذكر هنا.

إذن فالتوبة على ثلاثة أنواع: أولها التوبة من الخطأ إلى الصواب وثانيها من الصواب إلى الأصوب منه ثم من نفسك إلى الله، فالتوبة من الخطأ إلى الصواب لقوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾(٣)

ومن الصواب إلى الأصوب يقول موسى عليه السلام ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾(٤) ومن النفس إلى الله لقول رسولنا الكريم ﷺ «إنه ليغان على قلبى وأنى استغفر الله فى كل يوم سبعين مرة»(٥). فارتكاب الخطأ مستقبح ومذموم

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢.   (٢) سورة البقرة آية ١٣٥.

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٥.

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٣.

(٥) رواه البخارى عن أبي هريرة.

والرجوع عنه طيب ومحمود وهذه توبة العوام، وحكمها ظاهر، ومع وجود الأصوب. فإن الإقامة على الصواب وقف وحجاب،،، والرجوع من الصواب إلى الأصوب محمود عند أهل الهمة وهذه توبة الخواص، ومن المحال أن يتوب الخواص عن المعصية. ألم تر أن كل العالم كان يحترق بحسرة رؤية الله عز وجل .

ومع ذلك فقد تاب عنها موسى ذلك أنه طلب الرؤية باختياره، والاختيار فى المحبة آفة فترك آفة الاختيار عنده أبدى للخلق ترك الرؤية، والرجوع من النفس إلى الحق فى درجة المحبة، بأن يتوب العبد فى المقام الأعلى من الوقوف فى المقام الأدنى ويتوب أيضاً عن رؤية مقاماته وأحواله ذلك أن مقامات المصطفى ﷺ كانت فى رقى على الدوام، فحينما كان يصل إلى مقام أعلى كان يستغفر عن المقام الأدنى، و كان يتوب عن رؤيته لهذا المقام.

فصل

[فى التوبة]

اعلم: أنه ليس من شرط التوبة التأيد بعد العزم على على عدم الرجوع إلى المعصية والتائب الذى يرجع إلى المعصية فى بعض الأحوال ينال مبدئياً جزاء الله على توبته وكثير من طلاب التصوف من الذين تابوا ثم رجعوا إلى المعصية رجعوا بعد ذلك إلى الله تعالى متى وجدوا الموعظة روى بعضهم: أنه قال: تبت ورجعت سبعين مرة وما استقمت إلا فى المرة الحادية والسبعين. روى أبو عمرو بن نجيد كانت بداية توبتى فى مجلس أبى عثمان الحيرى وظللت عليها فترة ثم وقعت فى المعصية وتركت صحبة ذلك الشيخ، فكنت كلما رأيته عن بعد أفر منه لتوبيخ ضميرى حتى لا يرانى، فقابلته ذات يوم على غير ميعاد، فقال لى: يا ولدى لا تخالط أعداءك إلا إذا كنت معصوماً لأن العدو يرى سوءك حسناً له فيسر به لأنه يغم حين تعصم.

فإذا كنت تعصى فأتنا حتى نتحمل بليتك، فلما سمعت هذه الكلمات شعرت أن قلبى مل المعصية و حينذاك صحت توبتى، وسمعت أيضاً أن بعضهم

قد تاب عن المعصية فرجع إليها ثم تاب مرة أخرى فقال فى نفسه كيف يكون إذاً أنا رجعت إلى الله فناداه صوت من السماء يقول «أطعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأهملناك فإذا عدت إلينا قبلناك».

فصل

[توبة العوام]

قال ذو النون المصرى: «توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة» لأن العامة سيسألون فى أعمالهم الظاهرية أما الخاصة فإنهم سيسألون عن حقيقة أعمالهم فالغفلة التى هى للعوام نعمة تكون للخاصة حجاباً قال أبو حفص الحداد: «ليس للعبد فى التوبة شئ لأن التوبة إليه لا منه» وعلى ذلك القول فالتوبة ليست من أعمال الإنسان لكنها نعمة من نعم الله تعالى وهذا المذهب يوافق بالتقريب مذهب الجنيد.

وقد قال أبو الحسن البوشنجى: «إذا ذكرت الذنب ثم لم تجد حلاوة عند ذكره فهو توبة» لأن تذكر المعصية يصحبه أما بالحسرة أو الرغبة فمن ندم على عمل معصية فهو تائب وأما من رغب فى عمل المعصية فهو عاص والمعصية الأصلية ليست بأسوأ من الرغبة فيها لأن العمل وقتى لكن الرغبة دائمة. قال ذو النون المصرى: «التوبة توبتان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة. فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبة وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه» فتوبة الخوف ناشئة عن انكشاف الجلال الإلهى وتوبة الحياء من النظر إلى الجمال، فواحد فى الجلال يحترق من نار الخوف وواحد من جمال النور يزداد فى نور الحياء فواحد منهم فى سكر والآخر مدهوش.

وفى هذا كلام كثير اختصرته خوف التطويل وبالله العون والعصمة وحسبنا الله ونعم الرفيق.

الباب التاسع عشر

كشف الحجاب الخامس عن الصلاة

قال تعالى﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[١] وقال ﷺ «وما ملكت أيمانكم»[٢] يعنى الصلاة.

الصلاة لغة ذكر الله تعالى والانقياد إليه. ولكن فى عبارات الفقهاء: هى تلك الفرائض الخمس التى أمر الله تعالى أن تؤدى فى خمسة أوقات مختلفة والتى تحتوى على شروط بعضها أساسى وهى الطهارة ظاهراً من النجاسة وباطناً من الشهوة ونظافة الثياب ظاهراً وتطهير السريرة من الفكر فى أمر محرم والمكان الذى يصلى فيه يلزم أن يكون ظاهراً خالياً من النجاسات وباطناً من المعاصى والخطايا ورابعاً استقبال القبلة الظاهرة وهى الكعبة والباطنة وهى عرض الرحمن والمعنى بها شهود الأسرار الإلهية.

خامساً: الوقوف ظاهراً فى بحار القدرة وباطناً فى جنة القرب بشرط دخول وقتها فى ظاهر الشريعة وفى دوام وقتها عن أهل الحقيقة: سادساً: إخلاص النية للقرب من الله. سابعاً: قول التكبير فى مقام الرهبة والفناء والوقوف فى مقام الجمع وقراءة القرآن ترتيلاً واعتبارا والركوع بالخضوع والسجود بإذلال وأداء التشهد مع حضور القلب والتسليم مع فناء صفات المصلى. يروى فى الحديث الشريف أنه كان النبى ﷺ يصلى وفى جوفه أزيز كأزيز المرجل وكان على كرم الله وجهه إذا وقف للصلاة وقف شعر جسده وأطل من ردائه وأخذته الرعدة وقال: قد وجبت الساعة لأداء أمانة لم تتحملها السماء والأرض.

يقول أحد الشيوخ: «سألت حاتماً الأصم رحمه الله. كيف تقيم الصلاة؟

---

(١) سورة البقرة آية ٤٣.

(٢) أخرجه الخطيب عن أم سلمة.

قال: حينما يدخل الوقت أتوضأ ظاهرا وباطناً، ظاهراً بالماء. وباطناً بالتوبة ثم أدخل فى المسجد، فأشاهد المسجد الحرام، وأضع مقام إبراهيم عليه السلام بين حاجبى وأعلم أن الجنة على يمينى وأن النار على يسارى وأن الصراط تحت قدمى وأن ملك الموت وراء ظهرى، فأكبر بإجلال وأقوم بتوقير وأقرأ بهيبة وأسجد بتضرع وأركع بتواضع وأجلس بحلم ووقار وأسلم بشكر.

فصل

[الصلاة]

الصلاة هى عبادة يجد فيها المريدون كل معالم الطريق التى يحتاج إليها الطالبون إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية والتى تتكشف لهم بها المقامات فالطهارة للسالكين محل التوبة، واتباع مرشد عامل يحل محل استقبال القبلة والوقوف فى الصلاة يحل محل مجاهدة النفس وقراءة القرآن تحل محل دوام الذكر والركوع يحل محل الخضوع، والسجود يحل محل معرفة النفس والشهادة تحل محل الأنس والسلام يحل محل التجرد عن الدنيا والفرار من ربقة المقامات ولذلك فإنه ﷺ لما تخلى من جميع المشارب مع كمال حيرته كان يقول دائما: «أرحنا بها يا بلال» أى بالصلاة وقد وضح هذه المسألة كل مشايخ الصوفية والكل متمسك بمقامه فى هذا الموضوع، فبعضهم يقول: أن الصلاة هى وسيلة الحضور مع الله تعالى والآخرون يعتبرونها وسيلة إلى الغيبة فالذين فى الغيبة يصبحون فى حضور بالصلاة.

بينما الذين فى الحضور يصيرون غائبين. فكذلك فى الدار الآخرة التى بها يرون الله سبحانه وتعالى فمن كان غائباً عن رؤيته جل وعلا يصير حاضراً والعكس بالعكس.

وأنى أقول: إن الصلاة هى أمر إلهى وليست وسيلة لنيل الغيبة أو الحضور لأن الأمر الإلهى ليس وسيلة لأى شئ حيث أن سبب الحضور هو الحضور عينه وسبب الغيبة هو الغيبة عينها إذ لو كانت سبباً للغيبة فمن كان

غائباً لزم أن يكون حاضراً بإهمال أدائها ولكن حيث أن أدائها فرض على الكل حاضرين أو غائبين فالصلاة هى مستقلة فى ذاتها وحيدة فى بابها والصلاة أصل مجاهدة النفس والذين بلغوا مقام الاستقامة يجاهدون أنفسهم دائماً فى أعمال الصلاة حتى أن المشايخ كانوا يأمرون مريديهم بصلاة أربعمائة ركعة فى الليل والنهار حتى تعتاد أجسامهم على العبادة وأهل الاستقامة أيضاً يصلون كثيراً شكراً لله تعالى على ما أولاهم من جزيل النعم أما أرباب الأحوال فصلاتهم مع كمال الوجد تشير إلى مقام الجمع لأنهم فى حال صلاتهم يصيرون متحدين أما إذا تخلوا عن وجدهم فصلاتهم تشير إلى مقام الفرق فيكونون بها أهل فرق فأولئك الذين يتحدون مع صلاتهم يقومون نهارهم وليلهم ويزيدون عليها نوافل كثيرة وأما أهل الفرق فإنهم لا يزيدون على الصلاة المفروضة. قال رسول الله ﷺ «جعلت قرة عينى فى الصلاة»[1] لأن الصلاة مصدر الفرح للمستقيم.

لما أسرى برسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وتخلصت نفسه من قيود العناصر وتخلصت روحه من أدران المقامات والدرجات وفنيت قواه الطبيعية وبقى عن الدلائل بلا دليل وصار غائباً عن المشاهدة فى المشاهدة واستراح عن المغايبة وتلاشت منه البشرية واحترقت قوته المادية قال عن غير إرادته بإلهام الوجد: «اللهم لا ترجعنى إلى دار البلاء ولا تضعنى تحت قيود الطبع والهوى» فأجابه الله: «إنه قد سبق فى علمى أن ترجع إلى الدنيا لكى تؤيد الشرع الشريف حتى أعطيك هناك ما منحتكه هنا» فلما رجع إلى هذه الدار كان دائما يقول لتشوقه إلى هذا المقام العلى: «أرحنا بالصلاة يا بلال» هذا وإن كل فريضة من الفرائض له ﷺ قرب ومعراج.

كان الخلق يرونه فى الصلاة، وكانت روحه فى الصلاة، وقلبه فى الحلبة فسره فى الطيران ونفسه فى الذوبان حتى صارت قرة عينه فى الصلاة، كان جسده فى الملك وكانت روحه فى الملكوت، وكان جسده أنسياً وروحه فى محل

---

(١) رواه الطبراني عن المغيرة.

الإنس ويقول سهل بن عبد الله من علامة الصادق: أن يكون له تابع من الحق إذا دخل وقت الصلاة يحثه عليها وينبهه إن كان نائماً.

هذه العلامة ظهرت فى سهل نفسه لأنه عندما كبرت سنه ووهنت قوته كان يستجمع قواه عند وجوب أى صلاة، وبعد أدائها يعود عاجزاً عن الحركة من مكانه.

ويقول أحد الشيوخ: «يحتاج المصلى إلى أربعة أشياء فناء النفس وذهاب الطبع وصفاء السر وكمال المشاهدة».

ففناء النفس إنما ينال باستجماع الهمة فيصل إلى ولاية النفس وذلك أن وجوده تفرقة فلا يوجد فى الجمع ولا يكون ذهاب الطبع إلا بإثبات الجلال فجلال الحق زوال للغير وصفاء السر لا يكون إلا بالمحبة وكمال المشاهدة لا يكون إلا بصفاء السر.

يروى عن الحسين بن منصور الحلاج أنه فرض على نفسه أن يصلى أربعمائة ركعة فى النهار والليل فلما سئل لما يتعب نفسه وهو فى درجة عالية من الكمال؟ قال: أن الألم والراحة ينسيان تلكم أما من فنيت صفاتهم فلا يشعرون بتأثير راحة فانظر حتى لا تسمى الكسل وصولاً والحرص طلباً - وروى بعضهم انه قال صليت مرة وراء ذى النون المصرى فلما نطق بالتكبير وقال الله أكبر خر كأنه شن بال وكان الجنيد بعد أن كبر سنه لا يقطع نفلاً من أوراد صباه فلما قالوا له لقد هرمت أيها الشيخ فضع بعض نوافلك.

قال: «هذه الأشياء التى نلت بها فى البداية ما نلته من المحال أن أترك شيئاً منها بعد قضاء الله».. ومعروف أن الملائكة مشغولة دائماً بعبادة الله تعالى فمشربهم من الطاعة وغذاؤهم من المحبة لأنهم روحانيون وليست لهم أنفس بشرية فالنفس البشريةتمنع الإنسان عن الطاقة وكلما ذلت تلك النفس كلما سهل على المريد تأدية تلك الفرائض فإذا تم فناؤها كانت العبادة طعام الإنسان وشرابه كما هى طعام وشراب الملائكة. قال عبد الله بن المبارك رأيت

إمرأة عابدة لدغت بعقرب أربعين مرة وهى فى صلاتها ولم يتغير حالها فلما أتمت صلاتها قلت لها يا أماه: لما لم تدفعى العقرب عنك؟ فأجابتنى: يا بنى لا زلت صغيراً هل تعتقد أنه من الصواب أن أشتغل بنفسى فى حالة اشتغالى بعبادة الله. وحدث لأبى الخير بن الأقطع أكلة فى قدمه فقرر الأطباء قطعها لكنه لم يسمح بذلك فقال لهم تلامذته: اقطعوها وهو فى الصلاة. لأنه فى ذلك الوقت لا يحس بشئ فعمل الأطباء بمشورتهم فلما أتم أبو الخير صلاته وجد رجله مبتورة.

وحكى عن أبى بكر الصديق: أنه حينما كان يقوم الليل كان يقرأ القرآن همساً وكان عمر رضي الله عنه يقراه جهراً فقال الرسول ﷺ: «يا أبا بكر لم تقرأ مخافتة، قال يسمع من أناجى. وسأل عمر: لماذا تقرأ جهراً فقال: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال الرسول: ينبغى يا أبا بكر أن تعلى من صوتك وينبغى عليك يا عمر أن تخفض من صوتك».

وبعض الصوفية يؤدون الفرائض علنا ويخفون نوافل البر حتى يخلصوا من الرياء. لأنهم يقولون: أن كل من أراد أن يشهد الغير أعمال بره فهو منافق، فإذا قال: أنه إذا كان الغير ينظرون إلى عبادته فإنه غير ملتفت إليهم فهذا أيضاً هو عين النفاق والبعض يظهرون كل أعمالهم الفرضية والنفلية بدعوى أن الرياء باطل له وأن التقوى حق وحيث ذلك فإنه من الخطأ أن يخفى الإنسان الحق لأجل الباطل.

فلا تدع أى فكر برياء يدخل قلبك وأعبد ربك حينما كنت وأينما أردت والشيوخ رضوان الله عليهم لاحظوا روح العبادة وأوقفوا مريديهم على عملها - قال أحدهم لقد سافرت أربعين سنة ولم أترك فى طول هذه المدة الصلاة فى الجماعة وكنت كل جمعة أصليها فى بلد وأحكام الصلاة هى فوق ما يدرك الحصر وهى راجعة إلى مقامات المحبة التى سأبين لك أصولها فيما يأتى.

فصل

فيما يختص بالمحبة والمسائل المتصلة بها

قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(١). وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(٢) . وقال رسول الله ﷺ: «سمعت جبريل يقول عن رب العزة عز وجل من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما ترددت فى شئ كترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه وما تقرب عبدى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً»(٣) وقال أيضاً «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»(٤) .

وقال ﷺ «إذا أحب الله العبد قال لجبرائيل يا جبرائيل إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبرائيل ثم يقول جبرائيل لأهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض فيحبه أهل الأرض وكذلك فى البغض مثل ذلك». فاعلم أن محبة الله للعبد ومحبة العبد لله صحيحتان والكتاب والسنة بهما ناطقان، وكذلك إجماع الأمة على هذه الصفة التى يحب بها عبده ويحبه بها عبيده.

فالمحبة مشتقة من الحب بفتح الحاء وهى البذور التى تسقط فى الصحراء فاسم الحب قد جعل لمثل هذه الحب لأن المحبة هى أصل الحياة

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة.

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده والترمذى والنسائى عن عائشة وعن عبادة.

كما أن الحبة هى أصل النبات فكما أن الحبوب إذا بعثرت فى الأرض اختفت ونزل عليها الماء والشمس والبرد والحر ومع ذلك لا تفسد باختلاف الفصول ولكنها تنمو وتزدهر وتثمر. وكذلك المحبة إذا سكنت القلب لم تتغير بحضور ولا بغيبة ولا بألم ولا محنة ولا راحة ولا لذة ولا بفرقة ولا بجمع كما قال الشاعر:

يا من سقام جفونه	لسقام عاشقه طبيب
حزت المودة فاستوى	عندى حضورك والمغيب

ويقول آخرون: أن المحبة مشتقة من الحب -بكسر الحاء- وهو القدر الملئ بالماء لأن المحبة. عندما تملأ القلب لا يصبح له مكان للتفكر إلا فى المحبوب ذلك أن الله حينما أكرم الخليل بالخلة، وتجرد إلا عن الحديث مع الحق صار العالم حجاباً له، وصار فى هذا الحب عدواً للحجب فأخبرنا حينذاك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

كما قال الشبلى: «سميت المحبة لأنها تمحو من القلب كل ما سوى المحبوب» وهناك آخرون يقولون: إن المحبة مشتقة من الحب وهو ما يوضع عليه قدر الماء لأن المحب يتحمل طواعية كل ما يفرضه عليه المحبوب سواء أكان فيه عزة أم ذلة، آلمه أو سره وسواء أكانت معاملة محبوبه له عادلة أم قاسية فشأنه شأن هذا الحامل وخلقه مثله كما قال الشاعر:

إن شئت جودى أو شئت فامتنعى   كلاهما منك منسوب إلى الكرم

ويرى غيرهم: أن المحبة مشتقة من الحب جمع -حبة وهى سويداء القلب التى تكون فيها المحبة وبذلك يطلق على المحبة اسم المكان الذى تسكنه وهذا شئ متداول فى اللغة العربية. ويرى آخرون أنها مشتقة من حباب الماء

(١) سورة الشعراء آية ٧٧.

وغليانه عند المطر الشديد لأن المحبة هى غليان القلب عند الاشتياق إلى لقاء المحبوب وكما يبقى الجسم ما وجدت الروح فكذلك القلب يبقى ما وجدت المحبة والمحبة تبقى ما شاهد المرء محبوبه واجتمع به. كما قيل فى ذلك:

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة   تمنيت أن ألقاك يا عز خالياً

ويقول البعض كذلك أن الحب اسم يطلق على خالص المحبة لأن العرب يسمون البياض النقى للعين الإنسانية بحبة الإنسان كما يسمون سويداء القلب بحبة القلب وهى مكان المحبة أما حبة العين فهى للرؤيا ولهذا فالقلب والعين متنافسان فى مجال المحبة وقد قال الشاعر:

القلب يحسد عينى لذة النظر   والعين تحسد قلبى لذة الفكر

فصل

[كلمة المحبة]

اعلم: أن كلمة المحبة تستعمل على وجوه عديدة عند العلماء فهى تعنى أولا: تلك الرغبة القلقة نحو موضع الحب، وهى مليئة بالميل والعاطفة وبذلك فهى تشير إلى المخلوقات وعواطفهم المتبادلة ولكن لا يمكن أن تنطبق على الله الذى تعالى عن كل شئ علواً كبيراً - وتعنى ثانياً: إكرام الله وخصوصيته لمن اصطفاهم وقربهم لنيل درجة كمال الولاية وخصهم بأنواع شتى من كراماته الربانية وتعنى ثالثاً الثناء الجميل الذى يمنحه الله تعالى للإنسان على ما قام به من عمل طيب.

يقول بعض المتكلمين: إن محبة الله التى أطلعنا عليها إنما تنتمى لتلك المجموعة من الصفات الإلهية المعهودة مثل وجهه العلى ويده تعالى واستوائه على عرشه وهى صفات لا يمكن للعقل أن يتخيلها ويعتبرها شيئاً مستحيلاً لو لم تأت فى القرآن والسنة على أنها صفات إلهية. ولهذا فهم يؤكدون هذه الصفات ويؤمنون بها ولكن لا يحكمون عليها. إن هؤلاء المتكلمين ينكرون أنه لا

يجوز استخدام كلمه المحبة بالمعانى الثلاثة التى ذكرتها ونسبتها إلى الله.
وسوف أشرح لك الآن حقيقة هذا الأمر فأقول: أن محبة الله تعالى للإنسان هى سابقة الحسنى التى قدرها له ورحمته عليه، والمحبة أحدأسماء إرادته تعالى شأنها فى ذلك شأن الرضى والغضب والرحمة والسخط والرأفة وما يشبه ذلك. وإرادته تعالى صفة أبدية ينفذ بها مشيئته. وباختصار فإن محبة الله للإنسان هى مزيد إكرامه للعبد وإعطائه خير الثواب فى هذه الدنيا وفى الحياة الأخرى وحفظه من العقاب وصونه من المعصية ومنحة الأحوال العالية والمقامات السامية وقطع قلبه من الإلتفات إلى الأغيار وربطه بالعناية الأزلية حتى يتجرد عن الكل وينفرد لطلب رضاه. فإذا اختص الله تعالى إنساناً بهذه الحالة كانت تلك الخصوصية محبة منه سبحانه مبعثها إرادته وهذا مذهب الحارث المحاسبى والجنيد وعدد من مشايخ الصوفية، ويرى فقهاء الفريقين ومتكلمو أهل السنة هذا الرأى. أما بخصوص إثباتهم: أن محبة الله هى الثناء الذى يمنحه الإنسان على عمله فإن ثناء الله هى كلمته غير المخلوقة. أما قولهم: إن محبة الله هى إكرامه تعالى فإن إكرامه صادر عن أفعاله ولذلك فإن هذه الآراء التى يبدو تعارضها هى فى الحقيقة متقاربة فى أساسها.

أما محبة الإنسان لله تعالى، فهى صفة تظهر فى قلب المؤمن التقى على هيئة إجلال وإعظام فيسعى لإرضاء محبوبه ويستبد به القلق والجزع فى محاولته رؤيته تعالى. وهو لا يهدأ نفساً مع أحد إلا معه ويعتاد ذكره ويكره أن يذكر غيره ويكون السكون حراماً عليه والراحة براء منه وبذلك ينقطع عن العادات والاجتماعات ويزهد هوى النفس ويتجه بكله نحو ساحة الحب ويخضع لشريعته ويعرف الله بصفاته الكمالية. ومن المستحيل أن تكون محبة العبد لله من نوع محبة الخلق بعضهم البعض إذ أن الأولى رغبة فى إدراك المحبوب والوصول إليه أما الثانية فهى من خواص الأجسام. إن من يحب الله هو ذلك الذى يستهلك نفسه فى محاوله القرب منه تعالى لا من يبحث عن

الكيفية ذلك لأن الباحث عن الكيفية يقف إلى جانب نفسه. أما الباذل لنفسه. فسيقف إلى جانب محبوبه. وأصدق المحبين هم أولئك الذين يريدون أن يموتوا بهذه الصورة ويغلبهم القهر ذلك لأن المخلوق الحادث لا يمكنه أن يقترب من الله الأزلى إلا عن طريق قهر الله تعالى له فمن عرف حقيقة المحبة لا يشعر بالمصاعب وتتبدد عنه الشكوك فالمحبة إذن على نوعين:

محبة المثل للمثل وهى رغبة تبعثها النفس الدنية والتيتطلب ذات المحبوب عن طريق النكاح.

ومحبة ما ليس بالمثل والذى يحاول أن يتحد بصفة من صفات محبوبه كأن يسمع بلا كلام ويرى بلا عين.

ومن يحبون الله على نوعين:

من ينظرون إلى نعمة الله وكرمه نحوهم وقد جعلهم ذلك يحبون المنعم الكريم.

ومن غلبوا بالمحبة حتى أنهم يعتبرون عطاياهم حجاباً يحجبهم عن الله وهم بنظرهم إلى المنعم يدركون نعماءه. وهم أعلى قدراً من سابقيهم.

والله أعلم.

فصل
فى خلاصة المحبة

وهى معروفة بين جميع أصناف الخلق، ومشهورة على جميع الألسنة ومتداولة بجميع اللغات، ولا يستطيع صنف من الناس أن يخفيها عن نفسه ومن شيوخ هذه الطائفة سمنون المحب وله مذهب خاص فى المحبة فإنه يقول: إن المحبة هى أساس الطريق إلى الله تعالى وأصله وأن كل الأحوال والمقامات هذ درجات للمحبة وأن كل الدرجات والمقامات التى يكون فيها الطالب قابلة للهلاك إلا مقام المحبة فلا يصله شئ من ذلك .

وقد وافقه على ذلك كل المشايخ فى هذه المسألة ولكن جيث أن اصطلاح المحبة متداول ومشهور وهم يريدون أن يبقى مذهب محبة الله خافياً فبدلاً من أن يسموه: المحبة. قالوا عنه: إنه الصفوة والعاشق سموه: الصوفى أو استملحو لفظة الفقر لتدل على زهد المحب فى إرادة نفسه بإثبات إرادة محبوبه. وسموا المحب فقير وقد أوضحت مجمل الصفا والفقر فى أول هذا الكتاب. ويقول ذلك الشيخ العظيم فى الحب «الحب عند الزهاد أظهر من الاجتهاد وعند التائبين أوجد من حنين وأنين وعند الأتراك أشهى من الفتراك»[1] .

وسبى الحب عند الهنود أشهر من سبى محمود، وقصة الحب والحبيب عند الروم أشهر من الصليب وفى العرب فى كل حى من طرب وويل وحزن» والمراد من كل ذلك إنه لا جنس من البشر لم يكن له سقوط فى أسر الغيب، ولم يذق فرح الحب فى قلبه. أو لم يسكر قلبه بشرابه، أو لم يقهر بخمره ذلك أن تركيب القلب من الانزعاج والاضطراب، وبحر عقد المحبة فيه كالسراب،

---

(١) نوع من الأكل.

فالمحبة للقلب كالطعام والشراب، وكل قلب خال منها فهو خراب، وليس للتكلف طريق لدفعه وجلبه، وليس للنفس معبر لذوق ما يمر فى القلب من لطائف منه. قال عمر بن عثمان المكى فى كتاب المحبة إن الله تعالى خلق القلوب قبل الأجسام بسبعة آلاف سنة وحفظها فى مقام القرب ثم خلق الأرواح قبل القلوب بسبعة آلاف سنة وحفظها فى روضة الأنس وخلق الأسرار قبل الأرواح بسبعة آلاف سنة وحفظها فى درجة الوصل وفى كل يوم كاشف القلوب بجمالاته الربانية ثلاثمائة وستين مرة وأكرمهم بثلاثمائة وستين نظرة ثم وفق الأرواح لسماع كلمة المحبة وأكرم النفوس بثلاثمائة وستين إكراماً إنسياً حتى أنهم شاهدوا جميع المخلوقات فلم يروا شيئاً أكرم منهم فملئوا زهوا وإعجاباً فلذلك عرضهم للمحنة فحبس السر فى القلب والقلب فى الجسد ثم مزج العقل معهم وأرسل رسلاً وجعل أحكاماً فلذلك بدأ كل منهم للبحث عن مقامه الأصلى فأمرهم الله تعالى بالصلاة فإنقاد الجسم للصلاة وبلغت النفس المحبة ووصلت الروح إلى التقرب من الله تعالى ووجد القلب السكون فى الاتحاد معه هذا والتعبير عن المحبة ليس بمحبة لأن المحبة حال والأحوال ليست بمقال.

وإذا أراد العالم كله أن يدركوا المحبة فإنهم يعجزون عن ذلك وإذا أرادوا أن ينفوها فإنهم لا يقدرون وذلك لأن المحبة هبة ربانية وليست بشئ مكتسب - وهى إلهية والإنسان لاه واللاهى لا يدرك الإلهى.

فصل
فى العشق

قد اختلفت المشايخ فى هذا الموضوع فبعضهم يقولون: بأن العشق فى جانب الله جائز، لكنه لا يصدر من الله لأن مثل هذه المحبة هى صفة الإنسان الممنوع من محبوبه، والإنسان ممنوع عن الله تعالى لكن الله سبحانه وتعالى ليس ممنوعا عن العبد.

لذلك فالإنسان له أن يعشق الله لكن هذا الاصطلاح لا ينطبق عليه سبحانه والبعض يأخذون رأى من قال: إن الله سبحانه وتعالى لا يكون غاية لعشق الإنسان لأن مثل هذه المحبة إن صحت تشمل القول بالتحديد. والله سبحانه وتعالى ليس بمحدود ومعاصرونا يثبتون أن العشق فى الدنيا والآخرة لا يتحقق إلا بالإدراك وحيث أن ذات الله سبحانه وتعالى لا تدرك. فاصطلاح العشق لا يصح استعماله بالنسبة لمحبة العبد لله ولو أن لفظة المحبة والصفوة صحيحتان فى هذا المعنى وهم يقولون زيادة على ماذكر أن المحبة تحصل بالسماع لكن العشق لا يمكن حصوله بدون مشاهدة لذلك فإنه لا ينطبق على الذات الأحدية التى لا ترى فى هذه الدنيا فذات الله تعالى لا يمكن إدراكها ولا الوصول إليها حتى يمكن للإنسان أن يشعر بعشقها.

لكن الإنسان له أن يشعر بالمحبة لله لأن الله سبحانه وتعالى كريم رؤوف رحيم بصفاته وأفعاله لأحبابه ولما كان يعقوب مملوءا بحب يوسف عندما كان بعيداً عنه فإن بصره ارتد له بعد ما شم قميص يوسف أما زليخا التى كانت على وشك الموت من عشقها ليوسف فإن عينها لم تفتح إلا بعد ما اتصلت به وقالوا أيضاً: أن ليس للعشق ضد كما أن الله ليس له ضد حتى يجوز عليه ذلك.

فصل

[إشارات أهل الذوق]

وهنا أبين لك بعض إشارات أهل الذوق فى حقيقة المحبة ذلك أنه لا يمكن شرحها برمتها قال أبو القاسم القشيرى: المحبة هى محو المحب بصفاته وإثبات صفات المحبوب بذاته يعنى أنه ما دام المحبوب باقياً فالمحب باق وغيرة المحبة هى فى أن يجعل المحب بقاء محبوبه لازماً بمحو نفسه وأنه لا يمكنه محو صفاته إلا بإثبات حقيقة المحبوب والعاشق لا يمكنه البقاء بصفاته لأنه فى هذه الحالة لا يرغب فى جمال محبوبه ولكنه متى علم أن حياته متوقفة على جمال محبوبه فإنه من اللازم له البحث عن فناء صفاته التى تحجبه عن محبوبه وعلى ذلك فيكون فى حبه لحبيبه عدواً لنفسه.

ومن المشهور أن آخر كلام للحسين بن منصور الحلاج وهو على الخشبة هذه الألفاظ «حسب الواجد إفراد الواحد له» يعنى بذلك أن يبعد وجوده فى طريق المحبة وأن تدمر مملكة النفس الأمارة بالسوء قال أبو يزيد البسطامى: المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. هذا هو الطريق الذى يعامل به الله عباده المخلصين لأنه جعل ما أعطاهم فى هذه الدنيا قليلاً ولكنه سمى حمدهم كثيراً وذلك فى مدلول الآية: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[1] .

وفى هذا العمر القصير والمتاع القليل والمكان الضيق يرى ذكرهم كثيراً فيقول: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾[2] يعرف جميع خلقه أن الحبيب الحقيقى هو الله تعالى بالذات لأنه ليس بقليل ما يكرم الله به العبد وأنه لمن القليل ما يورده الإنسان لربه. قال سهل بن عبد الله التسترى: «المحبة معانقة الطاعات ومباينة المخالفات» لأن الإنسان إنما يسهل عليه أداء أوامر محبوبه على قدر محبته فى قلبه وهذا مناف لما يقوله الملاحدة أن الإنسان ربما يصل إلى درجة من درجات المحبة لا يحتاج بعدها إلى عمل الطاعة وهذا مذهب

---

(١) سورة النساء آية ٧٧.

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٥.

باطل محض ومن المحال أن يرى إنسان عنده ذرة من العقل أن يتخلص من واجبات الشرع لأن شريعة محمد ﷺ لن تنسخ أبداً وإذا سمح لأى إنسان بأنه يتخلص منها فلما لا يتخلص منها الجميع هذا وحال المغلوبين والمعتوهين خلاف ما ذكرنا، ومن المقبول عقلاً أن الله سبحانه وتعالى إذا أكرم العبد بمحبته يجعله فى مرتبة لا يتألم فيها من أداء الفرائض الدينية ولا يعتوره أدنى تعب ولا نصب لأنه كما أحب العبد ربه الذى أصدر هذه الأحكام قلت المتاعب فى القيام بها ولما عكف رسول الله ﷺ نفسه على عبادة الله ليلاً ونهاراً حتى ورمت قدماه قال الله تعالى له: ﴿طه، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾(١) .

وانه لمن الممكن أيضاً أن العبد ربما يرى أثناء الطاعة قيامه بأوامر الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ «أنه ليغان على قلبى فاستغفر الله سبعين مرة فى اليوم» يعنى بذلك أنه يسأل الله المغفرة فى أعماله لأنه لم يعتبر نفسه ولا أعماله حتى يفرح بطاعته لكنه كان ناظراً إلى إجلال أمر الله تعالى وكان يرى أن أفعاله لا تستوجب القبول.

قال سمنون المحب: «ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة» لأن رسول الله ﷺ قال: «المرء مع من أحب» وحيث أن الأمر كذلك فإنهم مع الله تعالى فى كلتا الدارين ومن كان مع الله لا يصدر عنه خطأ فنعيم هذه الدنيا هو معية الله لهم وفى الآخرة هو معيتهم لله. قال يحيى بن معاذ الرازى: «حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر، لأن كلا الرحمة والقسوة فى المحبة أسباب،، وصلة الشئ لا أثر لها إذا وجد الشئ نفسه، فالمحب يفرح بالألم الذى يعذبه به محبوبه ومع وجود المحبة فإنه يعتبر الرحمة والقسوة كمعنى واحد.

يروى عن الشبلى أنه حال جذبته حبس فى المارستان فأتاه بعض أشخاص ليزوروه فسألهم من أنتم قالوا: أحبائك فرماهم بالحجارة ففروا منه ثم قال لهم: لو كنتم أحبائى لما فررتم من بلائى. وفى هذا كلام كثير ولكنى أكتفى بهذا القدر.

---

(١) سورة طه آية ١-٢.

الباب العشرون
كشف الحجاب السادس عن الزكاة

قال تعالي: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(١) وهناك آيات وأحاديث كثيرة في هذا الشأن والزكاة فرض من فرائض الإيمان وإنما تجب هند كمال النصاب الذي هو مائتا درهم فمن امتلك هذا المبلغ لزمه أن يدفع خمسة دراهم أو إذا امتلك عشرين ديناراً لزمه أن يدفع نصف دينار بعد مرور سنة علي امتلاكه أو إذا امتلك خمساً من الإبل لزمه أن يدفع شاة وهكذا والزكاة لازمة للجاه أيضاً.

لأن ذلك من تمام النعمة قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالي فرض عليكم الزكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة مالكم» وقال أيضاً ﷺ: «لكل شئ زكاة وزكاة الدار بيت الضيافة» والزكاة في الحقيقة هي الشكر علي وصول النعمة. والشكر يلزم أن يكون من جنس النعم وعلي ذلك فالصحة هي نعمة من نعم الله تعالي وعلي كل عضو من أعضاء الإنسان تجب زكاة مفروضة لذلك فأصحاء الأبدان يلزمهم أن يشغلوا أعضاءهم بعبادة الله ولا يعرضوها للهو واللعب حتي يؤدوا زكاة عافيتهم كاملة.

وزد علي ذلك أن لكل نعمة باطنة زكاة وهي لا يمكن حصرها لكثرتها ومنها الشكر ظاهراً وباطناً علي هذه النعمة بقدر قيمتها. فإذا عرف الإنسان أن الفضل الذي أكرمه الله تعالي به ليس بمحدود لزمه أن يشكره بلا حد بواسطة الزكاة.

---

(١) سورة البقرة آية ٤٣.

والصوفية لا يحدون إعطاء الزكاة علي متاع الدنيا لأنهم يبغضون الحرص وأن الإنسان يكون حريصاً جداً إذا احتفظ بمائتي درهم في السنة ليدفع خمسة دراهم للزكاة وحيث أن صفة الكرام إنفاق ثروتهم فيما أمر الله لأن السخاء من شمائلهم فيكف تلزمهم الزكاة .

وجدت في أحد الكتب أن أحد علماء الظاهر أراد أن يمتحن الشبلي فسأله ما هو نصاب الزكاة؟ فقال متي وجد الحرص والمال فادفع خمس دراهم عن كل مائتي درهم، ونصف دينار عن كل عشرين ديناراً هذا بالنظر لمذهبكم.

أما مذهبي فإنه لا يلزم الإنسان أن يملك أي شئ وبذلك يخلص من شغل أداء الزكاة، فسأله العالم ما هي حجتك في هذه المسألة، فقال له: حجتي فيها أبو بكر الصديق الذي دفع كل ماله ولما سأله رسول الله ﷺ ما خلفت لعيالك؟ فقال: الله ورسوله، ويروي عن علي كرم الله وجهه

فما وجبت علي زكاة مال   وهل تجب الزكاة علي جواد

إن فمال الجياد مبذول ودمهم هدر لا يبخلون بالمال ولا يجبنون لبذل الدم. ولكنه من الخطأ المحض لأي فرد أن يجهل وأن يقول إنه حيث لا يملك شيئاً فإنه لا يلزمه معرفة علم الزكاة، لأن معرفة العلم فرض واستقلال الإنسان عن المعرفة شرك وأنه من فتن هذا العصر أن بعض من يدعون التقوي يتركون المعرفة ويفضلون عليها الجهل.

قال المؤلف: كنت ذات مرة أعلم بعض طلاب الصوفية فوصلنا إلي باب صدقة الإبل وعندما كنت أبين شروط بنت اللبون وبنت المخاض والحقه سأل أحد السامعين فقام وقال ليس عندي إبل فما هي فائدة المعرفة بها؟ فقلت له يا هذا المعرفة بأخذ الزكاة ليست بأقل من المعرفة بإعطائها، فإذا أعطاك بعضهم بنت لبون وقبلتها لزمك أن تعرف هذا الشرط ولو كان الإنسان لا يملك شيئاً ولا يحب أن يملك شيئاً فإنه لا يسقط عنه من واجب المعرفة فنعوذ بالله من الجهل.

فصل

[مشايخ الصوفية]

قبل الزكاة بعض مشايخ الصوفية والبعض لم يرضوها فمن كان فقرهم اختياراً فهم أهل الطبقة الثانية وهم يقولون: إننا لا نجمع حطام الدنيا ولذلك لا نحتاج لدفع الزكاة ولا نقبل الزكاة من أهل الدنيا مخافة أن تكون يدهم العليا وأيدنيا السفلي لكن من كانوا في فقرهم مضطرين فهم يقبلون الزكاة لا لحاجة أنفسهم ولكن لأجل أن يخلصوا أخاهم المسلم من الفرض ففي هذه الحالة يكون أخذ الزكاة هو صاحب اليد العليا لا معطيها ولو كان الأمر بخلاف ذلك لكان قوله تعالي ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾(١).

الآية لا معني لها ويكون معطي الزكاة أعلي من الآخذ وهي عقيدة باطلة فالأمر بخلاف ذلك وصاحب اليد العليا هو من أخذ من أخيه المسلم حتي ينجيه من مسئولية صعبة، والفقراء ليسوا من أهل الدنيا ولكنهم من أهل العقبي فإذا عجز الفقير أن يخلص صاحب الدنيا من مسئوليته ليسأل صاحب الدنيا وليعاقب يوم القيامة علي إهماله في أداء هذا الفرض فالله سبحانه وتعالي يبتلي الفقير ببعض الحاجة حتي يتمكن أهل الدنيا من أداء ما هو مفروض عليهم واليد العليا هي يد الفقير الذي يأخذ الزكاة حسبما يأمره به الشرع لأنه من اللازم عليه أن يأخذ حق الله فإذا كانت يد الآخذ هي السفلي كما يقول أهل الحشوية(٢) لكانت يد رسول الله ﷺ التي طالما أخذت حق الله من الزكاة ودفعتها للفقراء المعوذين ولمستحقيها أ»أقل من أيدي الذين يعطون الزكاة له وهذا رأي خطأ والمتمسكون له لا يرون أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يأخذون الزكاة اتباعاً للأمر الإلهي والأئمة ساروا علي الطريقة التي سار عليها الرسل.

لأنهم طالما أخذوا الأموال المخصصة لبيت المال فعلي ذلك يكون من ادعي أن يد الآخذ هي السفلي مخطئاً ظنه مسيئاً في آن واحد.

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٤.

(٢) الحشوية الذين يحشون المرويات.

فصل
في الجود والسخاء

قال ﷺ: «السخي قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله قريب من النار بعيد من الجنة والكافر السخي أحب إلي الله من عابد بخيل»(١).

والجود والسخاء عند العلماء علي وجهين: إذا نسبوا الجود والسخاء للإنسان اعتبروه عارية لكنه سبحانه وتعالي مع أنه جواد فإنه لم يسم سخياً لأنه لم يسم نفسه بهذا الإسم ولم ترد به الأحاديث وجماعة المسلمين متفقون علي أنه لا يجوز أن نطلق علي الله اسما لم يأت به القرآن الكريم ولا السنة فقد يسمي عالماً ولكن لا يسمي عاقلاً وفقيهاً ولو أن هذه الاصطلاحات الثلاثة تحمل معني واحداً:

فالله سبحانه وتعالي يسمي جواداً ما دام هذا الاسم مصحوباً برضائه ولكن لا يسمي سخياً ما دام هذا الاسم ينقصه رضاه والناس جعلوا فرقاً واضحاً بين الجود والسخاء قالوا: إن السخي يمن في نواله وأعماله يتصل بها الغرض والسبب وهذه أول رتبة للجود لأن الرجل الجواد لا يمن وكل أعماله خالية من الغرض والسبب وهذه أول رتبة للجود لأن الرجل الجواد لا يمن وكل أعماله خالية من الغرض والأسباب والعلل وقد ظهرت هاتان الصفتان علي يد رسولين كريمين أعني بهما سيدنا إبراهيم خليل الله وسيدنا محمد حبيب الله.

فقد روي في الأحاديث الشريفة: أن سيدنا إبراهيم كان معتاداً الا يأكل إلا إذا أتاه ضيف فأتاه ضيف بعد ثلاثة أيام وكان الضيف من عبدة النار فلما عرف سيدنا إبراهيم ﷺ من هو رفض أن يؤاكله فأنبه الله تعالي علي ذلك قائلاً «الا ترضي أن تعطي قطعة خبز لرجل رزقته سبعين سنة».

---

(١) رواه الترمذي عن أبى هريرة والبيهقي عن جابر.

أما سيدنا محمد ﷺ فإنه لما زاره ابن حاتم بسط له رداءه وقال «إذا آتاكم كريم قوم فاكرموه»[1] فمقام سيدنا إبراهيم كان سخاء ومقام رسول الله ﷺ كان جوداً وأحسن حكم في هذه المسألة هو ما ظهر في النهاية وهو أن الجود هو بإتباع أول خاطر وأنه من علامة البخل أن يتغلب الخاطر الثاني علي الأول لأن الخاطر الأول بلا جدال هو من الله تعالى:

قرأت أنه كان في نيسابور تاجر يحضر مجلس الشيخ أبي سعيد فسأل ذات يوم أحد الدراويش الشيخ أن يعطيه شيئاً ما وكان مع التاجر ديناراً وقطعةً من النقود الصغيرة فقال في نفسه أولا أعطيه الدينار ولكنه فكر مرة ثانية فأعطاه القطعة الصغيرة من النقود فلما انتهي الشيخ من المذاكرة سأله التاجر أيصح للإنسان إن حجتك يحاجج ربه فقال الشيخ يا هذا إنك قد حاججته حيث أمرك أن تعطي الدينار ولكنك أعطيت النقود الصغيرة. وقرأت أيضاً أن الشيخ أبا عبد الله الروذباري أتي إلي بيت أحد تلاميذه وأمر أن يؤخذ كل متاع الدار ليباع في السوق فلما رجع التلميذ فرح فرحاً شديداً وذلك لأن الشيخ عمل ذلك عن حرية تامة ولم يقل شيئاً فمزقت زوجته لباسها ورمت به إلي الأرض وقالت هذا أيضاً من متاع البيت.

فقال لها زوجها إنك تفعلين أمراً غير لازم وإنك تبدين إرادتك فقالت له يا زوجي إن ما فعله الشيخ هو نتيجة جوده ويلزمنا نحن أيضاً أن نتكلف عمل الجود فقال لها: لكن إذا صرحنا للشيخ أن يكون جواداً فذلك جود حقيقي فينا أما إذا اعتبرنا الجود بالنسبة للصفات الآدمية فإنه ليس له أصل ولا جود. فالطالب يلزمه دائماً أن يضحي متاعه ونفسه في طاعة أمر الله.

وفي ذلك قال سهل بن عبد الله التستري: «إن الصوفي دمه هدر وملكه مباح» سمعت الحكاية الآتية من الشيخ أبي مسلم الفارسي قال: «سافرت ذات

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو والبرر وابن خزيمة.

مرة أنا وبعض الناس إلي الحجاز وبالقرب من حلوان[1] هاجمنا الأكراد الذين أخذوا ما علينا من المرقعات فلم نقاوم وجاريناهم فذعر أحدنا من ذلك فسل أحد الأكراد حسامه وذبحه ولم يعبأ برجائنا في بقائه فعندما سألناه لماذا قتله قال: لأنه ليس صوفياً وإنه يخون صحبة الأولياء ومثل هذا من الأولي أن يقتل فقلنا له: كيف ذاك؟ فقال أن أول خطوة في الصوفية هي الجود وصاحبكم هذا الذي كان متمسكاً بمرقعته حتي تشاجر مع أحبابه كيف يكون صوفياً ؟.

ويقال: إن عبد الله بن جعفر مر بمراعي قبيلة فوجد عبداً حبشياً يرعي الغنم فجاء كلب، وأقعى أمام الراعي فأخرج قرصاً من الشعير وألقاه إليه ثم أخرج الثاني ثم الثالث، فتقدم إليه عبد الله وقال: يا غلام كم يبلغ رزقك في اليوم؟ فقال: ما أعطيت: قال: إذن فلماذا أعطيته كله للكلب قال: ذلك أنه جاء من مكان بعيد مؤملا وليس هذا بمكان كلاب فأحببت الا أضيع تعبه فاستحسن عبد الله ذلك واشتري الغلام والغنم والمرعي وأعتق الغلام وقال وهبتك هذه الغنم والمرعي فدعا له، وتصدق بالغنم وجعل المرعي للمسلمين ومضي في طريقه.

وأتي رجل إلي منزل الحسن بن علي وقال له: يا ابن الرسول: إني مدين في أربعمائة درهم فأمر الحسن بإعطائه أربعمائة دينار ودخل بيته باكياً فسألوه ماذا يبكيك؟ فأجابهم: لقد أهملت أمر هذا حتي اضطررته لذلة السؤال.

وكان أبو سهل الصعلوكي لا يعطي أي درويش صدقة في يده: إنما كان يضع ما يريد التصدق به علي الأرض وكان يقول في ذلك: إن متاع الدنيا ليس ذا قيمة لأن يوضع في يد المسلم حتي تكون يدي هي العليا ويده السفلي.

---

(١) حلوان: أسم بلد أو مكان.

وروي عن النبي ﷺ أن نجـاشي الحـبـشـة أهداه منين(١) من المسك فمـزجهما رفعة واحدة بالماء، وتعطر به وروي عن أنس أن رجلاً أتي النبي ﷺ فمنحه وادياً بين جبلين مليئاً بالغنم، وحينما عاد إلي قومه قال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشي الفقر.

ويروي عن أنس أيضاً: أنه جئ للرسول بثمانين ألف درهم فنثرها علي بساط ولم يقم من مكانه حتي أنفقها جميعاً. ويروي عن علي أنه قال: رأيته في ذلك الحال وقد ربط حجراً علي بطنه من الجوع.

ويحكي أن درويشاً من المتأخرين أرسل إليه السلطان أربعمائة درهم من الذهب الصافي فذهب إلي حمام وأعطي هذا المبلغ لصاحبه وتركه ومضي ولقد وضحت هذا الموضوع قبلا في بيان الإيثار في مذهب النورية.

---

(١) يبدو انه اسم وعاء.

الباب الحادي والعشرون

كشف الحجاب السابع في الصوم

قال الله تعالي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[١] وقال رسول الله ﷺ: «إن جبريل أخبره أن رب العزة عز وجل قال: «الصوم لي وأنا أجزي به» وذلك لأن الصوم سر لا اتصال له بأي شئ ظاهر. سر لا يشترك فيه إلا الله فلذلك كان أجره غير محدود وقد قيل: إن الناس يدخلون الجنة بفضل الله ودرجاتهم فيها علي قدر عبادرتهم وأن خلودهم فيها هو جزاء الصوم لأن الله تعالي قال:﴿وأنا أجزي به﴾.

قال الجنيد: «الصوم نصف الطريقة». هذاوقد رأيت بعض المشايخ يصومون بدون انقطاع والبعض يصومون رمضان فأهل الطبقة الأولي طلبوا الجزاء وأهل الطبقة الثانية فنوا عن إرادتهم وهواهم، وقد رأيت أيضا غير هؤلاء قوم يصومون التفاتاً عن الغير ويأكلون إذا وضع الطعام أمامهم وهذا أكبر موافقة للسنة. يروي أن رسول الله ﷺ اتي إلي عائشة أو حفصة فقالت له: «إنا قد خبأنا لك حيساً فقال: أما إني كنت أريد الصوم ولكن قربيه فأصوم صوماً مكانه»[٢].

وقد رأيت بعضهم يصوم الأيام البيض من كل شهر وهي من الثالث عشر إلي الخامس عشر من كل شهر ويصومون العشر الأواخر من شهر شعبان وأيضاً يصومون رجب وشعبان ورمضان وشاهدت بعضهم يصومون صيام داود الذي أشار إليه الرسول بقوله «خير الصيام» وهو أن يصوموا يوما ويفطروا الآخر. حضرت يوماً مجلس الشيخ أحمد البخاري وكان أمامه طبق من الحلوي يأكل منه فأشار إلي بذلك فقلت له بدون ترو حالة اندفاع الشباب:

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٣.

(٢) الحديث جاء فى قوت القلوب لأبى طالب المكى برواية: «أهدى إلينا».

إني صائم فقال لي لماذا صمت؟ فقلت له: اقتداء بسيدي فلان فقال لي حيث أنك تريد أن تتخلص من تقليد، فلا تقلدني لأني بشر أيضاً. والصوم هو في الحقيقة الزهد وهو يشمل كل طريقة الصوفية وأقل درجة الصيام هي الجوع الذي هو الامتناع عن طعام الله في الأرض كما أنه ممدوح في نظر الشرع والعقل وصيام شهر رمضان فرض واجب علي كل مسلم عاقل بالغ ويبتدئ الصيام من ظهور هلال أول رمضان وينتهي بظهور هلال شوال كل يوم تلزمه نية صادقة وفروض ثابتة والزهد يشمل فرائض شتي منها حفظ البطن من الأكل والشراب وغيرهما من المفطرات وحفظ العين عن النظر بشهوة والأذن عن سماع الغيبة والنميمة واللسان عن كلام الغفلة والدنايا والجسم عن اتباع ملاذ الدنيا ومعصية الله.

فمن صام بهذا المعني كان صائماً حقاً لأن رسول الله ﷺ قال لأحد الصحابة «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك» وقال ﷺ «رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»[1] رأيت مرة رسول الله ﷺ: في المنام فقلت له يا رسول الله: أوصني فقال «احبس جوارحك» وحبس الجوارح هو كمال مجاهدة النفس والجوارح الخمس:ة النظر والسمع والشم والذوق واللمس وهي أبواب المعلومات وأربعة منها يختص كل واحد منها بعضو مخصوص إلا اللمس فإنه منتشر في سائر الجسد وهو معرفة الليونة والخشونة والبرودة والحرارة فالعين محل البصر إلي رؤية الكون واللون والأذن محل السمع أي سماع الصوت والخبر والفم محل الذوق والأنف محل الشم. وكل المعلومات تدخل علي الحس المشترك في هذه الخمسة أبواب إلا الإلهام الرباني والعلوم العقلية.

ولكل جارحة صفاء وكدورة لأنها كما هي باب المعرفة والعقل والروح فهي كذلك مفتوحة للخيال والهوي لأنها أعضاء قابلة للتقوي وللمعصية

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة.

والفــلاح والطلاح لذلك كــان من اللازم علي كل من يصــوم أن يحـبس كل جوارحه حتي يرجع من المعصية إلي الطاعة لأن الامتناع عن الأكل والشرب ليس إلا لعب الأطفال وعمل النسوة العجائز اللاتي يهربن بالصوم من المأكل والمشرب. كما قال الله تعالي: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾(١) وقال أيضاً جل جلاله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾(٢) .

أي إننا جعلنا كل ما هو مطبوع في حاجة إلي الطعام، ولم نخلق الناس عبثاً . إذن فيجب الإمساك عن اللهو والحرام لا عن أكل الحلال. وإني لأعجب ممن يدعون صيام النفل ويعجزون عن أداء الفريضة فالامتناع عن المعاصي فرض واجب وأما كثرة الصيام فهي سنة فنعوذ بالله من قسوة القلب، ومن حفظه الله تعالي من المعصية كان في كل أحواله صائماً . يروي عن أبي طلحة المالكي أن سهل بن عبد الله التستري كان صائماً يوم ولادته ويوم وفاته لأنه ولد في الصباح ولم يذق ثدي أمه إلا بعد صلاة المغرب(٣) .

وفي يوم وفاته كان صائماً . أما مواصلة الصيام فقد منعها رسول الله ﷺ لأنه لما واصل صيامه اتبعه في ذلك أصحابه فنهاهم عن ذلك قائلاً: «لا تواصلوا لست كأحدكم إنى أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني»(٤) .

وأهل المجاهدة يقولون إن هذا النهي عن أعمال الرخص وليس حكماً علي حرمته والبعض يعتبرون من عمل ذلك مخالفاً للسنة والحكم في هذا الأمر أن المواصلة مستحيلة وذلك لأن النهار حينما يولي يقطع الصيام وما دام الصيام لا يستمر ليلاً فلا مواصلة. يروي أن سهل ابن عبد الله التستري كان يأكل مرة في كل خمسة عشر يوماً وكان إذا أتي شهر رمضان لا يأكل فيه إلا

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨.

(٢) سورة المؤمنون: آية ١١٥.

(٣) يبدو أن هذه مبالغة، وإصدار حكم على مولود لم يبلغ الحلم ليس من الشرع.

(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة.

في العيد وكان يصلي أربعمائة ركعة في الليل وهذا فوق طاقة البشر ولا يمكن أن يقوم به إنسان إلا بمعونة الله التي هي نفسها تكون غذاء له فهناك غذاء في الدنيا وغذاء من المولي.

ومن المشهور أن الشيخ أبا نصر السراج صاحب اللمع الملقب بطاووس الفقراء أتي إلي بغداد في شهر رمضان وأعطي خلوة في جامع الشونيزية مع إذنه بتعليم الفقراء مدة الصوم فقرأ القرآن خمس مرات في طول التراويح في شهر رمضان واعتاد الخادم أن يأتيه برغيف من الخبز كل يوم فلما سافر وكان ذلك يوم العيد وجد الخادم الثلاثين رغيفاً لم يمسها روي عن علي بن بكار أن حفصا المصيصي لم يأكل شيئاً في رمضان إلا في منتصفه وأخبرنا أن إبراهيم بن أدهم صام من أول رمضان إلى آخره وكان رمضان في شهر تموز (يوليو).

ومع شدة الحر فإنه كان يشتغل في الحصاد طول اليوم ويعطي أجرته للفقراء ويصلي من المساء إلي الصباح فراقبوه فوجدوا أنه لم يأكل ولم ينم يقال إن الشيخ أبو عبد الله بن خفيف صام في عمره أربعين فترة كل فترة أربعين يوماً بلا انقطاع وقد قابلت رجلاً مسنا اعتاد أن يصوم كل سنة فترتين طول الفترة أربعين يوماً في الصحراء وكنت حاضراً وفاة الشيخ العالم أبي محمد الباثغزي فرأيته ولم يذق طعاماً مدة ثمانين يوماً ولم يترك صلاة واحدة في جماعة وكان في مرو رجلان من أئمة المشايخ أحدهما كان يسمي مسعوداً والآخر كان يسمي الشيخ أبو علي سياه فأرسل مسعود جواباً إلي أبي علي يقول فيه إلي متي تدعي هذه الدعاوي الباطلة فهيا بنا نصوم أربعين يوماً فأجابة أبو علي أن دعنا نأكل ثلاث مرات في اليوم ومع كل ذلك لا نتوضأ إلا مرة واحدة في الأربعين يوماً.

ومشاكل هذا الموضوع لم توضح بعد فأهل الجهالة يعتقدون أن مواصلة الصوم ممكنة أما الأطباء فقد اتفقوا علي أن هذا الأمر مستحيل لكني أوضح

هذا الأمر تماماً فأقول: إن مواصلة الصوم بدون خروج عن دائرة الشرع الشريف هو كرامة والكرامات وضع خاص وليس بعام إذا لو كانت الكرامات تتسب للكل كان الإيمان جبراً وكان العارفون لا يجازون على المعرفة والرسول ﷺ قد عمل معجزات كثيرة وكان من ضمنها مواصلة الصيام ولكنه نهي الأولياء أهل الكرامة عن عمل ذلك لأن الكرامة يلزمها الخفية أما المعجزة فيلزمها الظهور وهذا فرق بين المعجزات التي تعملها الأنبياء والكرامات التي تعملها الأولياء وهي بحمد الله كافية لمن هداهم الله.

وصيام الأربعين للأولياء مأخوذ من صوم موسي عليه السلام حيث أن الأولياء إذا أرادوا أن يسمعوا كلمة الله بقلوبهم فإنهم يصومون أربعين يوماً فبعد أن تمر عليهم ثلاثون يوماً يستاكون ويتممون العشرة الباقية فيكلمهم الله في قلوبهم لأنه كل ما تمتع به الأنبياء علناً يتمتع به الأولياء سراً وحيث أن سماع كلمة الله تعالي لا توافقها المادة ولا بقاء الحواس الطبيعية لذلك لزم أن تحرم الطبائع الأربعة من الشراب والغذاء أربعين يوماً حتي يتم إذلالها وحتي يتسلط صفاء المحبة ولطاقة الروح علي الإنسان.

فصل
في الجوع وما يتعلق به

قال الله تعالي: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1] وقال ﷺ: «بطن جائع أحب إلي الله من سبعين عابد غافل»، فاعلم أن للجوع شرفاً عظيماً، وهو ممدوح عند الأمم والملل، فهو في الظاهر يشحذ الذهن، ويهذب القريحة، ويقوي الجسد، فكل من ليس عنده شره زائد يمكن أن يوطن نفسه علي الرياضة لأن الجوع للنفس خضوع وللقلب خشوع وقال رسول الله ﷺ «أجيعوا بطونكم وأظمئوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم تري الله عياناً في الدنيا».

ومع أن الجوع هو بلاء الجسد إلا أنه يضئ القلب ويصفي الروح ويقود النفس إلي حضرة الله وحين يحدث ذلك فلا قيمة لتلف الجسد وليس للشبع في ذاته خطر، ولو أن له خطراً لما أشبع الدواب لأن الشبع هو من أعمال الدواب، فالجوع هو عمارة الباطن والشبع عمارة المبطون، وفرق بين من أفني عمره في عمارة باطنه حتي صار فرداً مع الله وبين من أمضى عمره في عمران بطنه وخدمة هواه. «كان المتقدمون يأكلون ليعيشوا وأنتم تعيشون لتأكلوا» وفرق بين هذا وذاك.

« فالجوع طعام الصديقين ومسلك المريدين» وآدم عليه السلام هبط من الجنة لأكله لقمة من الطعام وبعد من جوار الله تعالي أما من كان جوعه اضطراراً فليس بجائع حقيقي إنه من أحب أن يأكل بعد أن قرر الله تعالي ما يخالف هواه هو في الحقيقة قد أكل وفضل الجوع يرجع إلي من يمتنع عن الأكل ويقيد شيطانه بالجوع لا إلي المحروم منه. قال الكتاني: «من حكم المريد:

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٥.

أن يكون فيه ثلاثة أشياء نومه غلبة وكلامه ضرورة وأكله فاقة وعلي زعم بعضهم فالفاقة هي الامتناع عن الأكل يومين بلياليهما والبعض يقول: ثلاثة أيام بلياليها والبعض يقولون أسبوعاً وعند البعض أربعين يوماً لأن أهل الحقيقة يعتقدون أن الإنسان الصادق يجوع مرة في الأربعين يوماً وجوعه إنما يعينه علي حفظ حياته وكل جوع بخلافه إنما هو شهوة ولذة.

ويلزمك أن تعلم أن كل العروق التي في أجساد العارفين هي آيات عن أسرار ربانية وأن قلوبهم مشغولة بمشاهدة العلي المتعال فقلوبهم أبواب مفتوحة في صدورهم وعلي هذه الأبواب تقف الحكمة والهوي والحكمة تمدها الروح والهوي يمده النفس فكلما تقوت الطبائع البشرية بالأكل تقوت النفس وكلما تغلب الهوي علي أعضاء الجسد يكون في كل شريان حجاب.

لكن إذا منعت النفس عن الأكل ضعفت وقويت الحكمة وانكشفت غوامض أسرار الله تعالي حتي تعجز النفس عن العمل فيفني الهوي ويفني كل أمل بإثبات الحق فينال طالب الحق كل مراده .

يروي عن أبي العباس القصاب أنه قال: إن طاعتي ومعصيتي تتوقف علي رغيفين من الخبز فإذا أكلت وجدت في نفسي كل شر لكني إن امتنعت عن الإكل وجدت أني أساس كل فضيلة. وثمرة الجوع هي مشاهدة الله سبحانه وتعالي التي تصدر عن المجاهدة.

والشبع مع المشاهدة أفضل من الجوع مع المجاهدة لأن المشاهدة هي مصارع الرجال أما المجاهدة فهي ملاعب الأطفال - فالشبع بشاهد الحق خير من الجوع بشاهد الخلق. وفي هذا كلام كثير حذفته توخياً للاختصار.

الباب الثاني والعشرون
كشف الحجاب الثامن في الحج

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(١)

والحج فريضة علي كل مسلم عاقل قادر بالغ وهو يتكون من الإحرام في مكان معلوم والوقوف بعرفة والطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة فالإنسان يلزمه أن لا يدخل الحرم إلا محرماً والحرم سمي حرماً لأنه يوجد فيه مقام الخليل إبراهيم وإبراهيم له مقامان مقام جسمه وهو مكة ومقام قلبه وهو الخلة.

فمن طلب مقام جسمه زهد في شهوته ولذته ولبس إحرامه وتغطي بكفنه وامتنع عن الصيد الحلال وحفظ جوارحه حتي تكون تحت سلطان الشرع وحضر بعرفات وذهب إلي المزدلفة والمشعر الحرام والتقط الحجارة وطاف بالكعبة وزار مني ومكث هناك ثلاثة أيام ورمي الجمار بالصفة المعينة وقص شعره وذبح أضحيته وأحل من إحرامه.

ومن طلب مقام قلبه وجب أن يعرض من المألوفات ووجب أن يقوم بترك اللذائذ والراحات وحرم علي نفسه ذكر الغير ولم يشتغل بغير الله لأن نظره إلي الدنيا الحادثة يكون بلية، ثم وقف علي عرفات المعرفة ومن هناك ذهب إلي مزدلفة الألفة ومن ثم أرسل قله للطواف حول كعبة التنزيه ورمي جمرات هواه وكدورات فكره في مني الإيمان، وضحي بنفسه في موضع المجاهدة ووصل إلي مقام الخلة.

وبالدخول في مقامه البدني يأمن الإنسان به من أعدائه ومن سيوفهم

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٧.

ولكن من دخل في مقامه الروحاني أمن الفرقة بعد الوصال قال ﷺ: «الحاج وفدالله يعطيهم ما سألوا ويستجيب لهم ما دعوا»[1] وهناك فريق آخر لا يدعو ولا يسأل بل يسلم كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] فحينما بلغ سيدنا إبراهيم مقام الخلة تفرد عن العلائق وفصل قلبه عن الخلائق فأراد الله تعالي أن يجليه للخلق فولي النمرود حتي يلقي الفرقة بينه وبين ذويه وأمه وأبيه، فأشعل ناراً: وجاء إبليس وأقام منجنيقاً، ووضع جسمه في جلد ثور خيط عليه، ووضع في مواجهة المنجنيق وجاء إبليس وأخذ بناصية المنجنيق.

وقال: هل لك من حاجة قال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا. فقال ثانية: ألست في حاجة إلي شئ من الله عز وجل. فرد: حسبي من سؤالي علمه بحالي، أي أنه كفاني رضا أنه يعلم إنما ألقي بي في النار من أجله».

قال محمد بن الفضل: أن لأعجب ممن يطلبون بيته في هذه الدنيا كيف لا يطلبون مشاهدته في قلوبهم. أما بيته فإنه ربما وصلوه أو فقدوه.

أما المشاهدة فإنهم يتمتعون بها دواماً فإذا لزمهم أن يزوروا حجراً ينظر مرة كل سنة لصاروا أشد تمسكاً بزيارة بيته في قلوبهم التي فيها يشاهد في كل يوم وليلة ثلثمائة وستون مرة.

وكل خطوة من خطوات أهل الحقيقة هي إشارة للجمع ومن وصل إلي مراده ألبس حلة محبوبه قال أبو يزيد من كان ينتظر جزاء الله تعالي علي عبادته في الغد فإنه لم يعبد الله حقاً اليوم لأن جزاء كل لحظة من عبادة ومجاهدة جزاء عاجل، وقال أيضاً: لما حججت أول مرة شاهدت البيت وفي المرة الثانية شاهدت البيت ورب البيت وفي الثالثة رأيت رب البيت ولم أر بيتاً. وبالاختصار.

فأينما تكون المجاهدة لا توجد نهاية والنهاية هي بالمشاهدة وإلا لم يكن

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة.

(٢) سورة البقرة آية ١٣١.

العالم كله معراجاً للإنسان يتقرب به إلي الله تعالي وخلوة يتمتع فيها بالأنس به فإنه لم يزل غريباً عن محبة الله أما لو منح قطرة من المشاهدة كل العالم حرما «وأظلم الأشياء دار الحبيب بلا حبيب» لذلك فالشئ المقصود بالذات ليس الكعبة ولكنه المشاهدة والفناء في دوام الخلة التي تمثلها الكعبة من طرق خفي بالنظر إليها ولكن يلزمنا أن نعلم أن كل سبب متوقف علي مسببه وأن آيات الله تعالي تظهر في أي مكان مهما كانت خفية وأن مراد الطالب يجده حيث كان ومطلب المراد من قطع الصحاري والقفار ليس البيت نفسه لأنه من الحرام في عرف العاشقين أن ينظر إلي بيته ولكن مرادهم هو مجاهدة مع شدة ألم لا يترك لهم راحة وتأله في المحبة ليس له نهاية.

أتي رجل إلي الجنيد فسأله من أي شئ أتيت فقال أتيت من الحج فقال له الجنيد هل سافرت من معاصيك من اليوم الذي سافرت به من بيتك؟ فقال: الرجل لا، فقال له الجنيد: إذا فإنك لم تسلك في الطريق ثم سأله هل عند إحرامك تخليت عن صفاتك الآدمية كما تخليت عن ثيابك الاعتيادية؟ فقال: اللهم لا، قال له إذا فإنك لم تحرم. ثم قال له: هل عند وقوفك بعرفات وقفت لحظة تشاهد الله تعالي؟ فقال اللهم: لا، فقال إذا فإنك لم تقف علي عرفات،

ثم قال لما ذهبت إلي مزدلفة ونلت مقصدك هل زهدت في كل مقاصدك الشهوانية؟ فقال اللهم لا، فقال فإنك لم تذهب إلي المزدلفة. ثم سأله هل عن طوافك بالكعبة شاهدت الجمال الإلهي في قضاء التنزيه؟ فقال: اللهم لا، فقال له فإنك لم تطف بالكعبة، ثم سأله هل لما سعيت ما بين الصفا والمروة وصلت إلي مقام الصفا والمروة؟

فقال اللهم لا فقال فإنك لم تسع إذا. ثم قال له هل لما أتيت مني قطعت مناك؟ فقال لا فقال لم تزر مني. ثم سأله لما أتيت محل النحر هل نحرت طبائعك البشرية؟ فقال لا: فقال فإنك لم تنحر. ثم قال هل عندما رميت بالحجارة رميت بكل آمالك الدنيوية التي تصحبك؟ فقال لا فقال إذا:

فإنك لم ترم الجمرات وإنك لم تؤد الحج: فارجع وأد الحج بالكيفية التي وصفتها لك لكي تصل إلي مقام إبراهيم.

سمعت أن أحد العظماء جلس في مواجهة الكعبة وأخذ يتغني بهذا الشعر باكياً:

وأصبحت يوم النفر والعيس ترحل وكان حدي الحادي بنا وهو معجل

أسائل عن سلمي فهل من مخبر بأن له علماً بهما أين تنزل؟

لقد أفقدت حجي ونسكي وعمرتي وفي البين لي شغل عن الحج مشغل

سأرجع من عامي لحجة قابل فإن الذي قد كان لا يتقبل

وقال الفضيل بن عياض: رأيت علي عرفات شاباً صامتاً مدل برأسه إلي الأرض والناس يدعون ويبتهلون فقلت له: ألا تدعو مثلهم فقال أصابتني وحشة إذ أن وقتي الذي كنت فيه أصابه الفوت وليس لي وجه أدعو به، فقلت له ادع حتي ببركة هذا الجمع ليرجع إليك ربك مرادك فعندما أراد أن يرفع يديه ويدعو صرخ صرخة شديدة ووقع ميتاً في مكانه.

قال ذو النون المصري : رأيت في مني شاباً جالساً بسكينة والناس مشتغلون بنحرهم فنظرت إليه لأري ماذا يفعل. فقال اللهم إن هؤلاء الناس يقدمون الهدي وأنا أريد أن أقدم نفسي فهل تقبلها فبعد أن نطق بهذه الكلمات أشار بإصبعه إلي حنجرته وسقط فلما أمعنت النظر وجدته ميتاً رحمه الله وأرضاه.

والحج علي نوعين: حج في غيبة عن الله وحج في حضور مع الله فمن كان غائباً عن الله في مكة هو كمن كان غائباً عنه في بيته ومن كان حاضراً مع الله في بيته هو كمن يكون حاضراً مع الله في منزله والحج عمل من أعمال المجاهدة لنيل المشاهدة والمجاهدة لا تكون علة للمشاهدة بل ربما كانت سبباً لها وحيث أن الأسباب ليس لها تأثير علي حقائق الأشياء فمقصد الحج الحقيقي ليس بزيارة الكعبة ولكن بنيل مشاهدة الله تعالى.

فصل
في المشاهدة

قال رسول الله ﷺ: «دعوا الحرص وأعروا أجسادكم. قصروا الأمل وأظمئوا أكبادكم، دعوا الدنيا لعلكم ترون الله بقلوبكم».

وقال أيضاً ﷺ عندما سأله جبريل عن الإحسان: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وقال تعالي لداود: «يا دواود أتدري ما معرفتي»: قال: لا، قال: «حياة القلب في مشاهدتي».

والصوفية يعنون بالمشاهدة: رؤية الله بالقلب في السر والعلن. قال أبو العباس بن عطاء مشيراً إلي قوله تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾(٢) «يعني يقولون: ربنا الله بالمجاهدة ثم استقاموا علي بساط المشاهدة».

وحقيقة المشاهدة علي نوعين:-

الأولي: ثمرة صحة اليقين.

والثانية: غلبة المحبة لأنه في حالة غلبة الحب يصل الإنسان إلي درجة يكون كله مشغولاً لا بمحبوبه ولا يري غيره.

قال محمد بن واسع: ما رأيت شيئاً قد إلا ورأيت الله فيه «يعني بصحة اليقين وهذه المشاهدة هي من الله تعالي لخلقه».

قال الشبلي: «لم أر شيئاً قط إلا الله «أعني أنه في حال غلبة الحب وشدة المشاهدة فالإنسان يري الفعل بعين بصره ويشاهد الفاعل بعين بصيرته

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن زيد بن أرقم.

(٢) سورة فصلت آية ٣٠.

وغيره يتغلب عليه حب الفاعل عن كل ما سواه حتي يري الفاعل وحده وأحد هذه الأنواع استدلالي والآخر. جذبي ففي الحالة الأولي يكون البرهان الإثباتي مشتقاً من آيات الله تعالي وفي الحالة الثانية يكون الرائي مغلوباً عليه ويكون محمولاً بالمراد والبراهين والآيات تكون حجاباً له «لأنه من عرف شيئاً لا يهاب غيره ومن أحب شيئاً لا يطالع غيره فتركوا المنازعة مع الله والاعتراض عليه في أحكامه».

قال الله تعالي عن رسول الله ﷺ ليلة المعراج: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1] وذلك لشدة تألهه لله تعالي لأن المحب إذا التفت بعينه عن كل المخلوقات وقع نظره علي الخالق بقلبه وذلك مصداقاً لقوله تعالي: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[2] وقال الله تعالي: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[3] .

أي إبصار العيون عن الشهوات وإبصار القلوب عن المخلوقات إذن فكل من أغمض علي سره عن الشهوة لأن المشاهدة الباطنة متصلة بالمجاهدات الظاهرة. قال سهل بن عبد الله التستري: «إذا أغمض أحد بصره عن الله طرفة عين لا يهتدي طول عمره» لأنه من اعتبر غير الله تعالى اعتمد علي غيره ومن صار تحت رحمة الغير هلك فحياة المشاهدين هي في الوقت الذي يتمتعون فيه بالمشاهدة لأن الوقت الذي يمضونه في المغايبة ليس محسوباً من حياتهم حيث أنهم يعتبرونه موتاً.

ولذلك فإن أبا يزيد عندما سئل عن عمره قال أربع سنين فقط فقيل له وكيف ذاتك؟ فقال: «لقد حجبت عن هذه الدنيا سبعين سنة لكني رأيته منذ الأربع سنين الماضية والمدة التي يكون الإنسان محجوباً فيها ليست من أيام حياته.

---

(١) سورة النجم آية ١٧. (٢) سورة النجم آية ١٨. (٣) سورة النور آية ٣٠.

كان الشبلي يقول في دعائه « اللهم أخبأ الجنة والنار في خبايا غيبك حتي تعبد بغير واسطة» فمن كان ناسياً الله سبحانه وتعالي لا يعبده بإخلاص لأن الجبلة الآدمية لها مصلحة في الجنة ولكن حيث أن القلب ليس له غرض في محبة الله تعالي فمن كان قاسياً يكون محروماً من مشاهدته فقد قال رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين: أنه لم ير ربه ليلة أسري به.

لكن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ أخبره أنه راي ربه ولذلك فهذه المسألة متناقضة ولكن عندما كان رسول الله ﷺ يقول: إنه لم ير ربه كان يشير إلي عين بصره، ويقوله إنه رآه كان يشير إلي عين بصيرته وحيث أن عائشة رضي الله عنها كانت من أهل الظاهر وابن عباس كان من أهل الحقيقة فقد تكلم رسول الله ﷺ مع كليهما بقدر ما وهبا.

قال الجنيد: لو أن الله تعالي قال لي شاهدني لأقولن له أنا لا أشاهدك. لأن النظر العيني في عرف المحبة غير عن الله وشرك والغير يمنعني من النظر إليك وحيث أني في هذه الدنيا طلبت أن أراك بغير واسطة عيني فكيف استعمل هذه الواسطة في الدار الآخرة.

إني لأحسد ناظري عليكا فاغمض طرفي إذ نظرت إليكا

سئل الجنيد: هل تحب أن تري ربك؟ فقال: لا . فسئل لم؟ فأجاب أن موسي ﷺ لما طلب أن يراه لم يره وأن محمداً ﷺ لم يطلب ذلك فرآه وإن آمالنا هي أكبر الحجب التي تبعدنا عن رؤية الله لأن وجود الإرادة النفسانية في عرف المحبة معصية والمعصية حجاب.

فإذا فقدت المراد في هذه الدنيا نلت المشاهدة ومتي نلت المشاهدة لا تجد فرقاً بين هذه الدنيا والأخرى. قال أبو يزيد: «إن لله عباداً لو حجبوا عن الله في الدنيا والآخرة لارتدوا».

أعني أنه يكرمهم بدوام المشاهدة ويبقيهم أحياء بحياة المحبة ومن كان متمتعاً بالمشاهدة ثم حرم منها كان ولا شك كافرا.

قال ذو النون المصري: رأيت مرة وأنا مسافر في مصر بعض الصبية يرمون الحجارة علي شاب فسألتهم ما الذي تطلبونه منه. فقالوا: إنه مجنون فقلت وكيف رأيتم جنونه؟ فقالوا: إنه ادعي رؤية ربه: فالتفت إلي الشاب وسألته هل تقول ذلك أن يتقولون عليك؟ فقال: إني أقول إني لو لم أر ربي لحظة لكنت محجوباً ومن كان محجوباً كان عاصياً.

وقد وقع بعض الصوفية في الخطأ وذلك باعتبارهم أن الرؤيا الروحانية والمشاهدة تمثلان صورة الله تعالي كما يرتسم في العقل بالخيال وذلك إما من الذاكرة أو شدة التأمل وهذا تشبيه محض ومذهب باطل. فالله سبحانه وتعالي ليس بمحدود حتي يشبهه الخيال أو يطلع علي ذاته العقل فكل ما أمكن كان مجنساً للعقل والله سبحانه وتعالي ليس مجانسًا لأي شئ ولو أنه بالنسبة لقديم يكون الحادث أياً كان لطيفاً أو كثيفاً علي السواء مجانساً للبعض بدون النظر إلي أضدادها وحيث ذلك فالمشاهدة في هذه الدنيا تشبه الرؤيا في الدار الآخرة.

وحيث أن أصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا علي جواز الرؤية فمن باب أولي جواز المشاهدة هنا وفرق بن من قالوا بالمشاهدة في هذه الدنيا أو الآخرة لا يقول إلا بجوازها لأنهم متمتعون بها أو تمتعوا بها لأن المشاهدة صفة من صفات السر ولا يمكن التعبير عنها باللسان إلا جوازاً لأن الكلام يكون عن الشئ الذي لا تثبت حقيقته بالعقول حيث السكوت فيها أرقى.

لأن المشاهدة قصور اللسان بحضور الجنان أما النطق فهو الدليل وفرق بين مشاهدة الشئ وشهادته ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما بلغ درجة القرب من الله تعالي قال: «اللهم لا أحصي ثناء عليك» لأنه كان في حال المشاهدة في درجة المحبة وهي كمال الاتحاد وأي تعبير خارج عنها هو اتحاد بالغير ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أنت كما أثنيت علي نفسك» أعني أن كلماتك كلماتي وشكرك شكري وإني لا أعتبر لساني قادراً علي التعبير بما أشعر كما قال الشاعر:

تمنيت أن أهوي فلما رأيته بهت فلم أملك لساناً ولا طرفاً.

الباب الثالث والعشرون
كشف الحجاب التاسع
في الصحبة مع آدابها وأحكامها

قال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾(١) اي أدبوهم.

وقال رسول الله ﷺ: «حسن الأدب من الإيمان»(٢) وقال أيضاً: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»(٣) واعلم أن الأحوال الدينية والدنيوية وزينتهما تتوقفان على حسن الأدب، واعلم أن لكل مقام من درجات بني آدم آداب مخصوصة فالكافر والمسلم والملحد والموحد والسني والمبتدع فيما بينهم يعتبرون شروط حسن الأدب في المعاملات ولا يثبت رسم في العالم دون استعمال الأدب، والأدب بين الناس في المعاملات والأدب بين الناس هو حفظ المروءة.

أما شروط الأدب في الدين فهي التمسك بالسنة وشروطها في المحبة بمراعاة الحرمة وهذه الدرجات الثلاثة متصل بعضها ببعض.

لأن الإنسان الذي ليس عنده مروءة لا يقتدي بالسنة ومن عجز عن الاقتداء بالسنة يراقب الحرمة هذا وإن مراعاة الآداب في مسائل السلوك هي نتيجة إجلال المقصد وإجلال الله تعالي وأوامره تصدر عن التقوي وكل من لا حرمة له يطأ بإزدراء حضرة القدس فذلك برهان من الله تعالي لمن يعمل ذلك بأنه ليس له حظ في الصوفية، ولا يمكن أن يهمل طالبوا الحق شروط الأدب حتي لو كانوا في حالة سكر أو غلبة لأنهم اعتادوا.

---

(١) سورة التحريم آية ٦.

(٢) رواه الحاكم عن عائشة.

(٣) أخرجه ابن السمعاني فى أدب الاملاء عن ابن مسعود.

علي هذه الآداب والعادة طبيعية ثانية وأنه من المستحيل أن تتغير الطبائع الأصلية في أي مخلوق ولذلك فما دام الهيكل الإنساني باقياً يلزم الناس أن يحتفظوا بآداب طاعة الله إن كان تكلفاً وإن كان بغير التكلف إذا كان في حال الصحو.

أما إذا كان مغلوباً فإن الله تعالي يجعلهم محافظين علي حدوده وكل من أهمل الحدود لا يمكن أن يكون ولياً لأن المودة عند الآداب وحسن الآداب صفة الأحباب فمن أكرمه الله بأي شئ فذلك برهان علي انه إعانة لأداء الواجبات الدينية وهذا مناقض لرأي بعض الملاحدة الذين يقولون إن الإنسان إذا غلبت عليه المحبة لا يكلف بأي طاعة وسأبين لك هذه المسألة بكل معانيها في موضع آخر.

والآداب علي ثلاثة أنواع: أولها: الأدب مع الله تعالي في التوحيد وهو أن يحفظ الإنسان نفسه سراء وعلناً من أي معصية ويتأدب كأنما هو في حضرة ملك يروي في الأحاديث الصحيحة: أن رسول الله ﷺ كان ذات يوم جالساً القرفصاء فأتاه جبريل وقال له يا محمد اجلس جلسة العبيد ويقال: أن الحارث المحاسبي لم يرتكن بظهره إلي حائط ليلاً ولا نهاراً مدة أربعين سنة ولم يجلس إلا علي ركبتيه ولما سئل لماذا ترهق نفسك هكذا قال: «إني لأخجل أن أجلس غير جلسة العبد حالما أكون مشاهداً لله».

وقد شاهدت في قرية كمند[1] في آخر حدود خراسان رجلاً مشهوراً كاملاً اسمه أديب كمندي لم يجلس منذ عشرين سنة إلا جلسته في الصلاة في التحيات فسألته عن سبب ذلك. فأجابني: أنه لم يبلغ درجة يجلس بها حالما يكون مشاهداً. وسئل أبو يزيد بم وجدت ما وجدت فقال: بحسن الصحبة مع الله عز وجل أعني بحفظ شروط الأدب والتأدب في السر كالعلن والناس يلزمهم أن يتعلموا من زليخا كيف يلاحظون الأدب عند مشاهدة مقصدهم الأعظم لأنها عندما اختلت بيوسف وظنته سيوافقها علي رغبتها

---

(١) كمندا اسم قرية.

كان أول ما عملته أن غطت وجه وثنها قال لها يوسف عليه السلام لم تفعلين هذا؟ فقالت: أغطي وجه معبودي حتي لا يراني في موضع لا أدب فيه، وليس هذا من شرط الأدب، وحينما وصل يوسف إلي يعقوب وأكرمه الله بلقياه، ردّ الشباب إلي زليخا: وهداها إلي الإسلام وزوجها يوسف فلما قصدها يوسف هربت منه قال يا زليخا: أنا هو آسرك فلماذا تهربين مني هل انمحي حبي من قلبك؟

قالت: لا والله بل دادت المحبة ولكني أراعي دائماً الأدب في حضرة إلهي، ففي اليوم الذي اختليت بك فيه كان معبودي وثناً لم ير قط ولكنه لأنه كان ذا عينين لا يبصر بهما غطيت عينيه حتي تنتفي عنه تهمة عدم الأدب والآن لي رب مبصر بلا مقلتين، وكيفما كنت يراني ولا أريد أن أكون تاركة الأدب.

ولما أسري برسول الله ﷺ ليلة المعراج كان من شدة تمسكه بالآداب أنه لم يلتفت إلي هذه الدنيا والآخرة كما قال تعالي: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1] أي ما زاغ البصر برؤية الدنيا. وما طغي برؤية العقبي. والنوع الثاني: من الآداب هو ملاحظة النفس في سلوكها وذلك بأن يمنع نفسه من أي عمل مخالف للشرع وهو في عزلة كما يكون ذلك مع مخلوقات الله يعني بذلك أن الإنسان يلزمه أن لا يذكر نفسه بغير ما هي عليها كذباً.

وأن الإنسان يلزمه أن يأكل قليلاً حتي لا يذهب إلي المرحاض كثيراً وأن الإنسان يلزمه أن لا ينظر إلى أي شئ يكون من الأدب الا ينظر إليه غيره. روي أن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم ينظر إلي عورته. ولما سئل عن ذلك أجاب بأنه يستحي أن ينظر في نفسه ما هو محرم رؤيته في غيره.

والنوع الثالث: هو ملاحظة آداب المجتمعات مع خلق الله وأكمل هذه الآداب هو التمسك بالأعمال الحسنة ومراقبة السنة في السفر والحضر.

هذه الأنواع الثلاثة لا يمكن افتراق أحدها عن الآخر والآن أوضحها لك ما أمكن حتي يمكنك أيها القارئ أن يسهل عليك اتباعها.

---

(١) سورة النجم: آية ١٧.

باب
الصحبة وما يتعلق بها

قال الله تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾(١) اي بحسن رعايتهم للإخوان يعني بذلك أن يحبهم ويجعلهم محبوبين وذلك بأداء الواجب عليهم لإخوانهم وإيثارهم علي أنفسهم قال رسول الله ﷺ: «ثلاث يصفين لك ود أخيك، تسلم عليه إن لقيته وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه» قال الله تعالي: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٢) .

وقال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الإخوان فإن ربكم حي كريم وأنه يستحي أن يعذب عبده أمام إخوانه يوم القيامة» ولكن الصحبة يلزم أن تكون لله لا لهوي النفس ولا لطمع في مراد أو غرض حتي ينال الإنسان الثواب علي مراقبته لآداب الصحبة: قال مالك بن دينار لصهره المغيرة بن شعبة: «كل أخ وصاحب لم تستفد منه في دينك خيراً فانبذ عنك صحبته حتي تسلم» يعني بذلك أن تصحب أحد أثنين رجل أعلى منك درجة أو رجل أقل منك. ففي الحالة الأولي تستفيد أنت منه.

وفي الحالة الثانية تكون الاستفادة متبادلة بحيث ينتفع الواحد من الآخر حيث قال رسول الله ﷺ: «إن من تمام التقوي تعليم من لم يعلم» وقال يحيي بن معاذ الرازي: «بئس الصديق صديق تحتاج أن تقول له أذكرني في دعائك وبئس الصديق صديق تحتاج أن تعيش معه بالمدارة وبئس الصديق صديق يلجيك إلي الاعتذار في زلة كانت منك».

فمن حسن الصحبة الدعاء المتصل ورفع الكلفة والإغضاء عن الذنب فالعذر في الصحبة غير به. ومن الخطأ في آداب الصحبة مثل ذلك.

---

(١) سورة مريم آية ٩٦. (٢) سورة الحجرات آية ١٠.

قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» لأنه إذا صحب الإنسان الصالحين صار صالحاً مثلهم ولو كان فاسقاً ومن صاحب الشريرين صار مثلهم ولو كان صالحاً لأنه يكون موافقاً على شرورهم. يروي أن رجلاً سأل الله تعالي وهو يطوف بالكعبة فقال: اللهم أصلح لي إخواني فلما سئل لماذا لا تطلب لنفسك هذا الدعاء في هذا المقام فقال إن لي إخوانا أرجع إليهم فإن صلحوا صلحت وإن فسدوا فسدت.

وأساس كل ذلك أن النفس تسكن للعادة،، وحيثما وجدت في صحبة تتعود علي أفعالها ذلك أن كل الطبائع الخيرة أو الشريرة مركبة فيها. فكل ما يراه من معاملات وإرادات تربي فيها، وتغلب عليها الإرادات الأخري وللصحبة أثر عظيم في الطبع، وصولة علي العادة إلي حد أن البازي يصير مدرياً في صحبة الناس والببغاء يتكلم بالنطق، والحصان بالرياضة، فيخرجون من عادة البهيمية إلي عادة الإنسانية وهذا هو تأثير الصحبة التي تغلب كل عادة عزيزة. ومشايخ الصوفية يطلبون من بعضهم أداء واجبات الصحبة ويأمرون تلاميذهم بالمطالبة بها حتي صارت آداب الصحبة بينهم كفرض ديني هذا وقد كتب المشايخ كتباً عديدة في بيان شروط الصحبة فالجنيد مثلاً ألف كتاباً أيضاً أسماه (الرعاية لحقوق الله).

ومحمد بن علي الترمذي ألف كتاباً سماه (آداب المريدين) وكتباً عديدة أخري قد كتبها في هذا الموضوع أبو القاسم الحكيم وأبو بكر الوراق وسهل بن عبد الله التستري وأبو عبد الرحمن الأستاذ أبو القاسم القشيري، وكل هؤلاء المؤلفين حجة كبرى في التصوف ولكن غرضي من كتابي هذا أن لا يحتاج قارؤه إلي كتاب غيره كما بينت ذلك في المقدمة وهو أن يكون كافياً للقارئ،، ولكل أتباع الصوفية وسأوضح لك الآن في فضول متفرقة بيان شروط آداب السلوك.

باب
آدابهم في الصحبة

حيث علمت: أن أهم الأشياء للطالب هي الصحبة فأداء شروطها لازمة عليك فالوحدة هلاك للمريد لأن رسول الله ﷺ قال: «الشيطان مع الواحد» وقال تعالي: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(١) فليس هناك مفسدة للمريد من الوحدة. وقرأت في بعض كتب السلف أن مريدًا للجنيد تصورأنه بلغ درجة الكمال وأن الأفضل له أن يختلي بنفسه فاعتزل إخوانه فاعتاد أن يأتيه جمل في المساء وأخبر انه يأخذه إلي الجنة فإذا ركبه نقله إلي مكان جميل ذي سكان لطاف وفاكهة لذيذة وأنهار جارية فيمكث هناك حتي الفجر فيغلب عليه النعاس فيستيقظ وهو علي باب صومعته هذا.

وقد ملأ نفسه إعجاباً بهذه الحوادث ولم يمتنع من التخلي عنها فلما سمع الجنيد بذلك هرول إلي صومعة الطالب وأصغي إلي ما يحدث له ثم قال له: إذا أنت أتيت إلي ذلك المكان الليلة تذكر أن تقول «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وفي تلك الليلة نقل كالعادة ومع أن لم يصدق في قلبه الجنيد فإنه كرر هذه الكلمات ثلاثاً بقصد التجربة فصرخ من كان معه وتركوه فوجد نفسه جالساً علي مزبلة وسط عظام نخرة فعلم خطأه ثم تاب ورجع إلي الصحبة. وأصول الصوفية في الصحبة هي أن يعاملوا كل واحد قدر درجته فيعاملون كبار السن مع الاحترام كالوالدين ومن كانوا في سنهم يساوونهم في المعاملة كالأخوة ومن كانوا أصغر منهم يعطفون عليهم كالأبناء ويتركون الغضب والحقد والحسد ولا يضنون بالنصيحة الخالصة علي أي إنسان:

ومن آداب الصحبة أن لا تتكلم بشر عمن غاب عنك أو تسئ أو تنكر علي أي إنسان لكلمة أو عمل لأن الصحبة التي يكون أولها الله تعالي لا تنقطع بكلمة إنسان ولا بعمله.

قال المؤلف: سألت مولانا الشيخ أبا القاسم الجرجاني عن شروط الصحبة فقال: إنها مجموعة في أن «تبحث فيها عن حظك لأن كل شرور

---

(١) سورة المجادلة آية ٧.

الصحبة ناتجة عن الطبع والإنفراد خير للطامعين ومن أهمل منفعة نفسه ونظر إلي منفعة غيره فقد أصاب المرمي في الصحبة قال أحد الدراويش سافرت مرة من الكوفة إلي مكة فلقيت في طريقي إبراهيم الخواص فسألته الصحبة فقال لى: إن من الصحبة أن يأمر أحدنا والآخر يطيع فما الذي تختار أن تكون؟ فقلت: أختار أن تكون أنت الآمر. فقال لا تعجز عن أداء أوامري.

فلما وصلت إلي المنزل أمرني أن أجلس وقام بنفسه واستخرج الماء من البئر وكان الطقس بارداً وجمع حطباً وأوقد ناراً وكلما أردت أن أعمل شيئاً أمرني أن أجلس وأمطرت السماء ليلاً فأخذ مرقعتة ونشرها علي رأسي طول الليل فاستحييت منه ولكن لم يمكني أن أقول كلمة وذلك وفاء بالشرط الذي أوجبه علي فلما أصبح الصباح قلت له اليوم أكون أنا الآمر فيه فقال حباً وكرامة فلما أتينا إلي المنزل الثاني ابتدأ أن يعمل الخدم التي كان يعملها قبلا ولما أخبرته أن لا يعصي أوامري قال أنه من قلة الأدب أن يخدمك آمرك واستمر علي هذه الحالة حتي وصلنا مكة فاستحييت منه وهربت فتفقدني ووجدني في مني فقال لي ياولدي إذا صحبت بالدراويش فلاحظ أن تعاملهم كما عاملتك.

وعن أنس بن مالك أنه قال: «صحبت رسول الله ﷺ عشر سنين وخدمته فوالله ما قال لي أف قط وما قال لشئ فعلت لم فعلت كذا ولا لشئ لم أفعله ألا فعلت كذا» والدراويش علي قسمين: مقيم ومسافر وعلي حسب عادة المشايخ فالدراويش المسافرون يعتبرون المقيمين أرقي منهم لأنهم يروحون ويغدون في صالح أنفسهم أما المقيمون فإنهم أقاموا في طاعة ربهم والأولون علامة الطلب والآخرون هم علامة الوصول ولذلك كان من وجد وأقام أرقي ممن لا زالوا يطلبون.

وكذلك يلزم الدراويش المقيمين أن يعتبروا المسافرين أكمل منهم لأنهم موثوقون بمتاع الدنيا أما المسافرون فإنهم تخلوا عنها. هذا والمسنون يفضلون علي أنفسهم صغار السن فهم أقرباء عهد بالدنيا وذنوبهم أقل وعلي صغار السن أن يجلوا الكبار لأنهم سابقون بالطاعة والإيمان ومقدمون في الخدمة وحينما يكونون هكذا ينجو كل فريق بالآخر وإلا هلكوا.

فصل

[الأوصاف الفاضلة]

والأدب في الحقيقة هو اجتماع الأوصاف الفاضلة وسميت المأدبة من ذلك ففيها كل ما يجب «فالذي اجتمع فيه خصال الخير فهو أديب» ولو أنه في اللغة عموماً كل من كان ملماً باللغة العربية وأصولها يسمي أديباً، أما الصوفية فإنهم يعرفون الأدب بالأوصاف المحمودة ويقولون إ المقصود: «الوقوف مع المستحسنات ومعناه: أن يعامل الله بالأدب سراً وعلانية وإذا كنت كذلك كنت أديباً وأن كنت أعجمياً وأن لم تكن كنت علي ضده».

وأهل المعرفة في كل الحالات هم أكمل الناس احتراما بين أهل العمل: قال بعضهم لأحد المشايخ ما جماع الأدب؟ فقال: أجيبك وبتعبير سمعته، إذا تكلمت فليكن كلامك صادقاً وإذا عملت شيئاً فليكن حقاً، فقول الصدق وإن كان صعباً مستملح، والمعاملة وإن كانت صعبة فهي طيبة ومن فعل هذا فهو مصيب في كلامه محق في صحبته.

وقد أشار إلي ذلك صاحب اللمع الشيخ أبو نصر السراج بقوله: «الناس في الأدب علي ثلاث طبقات أما أهل الدنيا فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب، وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في راضة النفس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات.

وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وذلك الالتفات إلي الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب» وهذه العبارة جامعة والعبارات المختلفة التي أشارت إليها مبينة في غير موضع من هذا الكتاب.

باب
آداب الإقامة في الصحبة

الدراويش إما أن يختاروا الإقامة علي السفر فيكلفوا مراعاة الآدب فإذا أتاهم السائح لزمهم أن يقابلوه بفرح وسرور ويعاملوه كضيف كريم ويقدموا له أي طعام عندهم متشبهين في عملهم هذا بعمل سيدنا إبراهيم عليه السلام إذا جاء بعجل سمين، ولم يسأله من أين أتي وإلي أين ذاهب: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾(١) .

فلا ينبغي سؤاله من أين أتي أو إلي أين هو ذاهب أو ما اسمه لكن يلزمهم الاعتقاد بأنه أتي من الله وذاهب إلي الله وأن اسمه عبد الله ثم يسألونه أيحب أن يكون منفرداً أو في جماعة فإذا أحب الإنفراد أعطوه خلوة وإذا أحب الاجتماع لزم أن يسامروه بغير تكلف بحالة أخوة وصداقة فإذا توسد وسادته ليلاً قدم إليه الدراويش المقيم لغسل رجليه فإذا لم يسمح السائح بذلك لعدم عادته فلا يلزم المقيم أن يشدد عليه مخافة أن يزعجه ثم يأخذه في الغد إلى حمام بشرط أن يكون أنظف حمام موجود ويحافظ علي ثيابه من القذارة في مراحيض الحمام ولا يسمح لأحد بالوقوف لخدمته إلا نفسه غير منة عليه ولكن ينظفه من كل الأوساخ التي ألمت به في سفره ويدلك له ظهره وجنبيه وركبه وبطنه وأقدامه ويديه فوق ما هو واجب عليه.

وإذا كان المقيم في سعة اشتري لضيفه حلة من الثياب وإلا فلا لزوم لذلك والواجب عليه إذا كان فقيراً أن ينظف ثيابه حتي يلبسها بعد الخروج من الحمام فإذا أقام السائح يومين أو ثلاثة وطلب منه أن يزور أي عالم وإمام في تلك البلدة فإنه يكون ملزماً بأداء هذه الزيارة ولو كانت ضد إرادته لأن طالبي الحق لا يكونون في كل الأحوال ملك شعورهم.

سئل إبراهيم الخواص: حدثنا عن شئ من عجائب أسفارك قال:

---

(١) سورة الذريات آية ٣٦

«أعجب ما لقيت أن الخضر طلب مني الصحبة فرفضت لأنني لم أكن أريد أن يكون لشخص حظوة لدي قلبي، وأن اشغل قلبي بأحد غير الله».

ومن الواجب أيضاً علي المقيم أن لا يأخذ السائح إلي زيارة أهل الدنيا، أو حضور احتفالاتهم أو أعيادهم أو مآتمهم وإذا أحب المقيم أن يجعل السائح وسيلة للكدية فيأخذه من بيت لآخر فالأحسن له أن يمتنع عن خدمتهم لئلا يضعهم تحت ذل الحاجة ويشوش خواطرهم، وإن كل المتاعب التي تكبدتها في السياحة لم أر فيها أرذل من الإنقياد لجاهل من أهل هذا النوع والذهاب في بت السيد فلان وإلي بيت الدهقان فلان ولو أني بالطبع كنت منقاداً لهم لكني كنت أشعر بالكره الشديد للذهاب معهم فلذلك نذرت أني إذا صرت مقيماً لا أعامل السائحين بمثل هذا النقص، ولا شئ تأخذه من صحبة أهل البطالة أحسن من الدرس الذي تتعلمه منهم من سوء آدابهم حتي لا تقلدهم فيها ومن جهة أخري إذا صار السائح مسروراً مع المقيم وأقام معه بعض أيام وطلب منه أمراض دنيوياً فالواجب علي المقيم أن يقدم له في الحال كل ما يطلبه.

أما إذا كان السائح منافقاً، أو ساقط الهمة. فالمقيم لا يلزمه أن يقدم ذلك بخضوع. لكي يقوم له بمطامعه المستحيلة لأن ذلك ليس بطريق أهل التقوي لأنه لا داعي لدرويش بأن يجتمع بأهل التقوي إذا احتاج إلي متاع الدنيا وحيث أراد ذلك فليذهب إلي السوق وليبيع ويشتري ويكون جندياً من خدم السلطان. يروي أن الجنيد بينما كان هو وتلاميذه معتكفين إذ قدم عليهم سائح فسارع كل منهم في إكرامه ووضعوا أمامه الغذاء فقال أريد الشئ الفلاني والشئ الفلاني فقال له الجنيد يلزمك أن تذهب إلي السوق لأنك من رجاله ولست من رجال الجامع أو الخلوة.

وقد سافرت مع درويش مرة من دمشق لزيارة ابن المعلا الذي كان ساكناً في ريف الرملة وفي طريقنا قال بعضنا لبعض إن يفكر كل منا في المسألة التي يشك فيها لكي يخبرنا الشيخ بأسرارنا ويوضح لنا هذه الشكوك فقلت في نفسي أطلب منه قصائد ومناجاة الحسين بن منصور الحلاج وقال صاحبى الثانى أطلب منه أن يدعو لي بشفاء طحالي، وقال الثالث سأطلب

منه بعض الحلوي الصابونية فما أسرع ما قدمنا عليه حتي أذن لي بنسخة من قصائد ومناجاة الحسين وأهداها لي، ووضع يده علي بطن المريض فشفي مرضه.

ثم قال للآخر الحلوي الصابونية هي أكل أعوان الظلمة وإني أراك لابساً ثوب الأولياء وثيابهم لا توافق شهوة أهل الجند فاختر لنفسك واحداً منهما. وبالاختصار فالمقيم لا يلزمه أن يلتفت للسائح إلا إذا كانت وجهة الأول كلها لله أما إذا كان قاصداً بسفره هذا منفعته الخصوصية فيستحيل أن أحداً غيره يلزمه مساعدته حتي يرضي طمعه، ومادام الإنسان به شبهة طمع لزم أخوه أن يقاومها أما إذا تركه وجب علي أخيه مرضاته وفي الأحاديث أن رسول الله ﷺ آخي بين سلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري وكلاهما من أجلة أهل الصفة ومن رؤساء أرباب الباطن فزار سلمان الفارسي آخاه أبا ذر ذات يوم في بيته فاشتكت إلي زوجه أن أباذر لا يأكل ليلاً ولا نهاراً ولا ينام فيهما، فأمرها سلمان أن تأتي بطعام .

ثم قال لأبي ذر إني أحب أن تؤاكلني يا أخي فهذا الصيام ليس مفروضاً عليك، فلما جن الليل قال يا أخي إنى أحب منك أن تريح جسدك فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً وإن لربك عليك حقاً. فلما أتي أبو ذر لرسول الله ﷺ في اليوم التالي قال له رسول الله ﷺ إني أقول لك ما قاله لك سلمان بالأمس: «إن لجسدك عليك حقًا».

يؤخذ من هذا أن أبا ذر زهد فى متعة هذه الدنيا فأمره سلمان بالمتعة وكل ما علمته على هذا المبدأ فهو صحيح.

كنت فى مرة فى إحدى مدن العراق فاشتغلت بجمع الدنيا وتبذرها حتى كثرت ديونى والتفت إلى كل من أراد منى شيئًا فانزعجت متحيرًا فى كيفية إرضاء أغراضهم فكتب إلى سيد من سادات الوقت يقول لي: «احذر يا بني أن يلفت قلبك عن الله بإرضاء من شغلوا بالطمع، فإذا وجدت أي إنسان أعز إلي قلبك فاشغل قلبك حتي تريحه وإلا فلا تشغل نفسك واعلم أن الله كافيك فكانت هذه الكلمات سلوي قلبي.

باب الصحبة فى السفر وآدابه

فصل فى أداب السياحة

إذا اختار الدرويش السياحة على الإقامة لزمه أن يلاحظ الأمور الآتية:

أولا: أن يسافر فى طلب الله لا لمتابعة الهوى وكما أنه يسافر ظاهراً فإنه يسافر باطناً من ميوله الشهوانية ويلزمه أن يكون دائما على طهارة وألا يهمل العبادات وأن يكون مقصده فى سفره إما حجاً أو جهاداً فى سبيل الله ضد المشركين أو لرؤية مكان مقدس أو لطلب علم ومعرفة أو زيارة رجل عارف أو شيخ وإلا كانت سياحته باطلة

ولا مناص له من مرقعة وسجادة وركوة وحبل وحذاء أو نعل وعصا، فالمرقعة لستر عورته، والمصلاة ليصلى عليها، والركوة ليتوضأ منها، والعصر لصيانته من الهوام ومآرب أخرى، وقبل أن يقل على مصلاته يلزمه أن يلبس نعليه فى حال طهارة ومن حمل شيئاً غير هذه محافظة على السنة مثل مشط ومقص وإبرة ومكحلة فقد أفلح أما إذا زاد على هذه فيلزمنا أن ننظر إلى مقامه فإذا كان مريدا فكل ما زاد على ذلك فهو حجر عثرة وحجاب له، ويدله على طريق الغرور أما إذا كان فى مقام التمكين والاستقامة فليحمل ما شاء.

سمعت الحكاية الآتية عن الشيخ أبى مسلم بن غال الفارسى أنه قال: «زرت مرة الشيخ أبا سعيد بن أبى الخير فوجدته نائماً على حشية وعليها أربع وسادات وأحد رجلية موضوعة على احدها وكان لابساً ثوباً من الدق المصرى وكانت جبتى قذرة تشبه الجلد من قذارتها، قد ذاب جسدى من المجاهدة وأصفرت وجنتاى .

فلما نظرت إلى أبى سعيد شعرت بنظرة شك وقلت فى نفسى إنه فقير وكذلك أنا وهو فى كل هذا المتاع وأنا فى هذا التعب، فكأنه قرأ ما جال فى فكرى وعلم غرورى، وقال لى: يا أبا مسلم فى أى ديوان قرأت أن المغرور يكون

درويشًا، إنى أرى الله فى كل شئ ولذلك فإنه أجلسنى على كرسى وأنك ترى نفسك فى كل شئ فلذلك حفظ عليك بلاءك، كل أعمالى مشاهدة أما أعمالك فكلها مجهدة وهذان مقامان فى الله، والله سبحانه وتعالى منزه عنهما والدرويش فان عن كل هذه المقامات خالص من كل الأحوال .

فلما سمعت هذه الكلمات غبت عن وعيى وأظلمت الدنيا أمام ناظرى فلما رجعت إلى نفسى تبت وقبل منى توبتى ثم قلت له أيها الشيخ اسمح لى فى السفر لأنى لا احتمل النظر إليك فقال لى أبو مسلم صدقت ثم تمثل بالبت الآتى بالفارسية:

ما لم تكن أزناى تستطيع سماعة بالخبر رآته عينى عياناً بأجمعه بالبصر

والسائح يلزمه أن يراقب سنة رسول الله ﷺ فإذا أتى إلى منزل مقيم لزمه أن يدخله باحترام وتحية ويلزمه أن يخلع نعليه اليسرى فاليمنى فهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ وإذا لبسهما أن يلبس اليمنى فاليسرى وأن يغسل رجليه اليمنى قبل اليسرى ويصلى ركعتين للتحية ويلزمه أن يرد على السلام بما هو فيه من واجب الفرائض اللازمة على الدرويش.

ويلزمه أن لا يتداخل مع المقيمين ولا يسئ إليهم ولا يتحدث عما لاقاه فى سفره من المصاعب ولا يتذاكر فى الصوف ولا يتكلم عن الأخيار ولا يتلو الأحاديث فى صحبة لأن كل هذه الأمور من قبل الرعونة ويلزمه أن يصبر على أذى الجاهلين ولا يعاملهم بمثل ما يعاملونه به ابتغاء مرضاة الله تعالى لأن الصبر به بركات عديدة.

وإذا طلب منه أهل الحضر أو خدمهم الذهاب لزيارة أهل البلد يلزمه أن يرضيهم إن أمكن ولكن يلزمه أن ينكر ذلك بقلبه ولا يحترم غير الله تعالى

ويلزمه أن يعفو عن إخوانه ويؤول أفعالهم ويلزمه أن يحترس أن يطلب منهم شيئاً فوق طاقتهم أو يتشفع لهم إلى ذى سلطان طلباً فى لذة نفسه.

ويلزم دراويش الحضر والسفر فى كل الأحوال أن يبذلوا جهدهم فى مرضاة الله وأن يحسن كل واحد منهم عقيدته فيه ولا يتكلم معهم بسوء فى حضرته أو فى غيبته لأن أهل الحقيقة ينظرون للفاعل لا للفعل.

وبما أن كل إنسان كان بأى وصف محقاً أو باطلاً محجوباً أو مكشوفاً له منتسب إلى الله تعالى بأنه من خلقه فالخصومة مع الفعل خصومة مع الفاعل وحينما ينظر بعين الإنسانية إلى الخلق ينجو منهم جميعاً فكل الخلق مجبورون ومقهورون وعاجزون ولا يقطع أى شخص بعقل إلا أن يكون المرء كما خلقه الله فهكذا خلق وليس للخلق تصرف مع الله فى ملكه ولا تكون القدرة على التبديل إلا لله تعالى وتقدس.

فصل
فى شروط آداب أكلهم

أعلم أن الآدمى لا غنى له عن الطعام لأن به إقامة تركيب الطبائع وهى لا تتم إلا بالطعام والشراب أما شرط المروءة فيهما فهو ألا يبالغ المرء فى ذلك ولا يشغل به فكره ليل نهار.

قال الشافعى: «من كان همه ما يدخل فى جوفه، فإن قيمته ما يخرج منه» ولا أضر على المريد من الأكل الكثير وقد ذكرت طرفاً من ذلك فى باب الجوع ولكن لا مناص هنا من قدر مناسب.

قرءت أن أبا يزيد سئل: لماذا يمتدح الجوع كثيرا؟ فقال لو كان فرعون خاوى البطن لما قال ﴿نَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾(١) ولو كان قارون كذلك لما بقى. وثعلبة كان ممدوحا مادام جائعاً فلما أكل وملأ بطنه لعب به النفاق وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(٢).

قال سهل بن عبد الله التسترى أنه فى رأيى أن البطن المملوءة خمراً خير من البطن المملوءة طعاماً حلالاً فلما سئل عن سبب ذلك قال لأن البطن إذا ملئت أذهلت الذهن وأخمدت نار الشهوة وأمن الناس من لسانه ويده، أما إذا ملئت خمر البطن بطعام حلال عملْ عمل الجهلاء وازدادت شهوته وتقوت نفسه البهيمية على طلب مشتهياتها.

وقد قال المشايخ فى وصف الصوفية «أكلهم كأكل المرضى ونومهم كنوم الغرقى» والواجب عليهم أن لا يأكلوا منفردين لكنه يلزمهم أن يشاركوا إخوانهم لقوله ﷺ: «شر الناس من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده»(٣) فإذا

---

(١) سورة النازعات آية ٢٤.

(٢) سورة محمد آية ١٢.

(٣) بستان العارفين ص ٩٩.

جلسوا على المائدة يلزمهم أن لا يسكتوا فيبتدئوا بقول بسم الله الرحمن الرحيم كما وأنه يلزمهم أن لا يرفعوا أو يضعوا شيئاً يزعج أو يشوش على إخوانهم ويبدأوا أول لقمة بالملح ويشاطروا بعضهم بالسويه.

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(١) فقال العدل هو معاملة أخيك بالسوية فى اللقمة والإحسان أن تعتبر أنه أولى بهذه اللقمة منك. كان شيخى يقول إنى لأعجب من المنافق الذى يدعى أنه زهد فى الدنيا ويرغب فى لقمة. وزد على ذلك أن الصوفى يلزمه أن يأكل بيده اليمنى ولا ينظر إلا إلى لقمته ولا يشرب على الطعام إلا عند الظمأ فإذا شرب لا يزيد عما يروى كبده ولا يكبر اللقمة، ويلزمه أيضاً أن يسيغ الطعام ولا يستعجل فيه ولو عجل بخلاف ذلك فقد خالف سنة رسول الله ﷺ وبها وقع فى التخمة فإذا انتهى من طعامه حمد الله تعالى وغسل يديه -

وإذا ذهب اثنان أو ثلاثة من جماعة الدراويش إلى مأدبة وأكلوا شيئاً بدون أن يخبروا إخوانهم فهذا محرم عند بعض المشايخ يوجب خرقاً فى الصحبة ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾(٢) ولكن بعضهم يقول إن ذلك جائز إذا اتفقوا على ذلك والبعض يجوزون ذلك للمفرد بدعوى أنه لم يؤمر بالعدل فى التسوية إذا كان منفرداً لكن ذلك يكون إذا كان فى جماعة وحيث أنه منفرد فقد تخلص من واجبات الصحبة وليس مسئولاً عن أى عمل.

والآن أهم مبدأ فى هذا الموضوع هو أن تقبل ضيافة الدرويش ولا تقبل ضيافة أهل الدنيا والدراويش لا يلزمهم أن يذهبوا إلى بيوت الأغنياء ويطلبوا شيئاً منها لأن مثل هذا العمل تحقير للصوفية لأن أهل الدنيا ليسوا محرماً للفقراء والثروة لا تجعل الإنسان غنياً وقلتها لا تجعله فقيراً فمن اعتقد بالفقر

---

(١) سورة النحل آية ٩٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٤.

لم يكن من أهل الدنيا ولو كان ملكاً ومن لم يعتقد فهو من أهل الدنيا ولو كان معدما.

هذا إذا حضر الدرويش فى جماعة فلا يلزم أن يقيد نفسه بشئ أو عدمه لكن يلزم أن يعمل بواجب الوقت فإذا كان المضيف رجلاً مأذوناً صار من الواجب للمتأهل أن يتناول رفده أما إذا كان المضيف ليس مأذوناً فلا يسمح بالذهاب إلى بيته وفى أى حال فليس من الصواب تناول الرفد كما قال سهل بن عبد الله التسترى «الزلة ذلة».



فصل

فى آداب مشيهم

قال الله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾(١) وطلب الله تعالى يلزم أن يعرف فى مشيته فى كل خطوة، هل هى لله أو لغير الله، فإذا كانت لغيره سبحانه وتعالى وجب عليه أن يستغفر، وإذا كانت له سبحانه وجب عليه المحافظة عليها وزيادتها وقد أخذ داود الطائى ذات يوم دواء فقيل له: ادخل إلى صحن هذه الدار حتى تظهر لك نتيجة هذا الدواء فقال إنى استحى أن يسألنى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لماذا مشيت خطوات فى هوى نفسك، قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢) .

لذلك فالدرويش يلزم أن يمشى الهوينا مطأطئا رأسه فى مراقبة ويقظة ناظراً لأى جهة إلا أمامه فإذا قابل أى إنسان فى طريقه فلا يلزم أن يتنحى عنه محافظة على ثيابه لأن المسلمين كلهم طاهرون وكذلك ثيابهم ومثل هذا العمل غرور وإعجاب بالنفس.

أما إذا كان الذى قابله كافراً أو عاصياً فله أن يلتفت عنه بالمرة، وإذا مشى مع جماعة فلا يلزمه أن يتقدمهم لأن ذلك زيادة فى الإعجاب ولا يتأخرهم لأن ذلك زيادة فى الذل والذل الذى ترغب فيه نفسك هو فى الحقيقة إعجاب. ويلزم المحافظة على نظافة نعليه بقدر الإمكان فى النهار حتى يحفظ الله عليه ببركة ذلك نظافة ثيابه فى الليل وإذا كان أحد الدراويش أو بعضهم مع أى إنسان لا يلزم أن يقف فى الطريق ليتكلم معه ولا يلزمه أن يقول له انتظرنى وأن يمشى الهوينا ولا يسرع وإلا كان مشيه مشابهاً للحريصين ولا يبطئ فى مشيه لأن ذلك يشبه مشى المتكبرين ويلزم أن يمشى

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٣.

(٢) سورة يس آية ٦٥.

بطول خطواته وبالاختصار فمشى طالب الحق يلزم أن يكون علي الوصف الذي إذا سأله أى إنسان عنه أجابه على الفور ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(١) وإلا كان مشيه لعنة عليه لأن صحة الخطوات من صحة الخطرات.

لذلك فإذاكانت أفكار الإنسان منحصرة فى الله تعالى كانت قدماه متابعة لفكره. قال أبو يزيد مشى الدرويش علامة الغفلة عن الله تعالى لأن كل ما هو موجود يتوصل إليه بخطوتين خطوة بعيدة عن صالح النفس وخطوة ثابتة على أحكام الله تعالى ومشى الطالب علامة على أنه يقطع المسافة وحيث أن القرب من الله تعالى ليس بمسألة مسافة فماذا يعمل الطالب إلا بقطع رجليه فى دار السكون.

فصل
فى شروط نومهم فى السفر والحضر

يوجد اختلاف كبير بين آراء المشايخ فى هذا الموضوع فالبعض متمسكون أنه لا يسمح للطالب بالنوم إلا فى حالة الغلبة حينما لا يستطيع أن يقاوم النوم لأن رسول الله ﷺ قال: «النوم أخو الموت»[1] ومادامت الحياة نعمة من الله تعالى والموت بلاء لزم أن تكون الحالة الأولى أكمل من الأخرى.

يروى عن الشبلى أنه قال: « لقد اطلع الحق على فقال من نام غفل ومن غفل حجب».

والبعض يقولون إن الطالب له أن ينام إذا أراد بل يجب عليه أن ينام ولا يتكلف فى ذلك إذا أدى الواجبات الإلهية لأن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى ينتبه وعن الطفل حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق»[2] لأن الإنسان إذا نام أمن الناس بوائقه وانقطع عنه اختياره ووقف الحفظة عن تسطير أعماله ولم يقل لسانه باطلاً أو ينطق بغيبة فى حق أخيه أو إعجاب: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[3] .

فلذلك قال سيدنا ابن عباس رضى الله عنهما: «لا شئ أشد على إبليس من نوم العاصى فإذا نام العاصى يقول متى ينتبه حتى يعصى الله» وهذا موضع خلاف بين الجنيد وعلى بن سهل الأصفهانى حيث كتب الأخير للجنيد مقالة جميلة سمعتها ومقصوده فيها أن النوم غفلة والراحة التفات عن الله تعالى والعاشق لا يلزمه أن ينام أو ينعس ليلاً أو نهاراً وإلا فقد مقصوده ونسى نفسه وعجز حاله عن الوصول إلى الله تعالى كما أوصى الله تعالى داود عليه السلام

---

(١) أخرجه البيهقي عن جابر .

(٢) رواه أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه.

(٣) سورة الفرقان آية ٣.

«كذب من ادعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى» فقال الجنيد رداً على ذلك بقوله أن يقظتنا تتضمن أعمال عبادتنا لله تعالى أما نومنا فهو عمل الله لذا فما كان وارداً من الله تعالى لنا بدون قوتنا وحولنا هو أكمل مما يرد منا إليه سبحانه بحولنا وقوتنا.

والنوم موهبة من الله تعالى يكرم بها من أحبوه وهذا السؤال راجع إلى مذاهب الصحو والسكر الذى تقدم بيانهما ومن الغريب أن الجنيد الذى كان صاحب صحو يؤيد مذهب الغلبة فى هذا الموضوع ويبدو أنه كان مغلوباً عليه فى الوقت الذى كتب فيه هذا وإن حاله توضحه عبارته وربما كان أيضاً أن الحالة ضد ما نفهم، وإن النوم هو فى الحقيقة صحو بينما الصحو هو حقيقة الغلبة لأن النوم صفة إنسانية والإنسان يكون فى حال الصحو ما دام فى ظل صفاته، وعدم النوم من جهة أخرى صفة إلهية والإنسان إذا تعدى صفته صار مغلوباً عليه.

وقد اجتمعت بكثير من المشايخ الذين يوافقون الجنيد فى تفضيل النوم على اليقظة لأن مشاهد الأولياء وأكثر الأنبياء حصلت فى النوم وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله سبحانه يباهى بالعبد الذى نام فى سجوده، ويقول انظروا يا ملائكتى إلى عبدى روحه فى محل النجوى وبدنه على بساط العبادة»[1].

وقد قال أيضاً ﷺ: «من نام على طهارة يؤذن لروحه أن تطوف بالعرش ويسجد لله للرحمن» قرءت فى حكايات السلف أن شاه بن شجاع السكرمانى مكث مستيقظاً أربعين سنة فنام ذات ليلة فرأى الله سبحانه وتعالى وبعد ذلك صار ينام دائماً رغبة فى رؤية هذا المشهد وهذا معنى بيت قيس بن الملوح العامرى:

وإنى لأستغشى وما بى نعسه لعل خيالا منك يلقى خياليا

---

(١) هذا يخالف طبيعة البشر، كما يخالف هدى رسول الله ﷺ الذى قال عن الثلاثة الذى سألوا عن عبادته وكأنهم تقالوها فقال أحدهم: أصوم ولا أفطر، وقال الثانى أقوم الليل ولا أنام وقال الثالث: لا أتزوج النساء فقال ﷺ ردا عليهم: أنه يصوم ويفطر ويقوم وينام ويتزوج النساء ثم قال: (فمن رغب عن سنتى فليس منى).

هذا وإن بعض المشايخ الذين رأيتهم يوافقون على بن سهل فى استحقاق اليقظة فى النوم لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام أخذوا رسالتهم والأولياء كرامتهم وهم أيقاظ قال بعضهم «لو كان فى النوم خير لكان فى الجنة نوم» يعنى ذلك أنه إذا كان النوم سبباً لمحبة الله تعالى والقرب، منه للزم أن يكون فى الجنة نوم لأن الجنة هى دار القرب وحيث أنه لا يوجد فى الجنة نوم ولا حجب فلنعلم أن النوم حجاب والمتظرفون يقولون أن آدم عندما نام فى الجنة خرجت حواء من جنبه الأيسر وهى أصل كل بلاء[1].

ويقولون أيضاً أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال لإسماعيل: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[2] قال: هذا جزاء من نام عن حبيبه لو لم تنم لما أمرت بذبح الولد.

وكان الشبلى كل يوم يضع قدحاً من الماء المالح بجواره حتى إذا غلب عليه النعاس وضع المرود فيه ثم مس به جفنيه. وقد تقابلت مع أحد المرشدين وكان ينام بعد أداء فرائضه. وكذا رأيت الشيخ أحمد السمرقندى البخارى الذى لم ينم مدة أربعين سنة بالليل لكنه كان ينام قليلاً فى النهار وهذه المسألة ترجع بنا إلى موضوع الموت والحياة فمن فضل الموت على الحياة استحسن النوم على اليقظة ومن أحب الحياة على الموت استحسن اليقظة على النوم والفضل كل الفضل ليس للرجل الذى يتكلف اليقظة ولكن لمن كان يقظاً

ورسول الله ﷺ الذى رفعه الله تعالى لم يكن يتكلف النوم أو اليقظة بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾[3] والكرامة أيضاً ليست للرجل الذى يتكلف النوم وإنما هى لمن أنامه محبوبه

---

(١) هذا كلام مردود. فالمرأة والرجل خلقا من نفس واحدة ولم يرد فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية الشريفة أن المرأة أصل كل بلاء، وهذا الكلام من الإسرائيليات وليس له أساس من الصحة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

(٢) سورة الصافات آية ١٠٢. (٣) سورة المزمل آية ١-٣.

حيث أن أهل الكهف لم يرغبوا فى النوم أو اليقظة ولكن الله سبحانه وتعالى ألقى عليهم النعاس وأيقظهم متى شاء بغير إرادتهم لقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾[1].

فإذا وصل الرجل إلى الدرجة التى لا يكون له مراد ويتخلص من كل أمر ولا يشتغل بغير الله سبحانه وتعالى فإنه لا بأس عليه إن نام أو استيقظ حيث أنه فى كلا الحالتين موضوع الإكرام.

أما عن نوم المريد فإنه يلزمه أن يعتقد عند نومه أنها آخر نومة له فيتوب من ذنوبه ويرضى كل من يطالبه بحق ما يلزمه أن يتوضأ للنوم وينام على جنبه الأيمن مستقبلاً القبلة فإذا أتم كل أمور دنياه على ما بينا سالفاً يلزمه أن يشكر الله سبحانه وتعالى على نعمة الإسلام وأن يعزم أنه إذا استيقظ من هذه النومة أن لا يعود إلى المعصية.

هذا وإن كان من رتب كل أموره الدنيوية والأخروية لا خوف عليه من نوم أو موت.

ورويت لنا الحكاية التالية نقلاً عن أحد كبار المشايخ أنه اعتاد أن يزور إماماً من الأئمة وكان ذلك الإمام منغمساً فى حفظ شهرته وجاهه ومنصبه حتى أنه وقع فريسة لغرور نفسه فكان يقول له أيا فلان أنك ستموت فأحرجت الإمام كلماته هذه وقال لماذا اعتاد هذا الرجل الشحاذ أن يكرر كلماته على فقال ذات يوم أنا سأبادئه بتلك الكلمة باكر فلما غدا إلى الشيخ قال له الإمام: يا فلان بن فلان أنك ستموت فوضع الرجل مصلاته وفرشها ووضع رأسه عليها ثم قال: قدمت فخرجت روحه فاتعظ من ذلك الإمام وعلم أن ذلك الشيخ حذره بهذا العمل أن يستعد للموت كما فعل.

وكان شيخى يأمر تلاميده بعدم النوم إلا أذا غلب عليهم النعاس إذا استيقظوا لا يلزمهم النوم مرة ثانية وذلك لأن النوم الثانى مكروه وبطالة لطلاب الصوفية - مطلوبهم هو الحق - وفى هذا المعنى كلام كثير والله أعلم.

---

(١) سورة الكهف آية ١٨.

فصل
يختص بشروط كلامهم وصمتهم

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾(٢) وقال أيضاً: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾(٣)، قد أمر الاله تعالى عبيده بأن يقولوا الحق وذلك بالإقرار بربوبيته وبحمده ولدعوة خلقه إليه والكلام نعمة كبرى أفاضها الله تعالى على الإنسان وبها امتاز عن سائر المخلوقات وبعض مفسرى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(٤) يفسرونها بنعمة الكلام ومع كل ذلك فالكلام فيه أكبر الشرور حيث أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف على أمتى اللسان» .

وبالاختصار الكلام كالخمر يسكر العقول وحينما يقع المرء فى شراكه لا يستطيع الخروج منها أبداً، وقد علم الصوفية أن الكلام مضر فسكتوا عنه إلا عند اللزوم يعنى أنهم نظروا إلى أول وآخر كلامهم فإذا كان كله لله تكلموا وإلا سكتوا لأنهم يعتقدون حقاً أن الله سبحانه وتعالى مطلع على خفيات السرائر لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٥).

وقال رسول الله ﷺ: «من صمت نجا»(٦) والسكوت فيه خيرات عظيمة وفتوح كبيرة والكلام فيه كثير من الشرور، وبعضهم فضل السكوت على الكلام والبعض خالفهم ومن بين الأول الجنيد لأنه قال: «الكلام كله ادعاء وحينما وجدت الحقيقة بطل الادعاء». وفى بعض الأحيان يكون من الجائز عدم الكلام ولو أن الإنسان يحب ذلك لأن الخوف يكون عذراً لسكوته، ومع مقدرته

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣.
(٢) سورة البقرة اية ٢٦٣.
(٣) سورة البقرة آية ١٣٦.
(٤) سورة الإسراء آية ٧٠.
(٥) سورة الزخرف آية ٨٠.
(٦) رواه أحمد والترمذي .

على الكلام وترك التكلم فى الحق لا ينافى وجود المعرفة ولكن لا يسمح للإنسان فى أى وقت بإلقاء دعوى خلو من الحقيقة لأن ذلك هو النفاق بعينه والادعاءات بدون حقيقة هى نفاق والحقيقة بغير دعوى هى الإخلاص «لأن من أسس بنيانه على بيان استغنى فيما بينه وبين ربه عن اللسان».

إذا العبارة إنما تستعمل فى تعريف ما سوى الله لأن الله سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى عبارة تبين أحوالنا وما سوى الله لا يساوون شيئاً حتى نشغل أنفسنا بهم وذلك معنى قول الجنيد: «من عرفِ الله كل لسانه» لأنه ليس بعد العيان بيان والبيان هنا حجاب.

يروى أن الشبلى وقف مرة فى مجلس الجنيد ونادى بأعلى صوته: «يا مرادى مشيرًا بذلك إلى الله سبحانه وتعالى فقال له الجنيد يا أبا بكر إذا كان الله سبحانه وتعالى مرادك فلماذا تشير إليه باللفظ وهو منزه عن ذلك، وإذا كان مرادك غير الله سبحانه وتعالى فالله سبحانه وتعالى أعلم به فلماذا تقول باطلاً» فطلب الشبلى المغفرة من الله سبحانه وتعالى على تلفظه بتلك الكلمات.

أما من جعلوا الكلام فوق السكوت، فبرهانهم على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمرنا ببيان أحوالنا لأن الدعوى تقوم بالمعنى لأنه إذا كان الإنسان يكتفى بمعرفة ربه بقلبه ألف سنة ولم يبرهن على معرفته سبحانه وتعالى فحكمه حكم الكافر ما لم يكن سكوته صادراً عن أمر اضطرارى وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بحمده والثناء عليه والشكر على نعمائه لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(١) وقد وعد أنه يجيب من دعاه لقوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٢) فهذا أحق الربوبية وقال أيضاً ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(٣) وما يشبه ذلك.

---

(١) سورة الضحى آية ١١.

(٢) سورة غافر آية ٦.

(٣) سورة البقرة آية ١٨٦.

وقال أحد المشايخ إنه: «كل من لم يبين حاله فلا حال له فناطق الوقت هو الوقت».

لسان الحال أفصح من لساني وصمتي عن سؤالك ترجماني

وقد قرأت: أن أبا كر الشبلي كان يسير ذات يوم في الكوخ ببغداد فسمع منافقاً يقول السكوت خير من الكلام فأجابه الشبلي قائلاً «سكوتك أفضل من كلامك لكن كلامي أفضل من سكوتك لأن كلامك لغو وسكوتك هزل بينما سكوتي حلم وكلامي علم».

وإني أقول أنا علي بن عثمان الجلابي أنه يوجد نوعان من الكلام ونوعان من السكوت: فالكلام إما حق وإما باطلاً والسكوت إما لبلوغ هدف وإما عن غفلة، فمن تكلم الحق كان كلامه أفضل من سكوته ومن تكلم الباطل كان سكوته أفضل من كلامه، وإذا كان السكوت لبلوغ المقصود فهو سكوت مشاهدة وأفضل من الكلام، وإذا كان من الحجاب والغفلة فالكلام أفضل منه.

والناس في هذا المعنى متحيرون فهناك جماعة من المدعين أخذوا يتشدقون بعبارات لا معنى لها ولا هدف وأخذوا يقولون أن كلامهم هذا أفضل من السكوت وهناك جماعة من الجهال لا يعلمون البئر من المنارة والسكوت مرتبط بجهلهم أخذوا يقولون: الصمت أفضل من الكلام، أو كلاهما مثل الآخر، وهم يجهلون لمن ينطقون ولمن يسكتون وهذا هو أصل المعنى والله أعلم بالصواب.

مثل: «من نطق أصاب أو غلط ومن أنطق عصم من الشطط» فابليس قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[1] ولكن آدم وفقه الله تعالى لأن قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف آية ١١.
(٢) سورة الأعراف آية ٢٣.

والدعاء إلى الله تعالى إما أن يكون مسموحاً لهم أو مجبرين على الكلام، والحياء والحصر هما اللذان يسكتانهما. «فمن كان سكوته حياء كان كلامه حياة» لأن كلامه نتيجة المشاهدة والكلام عن غير مشاهدة لا منفعة فيه وهم يختارون السكوت ما داموا مع أنفسهم، لكنهم أذا خرجوا من تلك الحضرة كانت كلماتهم منقوشة على قلوب بنى آدم.

وكذلك قال المرشد: «من كان سكوته مع الله ذهباً كان كلامه مع غيره مذهباً» وطالب الحق المشغول بعبادة ربه يلزمه السكوت لكى يتمكن الكامل الذى بلغ السيادة أن يتكلم بكلامه بأسر قلوب مريديه.

وآداب الكلام أن لا تتكلم حتى تسأل ولا تتكلم إلا بما أمرت به وكذلك آدابهم فى السكوت أن لا تكتفى بالجهل ولا ترضى به أو بالنسيان والمريد لا يلزمه أن يقطع كلام أستاذه، أو يدخل حكمه فيه، أو يبرهن على أسئلته بعبارات بعيدة، ويلزمه أن لا ينطق بكذب ولا يغتاب أخاً له ولا يسبه بلسانه الذى خلق ليقر بشهادة الإيمان وبوحدانية الله سبحانه وتعالى، ولا يلزمه أن يدعو الدرويش فى سكوته أن لا يسكت على بدعة، وإذا تكلم أن يتكلم بالحق.

وهذا الموضوع له فصول عديدة ولطائف لا حصر لها ولسنا فى موضع البحث والخوض فيها لئلا يطول كتابنا هذا.

فصل
فى كيفية سؤالهم

قال الله تعالى: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[(١)] ولا ينبغى أن تردهم فى سؤالهم لك لأن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[(٢)] وبقدر ما يمكنهم يلزمهم السؤال فى الله سبحانه وتعالى فقط، لأن السؤال يدخل فيه الإلتفات عن الله سبحانه وتعالى إلى نفسه، وحينما يعرض العبد يكون هناك خوف من أن يعرض عنه الله سبحانه وتعالى.

سمعت أن أحد أهل الدنيا قال لرابعة العدوية: يا رابعة، سلينى أى شئ حتى أحضره لك فردت عليه قائلة: يا سيدى إنى لأستحى أن أسأل شيئاً من خالق الدنيا فكيف لا أستحى أن أسأل شيئاً من مخلوق مثلى.

يروى أنه كان فى عصر أبى مسلم المروزى صاحب الدعوة رجل فقير قبض عليه العسس بتهمة السرقة وسجن فى جهار طاق بمرور، ففى تلك الليلة رأى أبو مسلم الخراسانى أن رسول الله ﷺ أتاه وقال له: إن رب العزة أرسلنى لأخبرك أن واحداً من أحبابه فى سجنك فقم وأخرجه ، فقام أبو مسلم فزعاً من نومه وجرى عارى الرأس والقدم إلى باب السجن وأمر بتسريح الدرويش وطلب منه العفو ثم قال له: سلنى أى شئ.

فقال له: أيها الأمير من كان له سيد يوقظ أبا مسلم ويفزعه عارى الرأس والقدم من الفراش الوثير فى نصف الليل ويرسله لإخراجه مما ألم به كيف يسأل غيره مسألة؟ فبكى أبو مسلم وذهب الدرويش إلى حاله. وبعضهم يقول أن الدرويش له أن يسأل من إخوانه ما دام الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لا

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣.

(٢) سورة الضحى آية ١.

يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[١] أعنى أنهم يسألون ولكن لا يلحفون، ورسول الله ﷺ سئل لضيافة أصحابه وقال: «اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه»[٢]. والصوفية يعتبرون المسألة جائزة فى ثلاثة أحوال:

أولها: لحفظ قلوبهم من الاشتغال بغير الله لأنهم يقولون: إننا لا نجعل أهمية الرغيفين حتى ننتظرهما طول النهار والليل فإذا جعنا لا نطلب شيئاً من الله غيرهما لأنه لاهم أكثف من الاشتغال بالغذاء، لذلك فإن تلميذ شقيق عندما زار أبا يزيد وأجاب على سؤاله عن حالة شقيق مخبراً بأن شقيق انقطع كلية عن بنى آدم وتوكل فى كل أموره على الله.

قال له أبو يزيد إذا رجعت إلى شقيق قل له احذر أن تمتحن ربك برغيفين فإذا جاء فليسأل إخوانه وليترك التوكل المصطنع حتى لا يخسف الله بهذه المدينة من شؤم معاملته.

ثانيها: من الجائز لهم أن يسألوا لتهذيب نفوسهم والصوفية يسألون حتى يذوقوا ذل السؤال ويشاهدوا قدرهم فى أعين الناس فلا يتكبرون. ولما أتى الشبلى إلى الجنيد قال له الجنيد: يا أبا بكر إن رأسك ملأى بالغرور لأنك ابن حاجب حجاب المدينة وأمير سامرا ولا يحصل لك خلاص حتى تذهب إلى السوق تسأل كل من تراه لكى تعرف مقدارك.

فأطاع الشبلى وسأل فى السوق ثلاث سنوات وفى كل يوم يزداد الناس استخفافاً به حتى أنه ذهب مرة إلى السوق فلم يجد دانقاً فرجع وأخبر الجنيد بذلك، فقال له الجنيد الآن يا أبا بكر رأيت أنك لا تساوى شيئاً فى أعين الناس فلا يشتغل قلبك بهم.

والأمر بالسؤال إنما جعل للتربية لا للكسب. يروى عن ذى النون المصرى أنه قال كان لى صاحب متوكل على الله تعالى فرأيته ذات يوم بعد وفاته فى

---

١) سورة البقرة آية ٢٧٣.

(٢) أخرجه البخارى والطبراني عن عائشة والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس.

عالم الرؤيا فسألته عما فعل الله به فقال لى، قد عفا عنى فقلت بأى شئ فقال إن الله سبحانه وتعالى أوقفنى على قدمى وقال لى يا عبدى صبرت على ذل المسألة والمهانة من أحقر الناس والبخلاء الذى كنت تمد يدك إليهم فلذلك عفوت عنك.

ثالثها: أنهم يسألون الناس إجلالاً لمقام ربهم فهم يعتبرون أن متاع الدنيا ملك لله تعالى وأن الناس مستخلفون فى هذا المتاع ووكلاء عنه فمنهم لا من الله نفسه يسألون ما يصلح نفسهم البشرية وفى عين العارف بالمسألة يكون العبد الذى يقدم طلبه لوكيل أشد احتراماً وطاعة ممن يسأل الله تعالى[1]، لذلك كان سؤالهم لغير الله علامة الحضور والالتفات عن غيره سبحانه ولا تكون علامة على الاستغناء ولا للالتفات عنه.

قرأت أن يحيى بن معاذ الرازى كان له ابنة سألت أمها حاجة ذات يوم فقالت لها اطلبيها من الله سبحانه وتعالى فقالت لها الفتاة إنى لأستحى أن أطلب منه سبحانه حاجة دنيا وما تعطينيه فهو منه أيضاً وما قسمه لى.

وشروط المسألة كما يأتى:

أنك إذا لم تنل شيئاً يزداد سرورك عما لو نلت شيئاً بسؤالك، وأن لا تعتبر أن مخلوقاً يكون بينك وبين ربك، وأن لا تسأل من النساء ولا من أصحاب الأسواق، وأن لا تبوح بسرك إلا لمن تعتقد فى ماله الحلال، وتتحرى

---

(١) موضوع سؤال الناس لدى بعض الصوفية يخالف سنة رسول الله ﷺ لما روى أنه ﷺ رأى رجلاً يديم الجلوس بالمسجد فسأل عمن يعوله فقالوا: أخاه قال ﷺ: أخوه أعبد منه.
أما من يسأل غير الله فيخالف قوله ﷺ: إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله.
وقد استنكر ابن خلدون هذا الاتجاه من الصوفية فى مقدمته لأن ترك المسلمين للدنيا يمكّن لأعدائهم ويجعلهم فى تأخر مستمر يأخذون ولا يعطون وهذا يخالف هدى رسول الله ﷺ: القائل: «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها». وقوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» فيجب أن يسلك الإنسان طريقاً وسطاً، لا إفراط ولا تفريط.

بقدر ما يمكنك أن لا تتطمع وأن لا تجعلها سلما لجمع الدنيا أو لا ستبدالها بمتاع، وأن تعيش بما تجده ولا تهتم بغد وإلا وقع السائل فى الهلاك الأبدى، وأن لا تجعل الله عرضة لنيل الصدقة ولا تستعمل التقوى لنوال الصدقة.

رأيت مرة أحد كبار الصوفية كان قد ضل الطريق فى الصحراء وأتى جائعاً إلى سوق الكوفة وبيده عصفور وهو يقول: أعطونى شيئاً لأجل هذا العصفور، فسأله الناس لماذا تقول كذلك، فقال لهم إنه من المستحيل على أن أقول اعطونى شيئاً لله، إذ الواجب علي الإنسان أن يجعل الواسطة لنيل الأمور الدنيوية شيئاً تافهاً مثلها.

وهذا قليل من كثير من الواجبات اللازمة فى السؤال وقد اختصرت فى هذا الموضوع مخافة أن يمل القارئ.

فصل

فى آداب الزواج والعزوبة عندهم وفى الأمور المختصة بها

قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «أعظم النساء بركة أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً» .

والزواج مباح لكل الرجال والنساء وواجب على من لا يمكنهم الامتناع عن الحرام وهو سنة عملية عن رسول الله ﷺ على كل قادر وبعض الصوفية يتمسكون بأن الزواج مرغوب فيه وذلك لإخماد الشهوة ونيل العصمة وإراحة القلب من الاهتمام به والبعض يقولون: إن القصد من الزواج هو الأنس لأن الطفل إذا مات قبل والده تشفع به أمام ربه وإذا مات والده قبله أبقى له من يدعو له بعد وفاته.

وفى الخبر أن عمر بن الخطاب خطب أم كلثوم بنت فاطمة بنت محمد ﷺ من أبيها على رضي الله عنه فقال على: إنها صغيرة جداً وأنت رجل عجوز وعندى نية أن أزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر، فأرسل إليه عمر: يا أبا الحسن إن فى الدنيا نساء كثيرات كفئاً لى ومرادى من أم كلثوم إثبات النسب لا دفع الشهوة لقوله ﷺ: كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى[2]، والآن فإن لى سبباً ينبغى أن يتصل به النسب ويتوثق فزوجها له على. وولدت له زيد بن عمر.

قال ﷺ: «تنكح النساء على أربعة على المال والحسب والحسن والدين فعليكم بذات الدين فإنه ما استفاد امرؤ بعد الإسلام خيراً من إمرأة مؤمنة يسر بها إذا نظر إليها».

وقد قال رسول الله ﷺ: «الشيطان مع الواحد» لأن الشيطان يزين

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر.

الشهوة للمرأة المنفردة أو الرجل المنفرد أمام أنظاره ولا صحبة أجمل وآمن من الزواج بأن يكون الزوج والزوجة متفقين ولائق أحدهما لصاحبه، ولا قلق أشد من زوجة غير صالحة أو غير موافقة. والدرويش عليه أن يلاحظ فى أول مرة ما هو فاعله ويصور فى عقله مضار العزوبة والزواج حتى يختار الحالة التى يمكنه بها أن يتغلب على تلك المضار.

فمضار العزوبة أثنان: ترك سنة، واشتغال القلب بالشهوة، وخطر الوقوع فى الحرام، ومضار الزواج اثنان كذلك اشتغال القلب بغير الله واشتغال الجسم بالملاذ الحسية.

واصل هذه المسألة راجع إلى موضوع العزلة والصحبة فالزواج خير لمن فضلوا الاجتماع بالناس والعزوبةهى حلية للطالب المتجرد عن الدنيا الذى اعتزل الناس. وقد قال رسول الله ﷺ: «سيروا سبق المفردون».

وقد قال الحسن البصرى: «نجا المخفون وهلك المثقلون».

ويروى إبراهيم الخواص أنه ذهب مرة إلى بلد ما لزيارة رجل صالح قال فلما دخلت بيته رأيت بيتاً نظيفاً كصومعة ولى وفى ركنيه محرابان أحدهما محل جلوس الرجل وفى الآخر محل إمرأة عجوز جالسة هناك نظيفة وكلاهما غلب عليه الضعف من العبادة ففرحا لمقابلتى، ومكثت معهما ثلاثة أيام فلما أردت الإنصراف سألت الرجل عن صلة هذه المرأة به فقال لى أنها ابنة عمى وزوجتى، فقلت أن ما رأيته بينك وبينها فى تلك الأيام دلنى أنكما غرباء فقال لى نعم ولقد كانت كذلك منذ خمس وستين فسألته عن السببب فقال لى كنا فى حال صبانا أحب أحدنا الآخر ولكن والدها أبى أن يزوجنيها لما ظهر عليها فى الحب، فتحملت ألم البعد عنها مدة حتى توفى والدها فزوجنيها والدى، وفى ليلة عرسنا قالت لى قد علمت أن الله سبحانه وتعالى أكرمنا بهذا الزواج ومقدار ما نشعر به من السعادة وما أخرجه من الخوف من قلوبنا فلنقم هذه الليلة بعبادة الله سبحانه وتعالى ولنتجاوز هوى النفس شكراً

لله تعالى على هذه المكرمة، فقلت لها نعم وطلبت منى ذلك فى الليلة التالية وفى الليلة الثالثة قلت لها إننا قد قمنا بشكر الله تعالى فى الليلتين الماضيتين لأجلك فلنقم هذه الليلة لأجلى، وقد مضى عليها وقد مضى علينا خمس وستون سنة ونحن على هذا الحال لم يمس أحدنا الآخر بل مضينا طول عمرنا فى شكره سبحانه وتعالى على ما أنعم به علينا.

وعلى ذلك يجب على الدرويش إذا اختار الصحبة أن يحضر لزوجته طعاماً حلالاً وأن يدفع مهرها من مال حلال وأن لا ينغمس فى هواه حتى يترك بذلك فرضاً أو سنة أو يهمل فى أدائها، فإذا أدى الفرائض وأراد أن يدخل مخدعها وتحركت فيه شهوته فليقل فى نفسه مخاطباً ربه اللهم يامن مزجت الشهوة بطينة آدم لعمارة الدنيا وإنك فى سابق علمك أردت أن يكون هذا فاجعل اللهم هذا العمل لأمرين أحدهما أن أحفظ نفسى من الوقوع فى الحرام بعمل الحلال، والآخر أن تهبنى ولداً صالحاً تقياً لا ولداً شقياً يشغلنى عنك.

يروى أن سهل بن عبد الله التسترى رزق بولد اعتاد هذا الصبى أنه كلما سأل أمه طعاماً تقول له اسأل الله يعطيكه، وحينما يذهب إلى المحراب ويسجد لله للصلاة تضع وراءه بأكثر ما كان يريد بدون أن تعلمه بذلك، فاعتاد على التوكل والرجوع إلى الله تعالى فى كل حال فأتى ذات يوم مبكراً إلى المنزل وكانت والدته خارج الدار فسجد للصلاة كعادته فأرسل الله له ما كان ينتظره، فلما أتت والدته سألته من أين أخذت هذا فقال لها من المحل الذى يأتى منه دائماً.

وكان زكريا حين يذهب إلى مريم يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فلما سألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ .

وأن إقامة السنة هذه يجب أن لاتقود الدرويش للبحث عن متاع الدنيا والكسب الحرام أوانشغال قلبه به لأن إفلاس الدرويش هو بخسارة قلبه، كما

أن إفلاس الرجل الغنى بخسارة داره وأثاثه، ولكن الغنى يمكنه أن يسترجع ما فقد، أما الدرويش فلا يمكنه وإنه من المستحيل فى عصرنا هذا أن يجد زوجة موافقة قليلة الحاجات موافقة الطلبات، ولذلك فإن كثيرًا من الناس اتخذوا العزوبة ملاحظين فى ذلك الحديث الشريف «خير الناس فى آخر الزمان خفيف الحال» قيل يا رسول الله من خفيف الحال قال: «الذى لا أهل له ولا ولد»[1].

ومن الآراء التى أجمع عليها مشايخ هذا الطريق أن أكمل وأحسن الصوفية هم العزاب إذا كانوا غير مشتغلى القلوب وإذا كانت طبائعهم لا تميل إلى المعصية والشهوة، والعوام يرجعون إلى حديث رسول الله ﷺ للابتهاج بلذتهم وذلك هو قوله ﷺ «حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[2] ويقولون حيث أنه كان يحب النساء فالزواج أكمل من العزوبة. فأقول لهم أن رسول الله ﷺ قال أيضاً: «إن لى حرفتان الفقر والجهاد»[3].

فلماذا يتركون هذين الأمرين فإذا كان أحب الزواج فالعزوبة حرفته وحيث أن رغبتكم مائلة إلى الأمر الأول لذلك كان من الخطأ الباطل أن تقولوا إنه يحب ما ترغبون فيه على هذا الزعم وكل من اتبع هواه خمسين سنة معتبراً أنه متابع للسنة فهو فى خطأ محض فالمرأة هى السبب فى خطيئة آدم فى الجنة وهى أيضاً السبب فى أول فتنة حصلت فى هذه الدنيا أى فتنة قابيل وهابيل والمرأة هى السبب فى العقاب الذى عوقب به هاروت وماروت لما أراد الله أن يعاقب ملكين وإلى وقتنا هذا فكل معصية أو خطأ حصل فى هذه الدنيا دينية كانت أو دنيوية فأصلها من النساء[4] قال ﷺ: «ما

---

(١) ، (٢) أخرجه أحمد فى مسنده والنسائى والبيهقي فى السنن عن أنس.

(٣) ونص الحديث (أى الأعمال أفضل قال إيمان بالله ورسوله قال ثم ماذا قال: جهاد فى سبيل الله) صحيح البخارى ١٤١/١ . مسند أحمد ٧٥٨/١٤ - ٧٦٢٩.

(٤) ليس ذلك على إطلاقه، فهناك فتن أصلها من الرجال وأخرى من النساء ذكر المصنف رحمه الله من أن كل فتن الدنيا من النساء.

تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»[1] ففتنتهم فى الظاهر كثيرة فما بالك بالباطن؟؟؟ ولقد حفظنى الله تعالى من مخاطر الزواج أثنتى عشر مرة سنة وقدر على أن أعشق إمرأة بوصفها مع انه لم تقع عينى عليها فمضت على سنة عالجت فيها ألم الشهوة حتى كدت أن أقع فى التهلكة لكن الله سبحانه وتعالى أكرمنى فحفظ على قلبى الكسير والحمد لله على جزيل نعمائه.

وبالاختصار فالصوفية مؤسسة على العزوبة وحين يدخل الزواج فيها تتبدل الأمور إما لأن لكل شهوة ما يخمد نارها بقوة الحزم وذلك لأنه مهما صدر عن نفسك من رغبة فى شهوة فإن عندك الوسيلة التى بها يمكنك أن تتخلص بها من هذا المحظور.

وكبح الشهوة بأمرين فالأول أن يكون تكلفاً أما الثانى فإنه عن دائرة الكسب والمجاهدات، فالأول هو الجوع، والثانى هو الاضطراب بالخوف والمحبة الصادقة التى تجتمع بشتات الأهواء، هذه المحبة هى التى تبسط نفوذها على كل أعضاء الجسد وتضعف كل الحواس الشهوانية وتجذب العبد بتمامه.

هذا وإن أحمد حمادى السرخسى الذى ذهب إلى العراق وعاش هناك كان رجلاً موقراً فلما سئل هل لك فى الزواج حاجة؟ قال لا. لأنى إما أن أكون غائباً عن نفسى أو حاضراً معها فإذا كنت غائباً لم أجد لى ميلاً إلى كلتا الدارين، وإذا كنت حاضراً وضعت نفسى البشرية موضعاً إذا أعطيتها رغيفاً من الخبز ظننت أنها ملكت ألف حورية، وأنه لمن الكبيرة أن تشغل القلب فدعه يرغب فيما تريد.

هذا وإن البعض يوصون بأن لا يكون الزواج ولا العزوبة هوى متبعاً، وأن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والنسائى والترمذي وابن ماجه والبخاري ومسلم عن أسامة.

تنظر إلى مشيئته سبحانه وتعالى وما قدره علينا فإذا كانت العزوبة نصيبنا لزمنا أن نحفظ أنفسنا من الوقوع فى مهلكة، وإذا كان الزواج مقامنا لزمنا أن نحافظ على السنة المحمدية ونجاهد أنفسنا بأن نحفظ قلوبنا من الاشتغال بغيره، وإذا أراد الله العزوبة لإنسان ما يلزم أن تكون عزوبته كعزوبة سيدنا يوسف ﷺ الذى مع قدرته وتمكنه من زليخا رجع على نفسه واشتغل بإخضاع هواه وحبس نفسه فى الساعة التى كان مختلياً فيها مع زليخا.

وإذا منح الله الزواج لرجل لزمه أن يتمثل بسيدنا إبراهيم عيه السلام الذى كان سبب توكله على الله تجنب أى اهتمام بزوجته وذلك عند حدوث الغيرة من زوجته سارة وأخذ هاجر إلى واد غير ذى زرع وأودعها لله سبحانه وتعالى، لذلك فهلاك الإنسان ليس بالزواج ولا بالعزوبة ولكن الخطأ هو طلب الإنسان لمراده والإنقياد لحظوظه والمريد المتزوج يجب عليه أن يلاحظ الشروط الآتية وهى:

أن لا يترك إتمام فرائضة أو يفقد حالاً أو يضيع وقتاً وأن يكون رحيماً بزوجته ويتعهدها بالطعام الحلال والنفقة الحلال ولا يتردد على الظلمة والحكام لاستكمال نفقتها ويلزم المحافظة على هذا حتى إذا ولد له ولد يكون كما يحب.

يروى عن أحمد بن حرب النيسابورى حكاية مشهورة وهى أنه كان ذات يوم جالساً مع أكابر وعظماء نيسابور الذين أتو ليقدموا له الاحترام فدخل ولده عليهم سكراناً ومعه آلة «الرود» وهو يدندن عليها دون أن يعتبرهم، فلما شاهد علامة الغضب عليهم قال ما هى المسألة قالوا إننا تغيرنا واضطربت خواطنا وخجلنا من مرور هذا الولد أمامك وهو بهذه الحالة، فقال أحمد: إنه معذور لأنى أكلت أنا وزوجتى ذات ليلة من طعام أهداه إلينا جارنا وقد كان هذا الولد فى تلك الأكلة، ونمنا تلك الليلة وغفلنا عن فرائضنا فلما أصبحنا

سألنا جارنا من أين أتى بهذا الطعام الذى أرسله إلينا فوجدنا أنه أحضره من وليمة أحد الحكام لعرس له.

ويلزم على العازب أن يلاحظ الشروط الآتية:

أولا: أن لا ينظر إلى ما لا يجب النظر إليه ولا يرى ما لا يُرى ولا يفكر فيما لا يجب التفكير فيه، وأن يطفئ لهب شهوته بالجوع ويحرس قلبه من هذه الدنيا والاشتغال بطبيعتها ويلزمه أن لا يسمى ميول النفس بالمعرفة أو الإلهام وأن لا يجعل خدع الشيطان سببا للمعصية حتى يكون من المقبولين فى الطريقة.

وهذا اختصار لآداب الصحبة والمعاملة لأن القليل دليل على الكثير.



الباب الرابع والعشرون
كشف الحجاب العاشر
فى بيان منطقهم وحدود ألفاظهم
وحقائق معانيهم

اعلم أسعدك الله إن المشتغلين بأى حرفة أو عمل يستعملون عن فك رموزهم بعض الألفاظ والعبارات يعرفون معناها فقط وقد اخترعت هذه العبارات لأمرين أساسيين.

أولهما لتسهيل الفهم وتذليل المصاعب وتقريبها لفهم الطالب.

وثانيهما لحجب أسرار هذا العلم عن غير أهله.

والصوفية لهم أيضاً اصطلاحات فى بيان مذاكرتهم ولكن لم يكشفوا ويوضحوا معانيهم كما يحبون.

فلاهل اللغة مصطلحات خاصة مثل الفعل الماضى والمستقبل والصحيح والمعتل والأجوف واللفيف والناقص ومثل ذلك.

وأهل النحو يختصون بمصطلحات مثل الرفع والنصب والفتح والخفض. والجر والكسر والمنصرف وغير المنصرف وما يشبه ذلك.

وأهل العروض مختصون بعبارات موضوعاتهم مثل البحور والدوائر والوتد والفاصلة والفرد والزوج وما يشبه ذلك.

وأصحاب الحساب مختصون بعبارات مثل الضرب والجذر والإضافة والتضعيف والتصنيف والجمع والتفريق وما يشبه ذلك.

والفقهاء مختصون بعباراتهم مثل العلة والمعلول والقياس والاجتهاد والدفع والإلزام وما يشبه ذلك.

وأهل الحديث كذلك ومن عباراتهم المسند والمرسل والآحاد والمتواتر

والجرح والتعديل وما يشبه ذلك. وللمتكلمين عباراتهم مثل العرض والجوهر والكل والجزء والجسم والجنس والتخير والتولى، وما يشبه ذلك.

إذن فلهذه الطائفة[1] ألفاظ موضوعة فى ظاهر كلامهم وفى باطنه يتصرفون بها فى الطريقة ويخفون أو يبدون كما يشاءون إذن فلأورد بياناً مفصلاً وأفرق بين كل كلمة وأخرى حتى تتم لك ولقراء الكتاب الفائدة.

وسأبين بعض هذه الاصطلاحات وأوضح الإشارات المرتبطة بالألفاظ المزدوجة الكثيرة[2].

الحال والوقت

[الوقت]

الوقت هو اصطلاح متبادل بين الصوفية وقد تكلم المشايخ عنه كثيراً وموضوعى هو اثبات الحقيقة لا وضع العبارات الطويلة، فالوقت هو الفراغ مما مضى وما هو آت، مثال ذلك إذا ورد على النفس وارد حقيقى وصار به القلب مجتمعاً فإنه لا يشتغل بذكر ما مضى ولا الفكر فيما هو آت، وكل الناس واقعون فى هذا، ولا يعرفون ماهية الماضى ولا ما سيحدث فى المستقبل، وأرباب الأوقات الذين يقولون: لا شأن لعلمنا بإدراك مافات وما هو آت، نحن سعداء مع الله فى الوقت الذى نكون فيه، لأننا إذا شغلنا بالغد أو أذهبنا القلب حسرات على الأمس لحجبنا عن الوقت والحجاب اضطراب. إذن فكل مالا تبلغه اليد من العبث التفكير فيه كما يقول أبو سعيد الحزاز: «لا تشغل وقتك العزيز إلا بأعز ما هو موجود» وأعز ما هو عند البعد شغله الذى يشغله

---

(١) يقصد الصوفية.

(٢) يراجع فى هذه الاصطلاحات كتاب (لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام للقاشانى تحقيق أ.د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة د/ عامر النجار طبعة مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٥. وكذا اصطلاحات الصوفية لابن عربى.

لقوله ﷺ: «لى مع الله وقت لا يسعنى فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل» أى أن العوالم الثمانية عشر ألفاً لا تخطر لى على بال ولا تساوى مثقال ذرة فى نظرى، ولذلك فإنه فى ليلة المعراج عرض عليه ملكوت الأرض والسماء بكل أنواع الجمال فلم يلتفت إليها وذلك مصداقاً لقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(١) لأن المصطفى ﷺ عزيز والعزيز لا يهتم إلا بالعزيز.

والأوقات لا تخرج عن وقتين: أحدهما فى حالة الفقد، والآخر فى حالة الوجد، الأولى ف فى مقام الوصال والأخرى فى مقام الفرق وفى كلا الوقتين هو مقهور لأن وصله فى الوصل بالله تعالى وفرقه فرق عن الله تعالى، ولإثبات اكتسابه بينهما حتى يستطيع أن يصفها وحينما تغل يد العبد عن أوقاته فكل ما يفعله أو يراه فبالحق.

يروى عن الجنيد أنه قال: «رأيت درويشاً فى البادية قد جلس فى ظل بعض أشواك الحسك فى مكان فقر شديد الوعورة قلت له: ياأخى ما الذى أجلسك هنا؟ قال أعلم أنه كان لى وقت ضاع منى هنا فجلست فى هذا المكان اعض بنان الندم عليه، قلت: منذ متى قال مضت إثنتا عشرة سنة وهمتى فى العمل لعلنى أصل إلى مرادى واسترد وقتى، فذهبت وحججت ودعوت له ووجد بغيته. وعند عودتى من الحج وجدته جالساً فى ذلك المكان فسألته لماذا لم تذهب من هذا المكان بعد نيل بغيتك.

فقال: أيها الشيخ إنى أقمت فى هذا المكان القفر الذى أضعت فيه رأس مالى فهل فى العدل أن أتركه بعد أن وجدته فيه ثانية، والذى انست فيه بمشاهدة ربى، امض يا سيدى بسلام إنى سأمزج ترابى بتراب هذا المكان حتى أقوم يوم القيامة من تراب هذا المقام الذى صار به أنسى وسرورى، يقول المتنبى:

---

(١) سورة النجم آية ١٧.

فكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وليس لإنسان أن يبلغ حقيقة الوقت بحوله وقوته لأن الوقت هو ذلك الشئ الذى ليس فى ملك الإنسان حتى يمكن نيله بالمجاهدة، ولا يباع فى الأسواق حتى يشتريه الإنسان بنفسه وليس للإنسان حول على نيله ومنعه.

قال المشايخ «الوقت سيف قاطع» لأن من أوصاف السيف القطع والوقت يقطع جذور المستقبل والماضى ويفنى الإنشغال بالأمس والغد من القلب والشيف صاحب خطير لأنه إما ملك وإما هلك، ولو أن الإنسان يكرم سيفه ألف سنة ويحمله تحت عاتقة فإنه لا يفرق حين القطع بين رأس صاحبه ورأس الغير فالقهر من أوصافه ولا ينزع منه برغبة صاحبه أو غيره.

الحال

هو ما يتنزل على الوقت فيجعله كما يحمل الروح الجسد فالوقت يحتاج إلى الحال لأنه يتحمل ويدوم به فإذا منح صاحب الوقت الحال فإنه لا يكون عرضه للتحويل وبذلك يصير مستقيما فى مجاهداته لأن من كان عنده الوقت بغير حال ربما فقده أما إذا اتصل الحال صارت كل أيام وفقاً لما يجرى عليه الزوال فلا يفقد شيئاً لأن مجئ الوقت وذهابه هو فى الحقيقة نتيجة الكمون والظهور، وحيث أن الوقت تنزل على صاحبه من قبل فمن أنسى بالكمون ربما غفل حتى إذا ورد عليه الحال جعله متمكناً حاضراً لأن صاحب الوقت ربما غفل ربما غفل ولكن صاحب الحال لا يغفل أبداً وقد قالوا: لسان الحال سكون اللسان فى فنون البيان.

وقال ذلك الشيخ السؤال عن الحال محال لأن الحال هو فناء المقال.
قال أبو على الدقاق إذا كان ثم ثبور أو سرور فى هذه الدنيا أو الأخرى فنصيب الوقت منها هو الشعور بما يصدر عن أحدهما، لكن الحال ليس كذلك لأنه إذا ورد الحال على الإنسان فى الله سبحانه وتعالى أفنى جميع

هذه المشاغل من القلب ولذلك فإن سيدنا يعقوب عليه السلام كان صاحب وقت وذلك لأنه فقد بصره بالفرق حتى رد إليه بالوصل فهو حينا من الغم كالشعرة وحينا من النواح كالغصن وحينا من الروح وحينا من السرور كالسرور أما سيدنا إبراهيم عليه السلام فإنه كان صاحب حال حيث أنه لم يشعر بالفرق حتى يحزن ولا بالجمع حتى يفرح ومشاهده فى الشمس والقمر والنجوم والليل على حاله لأنه فى فى حال نظره إليها كان محفوظًا عن الاشتغال بها، وحيثما توجه رأى ربه فيقول ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[1] .

لذلك فالدنيا فى بعض الأحوال تكون كالنار لصاحب الوقت لأنه يشعر بالغيبة ويتألم قلبه بفقد محبوبه وفى بعض الأحوال يكون قلبه كالجنة بنعمة المشاهدة، بيد أن صاحب الحال لا يميز بين حجابه بالبلوى ولا كشفه بالنعمى لأنه دائماً فى مقام العيان، فالحال صفة المراد والوقت مقام المريد، فالآخر مع نفسه فى صفاء وقته والأول مع ربه فى صفاء حاله فشتان بين المنزلتين.

المقام والتمكين والفرق بينهما

المقام هو إقامة الطالب على أداء حقوق المطلوب بشدة اجتهاد وصحة نية فكل من طلب الحق سبحانه وتعالى له مقام، وهو السبب لأهل البداية الذى به طالب ربه، ومع أن الطالب يستفيد بعض الفائدة من كل مقام يمر عليه فإنه يسكن إلى مقام مخصوص فى النهاية لأن المقام والبحث عنه يشكل التركيب والرسم لا الأخلاق والمعاملة، وقد قال تعالى ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1] .

فمقام سيدنا آدم عليه السلام التوبة، ومقام سيدنا نوح عليه السلام الزهد ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام التسليم، ومقام سيدنا موسى عليه السلام الإنابة، ومقام سيدنا داود عليه السلام الحزن، ومقام سيدنا عيسى عليه السلام الرجاء، ومقام سيدنا يحيى عليه السلام الخوف، ومقام رسولنا عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٦.

الذكر وقد أخذ كل منهم بعض الشئ من المقامات الأخرى لكن كل واحد منهم رجع فى النهاية إلى أصل مقامه وفى بيان مذهب الحارثية أشرت فى عبارتى إلى المقامات وبينت الفرق بين الحال والمقام وهنا يلزمنا أيضا أن نبين بعض الشئ فى هذ الموضوع.

اعلم أن الطريق إلى الله سبحانه وتعالى على ثلاثة أنواع مقام وحال وتمكين، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسلاً لبيان السبيل وتمييز أصول المقامات المختلفة، وقد أتى الرسل بمائة وأربعة وعشرين مقاماً أو فوق ذلك العدد، ولما أتى رسول الله ﷺ تجمل بالحال لكل صاحب مقام حتى بلغ به درجة يعجز الإنسان عن نيلها بحوله فكمل الدين بذلك فى أهله حيث قال سبحانه وتعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[2] فظهر تمكين المتمكن وإنى لو أردت أن أبين كل حال وأوضح كل مقام لتجاوزت المقصود بهذا الكتاب.

والتمكين يدل على مقام السالك الروحانى فى أفق الكمال وأعلى الدرجات فمن كانوا فى مقاماتهم أمكنهم الانتقال من مقام إلى آخر لكن صاحب التمكين يستحيل عليه أن ينتقل منه إلى درجة أعلى لأن المقام هو رتبة أهل البداية أما التمكين فهو سكن أهل النهاية والمقامات علامات فى الطريق أما التمكين فى السكون فى الحضرة فأحباب الله تعالى غائبون عن أنفسهم على الطريق، وغرباء عن أنفسهم فى المقامات فقلوبهم حاضرة مع الله تعالى وكل عدة فى الحضور تعد شراً وكل وسيلة علامة على الغيبة عنه سبحانه ومرض فى النفس.

وكان الشعراء قبل الإسلام يمدحون الناس بأعمالهم الكريمة إلا أنهم لا يلقون مدائحهم إلا بعد مضى زمن وكان الشاعر إذا أتى إلى مجلس ممدوح

---

(١) سورة الصافات آية ١٦٤.

(٢) سورة المائدة : ٣.

يسل سيفه ويقطع قوائم جمله ويكسر سيفه كأنه يقول أنى احتجت للجمل ليحضرنى إلى مجلسك والسيف ليقتل الأعداء الذين يمنعونى عن تقديم الشكر لك وحيث أنى وصلت إلى هنا فإنى أقتل جملى رغبة فى عدم فراقك وأكسر سيفى لأنى لا أحب أن يشتغل قلبى بالبعد عنك، ثم بعد مضى أيام قلائل يلقى قصيدته وكذلك فإن سيدنا موسى عليه السلام لما بلغ درجة التمكين وسقطت منه ألوان التلوين أمره الله تعالى بأن يخلع نعليه، وأن يلقى عصاه قائلاً: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[1] وهذا لكونهما عدة السفر وهو فى حضرة ربه فأول المحبة طلب وآخرها سكون، والماء إنما يجرى فى مجرى النهر حتى إذا وصل إلى المحيط وقف تياره وتغير طعمه فمن طلب الماء لشربه ابتعد عنه، أما فى طلب اللؤلؤ فإنه يجاهد نفسه ويضع حبل الطلب فى رأسه ويغوص تحت الماء برأسه مجداً فى نيل اللؤلؤ، فإما يجده وإما يفقد نفسه العزيزة.

قال بعض المشايخ «التمكين رفع التلوين» والتلوين هو إصطلاح صوفى متصل بمعنى التمكين كما أن الحال متصل بالمقام والمقصود من التلوين هو التغير والتحول من حال لآخر، يعنى أن المتمكن ليس بمتردد لأنه قدم كل ما يملك لحضرة الله تعالى ومحا من قلبه كل فكر فى غير الله حتى أن كل عمل يمر عليه لا يعتبر ظاهره وكل حال لا يغير باطنه ولذلك فسيدنا موسى عليه السلام كان عرضة للتلوين حيث صعق لما تجلى ربه لجبل سيناء كما قال ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[2] .

أما سيدنا محمد ﷺ فمتمكن حيث أنه لم تتغير حاله مع مكاشفة الحق له بجماله وجلاله من مكة إلى قاب قوسين وهذه درجة أعلى والله أعلم.

والتمكين على نوعين أحدهما يشير إلى شاهد الحق والآخر إلى شاهد

---

(١) سورة طه آية ١٢.

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٣.

النفس ومن كان تمكينه من النوع الأخير فهو ثابت الصفة أما أهل المقام الأول فليست لهم صفات ولا يلحقهم محو ولا صحو ولا لحق ولا محق ولا فناء ولا بقاء ولا وجود ولا عدم لأن هذه الكلمات لا تنطبق على من فنيت صفاتهم لأن الصفة تحتاج إلى موصوف وإذا كان الموصوف مستغرقاً فقد القوة على الاحتفاظ بها وقد ورد فى هذا كلام كثير حذفته على سبيل الاختصار.

المحاضرات والمكاشفات
والفرق بينهما

اعلم: أن المحاضرات تدل على حضور القلب عند البيان أما المكاشفات فتدل على حضور السر فى أفق البيان فالمحاضرات تشير إلى آيات الله تعالى أما المكاشفات فهى دليل المشاهدات. فعلامة المحاضرات هى دوام التفكر فى آيات الله، وعلامة المكاشفات هى دوام التفكر والحيرة فى جلال الله تعالى، ويوجد فرق بين من يتأمل فى أحكام الله تعالى وبين من هو فى حيرة من جلاله سبحانه وتعالى، فالأول على قدم الخلة والآخر صاحب محبة.

ولما نظر خليل الله ملكوت السماء وتأمل فى حقيقة وجودها حضر قلبه بذلك وانتقل إلى طلب الفاعل وكان حضوره هذا علامة على وجوده سبحانه وتعالى، فقال بعد كمال المعرفة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] .

وأما سيدنا محمد الحبيب ﷺ فإنه لما أسرى به إلى السماء غض بصره عن كل شئ فلم ير حكما ولاخلقاً ولا نفسه بل لم ير إلا الخالق سبحانه، كاشفه بنفسه وازدادت رغبته فى هذا الكشف ولكن عبثاً كان ﷺ يحاول

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٩.

الإدراك والقرب والوصل بالنسبة لأنتزيه محبوبه عن كل الأغيار إزداد وضوحاً كلما زادت رغبته فلم يمكنه الالتفات ولا التقدم فوقع فى حيرة.

وحيثما كانت الخلة كانت الحيرة وحيثما كانت المحبة صار الوصل شركاً وصارت المحبة أصلاً ثابتاً لأن الذى يتحير منه فى مقام الخلة هو الوجود والحيرة فى مثل هذا كفر، أما فى المحبة فموضوع الحيرة هو الذات والصفات والحيرة فيها توحيد، وكان يقول الشبلى فى هذا المعنى: يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا» لأن كل من ازدادت حيرته فى مشاهدة الله ارتفعت درجته، وحكاية أبوسعيد الخراز وإبراهيم بن سعد العلوى مشهورة حينما نظر أحد أحباب الله واقفاً على شاطئ البحر وسألاه عن الطريق إلى الله تعالى وكيف أجابهما أن الطريق إلى الله تعالى طريقان: طريق للعموم وطريق للخصوص فلما طلبا منه التوضيح قال: طريق العموم هى ما أنتم سائرون عليها فأنتم ترضون لشئ وتنكرون لشئ، أمّا طريق الخصوص فهى رؤية المسبب لا السبب، وحقيقة معنى هذه الحكاية قد وضحناها فيما سبق.

القبض والبسط
والفرق بينهما

القبض والبسط: حالتان إضطراريتان لا حول للإنسان على دفعهما أو استحضارهما قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾(١).

القبض هو انقباض القلب فى حالة الحجاب، والبسط هو انبساط القلب فى حالة الكشف، وكلا الحالتين تصدران من الله تعالى بدون حول من الإنسان أو قوة فقبض العارفين هو كخوف السالكين وبسط العارفين هو كرجاء السالكين، وهذا المعنى هو المقصود عند الصوفية فى استعمالهم اصطلاحى القبض والبسط.

هذا وإن بعض المشايخ يقول: إن القبض أرقى من البسط لسببين أولا ذكره فى القرآن قبل البسط وأنه يشمل معنى الإنحلال والضغط أما البسط فإنه يشمل معنى المتعة والإكرام، وإنه لمن الأفضل بلا شك أن يفنى الإنسان بشريته أو يضغط على نفسه السفلى من أن يمتعها أو يكرمها حيث أنهما أكبر الحجب بين العبد وربه.

والبعض يقولون: إن البسط أرقى من القبض وأن ذكره سبحانه القبض قبل البسط فى القرآن دليل على أفضليته لأنه من عادة العرب أن يذكروا فى أول الشيء ما يكون أقل فى المرتبة قال الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٢) وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٥.
(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢.
(٣) سورة فاطر آية ٣٢.
(٤) سورة آل عمران آية ٤٣.

ويقولون بأن فى البسط فرحاً وفى القبض حزناً؛ والعارفون يشعرون بالفرح فقط فى مقام الجمع بمعلومهم والحزن فى مقام الفرق عن مطلوبهم، وعلى ذلك فالسكون فى مقام الفرق.

وقد كان شيخى يقول إن القبض والبسط كلاهما واحد هما نتيجة وارد إلهى يرد من الله تعالى على الإنسان وكلاهما إنا أن يملأ القلب قبضاً ويملأ النفس سروراً أو العكس فحينما يكون البسط فى النفس يكون القبض فى القلب أو يكون القبض للنفس والبسط للقلب ومن تكلم فى هذا الموضوع بغير ذلك فقد أضاع نفسه.

وقد قال فى ذلك أبو يزيد «قبض القلوب فى بسط النفوس وبسط القلوب فى قبض النفوس» لأن قبض النفس هو حفظها من الضرر، والقلب المبسوط محفوظ من الهلكة، لأن الغيرة هى شرط المحبة، والقبض هو علامة غيرة الله تعالى، ومن الضرورى أن المحبين يعاتب بعضهم بعضاً والبسط هو تبادل عتاب المحبين.

ومن المشهور فى كتب أهل الكتاب: أن يحيى كان يبكى منذ ولادته عليه السلام وأن سيدنا عيسى عليه السلام كان مبتسماً من ولادته لأن يحيى كان فى قبض وعيسى كان فى بسط عليهما السلام وكان يحيى عليه السلام يقول لعيسى: أليس عندك خوف القطيعة من الله تعالى؟

وكان سيدنا عيسى يقول له يا يحيى أليس عندك رجاء رحمة الله تعالى، فاعلم أن دموعك أو ابتساماتى لا تغير شيئاً فى سابق إرادته فلا قبض ولا بسط ولا أنس ولا طمس ولا محوو ولا محق ولا عجز ولا جهد يغير من التقدير شيئاً.

الانس والهيبة
والفرق بينهما

اعلم أسعدك الله: أن الأنس والهيبة هما حالتان لصعاليك طريق الله تعالى إذا ظهرت عظمة الله تعالى فى قلب إنسان فسكن جلاله شعر بالهيبة، أما إذا سبق جماله شعر بالأنس، فمن شعروا بالهيبة فهم المبتلون، ومن شعروا بالأنس فهم المبتهجون، ويوجد فرق بين من يحترقون بجلاله فى نار المحبة وبين المستنيرين بجماله فى ضوء المشاهدة.

قال بعض المشايخ: أن الهيبة هى مرتبة العارفين والأنس هو مرتبة المريدين، لأنه كلما تقدم الإنسان فى حضرة الله تعالى ونزهه عن الصفات ازدادت هيبته وخشيته وازداد بعده عن الأنس لأن الإنسان لا يأنس إلا بمن على شاكلته، والأنس بالله لا معنى له حيث أنه لا توجد مجانسة ولا مشاكلة بين العبد وربه فإذا جاء الأنس فإنما يكون ذلك بذكره سبحانه وتعالى الذى هو شئ غير ذاته لأنه صفة من صفات الإنسان وفى عرف المحبة من رضى بغير المحبوب فذلك باطل وادعاء وغرور والهيبة من الجهة الأخرى تحصل من مشاهدة العظمة والكبرياء وهما صفتان لله سبحانه زتعالى ويوجد بون شاسع بين من يكون شهوده صادراً من نفسه لنفسه وبين من يكون شهوده صادراً عن فناء نفسه بوجود ربه.

يروى أن الشبلى قال: كنت أظن فيما مضى أنى مسرور بمحبة الله تعالى وآنس بمشاهدته سبحانه والآن عرفت أن الأنس مستحيل إلا مع الجنس، والبعض الآخر يدعون أن الهيبة هى نتيجة القطيعة والعذاب أما الأنس فهو نتيجة الوصل والرحمة، وعلى ذلك فأحباب الله تعالى يلزم أن يكونوا محفوظين من دواعى الهيبة ومتصلين بالأنس، لأن الأنس يشمل المحبة. وكما أن المشاكلة مستحيلة فى محبة الله تعالى فكذلك هى مستحيلة فى الأنس، لأن الأنس يشمل المحبة.

كان شيخى يقول انى لأعجب ممن يقولون بأن الأنس مع الله مستحيل بعد أن قال الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾(١) وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٣) وعبد الله متى رأى هذا الإكرام فإنه لا يقتصر عن محبته فإذا أحبه صار آنساً لأن هيبة المحبوب إعراض أما الأنس فهو اتحاد وحيث أنه من عادة الإنسان أن يأنس بمن أكرمه والله سبحانه وتعالى قد أكرمنا بنعم جليلة أجلها معرفته سبحانه، فإنه من المستحيل أن نتكلم عن الهيبة.

وإنى أقول فى ذلك: أن كلا هذين الإعتراضين صحيح لأن سلطان الهيبة متسلط على النفس وميولها وتئول إلى فناء البشرية، أما قوة الأنس فهى متسلطة على القلب وتئول إلى جلاله وينعم قلوبهم فى الحياة الأبدية بمشاهدة جماله فأهل الفناء يعتبرون الهيبة أرقى ولكن أهل البقاء يفضلون الأنس- وقد ذكرنا ذلك فى حديثنا عن الفناء والبقاء.

---

(١) سورة البقرة اية ١٨٦.

(٢) سورة إبراهيم آية ٣١.

(٣) سورة الزخرف آية ٦٨.

القهر واللطف

والفرق بينهما

اعلم أن هذين الاصطلاحين يستعملهما الصوفية عندما يشيرون إلى أحوالهم القهر هو ما يمدهم الله به فى فناء إرادتهم وحفظ النفس من الوقوع فى أهوائها، واللطف يعنون به معونة الله تعالى فى بقاء قلوبهم ودوام مشاهدتهم وتأييد وجدهم فى مقام الاستقامة، فأهل اللطف يقولون إن الكرامة هى نيل المراد والآخرون يقولون: إن الكرامة هى أن يحفظ الله تعالى الإنسان بإرادته من إرادة نفسه ويقهره بمراده حتى إذا كان الإنسان عطشاً ووقع فى نهر لجف ذلك النهر.

يروى أنه كان ببغداد رجلان كاملان أحدهما صاحب قهر والآخر صاحب لطف، وكانا دائما المعارضة بعضهما لبعض فكل منهما فضل حاله على حال الآخر، فإذا قال صاحب اللطف اللطف أفضل لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[1] رد الآخر بل القهر لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[2] وطالت هذه المناقشات حتى صادف أن سافر صاحب اللطف إلى مكة وتغلغل فى الصحراء فلم يصل إلى وطنه، ولم يسمع عنه شئ لمدة سنين.

وبعد أيام رآه مسافر بين مكة وبغداد فقال له يا أخى إذا رجعت إلى العراق قل لصاحبى بالكرخ أنه إذا أحب أن يرى الصحراء بكل ما فيها من المتاعب ككرخ بغداد مع ما فيه من البهجة فليأت إلى هنا، لأن هذه الصحراء هى كرخ لى، فلما أتى المسافر إلى الكرخ بلغ وصية الدرويش إلى صاحبه فقال له قل له عند عودتك إنه لا فضل فى كون الصحراء صارت كرخاله لكى لا يفر من حضرة الله تعالى، وأما الفضل كل الفضل فهو بلا شك فى الكرخ

---

(١) سورة الشورى آية١١٩.

(٢) سورة الأنعام آية ٦٤.

الذى صار عندى صحراء قاحلة بكل ما فيه من الأبهة وعلى ذلك فإنى مسرور هنا.

يروى أن الشبلى قال فى مناجاته مع ربه. الله إنى لا ألتفت عنك ولو جعلت السماء حلقة لرقبتى والأرض قيداً لرجلى والعالم كله ظمآن لدمى. كان شيخى يقول اجتمعت جماعة من أولياء الله تعالى سنة من السنين فى الصحراء فتبعت مرشدى وهو الحصرى إلى ذلك المكان فرأيت بعضهم ممتطياً نجيباً، والبعض محمولاً على كراسى والبعض طائراً فى الهواء فلم يلتفت الحصرى إليهم، ثم رأيت شاباً نعلاه ممزقتان وعصاه مكسورة ورجلاه لا تكاد أن تحملانه ورأسه عارية وعليه آثار التعب، فلما ظهر قام إليه الحصرى ورحب به ثم أجلسه فى مكان مرتفع فاستغربت من ذلك وسألت شيخى عن الشاب فقال أنه أحد أولياء الله الذين لا يتبعون الولاية ولكنها تتبعهم ولا يلتفت إلى الكرامة.

وبالاختصار فكل ما أردناه لأنفسنا فهو مهلكة لنا وأنى أريد ما أراده الله لى وبذلك يحفظنى من المعصية وينجينى من شرور النفس، فإذا أقامنى الله سبحانه فى القهر فإنى لا أحب اللطف وإذا أقامنى فى اللطف فلا أريد القهر حيث أنى لا أختار على خيرته سبحانه وتعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل.

النفى والإثبات
والفرق بينهما

اعلم أن أهل هذا الطريق قد وضعوا اسمى للنفى والإثبات لمحو الصفات الآدمية بإثبات التأبيد الإلهى فهم يشيرون بالنفى إلى محو الصفة الآدمية، ويعنون بالإثبات تأبيد سلطان الحق لأن المحو فقد كلى والنفى الكلى لا ينطبق إلا على الصفات فقط، لأن نفى الذات محال مع وجود كليتها ولزم على ذلك أن تمحى الصفات الذميمة بإثبات الأوصاف المحمودة أعنى أن دعوى محبة الله تفنى بإثبات الحقيقة، لأن الدعوى من عجب النفس.

أما الصوفية فإنه متى تغلب على صفاتهم سلطان الحق يقولون عادة أن الصفات الإنسانية انتفت بإثبات وجود الحق، وقد فصلنا هذا الموضوع فى باب الفقر والصفوة، وفى باب الفناء والبقاء. ويقولون أيضاً بأن هذه الكلمات تشير إلى نفى مراد الإنسان وإثبات مراد الله تعالى، لذلك فقد قال أحد الصالحين: «اختيار الحق لعبده مع علمه بعبده خير من اختيار عبده لنفسه مع جهله بربه» لأن المحبة فى عرف الجميع هى نفى مراد المحب بإثبات مراد المحبوب.

وقرأت فى بعض الآثار أن درويشاً كان يغرق فى البحر فناداه بعضهم أيها الأخ تحب أن تنجو فقال لا، فقال تريد أن تغرق فقال لا، فقال أنه من الغريب أنك لا تريد أن تموت أو تنجو فقال له الدرويش ما الذى أريده بنجاتى إن مرادى فيما أراده. وأهل المعرفة يقولون: إن نفى اختيارك هو أقل درجة فى المحبة وأمااختيار الله تعالى فأزلى ويستحيل أن ينفى بينما إن اختيار الإنسان عرضى وقابل للنفى ويلزم أن يوطأ بالأقدام حتى يبقى اختيار الله تعالى أبد الآبدين.

فموسى عليه السلام حين كان فى حال البسط على الجبل تمنى رؤية

الله تعالى وقال بإثبات اختياره فقال الله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾[1] فرد موسى: «الرؤيا حق فلماذا تمنعنى، فرد جل شأنه: «هى حق ولكن الاختيار فى المحبة باطل». وقد حدث اختلاف كثير فى هذا الموضوع ولكن غرضى الوحيد أن تعرف ما يشير إليه الصوفية بهذه الاصطلاحات.

وقد ذكرت لك أيضاً بعض هذه الاصطلاحات والبقاء والغيبة والحضور والسكر والصحو فى الأبواب المختصة بمذاهب الصوفية ويلزمك أن تطلع عليها إذا أردت شرحها.



(١) سورة الأعراف آية ١٤٣.

المسامرة والمحادثة

والفرق بينهما

هذان التعبيران يدلان على حالة الصوفى الكامل. فالمحادثة هى فى الحقيقة كلام روحانى مقترن بصمت اللسان، والمسامرة هى فى الحقيقة دوام الانبساط مع كتمان السر، فظاهر معنى المسامرة أنها حال وقتى بين العبد وربه ليلاً، والمحادثة هى حالة مشابهة لها نهارا، وتتكون من كلام ظاهرى وباطنى، وعلى ذلك فالمناجاة بالليل تسمى مسامرة والدعاء نهاراً يسمى محادثة، فالحالة النهارية مبنية على الكشف، والحالة الليلية مؤسسة على الستر، والمسامرة فى عرف المحبة أكمل من المحادثة إلا أن لها صلة بحال النبى ﷺ حيث أرسل له جبريل مع البراق للإسراء به من مكة إلى قاب قوسين من حضرته العلية.

ورسول الله ﷺ كان يناجى ربه سراً، فلما وصل إلى مقصوده سكت لسانه أمام مكاشفته بجلال الله تعالى، وصار قلبه فى حيرة بكبريائه سبحانه وتعالى، فقال: «اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك» والمحادثة فى الجهة الأخرى مقترنة بحال سيدنا موسى عليه السلام عندما أراد أن يناجى ربه بعد وعد الأربعين يوماً فذهب إلى طور سيناء وسمع كلام الحق سبحانه فطلب رؤيته فلم ينلها فعجز عن المطلوب وغاب عن وعيه، فلما أفاق قال ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[1] حتى يظهر الفرق بين من جاء فيه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[2] ومن جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾[3] .

والليل هو الوقت الذى يخلو المحبوب فيه بمحبوبه والنهار هو الوقت الذى يقف فيه العبيد أمام سادتهم فإذا أخطأ الخادم وبخ أما العاشق فلا حكم عليه ولا يلام إذا أخطأ لأن الحبيب لا يحب أن يكدر صفو محبوبه فكل ما يفعله المحب يكون مقبولاً لدى الحبيب.

---

(١)،(٣) سورة الأعراف آية ١٤٣.

(٢) سورة الأسراء آية ١.

علم اليقين
وعين اليقين
وحق اليقين
والفرق بينها

كل هذه الاصطلاحات فى عرف المتصوف تدل على العلم فالعلم بدون يقين بالعلوم ليس بعلم، لكن إذا تمت المعرفة كان الأخفى جلياً، والمؤمنون الذين سيرون ربهم فى يوم القيامة سيرونه بالحالة التى يعرفونه هنا بها، إذ لو رأوه بغير ذلك لكانت رؤيتهم هناك ناقصة وأن معرفتهم هنا كانت خطأ وكلا هذين الضدين مغاير للتوحيد الذى يلزم أن تكون معرفة الناس بربهم هنا على أساس صحيح.

وبذا تكون رؤيتهم هناك صحيحة، ولذلك فعلم اليقين هو كعين اليقين وحق اليقين هو كعلم اليقين وقد قال بعضهم: إن عين اليقين هو كمال استغراق العلم فى الرؤية وهذا مستحيل لأن الرؤية باب من أبواب العلم كالسمع وغيره، فكما أن العلم لا يمكن فى السمع واستغراقه فى الرؤيا مستحيل أيضاً.

والصوفية يعنون بعلم اليقين معرفة الفرائض الدينية فى هذه الدنيا طبقاً لأوامر الله سبحانه وتعالى، ويعنون بعين اليقين معرفة حالة النزع ووقت المفارقة لهذه الدنيا، وبحق اليقين معرفة رؤية الله سبحانه وتعالى التى ستتكشف لهم فى الجنة وماهيتها.

ولذلك فعلم اليقين هو رتبة العلماء عند كمال أتباعهم للشرع الشريف، وعين اليقين مقام العارفين وذلك لاستعدادهم للموت، وحق اليقين هو نقطة فناء العاشق وذلك لإعراضهم عن المخلوقات ومن ذلك تعلم أن علم اليقين ينال بالمجاهدة وعين اليقين بالمؤانسة وحق اليقين بالمشاهدة، فالأول للعامة والثانى للخاصة والثالث لخاصة الخاصة.

العلم والمعرفة
والفرق بينهما

لم يوضح العلماء تمييزاً بين العلم والمعرفة إلا فى قولهم: إن الله سبحانه وتعالى يسمى عالماً ولا يسمى عارفاً، كما أن اللقب الأخير مفتقر إلى التوفيق الإلهى، لكن شيوخ الصوفية يطلقون اسم المعرفة على كل علم متصل بعمل تعبدى وحال ربانى فيدل بحاله على علمه.

وهذا الرجل يسمى عندهم عارفاً وإنهم يطلقون اسم العلم من الجهة الأخرى على كل فن خلو من معنى روحانى وعمل تعبدى، ومثل صاحب هذه المعرفة يسمى عالماً فمن عرف معنى الشئ وحقيقتة فيسمونه عارفاً ومن ألم بعبارات منطقية وحفظها فى مخيلته بدون ادراك حقيقة روحانية فهو عالم.

ولذلك فإن الصوفية إذا أرادوا أن يعيروا أحد رفاقهم سموه عالماً ولا يوافق على مثل هذا الحكم العامة ولا يقصد الصوفية إلقاء اللوم على مثل هذا الإنسان لعدم المعرفة ولكن يلومونه على إهماله العمل بها «لأن العالم قائم بنفسه والعارف قائم بربه».

وقد بينا هذا الموضوع فى الباب المسمى كشف الحجاب عن المعرفة ولا حاجة إلى الزيادة فيه.

الشريعة والحقيقة
والفرق بينهما

هذان الاصطلاحان يستعملهما الصوفية للاستدلال على كمال الحالة الظاهرية وإثبات الحالة الباطنية، وقد أخطأت طائفتان فى هذا الموضوع إحداهما علماء الظاهر الذين يقولون: إنه لا فرق بين الشريعة والحقيقة لأن الشريعة هى نفس الحقيقة، والحقيقة هى نفس الشريعة، والأخرى بعض الملاحدة الذين يقولون بإمكان وجود أحد هذين الأمرين بدون وجود الآخر، ويقولون: بأنه إذا كشفت الحقيقة بطلت الشريعة.

وهذا مذهب الكرامية والشيعة والموسومين بهم، والبرهان على أن الشريعة منفصلة عن الحقيقة هو أن التصديق بالإيمان منفصل عن القول به، وبرهان عدم اختلاف الشريعة والحقيقة فى الأصل ولكنهما متحدان ظاهراً وهو أن التصديق قول ليس بإيمان وبالعكس، فالقول بون تصديق ليس بإيمان، ويوجد فرق بين القول والتصديق فالحقيقة إذا تدل على حكم لا يقبل النسخ وهو موجود من عصر آدم عليه السلام إلى يوم القيامة.

مثل معرفة الله والعبادات الدينية التى لا تكمل إلا بإخلاص النية، والشريعة تشمل الحقيقة القابلة للتبديل والتغيير مثل أوامر الله تعالى وأحكامه وعلى ذلك فالشريعة هى عمل إنسانى والحقيقة هى حفظ الله تعالى وعصمته.

ويمكننا أن نقول: إن الشريعة لا تثبت بدون الحقيقة والحقيقة لا تثبت بدون ملاحظة الشريعة والاتصال بينهما كالصلة بين الجسد والروح لأن الروح إذا فارقت الجسد صار جثة هامدة والروح ريح وأن قيمتها المعنوية متوقفة على اتصال أحدهما بالآخر وكذلك الشريعة بدون الحقيقة رياء، والحقيقة

بدون الشريعة نفاق، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١) فالمجاهدة هى الشريعة والهداية هى الحقيقة، فالأولى تشمل مراقبة الإنسان لظاهر الأحكام، أما الأخرى فتشمل معونة الله تعالى وإكرامه بحفظ الباطن للعبد، وعلى ذلك فالشريعة من المكاسب أما الحقيقة فهى من المواهب، وحين نسلم بذلك فـفرق شاسع بينهـمـا، وللصـوفـيـة نوع آخـر من الاصطلاحات والتعبيرات يستعملونها لا تخرج عن حدود العبارة ومن الصعب شرح وبيان هذه الاصطلاحات الإسمية ولكن أبينها على قدر الإمكان.

الحق - الحق عند الصوفية هو الله سبحانه وتعالى لأنه اسم من أسمائه ولقوله تعالى فى كتابه العزيز ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾(٢).

الحقيقة - الحقيقة عندهم هى مقام الإنسان فى الجمع مع ربه ووقوف القلب فى مقام التنزيه.

الخطرات- كل ما يمر بالقلب من أحكام الطريقة.

الوطنات - كل معنى إلهى يسكن فى القلب.

الطمس - نفى مادة لا يبقى أثرها.

الرمس - نفى مادة مع كل ما يبقى منها من القلب.

العلايق - الأسباب الثانوية التى يتصل بها طالب الحق وبذلك يعجـززز عن نيل مطلوبه.

الوسايط- الأسباب الثانوية التى يتعلق بها أهل السلوك لنيل مقصودهم.

الزوايد- ما يغمر القلب من النور الروحانى.

الفوايد - إدراك النفس لما لابد لها منه.

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩.

(٢) سورة لقمان آية ٣٠.

الملجأ - يقين القلب فى الوصول إلى مطلوبه.

المنجى - خلاص القلب من محل الفساد.

الكلية - استغراق الصفات الآدمية بالمرة.

اللوايح - إثبات المراد مع سرعة النفى.

اللوامع - ظهور النور الروحانى للقلب مع وجود فوائده.

الطوالع - طلوع أنوار المعارف على القلب.

الطوارق - ما يتوالى على القلب من الفرح ومن اللوم فى مناجاته لربه ليلاً.

اللطائف - إشارات تحضر القلب من دقائق الحال.

السر - كتمان شعور المحبة.

النجوى - كتمان النقائض عن معرفة غير الله تعالى.

الإشارة - توضيح أمر لآخر عن المراد بدون نطق اللسان.

الإيماء - مخاطبة أى إنسان بالتلميح بدون عبارة ولا إشارة.

الوارد - ورود المعانى الروحانية على القلب.

الإنتباه - زوال الغفلة عن القلب.

الإشكال - الحيرة عند الإقرار عن الحق والباطل.

القرار - زوال التردد من حقيقة قال.

الإنزعاج - اضطراب القلب فى حالة الوجد.

هذه بعض ألفاظهم مع ميل إلى الاختصار وبالله العون والعصمة.

[الاصطلاحات الفنية]

وتوجد اصطلاحات فنية يستعملها الصوفية غير تلك الاصطلاحات الاسمية فى التوحيد ولبيان عقيدتهم الثابتة فى حقائقهم الروحانية.

العالم - العالم يشمل كل مخلوقات الله تعالى ويقال: إنه يوجد ثمانية عشر ألف أو خمسين ألف عالم وتقول الفلاسفة: إنه يوجد عالمان عالم علوى وعالم سفلى أما علماء الأصول فيقولون أن العالم هو كل موجود بين عرش الرحمن والأرض وبالاختصار فالعالم هو مجموع المخلوقات.

وإن الصوفية لا تقصد بذلك ما تعنية الفلاسفة ولكنهم يقصدون به عالم الأرواح وعالم النفوس.

المحدث - هو المؤخر فى وجوده أعنى ما لم يكن موجوداً قبل ولكنه وجد بعد.

القديم - السابق فى وجوده أعنى ما كان على الدوام وما كان وجوده قبل الأشياء وهذا ليس إلا الله.

الأزل - ما لا بداية به.

الأبد- ما لا نهاية له.

الذات - وجود الشئ وحقيقته.

الصفة- ما لا يقبل النعت لأنه ليس باق بذاته.

الاسم- هو ما ليس غير المسمى.

التسمية - بيان عن المسمى.

النفى - كل ما يقتضى فناء أى شئ منفى.

الإثبات - هو ما يقتضى وجود أى شئ مثبت.

الشيئان - ما يمكن وجوده مع الشئ الآخر.

الفقدان - ما يستحيل وجوده مع وجود الشئ الآخر فى حال واحد.

غيران - هو ما يمكن وجوده مع عدم وجود الآخر.

جوهر- أصل الشئ والقائم بذاته.

عرض - هو القائم بالجوهر.

جسم - هو الشئ المركب من أجزاء مختلفة.

سؤال - طلب حقيقة.

جواب - بيان عن سؤال.

الحسن - كل ما طابق أمر الله تعالى.

القبيح - كل ما خالف أمر الله تعالى.

السفه - إهمال أمر الله تعالى.

الظلم - وضع الشئ فى غير موضعه.

العدل - وضع الشئ فى موضعه.

الملك - ما لا يمكن الاعتراض على حكمه.

[نوع آخر من الاصطلاحات]

ويوجد نوع آخر يحتاج إلى بيان وهو ما يستعمله الصوفية دائماً فى معانيهم الحقيقية ومقصودهم بها ليس ما يعرفه أهل اللسان عنها.

الخاطر - هو ما يرد على القلب ويفر منه بورود شئ آخر، بل وكل ما أمكن الإنسان رفضه من قلبه وأهل الواردات يلزمهم اتباع أول وارد لأنه وارد من الله تعالى، ويقال: إنه خطر لخير النساج يوماً ما أن الجنيد واقف ببابه ولكنه أراد أن يرد هذا الخاطر ويشغل عنه، فتكرر عليه مراراً حتى قالم وخرج فوجد الجنيد واقفاً على الباب، فقال الجنيد: يا خير لو أنك اتبعت الخاطر الأول وقمت بسنة المشايخ لما لزمنى الوقوف طول هذه المدة، فكيف أن الجنيد علم بما ورد على خير، مثل هذا السؤال قد شرح بأن الجنيد كان مرشداً لخير، والمرشد يشرف على كل أحوال المريد.

الواقع - الواقع هو كل ما يظهر فى القلب ويبقى وهو ليس كالخاطر ولا قوة للطالب على رده ولذلك فإنهم يقولون خطر على قلبى وليس وقع فى قلبى

أى أنه سقط فيه، وكل القلوب معرضة للخاطر، ولكن الواقع لا يحدث إلا فى القلوب المملوءة بمعرفة الله، ولذلك فإنه إذا حدث للطالب فى طريق الله أى عائق من العوائق سموه قيداً، ويقولون:إن واقعاً وقع عليه وأهل اللسان يستعملون اصطلاح الواقع للدلالة على سؤال صعب، فإذا أجيب عليه إجابة مرضية قالوا ما معناه أن الواقع قد حل، ولكن أهل الحقيقة يقولون إن الواقع هو مالا يمكن حله وما يحل فهو خاطر وليس بواقع لأن كل الأمور التى تتصدى للعارف ليست غير مهمة حتى يمكن أن يبنى عليها أحكاماً مختلفة.

الاختيار- ويعنون به تفوق مراد الله تعالى على مرادهم فيرضون بكل ما اختاره لهم من خير أو شر فاختيار الإنسان لا اختيار الله هو فى الحقيقة نتيجة اختياره سبحانه، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يجعله اختياراً له لما ترك اختياره وسئل أبو يزيد عن الأمير فقال: هو من لا اختيار له ومن كان اختيار الله اختياره.

يروى أن الجنيد حم مرة فدعا الله سبحانه وتعالى أن يمنحه العافية فسمع من قال له فى قلبه من أنت حتى تتدخل فى ملكى وتجعل لك خيرة إننى إنى أدبر ملكى خيراً منك فاخترما اخترت بدلاً من أن تتقدم إلى باختيارك.

الامتحان- هذا الاصطلاح يدل على تجربة قلوب الأولياء بالبلوى التى يبتليهم الله تعالى بها فى الخوف والحزن والقبض والخشية قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(1).

وهذه درجة عالية.

البلاء-هو ما يبتلى الله تعالى به أجسام أحبابه من الأمراض وألوان

---

(1) سورة الحجرات آية ٣.

المشاق والأوجاع والهموم وكلما ازدادت بليه إنسان كلما قرب إلى الله تعالى لأن البلوى هى لباس الأولياء ومهد الأصفياء وغذاء الأنبياء فقد قال رسول الله ﷺ: «أشد أهل البلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء»[1] وقال أيضاً ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أشد الناس بلاء» والبلاء هو الشدة التى تعترى قلوب المؤمنين وأجسادهم وهى فى الحقيقة نعمة وكلما اختفى عنه سر تلك الشدائد كلما كبر أجره لاحتمال آلامها، والشدة التى تعترى المشركين ليست ببلاء ولكنها شقاء وليس للكافرين مفر من هذا الشقاء، ودرجة البلاء هى أشرف من درجة الامتحان لأن الامتحان لا يؤثر إلا فى القلب ولكن البلاء يؤثر فى القلب والجسم معاً وبذلك يكون أشد.

التحلى - هو التشبه بأهل الصدق فى القول والعمل وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس الإيمان بالتحلى والتمنى ولكن ما وقر بالقلوب وصدقه العمل» فالتحلى هو تقليد القوم بدون التمسك بحقيقة ما يعملون ولابد أن تتكشف سرائر الذين يظهرون بما ليسوا أهله ويفضحون وهؤلاء مقبوحون عند أهل التحقيق لأن أسرارهم واضحة لهم.

التجلى - هو ما يسطع من الأنوار الربانية على قلوب المقبلين التى بها يتمكنون من رؤية الله تعالى بقلوبهم، والفرق بين الرؤية الروحانية والرؤية العيانية هو أن أهل التجلى يرون أو لا يرون كما يحبون وينظرون فى وقت ما ولا ينظرون فى آخر، أما أهل العيان فى الجنة فلابد لهم من الرؤية ولو لم يريدوا ذلك لأنه من الممكن اختفاء التجلى، ولكنه من المستحيل أن تحجب الرؤية.

التخلى- هو الالتفات عن كل ما يمنع الإنسان من القرب من الله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى فى صحيحه والترمذى وابن ماجه.

بأن يفرغ يديه عن هذه الدنيا كما يقطع قلبه عن التفكير فى العقبى ويخلى قلبه من متابعة الهوى ويعرض عن صحبته وأهل وده قلبه من التفكير فيهم.

الشرور - ومعناه طلب الحق بالخلاص من الآفات والحجب وعدم الركون إليها لأن كل مصائب الطالبين ناتجة من حجابهم، فإذا ارتفعت الحجب اتصل، أذن فحيل الطالبين فى كشف الحجب وأسفارهم وتعلقهم بكل شئ يسمونه شروداً، كل من كان فى بداية الطلب أكثر اضطراباً يكون فى نهايته أكثر وصولاً وتمكناً.

المقصود - معناه كمال العزيمة فى طلب حقيقة المقصود ومقصد الصوفية لا يتوقف على الحركة والسكون لأن المحب ولو كان فى راحة من محبته فهو قاصد، وهم فى هذا الموضوع يخالفون العامة الذين يحصل لهم تأثير ظاهرى أو باطنى بواسطة مقاصدهم، أما أحباب الله تعالى فهم يطلبونه لا لعلة ويقصدونه بدون حول منهم، وكل أوصافهم متجهة إلى ذلك المقصد ومتى وجدت المحبة فالكل مقصد واحد.

الاصطناع - يعنون به ما يكرم الله به العبد فى العصمة وذلك بفناء كل صالح ولذة له، ويبدل كل أوصافه النفسية حتى يكون لا نفس له، وهذه الكرامة مقتصرة على الرسل والأنبياء، ولكن بعض المشايخ متمسكون بأن الأولياء قد ينالونها.

الاصطفاء - أن يفرغ الله قلب عبده إلا من معرفته حتى تبسط معرفته صفاءها فيهم، وفى هذه الدرجة يستوى خاصة المؤمنين وعامتهم وأولياؤهم وأنبياؤهم وعصاهم ومطيعوهم لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[1].

---

(١) سورة فاطر آية ٣٢.

الاصطلام - هو شهود تجليات الحق التى تجعل الإنسان مقهوراً حتى يكون عدماً فالقلب الممتحن والمصطلم سيان ولو أن الاصطلام فى اصطلاح الصوفية أشد وضوحاً وأبين فى الامتحان.

الرين - هو حجاب على القلب وهو حجاب الشرك والضلال الذى لا يمكن رفعه إلا بالإيمان لقوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] وقالت جماعة أن الرين هو مالا يمكن أن يزال على اى نحو لأن قلب الكافر ليس يقابل للإسلام.

الغين - هو حجاب على القلب يزول عنه بطلب المغفرة من الله تعالى، وهو إما لطيف أو كثيف فبالتالى مختص بأهل الغفلة وأهل الكبائر، والأول للعموم والأولياء والرسل حيث أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبى وإنى لاستغفر الله مائة مرة»[2] ويلزم لرفع الغين الكثيف توبة صادقة كما أنه يلزم لرفع الغين الخفيف إنابة خالصة لله تعالى.

فالتوبة هى رجوع من المعصية إلى الطاعة والإنابة هى الرجوع من نفسك إلى ربك، والتوبة تكون عن معصية ومعصية العامة مخالفة أمر الله ومعصية أحباب الله المعارضة فى إرادته، وعلى ذلك فتكون معصية العامة قلة أدب ومعصية المحبين شهود وجود فإذا رجع الإنسان من الخطأ إلى الصواب أو من الصواب إلى الأصوب قيل عنه آيب وكل ذلك مبين فى فصل التوبة.

التلبيس - هو ما يدل على ظهور شئ مغاير لحقيقة كما قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3] وهذه الصفة لا تكون إلا لله الذى يظهر المشرك فى ثوب المؤمن والمؤمن فى صورة المشرك حتى يأتى أمر الله فيظهر الحق فى كل شئ، وإذ أراد الصوفى أن يخفى جمال صفاته تحت حال قبيح

---

(١) سورة المطففين آية ١٤.

(٢) رواه البخارى وفى مسند أحمد.

(٣) سورة الأنعام آية ٩.

قالوا عنه: إنه يظهر التلبيس وهم يستعملون هذا الاصطلاح فى أوقات معينة ولا يطبقونه على الرياء والنفاق الذى هو فى الحقيقة تلبيس لأن التلبيس لا يمكن استعماله إلا فى إقامة الحد.

الشرب - الصوفية تسمى حلاوة التقوى وجمال الكرامة ولذة الأنس شرباً ولا يمكن لشخص أن يقوم بأمر بدون الشرب. وكما أن شرب الأجسام هو الماء فشرب القلوب هو الأنس الروحانى، وقد كان شيخى يقول يجب أن يكون المريد والعارف غريبان عن شرب الإرادة والمعرفة.

يقول آخر يجب على السالك أن يؤدى فى أعماله شرباً حتى يمكنه بذلك أن يؤدى فرائض السالك الذى يطلب الله، أما العارف فلا يلزمه أن يقوم بشرب حتى لا يسرع إلى شربه بدون الحق.

الذوق - هو كالشرب ولكن الشرب لا يستعمل إلا فى الفرح أما الذوق فإنه ينطبق على الفرح والبلاء إذ يقول قائل «ذقت الخلاف، وذقت البلاء، وذقت الراحة» فهذا جائز ويمكن أن يقال فى الشرب: شربت بكأس الوصال بكأس الود، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾[1].

وحينما ذكر الذوق قال جل شأنه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[2] وقال فى موضع آخر: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾[3] هذه أحكام حدود الألفاظ المتداولة بينهم. ولو ذكرتها بجملتها لطال الكتاب. والله أعلم بالصواب.

---

(١) سورة الطور آية ١٩.

(٢) سورة الدخان آية ٤٩.

(٣) سورة القمر آية ٤٨.

الباب الخامس والعشرون
كشف الحجاب الحادى عشر
فى السماع

اعلم أسعدك الله: أن أبواب الحصول على المعلومات خمس: السمع والبصر والذوق والشم واللمس، فالله سبحانه وتعالى خلق هذه الأبواب الخمسة للقلب، وجعل كل نوع من المعرفة متوقفاً على أحدها، فالسمع للعلم بالأصوات والأخبار، والبصر للعلم بالألوان والأجناس، والذوق للعلم بالحلو والمر، والشم للعلم بالنتن والطيب، واللمس للعلم بالخشونة واللين.

ومن هذه الحواس الخمسة أربعة لها أعضاء، وواحد منتشر فى كل الجسم فالأذن محل السمع والعين محل البصر والفم محل الذوق والأنف محل الشم، أما اللمس فهو منتشر فى جميع البدن، فلا يرى سوى العين ولا يسمع سوى الأذن ولا يشم سوى الأنف ولا يذوق إلا الفم.

أما الجسد فيلمس المواد يدرك الخشن من اللين والحار من البارد، ويمكن مجازاً أن يسرى ذلك على كل الأعضاء كاللمس. وعند المعتزلة لا يجوز ذلك أى لا يوجد أى حس إلا فى محل مخصوص وهو زعم باطل وبرهانهم على ذلك أن حاصة اللمس لها عضو مخصوص ومادام هذا جائزاً على حاسة فإنه يجوز عل كل الحواس والمراد هنا سوى ذلك ولكن لم أجد مناصاً من هذا الاستطراد لتحقيق بيان المعنى.

إذن فمن هذه الحواس التى ذكرت فضلاً عن السمع - نجد أن هناك حاسة للرؤية وحاسة للشم وحاسة للذوق وحاسة للمس وفى رؤية هذا العالم البديع، وفى شم الأشياء الطيبة وذوق النعم الجزيلة، ولمس الأشياء الناعمة من الجائز أن يكون للعقل دليل إلى المعرفة، وأن يدل هذه الحواس على ربها بذلك

إذ يعلم أن العالم محدث ومعرض للتغيير، وكل ما هو ليس خالياً من الحادث يكون محدثاً لابد من خالق له وما هو مكون من الأجناس، فالخالق مكونه، وما هو مجسم فالخالق مجسمه وخالقه قديم وهو محدث، وخالقه لا متناهى، وهو متناه، والخالق قادر على كل الأشياء يحيط علماً بكل شئ وتصرفه فى ملكه جائز وكل ما يشاؤه يستطيع أن يفعله.

ومع أنه ليس فى مقصدنا هنا أن نبين هذا الموضوع ولكن رأيت أن أبين ذلك بياناً كافياً وقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسله بالبراهين الساطعة فجعل الإيمان، برسله لا يكون فرضاً إلا بعد إثبات وجوب معرفة الله تعالى بواسطة السمع، إذ جعل الدين أمراً واجباً ولنفس هذا السبب اعتبر أهل السنة السمع أرقى من البصر فى دار التكليف.

فإذا قيل أن رؤية الله تعالى للمؤمنين ناتجة من السماع وإنه لمن التغافل أن نقول أن الفهم ربما أثبت إمكان رؤية الله تعالى أو عدمه طالما قد ثبت ذلك بالحديث المتواتر وعليه فالسمع أرقى من البصر، وزد على ذلك أن كل فرائض الدين مبنية على السماع ولا يمكن إثباتها بغيره، ولأن الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يتكلمون فى مبدأ ظهورهم حتى يؤمن بهم من سمعهم ثم يظهرون المعجزة التى تؤيد السماع فكل ما قلناه يثبت أن من أنكر السماع أنكر كل الدين وخفى حكمه عليه، ولأبين أحكامه الآن.

باب فى سماع القرآن

أعلم أن أجلى سماع للقلب وأحلى سماع للأذن هو كلمه الله تعالى التى امر أن يسمعها المؤمنون والمشركون والإنس والجن على السواء وإنه لمن أكبر معجزات للقرآن أن الطبع لا ينفر من سماعه وقراءته لأن فيه رقة عظيمة حتى أن كفار قريش كانوا يأتون ليلاً سراً ليستمعوا إلى تلاوة رسول الله ﷺ فى صلاته ويعجبون بها فمنهم النضر بن الحارث الذى كان أفصحهم وعتبة بن ربيعة الساحر بكلامه وأبو جهل بن هشام صاحب البلاغة المدهشة.

ولقد غاب عن وعيه عتبة ذات مرة عندما سمع رسول الله ﷺ يرتل آية من القرآن وقال لأبى جهل إنى متأكد أن هذا ليس بكلام بشر وقد أرسل الله الجن إلى رسول الله ﷺ حتى أتو أفواجاً واستمعوا إلى القرآن وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(١).

فعظاته أفضل من كل العظات وألفاظه أوجز من كل الألفاظ، وامره ألطف من كل الأوامر ونهيه أزجر من كل النواهى ووعده أكثر جذباً للقلب من كل والوعود وعيده أكثر إذابة للروح من كل وعيد، وقصصه أجزل من كل القصص وأمثاله أفصح من كل مثل، يجذب سماعة آلاف القلوب إلى شراك محبته، وتساب لطائفه آلاف الأرواح، يذل أعزاء الدنيا، ويعز أذلاءها، سمع عمر بن الخطاب أن أخته وزوجها قد أسلما فذهب إليهما وقد سل سيفه وأضمر نية قتلهما وقد انمحى حبهما من قلبه حتى أرسل الله تعالى جنداً من اللطف كمنت له بين زوايا سورة طه، حتى بلغ بيتهما وكانت أخته تتلو الآية الكريمة ﴿طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ. إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾(٢) فسقطت روحه فى شرك دقائقها وأسر قلبه بلطفها، فسلك طريق السلام. وخلع رداء الحرب وجاء من الخلاف إلى الوفاق، ومعروف أنهم حينما كانوا

---

(١) سورة الجن آية ١، ٢.

(٢) سورة طه آية (١-٣).

يقرأون أمام رسول الله ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾(١) كان يخر مغشياً عليه. ويروى أن رجلاً تلا أمام عمر ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾(٢) فصاح وخر مغشياً عليه، فحمله إلى بيته واتصل مرضه شهراً، وروى أن رجلاً كان يتلو فى حضرة عبد الله بن حنظلة ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ .. الآية﴾(٣) .

فبكى عبد الله بكاء شديداً حتى ظن القارئ أن سيقتله البكاء ثم انتصب واقفاً فأرادوا أن يجلسوه فقال الخوف من هذه الآية منعني من الجلوس وروى أنه تلا قارئ فى حضرة الجنيد هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(٤) فقال الجنيد اللهم إن كنا قد قلنا فقد قلنا فيك وإن كنا قد فعلنا فقد فعلنا بتوفيقك فأين قولنا وفعلنا.

ويروى أن الشبلى قال عند سماعه ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾(٥) شرط الذكر النسيان وقد عجز العالم كله عن ذكره ثم صرخ وسقط مغشياً عليه فلما أفاق قال إنى لأعجب من القلب الذى يسمع كلمة الله ويصر كأن لم يسمعها وأعجب لروح تسمع كلمة ولا تخرج قال بعض المشايخ كنت مرة أقرأ ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(٦) الآية فسمعت هاتفاً ينادينى إخفض من صوتك لأن أربعة من الجن ماتوا هيبة من هذه الآية.

قال أحد الدراويش مضت على عشر سنين وأنا لا أقرأ ولا أسمع من القرآن إلا البعض منه الذى أتلوه فى الصلاة فلما سئلت أجبت مخافة أن أتلوه

---

(١) سورة المزمل آية ١٢-١٣.
(٢) سورة الطور آية ٧.
(٣) سورة الأعراف آية ٤١.
(٤) سورة الصف آية ٢.
(٥) سورة الكهف آية ٢٤.
(٦) سورة البقرة آية ٢٨١.

فيكون حجة علي وحضرت يوماً مجلس الشيخ أبي العباس الشقانى فرأيته يقرا ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾(١) وهو يبكى ويصرخ حتى صعق فخلت أنه مات، وقلت له يا شيخ ما الذى يضيرك فقال: إنى لم أتعد هذه الآية من القرآن منذ إحدى عشرة سنة وهى نصيبى منه.

سئل أبو العباس ابن عطاءكم وردك فى اليوم من القرآن فقال كنت فيما سبق اختم القرآن مرتين فى يوم وليلة أما الآن فإنى وصلت إلى سورة الأنفال بعد مضى أربع سنوات يروى أن أبا العباس القصاب قال لقارئ إقرأ لى من كتاب الله فتلا ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾(٢) ثم قال له اتل فقال ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾(٣).

فقال له زدنى فقرأ ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٤) فقال أبو عباس: اللهم إنى أظلم من إخوة يوسف وأنت أكرم من يوسف فعاملنى بما عامل به يوسف إخوته.

والمسلمون جميعاً العصاة منهم والأتقياء مأمورون بالإستماع للقرآن والإنصات له، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٥)، وأمر بالإستماع والإنصات حين يقرأ فقال ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٦) اى يقومون بأوامره، ويستمعونه بإجلال وقال أيضاً: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٧)، وقال:

---

(١) سورة النحل آية ٧٥.
(٢) سورة يوسف آية ٨٨.
(٣) سورة يوسف آية ٧٧.
(٤) سورة يوسف آية ٩٢.
(٥) سورة الأعراف آية ٢٠٤.
(٦) سورة الزمر آية ١٧-١٨.
(٧) سورة الأنفال آية ٢.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(1) وما يشبه هذه الآيات كثير. وعلى عكس ذلك ذم أولئك الذين لا يستمعون إلى كلام الله كما ينبغى، ولا يجاوز آذانهم إلى قلوبهم، فقال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(2) وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ إلى آخر الآية﴾(3) وقال ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾(4) وقال أيضاً: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾(5). ما يشبه هذه الآية كثير فى كتاب الله تعالى.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن مسعود: «اقرأ: فقال: أنا أقرأ وعليك أنزل؟! قال رسول الله ﷺ: أنا أحب أن أسمع من غيرى، وهذا دليل واضح على أن المستمع أكمل حالاً من القارئ. ذلك لأن القارئ إما يقرأ بحال أو بغير حال، والمستمع لا يستمع إلا بحال، ففى النطق نوع من التكبر، وفى السماع نوع من التواضع، وقال رسول الله ﷺ أيضا: «شيبتى هود»(6).

وكان مقصوده من هذا الآية الكريمة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(7) فتحير ﷺ وقال: طار قلبى شعاعاً، كيف يتيسر لى أن أقوم بتنفيذ هذا الأمر، ومن ألم قلبه وهنت قوته فزاد ألماً على ألم، وذات يوم نهض فى داره، ووضع يديه على الأرض، وأقوى، فقال له أبو بكر الصديق: ما لك يا رسول الله وأنت شاب وصحيح فقال: شيبتنى سورة هود أى وضع هذا الأمر على قلبى قوة أسقطت قوتى.

وروى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم يستتر بعضاً من العرى، وقارئ يقرأ علينا القرآن ونحن نستمع إلى قراءته. قال: فجاء رسول الله ﷺ حتى قام علينا فلما رأى القارئ

---

(1) سورة الرعد آية ٢٨.
(2) سورة البقرة آية ٧.
(3)، (4) سورة الأنعام آية ٢٥.
(5) سورة الأنفال آية ٢١.
(6) رواه الترمذى عن ابن عباس.
(7) سورة هود آية ١١٢.

سكت فسلم وقال: ماذا كنتم تصنعون. قلنا: يا رسول الله كان قارئ يقرأ علينا القرآن ونحن نستمع لقراءته. فقال النبى ﷺ: الحمد لله جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم. قال: ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا وأشار بيده فتحلق القوم، فلم يعرف رسول الله ﷺ منهم أحداً، قال: وكانوا ضعفاء المهاجرين فقال النبى: ابشروا صعاليك المهاجرين بالفوز التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنيائكم بنصف يوم كان مقداره خمسمائة عام. وهذا الخبر بصورة عديدة والاختلاف فى اللفظ.

فصل

[فضل سماع القرآن]

هذا وإن سيدنا زرارة بن أبى أوفى أحد مشاهير الصحابة كان يصلى إماماً فتلا آية من القرآن ثم صرخ ومات أما أبو جهبن من كبار التابعين فبعد أن سمع آية تلاها عليه صالح المرى شهق بشدة ثم فارق هذه الدنيا.

وروى عن إبراهيم النخعى أنه قال: بينما كنت ماراً بناحية من نواحى الكوفة رأيت عجوزاً واقفة فى الصلاة ولما شاهدت عليها علامات التقوى انتظرتها حتى فرغت من صلاتها ثم سلمت عليها رغبة فى نيل البركة فقالت لى أتعرف القرآن قلت نعم فقالت اتل على منه آية فلما فعلت ذلك صرخت وخرجت روحها إلى بارئها.

وعن أحمد بن الحوارى أنه قال رأيت فى الصحراء شاباً يلبس مرقعة خشنة واقفاً على حافة بئر فقال لى يا أحمد لقد أتيت فى وقت مناسب لأنى أحتاج أن أسمع القرآن حتى أجود بروحى فاقرأ على آية منه فألهمنى الله تعالى أن اقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[1] الآية. فقال لى يا أحمد ورب الكعبة لقد تلوت على ما كان يتلوه على ملك الآن ثم خرجت روحه ولو ذكرت كل الحكايات التى تتعلق بذلك فى هذا الباب لأدى ذلك إلى التطويل.

---

(١) سورة فصلت آية ٣٠.

فصل

[فى سماع الشعر]

اعلم أنه من المباح سماع الأشعار فقد سمعها رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم وتكلموا بها أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة» قال: «والحكمة ضالة المؤمن من حيث وجدها فهو أحق بها» وقال أيضاً: «أصدق كلمة قالها العرب كلمة لبيد بن ربيعة هى:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل(١)

حدث عمرو بن الشريد عن أبيه قال استنشدنى رسول الله ﷺ فقال: «هل تروى من شعر أمية بن أبى الصلت شيئاً؟ فانشدته مائة قافية كلما مررت على بيت قال هيه ثم قال ﷺ كاد أن يسلم فى شعره»(٢) وقد سمعنا حكايات كثيرة عن النبى ﷺ وأصحابه فى هذا الموضوع.

وقد أبدى بعضهم آراء فاسدة فى هذا الموضوع فالبعض ذهب لتحريم الاستماع للشعر مهما كان فهو غيبة متصلة فى المسلمين، والبعض حكموا بضد ذلك وهو أن الشعر حلال وأمضوا حياتهم فى الاستماع للغزل ووصف وجه محبوبيهم وخاله وشعره وأنى لا أقصد أن أبين البراهين التى أتت بها كلتا الطائفتين.

وللصوفية أسوة حسنة برسول الله ﷺ الذى قال عندما سئل عن الشعر «كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح» أعنى أن كل ما كان محرماً منه مثل الغيبة النميمة والهجو والنطق بالشرك فهو حرام، سواء كان نثراً أو نظماً، وكل ما كان حلالاً فى النثر مثل الحكمة والمواعظ والاستدلال المأخوذ من آيات الله تعالى ومشاهدة دلائل الحق ليست بأقل حلا فى الشعر، وكما أنه من المحرم

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة.

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة ورواه مسلم عن عمرو بن الشريد.

النظر واللمس بشهوة لأى جميل فكذلك من المحرم والمحظور الاستماع إلى ذلك الشئ بشهوة وكذلك ما شابهه بالاستماع إلى وصفه لأن من اعتبروا أن مثل هذا الاستماع حلال لزمهم أن يقولوا بأن النظر واللمس حلال وهو ضلال وكفر .

فإذا قال قائل أنى أسمع الله وحده وأطلب الله وحده فى العين والخد والردف لأن العين والأذن أبواب المعرفة فقد يأتى شخص آخر فيقول أن لمس شخص من الممسوح السماع إلى وصفه والنظر إليه هو أيضاً يعمله طالب الله ما دام أن حاسة ليست بأفضل من أختها فى الحقيقة وعلى ذلك لزم أن تتعطل الحدود والأوامر الإلهية وقول رسول الله ﷺ «العينان تزنيان»[1] يكون لا معنى له، ويكون لا ذنب على مس المحرم، فتتعطل حدود الله.

هذا وإن بعض المنتسبين إلى التصوف رأى كبار الصوفية مستغرقين فى الوجد حال السماع فتصور أن ذلك ناتج عن طرب حسى فاستحلوه ولو كان حراماً، ولما فعل المشايخ هذا قلدوهم فيه متخذين الرسم مع إهمال اللب فأهلكوا أنفسهم وقادوا الغير إلى التهلكة وهذه من أكبر الحجب فى عصرنا هذا وسأبينه فى محله.

---

(١) أخرجه أحمد والطبرانى عن ابن مسعود.

باب
فى سماع الأغانى والأصوات والألحان

قال رسول الله ﷺ: «حسنوا الأصوات بالقرآن»[١] وفى رواية أخرى «زينوا أصواتكم بالقرآن»[٢] وقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[٣] ومعنى ذلك كما رواه بعض المفسرين الصوت الحسن وقال رسول الله ﷺ «من أراد أن يسمع إلى صوت داود فليستمع إلى صوت أبى موسى الأشعرى».

ويروى فى أحاديث صحيحة أن أهل الجنة يتنعمون بالمسامع لأنه يصدر من كل شجرة صوت مختلف عن الأخرى ونغمة مختلفة أيضًا، فإذا اجتمعت تلك الأصوات المختلفة طربت الحواس، وقد اشترك فى هذا النوع من السماع جميع المخلوقات الحية، لأن الروح معنى لطيف تنجذب لأمثالها من الأصوات اللطيفة وهذا قول للجماعة التى ذكرت وبعض الأطباء الذين يدعون الإلمام بمعرفة الحق قد شرحوا ذلك الموضوع مطولاً، ووضعوا كتباً فى الموسيقى وقد تجلت لنا نتيجة أبحاثهم فى هذه الأيام من ترقى الآت فن الموسيقى التى وضعت لإنماء طبيعة الشهوة الإنسانية فى اللهو والطرب.

وقد نقل إلينا فيما نقل من الفن أن اسحق الموصلى كان يغنى فى حديقة فطرب لصوته بلبل وصمت فما أن هزه الشوق لهذا الصوف الشجى حتى وقع صريعاً، وقد سمعت بأنواع من الواقعات فى هذا المعنى لا أرى فى استعادته الآن جدوى مكتفياً بأن أبين بصورة قاطعة أن أمزجة الحيوانات الحية كلها بركة من الأصوات والألحان ومتعادلة.

---

(١) رواه أحمد والنسائى وأبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم والطبرانى وصححه السيوطى – الصغير جـ٢ ص ٢٨.

(٢) رواه الدرامى.

(٣) سورة فاطر آية ١.

قال إبراهيم الخواص اقتربت يوماً من حى من أحياء العرب ونزلت فى مضيفة شيخها فرأيت عبداً مصفداً بالسلاسل على باب الخيمة فى الشمس المحرقة فأخذتنى به رأفة وعزمت أن أشفع له عند ذلك الشيخ فلما أتى بالطعام امتنعت عن الأكل وذلك لعلمى أنه لا يشق على العربى شئ أكثر من ذلك فسألنى الشيخ عن سبب امتناعى فقلت إنى أتعشم فى كرمه أن يمنحنى هبة، فقال لى كل ما أملك لك فقلت له أنى لا أريد مالك ولكن أريد أن تعفوا عن هذا العبد إكراماً لى، فقال اسمع ذنبه: ثم بعد ذلك فك وثاقه: إن هذا العبد الحادى له صوت جميل فأرسلته إلى ضياعى ببعض الإبل ليحضر لى غلالها فحمل كل بعير حملين وصار يحدو لها حتى أن الإبل رجعت فى ربع الوقت، فلما حط عن الرحل مات الواحد منها بعد الآخر فقلت يا أيها الأمير إن من كان مثلك فى الكرم لا يكذب وأحب أن أرى برهانك على هذه الحكاية وبينما كنا نتحدث أتى ببعض الإبل فى الصحراء لترد الماء فسأل الأمير كم يوماً لهذه الإبل لم تشرب فقيل له أنه لها ثلاثة أيام فأمر العبد أن يغنى فأنصتت الإبل إلى غنائه ولم تشرب قطرة ماء ثم أجفلت وفرت تباعاً إلى الصحراء فعفا الأمير عن العبد إجابة لطلبى.

وإن كثيراً من الإبل والحمير تؤثر فيها أغانى السائقين وأن أهل خراسان والعراق إذا أرادوا صيد الغزلان ليلاً دقوا الطبول حتى تقف الغزلان مستمعة للصوت فتمسك، وكذلك من المشهور فى الهند أن بعض الناس يذهبون إلى الفلاة ويغنون بصوت مطرب تسمعه الغزلان فتقرب منهم وتلتف حول الصيادين وهم يغنون حتى يغشيها النعاس فى ذلك الصوت الحسن فيقتنصوها بسهولة، مثل هذا الأمر ثابت عند الأطفال الذين يستكنون فى مضاجعهم إذا غنوا لهم ويستمعون للغناء والأطباء يقولون عن مثل هذا الطفل أنه عاقل يتنبأون له بمستقبل باهر، ويقال إنه لما توفى أحد ملوك الأكاسرة أراد وزراؤه أن يتوجوا ابنه الذى كان له من العمر سنتين فجاؤا إلى بزرجمهر

الوزير وفاوضوه فى ذلك فقال نعم ولكنا نريد أن نعرف مقدار عقله وأمر المغنين أن يغنوا له فاضطرب الطفل لذلك وبدأ يحرك رجليه ويديه فقال إن هذه الحركات باعثة على الرجاء ووافق على توليته.

وكل من قال إنه لا يجد لذة أو طرباً فى الأصوات والأغانى والموسيقى فهو إما كاذب أو منافق أو أنه معدوم الحس وبذلك يكون بعيداً عن مرتبة الإنسان والحيوان فمن حرموا السماع قالوا: بمحافظتهم على الأمر الإلهى لكن العلماء جوزوا السماع بشرط ألا تكون مستعملة فى بدعة وأن لا ينقاد العقل إلى الشرور الناتجة عن سماعها.

وتوجد أحاديث كثيرة تثبت لنا هذا الرأى فقد روينا عن عائشة رضى الله عنها أن جارية كانت تغنى فى بيتها فاستأذن عمر فلما سمعت وقع قدميه هربت ولما دخل تبسم رسول الله ﷺ فى وجهه فقال ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال له قد كانت هنا جارية تغنى وعند سماع صوت قدميك هربت، فقال إنى لا أبرح حتى أسمع ما سمعت يا رسول الله فدعا رسول الله ﷺ بالجارية وأمرها أن تغنى وهو يستمع لها ﷺ وقد روى مثل تلك الأحاديث عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وجمعها أبو عبد الرحمن السلمى فى كتابه المسمى بكتاب السماع وحكم أن مثل هذا السماع مباح.

والصوفية لا يلاحظون مجرد الإباحة عند السماع كما يفعل أئمة الحديث عندما كنت فى مرو قد جمعت مؤلفاً فى إباحة السماع فقلت إنها أكبر بلية على الدين أن إماماً مثلك أباح اللهو الذى هو أساس كل نقيصة فقال لى إذا كنت لا تقول بأنه حلال فلم تفعله وقلت أن تحليله لأسباب مخصوصة ولا يمكن إثباته أبداً لأنه إذا أنتج السماع أمراً حلالاً فى القلب فإنه حلال، وإذا أوجد شيئاً حراماً فهو حرام وجائز إذا أنتج جائزاً شيئاً فإطلاق الحكم لا يصح.

باب
فى أحكام السماع

اعلم أن أصول السماع تختلف باختلاف الأمزجة، كما أنه فى كل قلب همة مختلفة عن الأخرى، وإنه لمن العبث أن نضع حكماً واحداً لجميعها، ويمكننا أن نقسم المستمعين إلى قسمين أحدهما من يصغى إلى المعنى الباطن والآخر من يستمع إلى الصوت الظاهر، ويوجد فى كلا الحالتين خير وشر فالسماع إلى الأصوات الحسنة يحدث غلياناً فى مزاج الإنسان فيكون حقاً إذا كان مزاجه حقاً، وباطلاً إذا كان مزاجه باطلاً.

وإذا كانت مادة مزاج الإنسان خبيثة كان ما يسمعه خبيثاً أيضاً، وهذا الحكم مستنتج من قصة سيدنا داود عليه السلام الذى جعله خليفة فى أرضه وأعطاه الصوت الحسن وجعل حنجرته كالمزامير حتى أوبت معه الوحوش والطيور من الجبال والسهول لسماعه ووقف جريان الماء وسقطت الطيور من السماء.

يروى أن قومه الذين كانوا معه فى الصحراء لم يذوقوا طعاماً شهراً كاملاً ولم تبك الأطفال بل ولم تطلب لبناً وقد مات قوم من شدة الوجد الذى غلب عليهم عند سماع صوته، ويروى أنه فى ساعة واحدة على قول رواة القصة بلغ عدد الموتى من العذارى سبعمائة[1]. ولما أراد الله تعالى أن يبين المتبعين لأهوائهم من أهل الحق الذين استمعوا للحقيقة الروحانية صرح لإبليس أن يعمل ما يشاء من أضاليله فعمل الناى والطنبور وارتقى إلى مكان مقابل لسيدنا داود عليه السلام فانقسم مجلس سيدنا داود إلى قسمين: المطلوبون والمبعدون فاستمع المبعدون لغناء إبليس.

أما من سبقت لهم الحسنى فاستمروا مستمعين لسيدنا داود عليه السلام فأهل المعنى لم يرغبوا فى غير صوت سيدنا داود لأنهم رأوا الله وحده

---

(١) راجع اللمع للطوسى ص ٣٣٨، وهذه القصص من الإسرائيليات وليس لها دليل.

فإذا سمعوا صوت إبليس علموا أنه امتحان من الله تعالى وإذا سمعوا صوت سيدنا داود عرفوا أنه إرشاد من الله تعالى وعلى ذلك فإنهم تركوا الأشياء الظاهرية ورأوا الحق والباطل على ما هما عليه فمن كان سماعه مثل هذا كان كل ما يسمعه حلالاً وبعض المدعين يقولون إن لنا سماعاً خلاف هذا، وذلك باطل لأنه من كمال الولاية شهود حقيقة الأشياء على ما هى عليها حتى الرؤية فإذا رأيت غير ذلك كانت الرؤية كاذبة، وقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم أرنا الأشياء على ما هى عليه».

وحينما يصح النظر تكون الرؤية للأشياء كما طلبها الرسول وكذلك فالسماع الحق يشمل كل شئ على ما هو عليه بالكيفية والكم. والسبب الذى ضل به الناس ونمت شهوتهم بآلات الطرب هو أنهم يستمعون للباطل لأنه لو كان سماعهم مطابقاً للحقيقة لنجوا من كل شر فأهل الشرك سمعوا كلام الله وازداد ضلالهم من قبل فقال النضر بن الحارث ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[1] وقال عبد الله بن أبى سرح كاتب الوحى ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2] وقد قال بعضهم ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[3] مستدلين بذلك على عدم رؤيته سبحانه وتعالى، وقال بعضهم ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[4] قائلين بأن المكان والجهة مثبتة له سبحانه وتعالى وقالوا إن فى قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5]

الآية دليل المجئ وذلك لوجود الضلال فى قلوبهم فلم تنفعهم كلمة الله شيئاً، والموحد إذا سمع شعراً نظر إلى خالق طبع الشاعر الذى منحه قوة الفكر ثم يدخل من هنا فيرى فى العمل آية من آيات القادر وعلى ذلك فإنه يجد طريق الحق ولو كان ذلك فى الباطل، أما من ذكرناهم سابقاً فإنهم قد ضلوا الطريق فيما بين الحق.

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٥.
(٢) سورة المؤمنون آية ١٤.
(٣) سورة الأنعام آية ١٠٣.
(٤) سورة الأعراف آية ٥٤.
(٥) سورة الفجر آية ٢٢.

فصل

[أقوال المشايخ]

للمشايخ أقوال فى هذا الموضوع فوق ما يتحمله الكتاب ولكن من الممكن أن نذكر نبذاً منها فقد قال ذو النون المصرى «السماع وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق».

إن هذا الشيخ لا يعنى أن السماع هو السبب الموصل إلى الله تعالى ولكنه يعنى أنه يلزم للسامع أن يصغى للحقيقة لا للصوت، حتى يقع فى قلبه وارد الحق فيغطيه، فمن أتبع الحق بهذا السماع كوشف، ومن اتبع نفسه وهواه حجب واستعان بالتأويل، فيتأتى عن هذا السماع السئ.

أما السماع الآخر فيتأتى عنه الكشف. والزندقة هى كلمة فارسية معربة ومعناها فى العربية التأويل ولذلك فالفارسيون يسمون التفسير على كتابهم بالفارسية (زند أو بازند) ولما أراد أهل اللغة أن يطلقوا أسما لأبناء المجوس من أتباع بابك والأفشين سموهم زنادقة وذلك لقولهم بأن كل ما قاله المسلمون له تأويل خفى يضاد المعنى الظاهر، وشيعة مصر بقايا أولئك المجوس يقولون بذلك الزعم إلى يومنا هذا لذلك فقد استعملت لفظة زنديق علماً عليهم ويقصد الشيخ ذو النون المصرى باعماله هذه اللفظة أن أهل الحق يقفون بسماعهم على الحقيقة أما أهل الهوى فإنهم يجادلون فى الحق بتأويل غامض وبذلك وقعوا فى المعصية.

وقال الشبلى: «السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية» يعنى أن السماع بلية وهو منبع الشر لكل قلب لم يشتغل بذكر الله تعالى.

قال أبو على الروزبادى عندما سئل عن السماع «ليتنا تخلصنا منه رأسا برأس» لإنه لا يمكن الإنسان أن يعمل كل شئ كما يجب وإذا عجز عن عمل

شئ كما يجب شاهد فى نفسه القصور وأحب أن يتخلص منه بالمرة.

قال بعض المشايخ «السماع تنبيه الأسرار لما فيها من المغيبات» فينتج من تأثيرها حضور القلب مع الله تعالى، والغيبة هى من أكبر الصفات المرذولة للقلب فالمحب مع غيبته عن محبوبه يلزمه أن يكون حاضراً معه بقلبه فإذا غاب عن قلبه ذهبت محبته سدى.

وكان شيخى يقول «السماع زاد المضطرين فمن وصل استغنى عن السماع» لأن السماع لا يجدى نفعاً عند الوصل إذ الاخبار إنما تكون عن الغائب ولكن من كان مع محبوبه وجهاً لوجه لا يجد لذة فى السماع. قال الحصرى «إيش أعمل بالسماع ينقطع إذا قطع فمن نسمع منه ينبغى أن يكون سماعك متصلاً به غير منقطع» وإن هذا القول هو علامة تجميع أفكاره فى روضة المحبة فإذا وصل الإنسان إلى مثل هذه الدرجة سمع الحق فى كل شئ فى العالم حتى فى الحجر والمدر. وهذه درجة عظيمة.

فصل
فى الآراء المختلفة فى السماع

المشايخ وأهل الحقيقة متمسكون بآراء مختلفة فى هذا الموضوع فالبعض يقولون: إنه وسيلة للغيبة لأن السماع فى مشاهدة الله تعالى محال إذ أن المحب حين يتصل بمحبوبه إنما يثبت نظره عليه ولا يحتاج لسماعه فالسماع خبر والخبر عند العيان بعد وإنشغال، وعلى ذلك فالسماع وسيلة السالكين التى يستعملونها إذا غلبت عليهم الغفلة لكى ينالوا الجمع ولكن من سبق جمعه فإن السماع لابد أن يقطعه عنه والبعض يقولون: إن السماع وسيلة الحضور لأن المحبة تتوق إلى الكلية حتى يفنى المحب فى كل المحبوب وكما أن القلب له المحبة والسر له المشاهدة والروح لها الجمع والجسم له الخدمة فكذلك الأذن يلزم أن يكون لها بهجة كما للعين فى حاسة النظر وما أحلى قول ذلك الشاعر الذى قاله هازلاً:

الا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ... ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

يعنى دع عينى تنظر إليه ويدى تلمسه ولسانى يذوقه وأنفى يشمه ولما كان قد بقيت لى حاسة لزم أن تتهج به وهو السمع قل لى أن ذلك خمر حتى تشعر أذنى بتلك البهجة التى شعرت بها الحواس.

وقد قالوا أن السماع موصل إلى الحضور مع الله تعالى لأن من كان غائباً عن الله تعالى فهو منكر ومن كان منكراً، لا يستحق أن يتمتع بالسماع، وعليه فالسماع على نوعين بواسطة وبغير واسطة، فالسماع الذى يكون مصدره القارئ يكون سبباً للغفلة ولكن السماع من المحبوب واسطة للحضور وعليه فإن أحد مشاهير المرشدين قال: إننى لا أضع أى مخلوق فى المكان الذى أسمع منه أو أتحدث معه إلا من اختصهم الله.

فصل

فى مراتبهم المختلفة فى حقيقة السماع

أعلم أن لكل صوفى مرتبة مخصوصة فى السماع وإن الذوق الذى يناله منه هو على قدر مرتبته فكل ما سمعه التائب زاد فى حسرته وندمه وكل ما سمعه المشتاق زاد فى شوقه.

وكل ماسمعه أهل اليقين ثبت يقينهم وكل ما سمعه السالكون بين لهم أيضاح المسائل المذهشة وكل ماسمعه العاشقون اضطرهم إلى قطع كل العلائق الدنيوية وكل ما سمعه أهل المسكنة أوجد فيهم الخشية والسماع .

كالشمس التى تشرق على كل الأشياء وتؤثر فى كل جزء منها بقدر مرتبته فهى تحرق أو تضئ أو تربى أو تذيب وكل الأقسام التى ذكرتها تأتى تحت هذه المراتب الثلاثة: المبتدين والمتوسطين والكاملين.

ويلزم الآن أن أكتب فصلاً فى بيان أحوال كل طائفة من جهة السماع حتى يسهل فهم هذه المسألة.

فصل

[السماع وارد من الحق]

إعلم أن السماع وارد من الحق سبحانه، وبما أن الجسم الإنسانى مركب من رعونة ولهو فمزاج المبتدئين لا يقوى على احتمال كلمة الله سبحانه وتعالى ولكنه يقهر اضطراراً بورود هذه الحقيقة فمنهم من يفقد شعروه فى السماع ومنهم من يموت، ولا يوجد واحد يمكنه أن يحفظ توازن أمزجته.

ومن المشهور: أنه يوجد فى مستشفيات الروم اختراع غريب يسمونه (الإنجليون) وتسمى الروم كل شئ غريب بهذا الاسم كالتوراه والإنجيل وكتاب «مانى» ومدلول الكلمة إظهار الحكم.

هذا (الإنجليون) يشبه العود وأوتاره فالمرضى يحضرون إليه يومين فى الأسبوع ويجبرون على السماع مدة العزف لمدة مناسبة لمرضهم ثم يتحولون عنه، فإذا أريد قتل أى إنسان أبقوه مدة طويلة حتى يموت، والحقيقة أن لكل أجل كتاب ولكن للموت أسباباً، على أن الأطباء وغيرهم لهم أن يسمعوا الإنجليون مستمراً بدون أن يؤثر فيهم لأنه متوافق مع طبائعهم العزيزة ومخالف لطبع المبتدئين، وقد رأيت فى الهند دودة وجدت فى سم ناقع وهى تتغذى به لأن ذلك السم صار حياتها، ورأيت فى تركستان فى مدينة على حدود دار الإسلام بركاناً يخرج من فوهاته دخان النشادر، ورأيت وسط تلك النيران فأراً مات عند خروجه من تلك الحرارة الشديدة.

وقصدى من بيان هذه الأمثلة: أن أبين أن اضطراب أحوال المبتدئين عند نزول الوردات الإلهية عليهم هو من أن أجسامهم لا تحتمله لكن المبتدئ يتحملها مع الاستمرار إذ أن رسول الله ﷺ لم يتحمل رؤية سيدنا جبرائيل عليه السلام من أول الرسالة ولكنه بعد ذلك كان يحزن لانقطاع الوحى عنه ولو لمدة قصيرة وعلى هذا فنستنتج من الحكاية السابقة التى ذكرتها أن المبتدئين يضطربون، أما الواصلون فإنهم متمكنون من السماع.

كان للجنيد تلميذ اعتاد التواجد والاضطراب عند السماع حتى أنه كان يشغل إخوانه فاشتكوا للجنيد فأمر هذا التلميذ أن لا يحضر مجلسه إذا فعل ذلك مرة أخرى، قال أبو محمد الجريرى: فراقبت هذا التلميذ فى السماع فرأيته ضم شفتيه وسكت حتى انفتحت من كل شعرة من جسده عيناً فأغشى عليه وبقى على هذه الحالة يوماً كاملاً[1]، فلم أدر استماعه أو احترامه لمرشده كان أكمل.

يروى أن رجلاً صرخ فى مجلس السماع فأمره مرشده أن يسكت فوضع رأسه على ركبته فلما التفتوا إليه وجدوه ميتاً.

سمعت من الشيخ أبى مسلم فارس ابن غالب الفارسى أن بعضهم وضع يده على رأس درويش اضطرب حال السماع وقال له اجلس فجلس ومات فى مكانه، ويقول الجنيد رأيت درويشاً مات أثناء السماع. روينا عن الرقى عن الدراج أنه قال مررت أنا وابن الفرطى على شاطئ دجلة بين الأبلة والبصرة حتى انتهينا إلى سقيفة وكان على سطحها رجل جميل الصورة وأمامه جارية جميلة تغنى قائلة:

فى سبيل الله ود	كان منى لك يبذل
كل يوم تتلون	غير هذا بك أجمل

وكان واقفاً تحت تلك السقيفة شاب بمرقعة وركوة فقال: يا سيدتاه أسألك بالله أن ترددى على ذلك الصوت فلم يبق فى حياتى غير نفس حتى تسمع الروح هذا الصوت ثانية، فكررت الجارية ذلك الصوت فصرخ الشاب وخرجت روحه إلى بارئها، فقال لها صاحبها أنت حرة ثم نزل من السقيفة واشتغل بتكفين الميت ودفنه، فلما دفنه دعا له كل أهل البصرة ثم وقف

---

(١) اللمع للسراج الطوسى ص ٣٥٨.

صاحب المغنية وقال يأهل البصرة أنا فلان بن فلان قد أوقفت كل أموالى لأعمال البر.

وقد اعتقت كل عبيدى ثم ذهب بعد هذا ولم يسمع عنه بعدها أبداً والمقصود من هذه الحكاية أن الطالب ينتقل بالسماع إلى حد يخرج العاصى من معصيته ولكن بعض الضالين يجلسون فى عصرنا لسماع الفاسقين ومع ذلك فإنهم يقولون إننا نسمع لله. يصحبهم فى هذا أهل المعصية فيقوونهم على شرورهم فيهلكونهم وأنفسهم.

سئل الجنيد ذات مرة أيجوز أن نذهب إلى الكنيسة حتى نتعظ بشهود حقيقة شرك أهلها والشكر لله على الإسلام فقال لهم إذا أمكنكم الذهاب إلى الكنيسة للإتيان ببعض الرهبان لحظيرة الله تعالى فاذهبوا وإلا فلا لأن الزاهد إذا دخل فى خمارة كانت هذه الخمارة صومعته وإذا ذهب السكير إلى صومعة صارت حانة.

وقد روينا عن شيخ كبير: كنت سائراً مع درويش فى شوارع بغداد فسمعنامغنياً يقول:

منى أن تكن حقانكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغزا

فصرخ الدرويش وسقط ميتاً، ومثل ذلك ما رواه أبو على الروزبادى قال: رأيت درويشاً يستمع لصوت مغن فانصت له أنا أيضاً لأنى أحببت أن أعرف ما يقول، فإذا هى هذه الكلمات يرددها بنغمة حزن:

أمد كفى بالخضوع إلى الذى جاد بالصنع

فصرخ الدرويش وسقط ولما اقتربنا منه وجدناه ميتاً، وقال بعضهم كنت مسافراً فى طريق جبلى مع إبراهيم الخواص فتملك قلبى طرب وغنيت:

صح عند الناس أنى عاشق غير أن لم يعملوا عشقى لمن

ليس فى الإنسان شئ حسن　　　　إلا وأحسن منه صوت حسن

فسألنى إبراهيم أن أردده ففعلت ذلك فتواجد حتى رقص بعض خطوات على تلك الأرض الحجرية فلاحظت أن قدماه كانتا تغوصان فى الصخر كأنما الصخر شمع ثم صعق، فلما أفاق قال لى كنت فى الجنة ولم تدر، ورأيت بعينى رأسى درويشاً يمشى منفرداً بين جبال آذربيجان مردداً على نفسه الأبيات الآتية متغنياً بها ببكاء:

والله ما طلعت شمس ولا غربت　　　　إلا وأنت منى قلبى ووسواسى

ولا تنفست محزوناً ولا فرحا　　　　إلا وذكرك مقرون بأنفاسى

ولا جلست إلى قوم أحدثهم　　　　إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا هممت بشرب الماء من عطشى　　　　إلا رأيت خيالاً منك فى الكاس

ولو قدرت على الأتيان زرتكم　　　　سحياً على الوجه أو مشياً على الراس

فما سمع هذه الأبيات حتى تغير لونه ومال هنيهة على صخرة ثم خرجت روحه إلى بارئها.

وبعض الشيوخ يستكروهون قراءة القرآن نغماً، كما يستكرهون سماع القصائد والأشعار، والنطق بالحروف نطقاً يجاوز حدودها. ويمتنعون عن ذلك ويغالون فيه، وهم جماعات عديدة ولكل واحد منهم سبب فى ذلك، فمنهم جماعة وجدوا روايات فى تحريم ذلك وتابعوا فى ذلك السلف الصالح وقلدوهم. ومما أوردوه فى ذلك زجر النبى ﷺ لشيرين جارية حسان بن ثابت عن الغناء وضرب عمر بالدرة لذلك الصحابى الذى غنًى، وإنكار على رضى الله عنه على معاوية امتلاكه لقيان ومنعه للحسن رضي الله عنه من النظر لتلك الجارية الحبشية التى كانت تغنى، وقالوا: إن الغناء قرين الشيطان وأشباه ذلك، ويقولون أيضاً إن أعظم دليل لدينا على كراهة الغناء، وأنه فى زماننا

وقبل زماننا كان الغناء مكروهاً بإجماع الأمة أن بعضهم كان يراه حراماً محرماً.

يروى أن أبا الحارث اليوفانى قال: كنت ملازماً للسماع محباً له شديد الحرص عليه فأتانى أحدهم إلى صومعتى وأخبرنى أن بعض طلاب الحق قد اجتمعوا ويحبون أن يرونى فذهبت معهم إلى ذلك المكان فقابلونى بالنجلة والاحترام وكان بينهم رجل عجوز أحاطوا به، فقال اسمح لنا بإنشاد بعض الأشعار فأجبته، فابتدأ أحدهم يغنى أبياتاً للشعراء مبنية على موضوع الفراق عن المحبوب فوقفوا جميعهم متواجدين صارخين وهم يبدون حركات لطيفة فعجبت من فعلهم هذا، واستمعوا على هذا المنوال حتى طلع النهار فقال لى العجوز يا أيها الشيخ الا تحب أن تعرف من أنا فقد كنت فيما مضى عزازيل أما الآن فإبليس والباقون هم أولادى وإنى أستفيد من هذه الاجتماعات أمرين:

أحدهما: أنوح على نفسى لبعدى وأتذكر أيام دولتى الأولى.

وثانيهما: أضل أهل الحق وأوقعهم فى المعصية.

قال الراوى فمن ذلك الوقت لم تعد لى رغبة فى السماع وكان قد وقع لى من ذلك اضطراب عظيم هذا وإنى قد سمعت الشيخ الإمام أبا العباس الشقانى يقول: كنت يوماً جالساً فى مجلس سماع فرأيت كثيراً من الشياطين عراة الأجسام يرقصون بين الجماعة وظللت متعجبا أنهم ينفثون عليهم لكى يزيدوا من حماسهم .

والبعض يمتنعون عن السماع مخافة أن ينغمس تلامذتهم فى ذلك متشبهين بهم فيقعون فى الذنب ويرجعون من التوبة إلى المعصية، وحتى لا يتملكهم الهوى ولا يفت الهوس فى عزائم صلاحهم.

يروى: أن الجنيد قال لأحد مريديه المبتدئين إذا أحببت أن تحفظ عليك

دينك فلا تنكر السماع عن الصوفية ولا تر نفسك أهلا له فى صغرك فإذا كبرت لا تخطئ الناس.

والبعض يقولون: إن أهل السماع نوعان: لاهى وإلهى فالأوائل فى وسط الكبيرة ولا يخرجون منها أبداً، والآخرون يحفظون أنفسهم من المعصية بمجاهدة النفوس، والزهد فى كل المخلوقات والخشونة فى المأكل والشرب والملبس.

وحيث أننا كما يقول أهل هذا الزعم لا ننسب إلى أى من الطبقتين فإنه من الأحسن لنا أن نمتنع عن السماع وأن نشغل أنفسنا بما يوافق أحوالنا.

وبعضهم يقول طالما أن السماع خطر على العامة وأنهم يقعون فى الشك عندما يرونا نعمل به وبما أنهم لا يقدرون على الوصول إلى مرتبتنا وأنهم يقعون فإننا نشفق عليهم.

وإنا ننصح الصوفية الحقيقيين أن يمنعوا عن الإنهماك فى السماع، وهذا طريق محمود.

والبعض يقولون: إن رسول الله ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»[1] وعلى ذلك فإننا نترك السماع لأنه لا لزوم له وأنه من ضياع الوقت أن يشغل الإنسان نفسه بأمور تافهة لأن الوقت ثمين بين المحب والمحبوب.

وبعضهم يقولون: إن السماع هو خير وأن بهجته مشتملة على وصف محبوب وهذا لعب أطفال، وما فائدة الرواية إذا كان الإنسان وجهاً لوجه وأثمن هذه الأعمال حقاً هى مشاهدة الله تعالى.

وما بيناه لك هو أصول السماع على سبيل الإختصار.

---

(١) رواه أحمد والترمذى ومالك والطبرانى - كنوز الحقائق للمناوى على هامش الجامع الصغير جـ٢ ص ٩١، وصححه السيوطى - راجع الجامع الصغير جـ٢ ص ١٥٨.

فصل
فى الوجد والتواجد

الوجد والوجود مصدران: فالأول معناه الحزن والثانى معناه الوجدان، واسم فاعلهما واجد، ولا يمكن التفريق بينهما إلا بالمصدر فيقال وجد يجد وجوداً ووجداناً، ووجد يجد وجداً بمعنى أن يحزن، وأيضاً وجد يجد جدة بمعنى الغنى، ووجد يجد موجدة بمعنى الغضب، والفرق بينها كلها بالمصادر لا بالأفعال وهذان المصطلحان يستعملهما الصوفية للدلالة على حالتين تجليان لهم فى السماع.

فالحالة الأولى متصلة بالحزن.

والثانية بنيل المراد.

وحقيقة معنى الحزن هو فقد المحبوب والعجز عن نيل المطلوب، وحقيقة الوجود حصول المراد، والفرق بين الحزن والوجد هو أن الحزن ينطبق على الأسف النفسى.

وأما الوجد[1] فينطبق على الأسف لوجود الغير فى طريق المحبة، مع أن نسبة الغير لا تصح إلا لمريد الحق لأن الله سبحانه وتعالى لا يتغير عما كان قبل، وإنه ليستحيل أن نعبر عن حقيقة معنى الوجد لأن الوجد هو الألم فى المعاينة والألم لا يصفه القلم، فالوجد إذا سر بين الطالب والمطلوب ولا يظهر إلا بالإنكشاف، كما أنه لا يمكن أن نوضح حقيقة معنى الوجود لأن الوجود هو نشوة الطلب فى مشاهدة الله تعالى، والطرب لا يمكن نيله بالطلب فالوجود هو نعمة يكرم بها المحبوب الحبيب، نعمة لا يمكن أن تلحقها إشارة أو تبينها عبارة.

ورأيى أن الوجد هو ألم قلبى شديد ناتج إما عن حزن أو فرح، وإما عن فرح،أو وجد والوجود هو إزالة الحزن عن القلب والوقوف على الأمر الذى كان

---

(١) عرف الغزالى الوجد بأنه حالة بين السماع والرقص - الإحياء جـ٢ ص ٢٣٧.

سببها، لذلك فمن شعر بالوجد فإما أن يكون مضطرباً بالشوق المحرق فى حال الحجاب، أو مستكيناً بالمشاهدة فى حال الكشف إما زفير وإما نفير، إما حنين وإما أنين، إما عيش وإما طيش، إما كرب وإما طرب.

وللمشايخ آراء مختلفة فى الوجود أيهما أكمل فبعضهم يقول: إن الوجود هو صفة المريدين، والوجد صفة العارفين، والعرفون أرقى مرتبة من المريدين، وعلى ذلك يكون الوجد أرقى وأكمل من الوجود، لأنهم يقولون: إن كل شئ قابل للوجود يدرك والمدرك مجانس للمدرك فى احتمال التحديد، والله سبحانه وتعالى منزه عن التحديد وعلى ذلك فإن ما يجده الإنسان لا شئ اللهم إلا إذا كان (مشرباً) لكن الذى لم يجده وعجزز عن طلبه هو الحق وواجده هو الله.

وبعضهم يقول: إن الوجد هو نار الشوق للطالبين، أما الوجود فهو ما يكرم به العاشقون وحيث أن العاشقين، هم أرقى درجة من المريدين فالتمتع بالعطية مع السكينة يلزم أن يكون أكمل من نار الطلب.

ولا يمكن أن تحل هذه المسألة إلا بالحكاية الآتية: وهى أتى الشبلى مرة إلى الجنيد وهو فى حالة تواجد فلما رأى الجنيد حزيناً سأله عما يؤلمه فأجابه الجنيد من طلب وجد، فقال له الشبلى: إنما من وجد طلب. وقد شرح المشايخ هذه الحكاية بقولهم: أن الجنيد كان يشير إلى الوجد والشبلى إلى الوجود وإنى أقول أن رأى الجنيد هو الحجة لأن الإنسان متى علم أن مطلوبه الذى يعبده ليس مجانساً له لم يكن لحزنه نهاية، وقد شرحت هذا الموضوع فى كتابى هذا. وقد أجمع المشايخ أن قوة المعرفة أكبر من قوة الوجد.

لأنه لو كانت قوة الوجد أقوى لكان الإنسان المتأثر بها فى مقام خطير، بينما أن من رجحت فيه كفة المعرفة فهو آمن، وعلى ذلك فالواجب على الطالب فى جميع أحواله أن يكون متابعاً للمعرفة والشرع الشريف، لأنه إذا غلب عليه الوجد حرم الخطاب ولا يستحق الثواب على عمل صالح أو العقاب على شر ويكون بذلك مستثنى من الكرامة والمهانة على السواء وعلى ذلك فإنه يكون فى زمرة المجانين لا فى مقام الأولياء والمقربين، فمن تغلب علمه على

حاله بقى فى دائرة الحفظ الإلهى ممدوحاً على الدوام ومثاباً فى قصور البهجة ولكن من تغلب حاله على علمه فهو خارج عن الأوامر محروم من الخطاب، ويصير فى محل نفضه إما معذور وإما مغرور.

ومن كلام الجنيد يستفاد أنه يوجد طريقان طريق علم وطريق عمل فالعمل بغير علم جهل ونقص ولو كان صالحاً، والعلم عز وشرف ولو لم يصحبه العمل، ولذلك فقد قال أبو يزيد «كفر أهل الهمة أشرف من إسلام أهل الأمنية»، والكفر لا يتأتى لأهل الهمة، ولكن إذا جرى التقدير به فهم أكمل أيضاً عن أمن أهل المنية بالإيمان.

وقد قال الجنيد إن الشبلى «سكران ولو أفاق من سكره لجاء منه إمام ينتفع به»(١).

ومن الحكايات المشهورة أن الجنيد ومحمد بن مسروق وأبا العباس بن عطاء كانوا مرة مجتمعين، وكان القوال يغنى أبياتاً فبقى الجنيد ساكتاً أما صاحباه فتواجدا، فلما سألاه لماذا لم يشترك معهما فى السماع تلا الآية ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(٢).

والتواجد هو تكلف الوجد بملاحظة نعم الله تعالى وآياته بالقلب والفكر فى الاتصال والرغبة فى أعمال الصالحين، وبعضهم يتواجد على حسب الرسم ويقلدونهم بحركاتهم الظاهرة، مثل هذا التواجد حرام، والبعض يفعلونه بمعنى روحانى رغبة فى الوصول إلى حال ومقام كبار المتصوفة.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٣) وقال أيضاً: «إذا قرأتم القرآن فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»، وإن هذا الحديث يدل على جواز التواجد ومن ذلك ما قاله ذلك المرشد: «إنى لأمشى ألف ميل فى الباطل رغبة فى أن تكون خطوة منها على حق».

---

(١) اللمع الطوسى ص ٣٨٢. (٢) سورة النمل: آية ٨٨.

(٣) رواه أبو داود والطبرانى فى الأوسط وحسنه السيوطى الجامع الصغير جـ٢ ص ١٦٨.

فصل
فى الرقص

اعلم أنه لا أساس للرقص فى الدين ولا فى طريق الصوفية، لأن كل من له قلب سليم يعتقد أنه لهو إن كان جداً، أو لغو إن كان هزلاً، ولم نجد فى المشايخ من قال به، أو من زاد فيه عن حدوده المعلومة.

وكل الأحاديث التى ابتدعها أهل الحشو فى هذا الموضوع باطلة، ولكن حيث أن حركة التواجد وأعمال أهله تشبهه فقد انغمس فيه بعض المقلدين بدون ترو وجعلوه ديدنا. وقد اجتمعت ببعض عامة الناس، الذين تمسكوا بالصوفية لاعتقادهم أنها هى هذا الرقص لا غير والبعض ذموه مرة واحدة.

وبالاختصار فاللعب بالإقدام حرام فى الشرع والعقل من أجهل الناس، ومحال أن يقوم به أفضل الناس ولكن متى اضطرب القلب بالغليان وراء القهر، وثبت اضطراب الوجد وانمحت الرسوم، فهذا الاضطراب ليس برقص، ولا لعب بالأقدام، وليس بإنهماك جسمانى، بل هو فيضان النفس فمن سماه رقصا فقد ابتعد جداً عن طريق الصواب، وأكثر خطأ منه ذلك الذى يستطيع أن يقوم بها بكسبه ويسميها حالة الحق، وهى حالة لا يمكن أن تبينها العبارة «فمن لم يذق لم يدر».

النظر إلى الأحداث

النظر إلى الأحداث والاجتماع بهم محرم[1] وكل من أجاز ذلك فهو مشرك، والأحاديث الواردة فى هذا الخصوص أنه بطالة وجهالة، وقد رأيت بعض البله ممن اتهم الصوفية بهذا الذنب ينكرون عليهم ويمقتونهم مقتاً مراً، وقد لاحظت بعضهم ممن جعل ذلك الأمر مذهباً يداين به.

وقد نهى شيوخ الصوفية عن هذه الأعمال التى ألصقها بهم الحلوليون لعنة الله عليهم والله أعلم بالحقائق.

---

(١) الرسالة القشيرية جـ٢ ص ٧٤٤ / ٧٤٥.

باب
الخرق

من عادة الصوفية أن يمزقوا خرقهم وقد فعلوا ذلك فى كثير من مجتمعاتهم التى تواجد فيها أكابر مشايخهم، وقد اجتمعت ببعض العلماء الذين أنكروا هذا العمل وقالوا: إنه ليس من الخير أن تمزق الحلة الصحيحة قطعًا وإنما هو شر.

إنى أقول: إن الشر الذى يكون سببه خير يلزم أن يكون خيراً، ولأى إنسان أن يقطع حلته إلى قطع ثم يخيطها ثانياً، أعنى أن يقطع الأكمام وما يماثلها ثم يرجعها ثانية إلى حالتها الأولى، ولا فرق بين من يقطعها إلى خمس قطع أو يقطعها إلى مائة قطعة ما دامت كل قطعة تفرح قلب المؤمن عند خياطتها بمرقعته وتجلب له رضاء، مع أن تقطيع الخرق ليس عمل الصوفية، ولا يلزم أن يصدر عن أى إنسان فى مجالس السماع مالكاً لحواسه كامل التوازن لأنه فى تلك الحالة يكون رياء، أما إذا كان السامع مقهوراً حتى فقد قوة التمييز ولا يعى لنفسه، فإنه يسامح إذا قطع خرقه، ومن الجائز للحاضرين أن يشاركوه فى ذلك، وللصوفية ثلاثة أحوال يمزقون فيها خرقهم[1].

أحدها: إذا مزق درويشاً خرقة فى حالة الوجد الصادر عن السماع.

ثانيهما: إذا قطع إخوانه حلته له بأمر المرشد وذلك عند طلب المغفرة له من الله عن ذنب.

وثالثها: إذا فعلوا ذلك فى حال السكر والوجد، وأصعب حالة هى خلع الخرق أو تقطيعها فى السماع، فإما أن تكون مقطعة أو صحيحة، فإذا كانت مقطعة فإما أن تخلط وتعطى لصاحبها أو تعطى لدرويش، أو تقطع إلى قطع

---

(١) عاب ابن الجوزى تقطيع وخرق الثياب باعتباره إضاعة للمال - تلبيس إبليس صـ ٢٦٠ - وقد أجاز الغزالى ذلك - الاحياء جـ٢ ص ٢٦٧.

رغبة فى نيل البركة وتقسم على الحاضرين. فإذا كانت صحيحة يلزمنا أن نرجع إلى نية الدرويش الذى خلعها، فإذا قصد بها القوال فليأخذها القوال وإذا قصد بها الحاضرون فليقسموها بينهم، وإذا رماها بغير نية فعلى المرشد أن يتروى فى الحالة الموافقة، فإما أن يقسمها على الحاضرين أو يمنحها لأحدهم أو يعطيها القوال.

فإذا كان الدرويش قصد بها القوال فلا حاجة لإخوانه أن يخلعوا ملابسهم مشاركة له لأن هذه الخامة لا ترجع إلى إخوانه، ولأنه ربما أعطاها باختياره أو بدون مشاركتهم، لكن إذا كان الحلة خلعت بنية أن تقطع على الحاضرين أو بدون نية لزمهم أن يخلعوا خرقهم مشاركة له، فإذا فعلوا ذلك فلا يلزم المرشد أن يعطى هذه الجبة للقوال.

ومن الجائز أن كل محب بينهم لله يريد أن يتقرب بشئ يكون ملكه، وبذلك يرجع الجبة للدرويش حتى تقطع إلى قطع وتقسم فإذا سقطت الجبة وكان صاحبها فى حال غلبة فللشيوخ آراء مختلفة فيما يجب عمله فيها، ولكن الإجماع يقول بأن تعطى للقوال عملاً بقول رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[1]. فإذا لم تعط للقوال فذلك مخالف لسنة الصوفية والآخرون مقتنعون بالرأى الآتى وإنا أوافقهم عليه وهو أنه كما أن العلماء يقولون: إن ثياب المقتول لا تعطى للقاتل إلا بأمر المرشد الإمام فكذلك هنا لا تعطى الجبة إلا بأمر المرشد ولكن إذا لم يرد صاحبها أن المرشد يهديها لغيره فالواجب أن لا يغضب عليه أحد.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وابن ماجة وأبو داود والترمذى وصححه السيوطى فى الصغير جـ٢ ص ١٧٧.

فصل
فى آداب السماع

من شروط السماع ألا يطلبه الإنسان إلا إذا جاء من نفسه وألا يكون عادة وأن يستعمل قليلاً حتى لا يمل منه الإنسان، ومن اللازم أن يكون بحضور أحد المرشدين، وأن يكون المكان خالياً من العامة، وأن يكون القوال رجلاً محترماً، وإن يفرغ القلب من الاشتغال بالدنيا، وأن يكون الحضور غير مائلين إلى الترف وأن يطرح جانباً كل تكلف، وأن لا تزيد فى حركاتك حتى تقهرك قوة السمع ،فإذا تسلطت عليك لا يلزمك مقاومتها بل ويلزمك متابعتها.

فإذا اشتدت قوة السماع يلزمك أن تضطرب وإذا سكنت يلزمك أن تسكن ويلزمك أن تميز بين ثوران الأمزجة البشرية وعبير الوجد ويجب على السامع أن يكون عنده قوة إدراك يقبل بها وارد الحق فيقدره حق قدره فإذا سطعت قوته على القلب لا يلزم مقاومته فإذا انقطع الوارد يلزم أن لا يجتهد فى إرجاعه فإذا انقطع فى الحال وجده يجب عليه ألا ينتظر مساعدة من الغير أو يرفضها ولا يلزم أن يشغل أخاه المشتغل بالسماع وإحباط لقوة إدراكه، ولا يلزمه أن يقول للقوال إذا أحسن لقد أحسنت وإذا أساء فى غنائه بأن، تلاه غير مراع للغة ولا ضوابط الشعر ،فلا يلزمه أن يقول له حسن صوتك فيحرج صدره منه.

بل يلزم أن يكون غير شاعر بوجود المغنى ويكله إلى الله الذى يصحح قوله، فإذا لم يكن له حظ فى السماع الذى يتمتع به الآخرون فليس من الصواب أن ينظر صاحياً إلى سكرهم، لكن يلزم أن يسكن ملاحظاً وقته حتى يناله قسط من تلك البركة.

أقول أنا على بن عثمان الجلابى أنه من الأوفق أن لا يحضر مجالس السماع المبتدئون لئلا تقوى بشريتهم، وهذه المجالس كثيرة الخطر والمشاغل لأن النساء ينظرن من السقف إلى الدراويش المشتغلين بالسماع، ولذلك فالسامعون أمامهم مخاطر كبيرة، أو يكون بينهم شاب خبيث لأن بعض الجهلاء قد جعلوا التظاهر بالصوفية همهم. وجعلوا الحقيقة هباء منثوراً.

وإنى أسأل الله أن يغفر لى ما اقترفت من هذه الذنوب فى الماضى وأسأله أن يحفظنى ظاهراً وباطناً من الزلل وأطلب من قارئ هذا الكتاب أن يضع ما قرأ موضع اهتمامه.

وبالله التوفيق والجمع والتفريق وحسبنا الله ونعم الرفيق.

وصلى الله على محمد وآله أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.




الفهرس



الفهرس

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة
الباب التاسع عشر	

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة